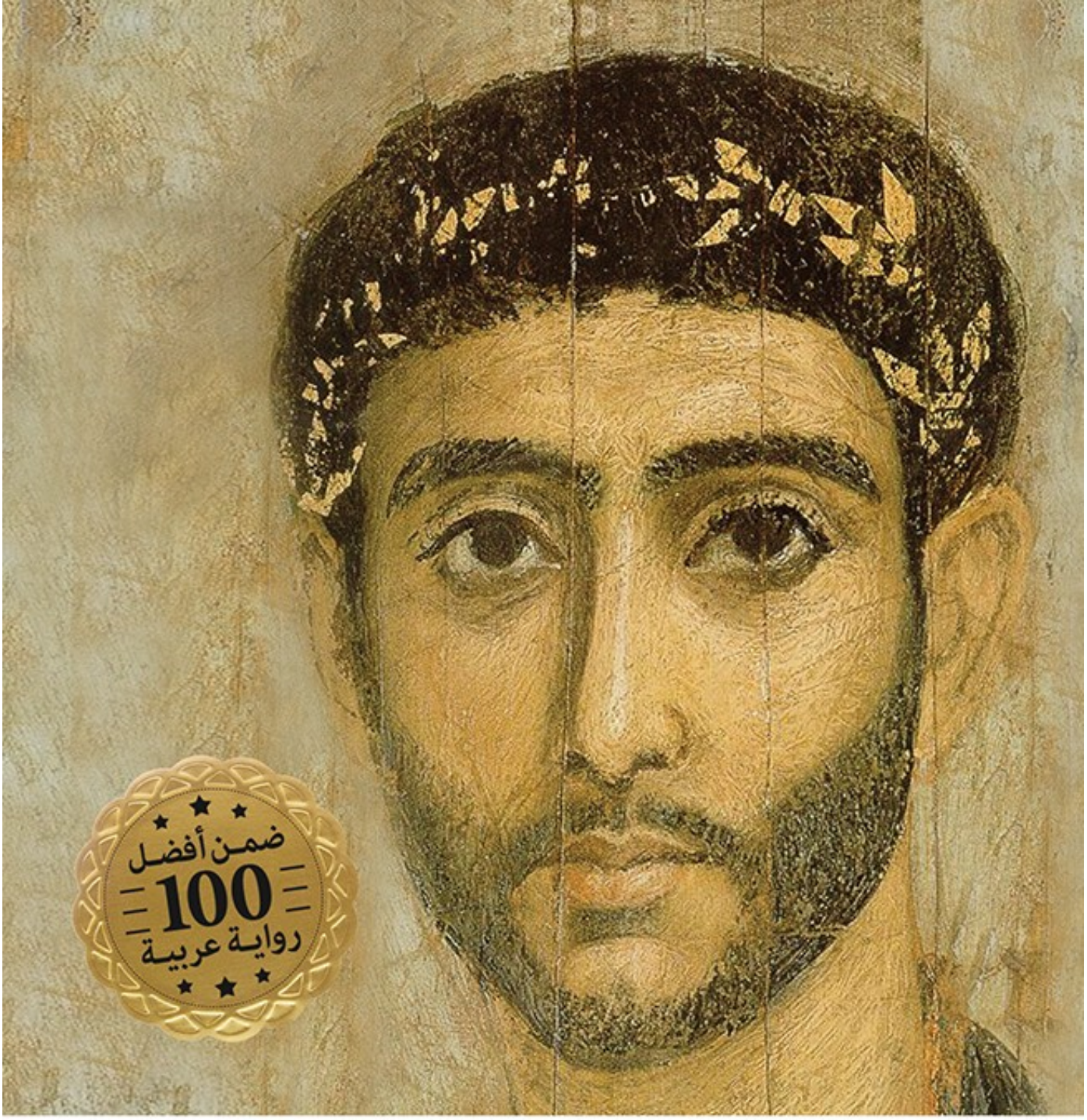

إبداعات عربية

سلوى بكر

البشموري

دار دوّن

البشمـــوري

سلـوى بكــر: البشمـــوري، رواية (روايات)

طبعة دار دَوِّنْ الأولى: يناير ٢٠١٩

رقم الإيداع: ٢٦١٢٥/٢٠١٨ - الترقيم الدولي: 0 - 139 - 806 - 977 - 978

جَميـعُ حُـقــوقِ الطَبْـعِ والنَّشرِ محـْــفُوظةٌ للناشِرْ

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

© دار دَوِّنْ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

البشموري

رواية (روايات)

سلوى بكر

دوِّن
للنشر والتوزيع

(1)

كنت لا أزال قائمًا بعجن القربان، أعمل على ربّه ربًّا جيدًا؛ لأتركه بعد ذلك ليخمر وقد غسلت ما جوره بالماء الطاهر، وكذا الغطاء والمنخل، وكان القسيس يقف على رأسي يقرأ عليه المزامير الداودية ويصلّب. فلما بلغ مزمور حمد وراح يتلو: «اهتفي للرب يا كل الأرض. اعبدوا الرب بفرح. ادخلوا إلى حضرته بترنّم»، وكنت أحترز أثناء ذلك في العجن والرّب؛ لأطمئن إلى أنه جيد في قوام الاعتدال، إذ بثاونا الشمّاس يأتي إلينا مسرعًا، ويقف إلى جوارنا بهدوء صامتًا متأدبًا، فلما انتهى القسيس من قرايته، غطيت العجين بغطائه، الذي سبق أن طهرته مع الفرش ومنخل الدقيق، وختوم القربان، اقترب ثاونا مني، وأنا أهمّ بالاتجاه إلى بيت النار الذي كنت قد حمّيته تمهيدًا للخبز بفحم الكرمة اليابس وفقًا للأصول الكهنوتية، وقال هامسًا في أذني:

- بدير. خلّص عملك بسرعة، واذهب إلى الأب يوساب في التّو والحال.

كان ذلك خلال واحد من أيام شهر بؤونة، الذي ما زال كثيرون من العلمانيين ينطقونه «بؤوني»، كما كان في اللسان الوثني القديم، وكانت السنة هي السادسة، وربما السابعة للشهداء.

رحت أخلّص العجين العالق بيدي وساعدي بسرعة وأغسلهما ببعض الماء من زير الغسل، حتى بان جلدي وظهر عليه وشم الأسد بلونه المزرورق على الجانب الإنسي من ساعد يُمناي، فاطمأنيت وأسدلت عليه كمّ ردائي الكهنوتي الذي كنت قد شمرته وقت العجن، وعدوت خارجًا أقطع فناء البيعة إلى الجانب الآخر منه في اتجاه قلّاية الأب يوساب، فما إن فعلت وصعدت الدرجات البازلتية الثلاث، التي وضعت مؤخرًا بدلًا من الدرجات الجيرية القديمة - وقد جاد بها على البيعة عبد كنسي صالح من هيرموبوليس بعد أن انتزعها من واحدة من برابي المدينة القديمة، وجاء بها على حماريه من هناك؛ وفاءً لنذر قطعه على نفسه - حتى دلفت إلى الدهليز الشرقي واصلًا في النهاية إلى مقر نيافته، فوجدته مجتمعًا مع الكاهن والأرشيد ياقن، وكلّ الشمامسة، وبينهم ثاونا الشماس الذي ناداني، فتهيبت وطأطأت رأسي إجلالًا لهذه الحضرة الكنسية جميعها بعد أن ضربت مطانيا(1) في الأول، ثم إني وقفت عند الباب في مطرحي، ساكتًا، فنظر إليّ الأب يوساب متأملًا إياي قليلًا، وبدا لي وكأنه متردد في أمر من الأمور يتعلق بي، لكنه ما لبث أن رفع يده بالصليب وصلّب، ثم قال لي بلسان قبطي بشموريّ بيّن:

- أيها العبد الطيب بدير، لقد اختارك الرب لمهمة كنسية مقدسة، عليك أن تُتمها بصدق وإخلاص على الوجه المطلوب منك دون زيادة ولا نقصان.

تمتمت بصوت خافت خاشع، رادًّا عليه باللسان الذي حدثني به، دون أن أرفع رأسي، وقلت:

- مشيئة الرب لا راد لها أيها الأب المغبوط.

ران صمت، ربما سمح بسماع أنفاس العصافير، قبل أن يضيف:

- ستذهب في تبعية الشماس ثاونا إلى الأراضي الموحلة، وتكون لسانه البشموري، وعليك أن تترجم له كل ما يمكن من كلام، فأنت تعلم أنه لا ينطق إلا قبطية أخميم مثل أكثر من هم هنا في بيعتنا، ثم عليك أن تكون عونًا له في كل خطوة يخطوها خلال مسيرتكما إلى هناك، ومنه لك الأخوّة والاحترام، وله منك الطاعة في كل كلمة يأمرك بها، والملازمة مهما كان الأمر، ثم لا تنسَ أن أخوة المعمودية لا تنفصم إلى يوم الدينونة، والرب المحاسِب وهو المحافظ أولًا وأخيرًا.

هززت رأسي دون أن أنطق هذه المرة؛ إذ اعتراني اضطراب بمجرد سماعي «الأراضي الموحلة»، وراح قلبي يضرب ضربات طير طاير في سابع سما، وسرعان ما تداعت صور الماضي في مخيلتي وتجسّدت في عيني، عن مسقط رأسي ومواقع طفولتي وصِباي؛ لتجيش بنفسي فصول مأساتي القديمة، وبلوتي الأولى. انتابني غمّ عظيم، وكدت أهتف صارخًا: لا.. بربك يا سيدي يا من سيتنيّح بالعظمة في ملكوت الرب. اعفني من هذه المهمة التي ستعذّب قلبي، ولن تقوى روحي عليها لكني خشيت أن أُرمى بالعصيان، وأُتّهم بعدم الطاعة؛ فبقيت مكاني واجمًا جامدًا كأني واحد من آل لوط الآثمين، وقد حلّت عليه اللعنة فتحوّل إلى عمود ملح مثلهم، ويبدو أن الأب يوساب لاحظ سكوتي وبهاتي، وكنت وقفت أمامه مرارًا في بداية خدمتي بالبيعة للاعتراف بآثامي وخطاياي، أنا الذي عشت سنين في العلمانية، مسكينًا ضالًّا عن ملكوت الرب، إذ قال لي مطمئنًا إياي:

- الكنيسة كانسة الخطايا والآثام ومنظفتها، وهي كانسة بيت النفس، وبيت النفس هو الجسد، وباب البين هو الفم، وتنظيفه لا يكون إلا بتلاوة المزامير الداودية الفايضة من أقنوم الروح القدس، له المجد، على لسان داود المغبوط، وقد طهر لسانه من الثلب والنميمة والوقيعة في إخوته، وأما حاسة السماع، فإنها تطهر بسماع الإنجيل المقدس المحتوي على التعاليم المسيحية والموعظات الزجرية، وأما حاسّة النظر فتتنقى بالنظر إلى قدس الأقداس، والقون المصوّرة على مثال القديسين، والغيرة على سيرتهم والتشبّه بجهادهم، وأما حاسّة الشم فتتقدس باستنشاق البخورات المرفوعة باسم الثالوث السماوي، وأما حاسة اللمس فتتقدس بتقبيل كتب الرب على الجباه، وتقبيل الصليب المجيد أيضًا. فليكنس كل إنسان خطاياه بصَلاته، وليتطهر إثم الآثمين بملكوت الرب الرحيم.

ثم إنه كَرّر عليّ طاعة الشماس ثاونا، والمواظبة كذلك على صلواتي، والتكثير من قراءة المزامير والأدعية، وسألني ألا ألحف في السؤال عما لا يخصني، وإن سألت فلتكن سؤالاتي فيما يقوّي إيماني ويفيد المسيح، كما أمرني ألا أغضب الشماس أو أرهقه، بل أكون في خدمته ورعايته طوال الطريق إلى البشموريين في الأراضي الموحلة، على أن يكون خروجنا من البيعة عند مطلع نور صباح الغد.

كانت لا تزال أمامي أعمال كثيرة يتوجب عليّ إنجازها خلال نهار ذلك اليوم باعتباري قيّم البيعة، وقبل رحيلي في صباح اليوم التالي. فبعد مغادرتي مقام أبينا الجليل، قمت بغسل بلاط البيعة، والذي هو من أفخر البلاط الرومي المجلوب من قيسارية بفضل رجل تقي، كان قد عاش زمنًا في الطمث الخلقدوني، لا يعرف طريق الحق، لكن الله رده إلى حظيرته على يد أبينا يوساب، وكان غنيًّا

مقتدرًا، فأهدى بيعتنا هذا البلاط المجلوب، كما قمت بمسح كل قناديل البيعة بخرقة الكتان التي أخصصها لذلك، وأزلت عنها ما علق بها من غبار وسناج، على أن أزندها عندما يحل الليل بزنادي من قنديل الشرق في الهيكل؛ لأنه لا يجوز أن يطفأ لا في ليل ولا في نهار حتى لا تدخل البيعة أو الهيكل نار غريبة؛ لأن الذبائح الأولى كانت تنزل نارًا من السماء وتحرقها، وما تُرى نار غريبة تدخل معها.

وما إن انتهيت من القناديل، حتى درت لأتأكد من آلات الخدمة الأربع عشرة في الهيكل، فتأكدت من ترتيبها في مواضعها. ونظّفت ما كان في حاجة إلى التنظيف منها، ثم إني نظرتها جميعًا، وعدلت ما لم ينعدل منها، وهي اللوح الموضوع، وهو موضوع مثال القبر، وكذا الصينية مثال المِذود في الطفولية، والتابوت الخشب الذي فيه الكتب، والخِرق المكرزة اثنتين؛ واحدة تحت الصينية والأخرى تحت الكأس التي هي قسط المَنّ المُطل على الحامل له، وهو نظير اللفايف في الموت والدفن، ونظير الخرق التي كان جسد سيدنا - له المجد - ملفوفًا في المِذود، وكذلك الكأس المكرزة مثال قسط المَن، والملعقة المكرزة برسم التوزيع للناس الرجال والنساء؛ لأنهم لا يتناولون من الكأس نظير الكهنة، والإبرسفارين مكرز هو نظير الحجر الذي دحرج عن القبر فوق الجسد المدفون، كما أني نظرت إلى السبعة التي بغير تكريز، منها المنارة والكوز والطاسة والمجمرة ودرج البخور والحامل الذي يوضع عليه الكأس والصليب، وكل ذلك موضوع في قبة قدس، التي هي قبة القدس الجديدة.

وبعد أن انتهيت من ذلك صلّيت ثلاثًا، وخرجت منسحبًا في هدوء وجلال، ماضيًا إلى بقية أشغالي المقررة؛ باعتباري العبد المسكين القيّم بالبيعة، وظللت أعمل طوال اليوم بجد واجتهاد، حتى حل المساء، وجاء وقت القداس، وكنت قد أنجزت أعمالي ببركة الله كلها، وتأكدت من سلامة القربان؛ وهو بخور الصعيدة المخلوط كما يجب باللبان، الذي كان قد قدمه المجوس إلى المخلص في الهدية، والثاني السندروس؛ لأنه لم يُحمَل لآلهة الأوثان الشيطانية قط، والثالث العود لأن فيه طردًا لأرواح الشياطين، والرابع الجاوي؛ لأنه زكي الرائحة، وما يقدم لله إلا كل شيء جليل مرتفع، وقد حددتُ من بخور الميعة فإنها جالبة للشياطين أو غيرها من البخاخير. وكان خمر القربان الذي أعددته من أجود أنواع الخمر الزكي، قد صنعته بنفسي في البيعة، وهو سالم من الفساد، وهو خمر أبركا الذي عصرته من أوايل ثمرات الكروم، وهذا معنى أبركا باللفظ اليوناني كما علمني ذات مرة - غزير المعرفة - ثاونا الشمّاس، وخمر العنب مكرّس لرفع القرابين، وأما غيره من خمور التمر والفاكهة؛ فللكهنة يتناولونه. كما أني وضعت الخبز الذي خبزته من أفخر الدقيق وأنقاه في فرن الكنيسة عند موضعه المقدس، وقد حرصت على ألا يكون مشقوقًا لأن الشق عيب، وقد طحنت الدقيق من بُرِّ أوائل الثمار، كما هو متبع في قانون البيعة دائمًا، فما إن بدأ قدّاس صلاة آجب(2) التاسعة(3)؛ إذا كان الوقت هو الرابعة وثلاثة دروج زوالية، حتى أسرعت بالوقوف في مقامي المسموح به، وكان الكهنة جميعهم قد وقفوا خورسين؛ أي صفين نحو الشرق أمام الهيكل المقدس في صمت وجلال؛ بحيث لا ينشغل أحد مع مَن هو إلى جانبه - بالحديث البطال - عن الصلاة، ولا يتكلم أحد في أمور الاحتياج إلى ضرورات البيعة إلا رمزًا بالإشارة في جميع الرتب، إما غمزًا بالأعين وإما إشارة باليد تعمل ما يليق بذلك المكان الطاهر الجليل.

وكان جميع مَن في ذلك الإكليروس قد وقفوا بملابسهم الكنسية المتفق عليها، وقد وضعوا الأفودات الصوف حول رءوسهم وارتدوا جميعًا التونية؛ وهو ثوب الكتان الطويل الواصل حتى القدمين، والمُزين بالصليب المقدس على الظهر والصدر والحواف، وكذا أطراف الأكمام، وكانت تونية الأب يوساب هي الوحيدة المطرزة صلبانها بالجواهر الكريمة من ياقوت وزمرد وماس وعقيق، بينما تونيات الإكليروس جميعًا قد طرزت من خيط حرير كما هو متبع دائمًا. أما المنديل؛ فكان في يد الكاهن اليسرى؛ لأنه غير مسموح للشمامسة، أو مَن هم أدنى منه بحمله أبدًا، وكذا كان الكاهن يضع الغفارة؛ وهي ما أصبح من الشائع الآن أن يقال عنها الجبة أو العباءة، بعدما ساد وانتشر لسان العرب وبات متداولًا دون غرابة في البلاد.

ولم تكن كنيستنا تضع البيلوجيون مثلما يُفعل في بعض الكنائس الأخرى، من لف الرأس بالشريط الطويل من الكتان الأبيض، ولكنا كنا قد نتمنطق بالنطاقات الحريرية فقط عند أوساطنا. أما ذلك البيلوجيون فكنا نضعه على أكتافنا فقط، وكان البطرشيل يتدلى على صدور الكهنة والشمامسة وكذا على صدر الأب يوساب، وقد بدا غاية في الجمال والعظمة، وقد توشّى من بدايته عن موضع إدخال العنق فيه وحتى نهايته بصلبان كثيرة، وكذا بصور التلاميذ الاثني عشر على صفين، ست صور بكل صف، وقد نقش بالخيط الحريري أيضًا النص الخاص بالتكريس على هذين الصفين.

ومن المعتاد أن يكون عرض البطرشيل حوالي ثماني عشرة عقلة سبّابة، وهو من الحرير الأزرق البديع، أما أنا فكنت أرتدي الصدرة وكذا زميلي الآخر القيم في البيعة، وهي ما يُرتدى على هيئة البطرشيل ويدخل من الرأس أيضًا، لكنه لم يكن مزخرفًا مزينًا بالصلبان والهيئات المقدسة للتلاميذ مثلما هي حال البطرشيل. أما الـ«ني كاماسيون» اللذان هما الكمّان، فلم يكن الأب يوساب يرتديهما في ذلك الوقت، الذي لم يكن وقت خدمة المذبح، وإن كنت أحب رؤية الأب وهو يرتديهما جدًّا، وهما يغطيان ساعدَيْه بكامليهما؛ إذ يتسعان من عند الكوع ويضيقان مع الاتجاه نحو اليد، وهما من القطيفة القرمزية المطرزة بالنجوم والصلبان المشغولة بخيوط الفضة السميكة، وكذا بصورة السيدة العذراء والطفل المسيح، أما حوافهما فهي موشّاة بالعبارات المقدسة، وقد طرزت بالخيط نفسه، ومنها عبارة «من له تعب من ملكوت السماوات».. إلى آخرها. ويقال إن رجلًا قبطيًّا صالحًا من شطا، كان قد صنع هذين الكمين منذ زمن الأسقف أكليمنص السكندري، ووشّاهما على هذا النحو المُتقن وقدمهما هدية إلى البيعة، وهما ما زالا مستخدمَيْن حتى وقتنا هذا وبحالة جيدة وكأنهما صُنعا اليوم فقط؛ وذلك بسبب شدة المحافظة والحرص عليهما من جميع الآباء الأتقياء الذين تلوا ذلك الزمان.

بدأ الأب يوساب يصلّي وفقًا لما اعتدنا عليه من صلوات متّبعة في كتاب الأجبية(4) ونحن معه منصرفون بقلوبنا وأرواحنا كلها للصلاة لا يشغلنا عنها شاغل؛ فلقد حدث ذات مرة أن شمَّاسا شوَّش بالحديث إلى مَن في جانبه أثناء وقوف الخورس، وكان اسمه إيليا، فعاقبه الأب يوساب بأن حطَّه من درجته ثلاثة أسابيع، وعُوقب بسبب ذلك؛ لأنه لم يكن مثابرًا على الصلاة ووقع في الطياشة والحديث الفارغ، أما الضعفاء العجائز من الإكليروس والذين لا يقوون على الوقوف في الخورس، فقد جلسوا كما هو متّبع دائمًا غربيَّ البيعة.

كنا قد غسلنا أقدامنا جميعًا قبل الصلاة في إناء النحاس الموضوع به ماء التطهير والقائم على مطهرة الخميس الكبير، وقد شهدت بذلك التوراة؛ إذ إنه كان في القبّة الخارجة والقبّة الداخلة سطل من نحاس لتطهير أقدام الكهنة قبل دخولهم قدس الأقداس في قبّة الزمان.

ثم إن الأغنسطس قرأ من العتيقة من المزامير، وطرحًا من المزمور، وأخذ الأب يوساب يرتل ترتيلًا جميلًا ونحن نرتل خلفه الثاذوكيات الجليلة وننشد تسابيح العذراء المقدسة، وموضوعات كتاب الرب، على ألحان شجية تحنن القلوب وتفتح النفس للإيمان، وكان للأب يوساب صوت نقي عامر بالخشوع وكأنه صوت كروان يسري في سماء صافية، فكانت القلوب تتشرح له، فأخذت أستمع إليه وقد وقفت أقدّس مع المقدسين، علمًا بأن شغلي في الكنيسة ليس الصلاة؛ لأن الصلاة صلاة، والشغل شغل، وربما عاد عليّ من شغل البيعة قوت جسماني، ولا يقوم شغل البيعة مقام الصلاة؛ لأن الصلاة ما يقوم مقامها في غيرها إلا هي.

بعد الفراغ من الصلاة وتفرّق الجميع، رُحت أدور والقنديل في يدي على أبواب البيعة لأطمئن إلى حفظها؛ حتى لا يعبر منها ممنوع أو مخالف أو ديب خاطف من غير يقظان، أو حيوان مثل كلب نجس أو حمار سائب، وبقيت منصرفًا إلى أشغالي وقد بدأ الغروب في الدخول، فسارعت بتنظيف أرضية الفناء وغسلها، وكذلك فعلت بأرضيات الممرات والدهاليز، فلما انتهيت اغتسلت جيدًا وتطهرت بماء طاهر سبع مرات وأنا أستعيذ بالرب من الشيطان، ثم ذهبت إلى ثاونا الشماس، وكان قد أومأ لي برأسه قليلا أثناء الصلاة، مثلما يفعل عادة، عندما يريدني في أمر من الأمور، نقرت على بابه نقرا خفيفًا مستأذنًا، بعد أن عبرت الدهليز كله على أطراف أصابعي لئلا يسمعني أحد؛ إذ كانت قلايتي بعيدة عن مكان قلايته في نهاية الطرف الآخر من الدهليز، فلما جاوبني دفعت الباب الخشبي وحرصت على ألَّا يصرّ حتى لا ألفت الانتباه، ودلفت منه لأجلس قبالته على فراشه الأرضي الممدود.

كان ثاونا من أقرب الناس إليّ في البيعة منذ حلولي بها قبل ست سنوات، وهو الآتي إلى ملكوت الرب بعد أن تطهر من خطية لا أعرفها، وإن شاع عنه - وهو المولود جسمانيًّا في أنطونيوبوليس، أنه كان في الأصل هرطقيًّا، يقول بالعرفان عن طريق اتحاد العارف بالمعرّف؛ لكنه دخل حظيرة الرب بعدما تطهر وتاب، وظهرت له الحقيقة على يد راهب تقي يُدعى الأنبا مويسيس، وكان قد الْتاث بعض الوقت لسبب أجهله، فقرأ عليه الأنبا ومسحه بالزيت الفلسطيني فبرئ لساعته، ونذر نفسه لدير الراهب، وهو دير الأنبا باخوم المعروف، فعاش هناك زمنًا، ثم إن الأب يوساب طلبه إلى بيعتنا هذه في قصر الشمع بمصر العتيقة، حتى يصور السيدة العذراء والقديسين في قون، يتّعظ بها الشعب عند مطالعتها مرسومة على جدران البيعة، وكان الشماس ثاونا قد اشتهر وذاع صِيته في رسوم القون وإجادته تصوير القديسين والشهداء الأوائل، ويقال إنه كان قبل أن يلْتاث ويلتحق بالدير، يتعيش من عمل صور الناس على التوابيت، والتي يدخرونها لوقت موتهم، كما هو الشائع، وكانوا يجعلون له مقابل مهارته في عمل ذلك جُعلا من الخبز والجبن والخمر والغلة يجعله يعيش عيشة ميسوري الناس في بلدته الصعيدية التي قدم منها إلى البيعة.

كنت أحبّ ثاونا لأنه كثير العطف عليّ، ولأنه كان سمح الوجه وإن كنت لم أره ضاحكًا قط، لأن الضحك لا يتناسب مع النسك والورع داخل البيعة. وكان ثاونا عِشريًّا بطبعه، بسيطًا في تعامله، سواء معي أو مع مَن هو أدنى منه في الرتبة، إضافة إلى أنه واسع العلم، كثير المعرفة، يتحدث قبطية أخميمية وعربية جيدة، إضافة إلى قبطية بحيرية كالتي يتحدثها أقباط الإسكندرية ومريوط، لكنه لم يكن عارفًا باللسان البشموري على رغم علمه باللسان اليوناني، الذي قال لي - ذات مرة - إنه تعلّمه في المكتب، وعلى الرغم من أن فضله وأعماله الطيبة كانت ظاهرة للجميع، وخصوصًا في الطبابة وعمل العقاقير، فإن البعض هنا في هذا المكان المقدس ظل يحاول تلطيخه ورميه بالأقاويل؛ فقد وصموه بالسحر تارة، وبالعلمانية تارة أخرى، وراحوا يتداولون ذلك سرًّا دون أن يمسكوا عليه ممسكًا يثبت أقوالهم.

والحق أقول إن ثاونا كان خيِّرًا لا يصدر عن فمه ما هو قبيح، بل إنه علمني الكثير، وانعقدت مودتنا منذ أن كان يشتغل بصنع صورة القديس قلته الطبيب الحكيم، وهو يمسك بيده اليمنى قضيبًا يشير به إلى صندوق طبابته وقد فُتح غطاؤه وانكشف ليبين منه ستة أقسام لوضع الدهونات والعقاقير، وكنت أنا أساعده أثناء ذلك، وقد فردت معه القماش على الخشب منعًا للتشقق، ثم نثرت فوقه بطانة الجص التي جعلتها لطيفة رقيقة مثلما طلب مني، وبعد أن جفت وتماسكت قام ثاونا بتغطية الجص بالتبر، الذي أعده من مزج صمغ العرب المجلوب من بلاد اليمن بقليل من الماء، وصفار بيض البط السوداني وبعض الحنوط لزوم البركة، وقد أدركت خلال ذلك طريقة ثاونا العجيبة في الرسم، والتي قال لي إنها من الطرق القديمة المتوارثة لدى الرسامين الأقباط، وآيتها أن توضع ألوان أتربة المعادن المعروفة كالحديد والنحاس والزنك في مواضعها المختارة بالصور، وفقًا لضرورتها فوق طبقة التبر المعمولة والمغطية للبقعة كلها؛ وذلك بعد أن تدق هذه الألوان وتصحن في أجران جرانيتية كُرست لهذا الغرض، ثم إن كل لون منها يُمزج بالماء البحري الطهور بالسماكة المرغوبة حسب الذائقة، وتكون الصورة قد أُعدّ هيكلها قبل ذلك وتحددت بعد نحتها بمسمار حديد مما يصنعه الغجر الجوّالون بالبلاد، هكذا بقي الصليب ذهبي اللون على الجانب الأيمن من الصورة، وبقيت عصا الرعاية الذهبية الطويلة على جانبها الأيسر كذلك.

وأنا أقول إن ثاونا جيد الإيمان غزير المعرفة، لا يصدر عن فمه إلا القول الطاهر؛ لأني كنت قد سألته أثناء صناعته هذه الصور سؤالات عدّة كانت تشغلني، خصوصًا عندما رأيته يرسم القديس قلته بصحة وافرة، ووجه جميل صبوح، وملابس متناسقة زاهية، فقلت له مُعبرًا عن أمر كنت كتمته في صدري زمنًا:

- أريد أن أسألك أيها العزيز ثاونا عن أمر شغلني دومًا؛ إذ كنت قد شاهدت ذات مرة - في كنيسة تعود إلى الملكانيين الهراطقة ببلد قريب من قريتي ترنيط - صورًا من صور الجحيم وقد امتلأت بالشياطين المخيفة وأساليب العذاب، وكذا كان السيد مصورًا وهو على نحو غاية في الضعف والهزال، وقد صُلب على صليبه، والدم ينزف من جسده وعلى رأسه تاج الحسك الشنيع، أما وجهه فكان يفيض ألمًا وحزنًا إلى حد أنني جثوت تحت الصورة ورحت أبكي تألمًا وحزنًا، فما بالنا - نحن الأقباط - لا نرسم السيدة البتول والسيد له المجد، إلا على أجمل صورة وأكثرها شرحًا للصدر؟

ولعلني لم أرَ أبدًا صورة من صور الجحيم أو الشياطين وقد رسمت على جدار من جدران كنائسنا، قل لي أيها العزيز بربك؛ أهذا أمر يخص العقيدة ويدخل ضمن ما يفرق كنيستنا القبطية اليعقوبية عن كنيسة أولئك الملكانيين؟

رد ثاونا بهدوء، ودون أن يستدير أو يرفع عينه عن موضع الدهان الذي كان يدهن به ثوب القديس بالأزرق:

- لا يا بدير، هذا أمر لا يدخل في فروق العقيدة من ناحية الفروع مثلما هي الحال في القربان مثلًا، ولم يجتمع له مجمع للنظر فيه؛ فلعلك تعلم أنهم يقورون القربان حال القداس عليه، والسيد المسيح وقت إعطائه جسده الطاهر لتلاميذه ليلة صلبه وآلامه لم يقور الرغيف، لكن الإنجيل المقدس يقول إنه أخذ خبزًا وبارك وكسر الرغيف وناول تلاميذه، ولم يقل إنه أخذ جزءًا من رغيف وبارك عليه وناوله وكان مقورًا بالسكين كما يفعلون هم، ونحن ما لنا غير المماثلة به، كل ما صنع نصنع مثله، لكن ما تكون عليه الصور من حال الترهيب أو الترغيب، فهذا ما يتعلق بخصال الناس وخلاف ذائقتهم من مكان إلى مكان؛ وفقًا لما ربوا ونشئوا عليه من لين المعشر، ورِقة الطباع، فصور القديسين والقديسات إنما جعلت على سبيل التذكرة والموعظة والاقتداء، أما صورة السيد المسيح - له المجد في الأعالي – وأمه البتول، فقد جُعلت كي يحفظه الناس ويحفظوها، وصار الآباء البطاركة يرشمون كل صورة بالميرون المقدس في عدة أعضاء من الصورة؛ لكي تقبل من الناس عند طلبهم الاستشفاع بتلك الصورة، والقصد في ذلك أن المحسوس لا يألف إلا المحسوس مثله.

ونحن نصوّر القديسين، وكذا السيدة البتول، كيفما نرى على أجمل وأفضل ما يكون لتحنين القلوب وتعميرها بالإيمان، وكذا نفعل لتبدو قوة إيمانهم لدى الشعب؛ فليتجلد ويصبر على ما هو فيه إذا ما ضعف إيمانه أو اهتزت عقيدته تحت وطأة الزمن. واعلم يا بدير أن الخلقدونيين الملكانيين يصورون الشياطين وزبانية الجحيم حتى يخيفوا الناس ويرعبوهم بالآخرة، ليتسلط مَن يريد التسلط عليهم باسم الرب، أما نحن اليعاقبة أصحاب الديانة الحقة، فالآخرة هي النعيم بالنسبة إلينا، وما تصويرنا القديسين وهم غاية في الرفعة والمجد وقت انتصارهم إلا لإيماننا بأن النسك والورع هما طريق نسلكه إلى آخرة النعيم؛ لذا فأنت ترى كيف تكون دائمًا صورة القديس مارجرجس وقد اعتلى فرسه وراح يسحق التنين الشنيع بحربته، ولعلك تلاحظ أن كل صور القون جميلة مذهبة، تبرز أجل حالات الطهر والبشاشة لولاء الأبرار أبناء يسوع.

وعلى الرغم من كل ذلك الإيمان القويم والعلم الغزير، فإن البعض لم يكف حتى الآن عن مراقبة ثاونا، وتتبع كل خطوة يخطوها هذا الأخ الطيب؛ حتى يمسك عليه ممسكًا قد يورده إلى التهلكة ويؤدي إلى طرده من الكنيسة فيفارق ملكوت الرب وحظيرة الأبرار، ويعود كالشاة الضالة في البرية بعيدًا عن القطيع؛ لذا دخلت عليه متسحبًا حريصًا على ألا يراني أحد عنده، فيشيع عنا التآمر أو يرمينا بشبهة الطمث اللوطي المرذول، وما إن اطمأننت إلى انعدام مَن رآني وأنا أدخل عليه، حتى رُحت ألتقط أنفاسي الضائعة وأنا أهمس له وجلًا:

- ثاونا.. لأي شيء طلبتني يا عزيز عيني، وأنا سأخرج معك صبيحة الغد إلى الأراضي الموحلة كما أمرنا أبونا يوساب؟

كان قمر بؤونة المكتمل في سمائه النقية الرائقة قد جاد علينا ببعض من نوره عبر كوّة القلاية الضيقة التي فتحها ثاونا لتدخل الهواء في هذه الليلة من آخر شهور الربيع، وقد أعلنت النسمات الحارة عن مقدم شهور الصيف شديدة الحرارة، وهكذا استطعت أن أتبين جانبًا من وجهه، وقد بدا مهمومًا وهو يقول:

- طلبتك كي أقول لك أن تحترز للأمر يا بدير، فرحلتنا في الغد إلى أراضي البشموريين لن تكون سهلة؛ لأن الأراضي الموحلة التي سنعبرها سرعان ما سوف يغمرها ماء الفيضان، وهذا سيجعل سفرتنا صعبة، قد نواجه فيها بما لا نتوقعه، ناهيك أن الحرب دائرة هناك على أشدها بين عسكر الوالي والأهالي، وما زال العسكر ينهزمون كلما كروا على هؤلاء الفلاحين، ولا يدري أحد ما سوف يحصل، وأظن أن أبانا سوف يحملني رسالة إلى زعيم البشامرة؛ لأنه قال لي قبل اجتماع الإكليروس به إنه سيجعلني رسوله في أمر مهم غدًا، وكنت قد سمعت أنه ذهب إلى والي البلاد في الفسطاط منذ يومين واجتمع به بناء على طلب الأخير، وربما طلب الوالي من أبينا الوساطة مجددًا مع البشموريين؛ حتى يرجعوا عما هم فيه ويدفعوا الخراج.

لقد اختاروني خصيصًا لهذه المهمة لأنها غير مأمونة، وربما كانت فرصة مواتية لبعضهم فيتخلص مني، فأنت تعلم أنهم يصرون أن أبقى في أدنى مراتب التشمسة رغم خدمتي وإخلاصي الحق منذ التحاقي بالبيعة هنا، أما أنت فلن يجدوا أدرى منك بمعرفة مسالك الأراضي الموحلة، ومعرفة اللسان البشموري الذي هو لسانك بالميلاد، ولسان حياتك الأولى الذي لا أعرفه أنا؛ ولهذا اختاروك لترافقني وتكون لساني مع البشموري عندما يلزم الأمر.

كنت أعرف أن ثاونا يلاقي الكثير من العنت في البيعة، ولو كان كسرابيون الشماس غنيًّا مقتدرًا، يجود على البيعة بماله بين الحين والحين، لكان ترقى في الإكليروس سريعًا وصار أرشيدياقن على رأس التشمسة، يجوز له حمل عكاز البطريرك، لكنه وعلى الرغمٍ من سنواته الطويلة في البيعة وعلمه الواسع وتقواه البينة لكل ذي عينٍ ترى وقلبٍ يحس، لم يترقَّ بعد في الإكليروس، وهو مع ذلك صابر على الأمر لا ينقطع عن الصلاة والصوم، والتلاوة والتقديس، والقراءة والتعمق في اللاهوت، وتشهد على ذلك لفائف البردي، ورقوق الغزلان المكتوبة بالأخميمي والعربي واليوناني، والموجودة في كل موضع بقلايته، وثاونا لا ينقطع عن صيام الأربعاء والجمعة من كل أسبوع، كما جرت العادة بالنسبة إلى الرهبان في الأديرة، وهو يحمل وفقًا لرتبته كأس دم المسيح الذي صار بالتقدس، وكذا الملعقة لتوزيع الدم الزكي لشعب الله، وهو الذي يقوم بقراءة الإنجيل على الأنبل، إذا لم يقرأه القسيس ويقول «Byaoticon»، ولا يقول «Keeyaoticon» لأن هذه اللفظة الأخيرة ما ينفرد بها إلا الكاهن فقط؛ فإن له البركة على الشعب، لا الشماس. وكان ثاونا مُجدًّا كثيرًا وفقًا لدوره الكهنوتي في افتقاد المرضى والأيتام والأرامل، وكذا المسجونين، حتى إنه كان يعدّي بحر النيل في عز طلوعه وقت الفيضان أيام شهر مسرى، والشمس وقيدة نار، ويذهب في الفلايك إلى بر الجيزة،

على الرغم من خطر المياه في ذلك الوقت، ويزور المسجونين الآثمين في سجن يوسف هناك؛ فيخفف عنهم ويوزع عليهم العطايا والبركات، وفي واحدة من زياراته السجن، كانت هناك جماعة من الناس قد أُخذ أفرادها بجريرة إقامتهم شعائر وثنية في بربا بعيدة بصحراء هيليوبوليس، فقبض عليهم حراس الدولة وساقوهم إلى السجن بتهمة السحر وعمل الطلسمات والشغل بالكيمياء والسيمياء، وظل متولي السجن يعذبهم ويعصرهم؛ ظنًّا منه أن لديهم أموالًا وذهبًا أخرجوه من هذه البربا، وكان من جملتهم النساء، فلما لم يتوصل إلى شيء معهم تركهم بلا ماء ولا طعام حتى أوشكوا على التلف من شدة الجوع والعطش، وتصادف أن كان الشماس ثاونا خلال ذلك في زيارة للسجن وفقًا لعادته في عيد العنصرة، فأطعمهم وشرّبهم مما لديه من الطعام والشراب المجلوب معه للمسجونين، فصحوا وتابوا، ثم إنه دفع لمتولي السجن مالًا وخلصهم منه، فصرف جماعة منهم إلى شئونهم، وعاد بجماعة أخرى، ودفعهم إلى أعمال البيعة، فاشتغل بعضهم في المعصرة المخصصة للزيت، وبعضهم في بساتين البيعة الكثيرة المجاورة فعاشوا وصحوا، وحصلت البركة لبيعتنا بذلك الفعل الطيب لهذا الشماس التقي ثاونا.

رُحت أنظر إليه محاولًا استجلاء ملامح سِحنته الكريمة تحت ضوء القمر، وقد شعرت بأنها اكتست بنورانية وسكينة إيمانية خالصة، وسرعان ما انقبض قلبي؛ إذ رُحت أتخيل حدوث مكروه له خلال رحلتنا، فقد كنت أحبه وأجله، بل أعتبره ملاذي الوحيد في كثير من الأحيان، خصوصًا عندما يأخذني الغم والندم على حياتي العلمانية السابقة، ويفيض بي الألم، إلى الحد الذي لا أطيقه وأحتمله فأبكي بكاءً مُرًّا، وأتمنى الموت على الحياة، خصوصًا لمَّا أتذكر أهلي وناسي وما كان من أمري معهم.

قلت لثاونا، أُطمئنه وأنا أرسم بيدي صليب الرحمات:

- لماذا تفترض أننا سنهلك أثناء الرحلة يا ثاونا؟ ولماذا تقول إنهم يريدون التخلص منك؟ أنا أعرف طُرق الأراضي الموحلة جيدًا، فلقد وُلِدت وعِشت كل حياتي الأولى فيها، ونحن الآن في المعمودية، يعني كل إنسان سيرانا بلبوس كنسية أثناء الطريق، لن يعترضنا أو يسبب لنا الأذى، ولا بد أن يكون والي المسلمين في الفسطاط قد أعطى علامة لحرّاسه كي لا يعترضوا سبيلنا، بل ليقدموا العون لنا، ما دمنا في مهمة تخص أبانا يوساب، ألست معي في ذلك أيها العزيز ثاونا؟ ثم لا تنسَ أننا لا نحمل مالًا ولا ذهبًا، فيظن بنا الظنون، ونتعرض لبعض اللصوص أو قُطاع الطرق، أما البشامرة فهم قبط مثلنا ولن ينالنا منهم سوء، وفي أسوأ الأحوال يا سيدي، إذا لم يصدقونا، فسنشمر لهم عن سواعدنا، فنريهم عليها وشم الأسد، فيطمئنون لأن حالنا مثل حالهم تمامًا.

خلت - في ظل الضوء الشاحب - أن ثاونا قد انفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة مشفقة عند ذِكر الوشم، وإن ظل صامتًا لا يقول شيئًا لبعض الوقت، لكنه أخيرًا تنهد بمرارة، وقال:

- المسألة ليست في مخاطر الطريق يا بدير، فهذه نستطيع مواجهتها، لكن المشكلة في البشموريين ذاتهم؛ فأنت تعلم أنهم قد وصلوا إلى حدّ يصعب العودة عنه، منذ أن بدأ نزول الغلاء بكورة مصر،

وأنت تعلم أنه ما زال يعمل في الناس، حتى إن القمح بلغ خمس وبيات بدينار خلال هذه الآونة، ومات من النساء والأطفال والصبيان والشيوخ والشبان ومن جميع الناس ما لا يحصى عدده من شدة الجوع، ومتولي الخراج ما زال يؤذي الناس في كل مكان، وأكثر البشموريين كان يعذبهم عذابًا شديدًا إلى أن باعوا أولادهم في الخراج من كثرة العذاب؛ فقد كانوا يربطونهم في الطواحين ويضربونهم حتى يطحنوا مثل الدواب، وكان الذي يعذبهم رجلًا اسمه غيث، وتمادت عليهم الأيام وانتهوا إلى الموت، فلما نظر أهل البشموريين أنْ ليس لهم موضع يخرجون منه، وموضعهم لا يقدر عسكر أن يسلكوه لكثرة الوحلات فيه، وما يعرف طرقه إلا هم؛ بدءوا ينافقون ويمتنعون أن يدفعوا خراجًا واتفقوا وتآمروا على ذلك.

ومتولي البلاد يشن عليهم بعسكره ويفتك بهم ويقتل الأبرياء بجريرة المفسدين إلى أنْ ما بقي أحد يراه إلا قتله، وقتل جماعة من أراخنة النصارى في كل موضع، وها هم البشموريون تمموا مؤامرتهم وصنعوا لهم سلاحًا وحاربوا السلطان وحموا نفوسهم أن لا يدفعوا خراجًا؛ فكل مَن يمضي إليهم ليتوسط حالهم قاموا عليه وقتلوه، وأصبحوا لا كبير لهم ولا خشية من أحد، فلما نظر أبونا البطرك أنبا يوساب حزِن على أولئك الضعفاء؛ لأنهم لا يقدرون على مقاومة السلطان، وأنهم باختيارهم اختاروا الهلاك لنفوسهم، فبدأ المهتم بخلاص شعبه الأمين بالحقيقة يرسل إليهم الرسل ويذكر لهم ما يحلّ بهم ليعودوا ويندموا ويرجعوا عن خلافهم، ويدعوا مقاومة السلطان، فلم يرجعوا، وكان الرسل يقولون لهم ما قاله الأنبا يوساب على لسان العطر بولس: «كل من يقاوم السلطان فهو يقاوم حدود الله، والذي يقاومه يُدان».

وها هو يحملني رسالة جديدة إليهم، ولعلك تعلم أنهم قد أهانوا وضربوا مَن سبقونا من رسل أبينا قبل ذلك، بل كادوا أن يفتكوا بأسقف أصنطا عندما أرسله أبونا إليهم، بل ووثبوا على الرسل ونهبوا كل ما معهم، فعادوا إلى أبينا وعرّفوه ما جرى عليهم، وأنت لا تدرك ما يفعله الجوع في الإنسان، وكيف يحوله من الحالة الإنسية ويدخله في الطور الوحشي، وأبونا غاضب جدًّا بسبب ذلك، وقال إن لم يرعووا ويرجعوا عما هم فيه فلن يبطئ عنهم الهلاك، بل سيتم عليهم ما قاله النبي أشعياء: «إني أسلمكم للسيف، ويقع جميعكم بالقتل لأني ناديتكم فلم تسمعوا كلامي وخالفتم وفعلتم الشرّ أمامي».

ولأجل هذه البلايا والأحزان المذكورة، ما تمكن الأب البطرك أن يكتب سنوديقا إلى شريكه في الخدمة والأمانة بطرك أنطاكية، وكان مهتمًّا بذلك أكثر مما ناله من التجارب، فإنه لم يجد راحة يومًا واحدًا، ومع ذلك فأبونا ما زال حزينًا خائفًا على أولئك الضعفاء المساكين الذين لا يعرفون عواقب الأمور ومغبة فعلهم. لذلك لما سمع أن الوالي لم يعد يحتمل تمادي البشموريين، وأنهم لا يعودون عن فعلهم، وكتب إلى الخليفة في بغداد ليعلمه بما جرى، فقد أدرك أنها ستكون الطامة الكبرى، إذا ما جاء الخليفة بنفسه لأنه لن يرحمهم، ولن يتركهم إلا بعد أن يجهز عليهم تمامًا؛ لذلك فأبونا يرسلنا إليهم غدًا بكتاب ينصحهم فيه ويحذرهم ويطلب منهم العودة إلى طاعة الأمير ودفع الخراج، لكن المشكلة يا بدير أن هؤلاء قد يتصرفون معنا بحماقة، وربما قتلونا لفرط غضبهم وضيقهم، وفي هذه الحال يكون أولئك الذين لا يريدون وجودي هنا في البيعة قد حققوا مأربهم وتخلصوا مني وقد جاءتهم على الطبطاب.

ثم إن البشامرة يا بدير - على ما أظن - لا يصدقون كلام أبينا، ويظنون أنه لا يهتم إلا بأمان البيعة والمحافظة على ممتلكاتها، وهذا ما قالوه وجاهروا به لكل الرسل الذين أرسلهم أبونا إليهم قبلنا.

والأخطر من ذلك أن كثيرًا من قبائل العرب أخذ يثور في غرب البلاد أيضًا، وأن بعضًا منها أخذ ينضم إلى البشموري في أسفل الأرض، ولعلك سمعت من هنا أو هناك عما جرى من أمر العرب، فقد انتفضت بعض قبائل القيسية واليمانية سواء بسواء، ورفضوا دفع الخراج، وكانوا قد قدموا ضمن من قدم من قبايل العرب إلى أرض مصر، واشتغلوا بالفلاحة وتوطنوا بأراضينا، فحل عليهم الخراج مثلما يحل على الفلاحين القبط، فلما اشتد ظُلم متولي الخراج وزاد فيه زيادة لم يعودوا يُطيقونها انتفضوا جميعًا؛ حتى إن أمير البلاد اضطُر إلى إرسال جيش لهم، نزل بنواحي بلبيس وحاربهم بعد أن ثار أسفل الأرض له، وقد سمعتهم يتحدثون هنا يا بدير عن أن خليفة المسلمين ساخط جدًّا بسبب ذلك، وغاضب على أمير البلاد بسبب كل هذه الحوادث، ويهدده بلبس البياض عقوبة له، وكذا بحل لوائه؛ لأنه لم يحتط للأمر، وتسبب في كل هذه الثورة، ويقال إن الخليفة أرسل له برد على رسالته يقول فيه: لم يكن هذا الحدث العظيم (ويقصد عصيان الناس) إلا من فعلك وفعل عُمالك، حملتم الناس ما لا يطيقون، وكتمتني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد.

وهناك أخبار أن الخليفة عازم على وضع حد لكل ذلك بنفسه، بل يقول البعض إنه خرج من بغداد، وسيّر جيشه إلى بر مصر للوقوف على الأمر بنفسه وإيقاف العصيان، وتتبع كل مَن يومئ إليه بخلاف، حتى لو تطلب الأمر قتل ناس عديدين، خصوصًا وأنه أذاع أنه لن يحصّل الخراج إلا على حكم الإنصاف في الجباية، وهذا معناه أن الخراج لن يزيد بأي حال من الأحوال عن أربعة آلاف ألف دينار ومائتَي ألف وسبعة وخمسين ألف دينار.

نهض ثاونا فجأة وفتح بابًا صغيرًا في جدار قلايته، وقلب فيه بهدوء واحتراس، دون أن يحدث أدنى صوت يمكن أن يسمعه أي كائن خارج القلاية، فلما عاد وجد بيده خنجر صغير، التمع نصله تحت نور القمر، قدمه لي، ثم قال وهو يلهث:

- خذ هذا، وأخفِه بين ثيابك بسرعة، واجعله معك عندما نخرج باكرًا في الغد، واحرص على ألا يراه أي مخلوق كان مهما كان الأمر.

(2)

أخذت الخنجر منه بيد مرتعشة وتأملته قليلًا تحت النور السماوي الداخل إلينا، كان قصيرًا متينًا معقوف الطرف، كذلك النوع من الخناجر الذي يُرى مع المسلمين ويقال له صنعاني، وكنت مضطربًا جدًّا، فدسسته بسرعة تحت زناري الكهنوتي بداخل ملابسي، ووضعت يدي عليه، وقد انبهرت أنفاسي؛ إذ هُيئ لي أنني سمعت حفيف ثوب، ووقع نعل خفيف خارج القلاية في الدهليز. بقينا صامتين أنا وثاونا، ثم ذهب ثاونا وأطل على الدهليز من الباب، فلما تأكد أنه لا أحد هناك، عاد وهمس:

- اسمع يا بدير، إذا كان لديك مهم عزيز فاحمله معك؛ لأن الرحلة خطرة، وقد يحدث ما لا يُحسب له حُسبان.

لعب الفأر في عبِّي، فقلت:

- الخطر في كل مكان الآن يا ثاونا، كل شيء مضطرب، ولم يعد أحد يعرف رأسه من رجليه في هذا الزمان، فكل شيء يتغير سريعًا، وما كان بالأمس مرئيًّا بالعين ملموسًا باليد، يصبح اليوم وكأنه لم يكن، وربما تغيرت ملامحه حتى يصعب على الإنسان معرفته مرة أخرى.. فليرحمنا الرب أيها العزيز ثاونا.

رد بسرعة كأن كلامي قد مس جرحًا بداخله، وحثه على أن يفضفض ما كان مكنونًا بصدره:

- أجل يا بدير هذا زمان صعب؛ فكل شيء الآن في صراع وقتال، فالبشامرة يزيدون من تمردهم ويردون عساكر الوالي مهزومين المرة تلو الأخرى، والعرب يتقاتلون فيما بينهم، وحتى كنيستنا لا تخلو من صراعات بداخلها، والروم أتباع خلقدونية الطمث يتلمظون على كنيستنا طوال الوقت، وهم لا يكفون عن دفع البراطيل والبذل للوالي حتى يسلمهم كنائسنا ويستولوا على ممتلكاتها وتكون لهم الهيمنة والإمرة على أهل الدين في البلاد كلها، بينما الوثنية ما زالت بالديار تسري، غير مقطوعة الجذور، خصوصًا في تلك المناطق البعيدة عن المدينة، وقد سمعت مرارًا أن هناك من لا يزال يكرس هياكل الوثنية ويقدسها، وفي بعض الكور مازال هناك مجوس يعبدون النار، كانوا قد بقوا بالبلدان منذ زمن طويل وقت قدوم الفرس، أما أهل كورة النوبة من السودان، فقد أخبرني بعض العارفين الذين وطئوا أرضهم أن فيهم مَن يعترفون بالبارئ سبحانه ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب، ومنهم مَن لا يعرف البارئ ويعبد الشمس والنار، ومنهم مَن يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة.

وأنت تدري يا عزيزي أحوال كنيستنا من أتباع البدعة الآريوسية التي ما زالت توجد في البلاد، ومَن يدين بدين الطمث الخلقدوني من كنائس ملكانية تصارع ضدنا وضد الإيمان الحق، وتسعى

بالسعايات ضد كنيستنا لدى الحكام والولاة. إن الإنسان منا صار في حالة من البلبلة والعجز، لولا بعض من إيمانه يحميه، وبداخله بحر عاتٍ مضطرم، وقد تنازعته الأهواء، وشتتته الأفكار.

تنهدت وأنا أتمتم وأنسحب خارجًا من القلاية:

- أجل يا ثاونا العزيز، فليرحمنا الرب، ويحمينا من هذه الأيام الصعبة والأيام القادمة المجهولة.

ثم إني ألقيت عليه تحية المساء؛ إذ صرت عند الباب، وبينما كنت أعبر الدهليز ماشيًا على أطراف أصابع قدمي؛ خوفًا من أن يراني أحد، خُيل إليّ أنني سمعت حفيف ثوب وتردُّد أنفاس في ظلمة المكان الحالكة، فصلبت مرتعدًا وأنا أفكر في الكلمات (فالواحد منا بداخله بحر عاتٍ مضطرم، وقد تنازعته الأهواء، وشتتته الأفكار).

بِت ليلتي ساهرًا قلقًا داخل قلايتي، مهمومًا برحلة الغد إلى الأراضي الموحلة، وكان مبعث خوفي وهجسي هو العودة إلى مسقط رأسي ومرتع صِباي مرة أخرى، بعد أن تركت بلدتي هناك، وكانت تسمى ترنيط، وخرجت أهيم على وجهي هاربًا وقد تركت أبي وأمي وأسرتي كلها؛ بسبب كربي وضيقي من حال الدنيا، بعد أن سعى أبي الجسداني إلى تزويج أخي الأكبر من تلك الجميلة التي طالما هواها قلبي دومًا، ولم يغب عني يومًا مذاق عِشقها الآسِر، ولم يكن عالمًا بما كان بيني وبينها ورغبتي فيها، فلما أتلفت الحبيبة نفسها وكان اسمها آمونة؛ بأن ألقت بنفسها في السبخة الواسعة الموحلة الخطرة، حتى أغرقتها وغابت تحت طينها السائل، دون أن يستطيع إنقاذها أحد، عِشت زمنًا في اللوعة لفقدها، وأكل اليأس روحي شيئًا فشيئًا، حتى سلمني إلى الضياع، وكنت وقتها فتى يافعًا في السابعة عشرة من عمري، فأخذت أقول لروحي إنه لا جدوى من هذه الحياة، ولا معنى لها؛ فهي شيء كالكذب، لا يقين فيها، ولا أمان لأيامها، فهي تظهر للمرء وجه السعادة ذات مرة، لكنها سرعان ما تريه جُل التعاسة في مرة أخرى، وكنت أقول ذلك وأنا أتذكر كل الأوقات الطيبة التي أمضيناها معًا، خصوصًا قبل أن تفاجئنا الحياة بما لا نشتهي، فقد ظللنا شهورًا طويلة نتلاقى، ولم يكن أبي قد طلب من أهل آمونة تزويجها لأخي بعد، ولن أنسى ما حييت آخر مرة التقيت فيها هذه الحبيبة الغالية قبل علمنا بهذا الخبر الخطير، إذ كنا نعمل معًا في غيط القلقاس تبعية أبي؛ لأن آمونة وأهلها كانوا يعملون جميعًا في غيطان أبي الذي هو من مياسير الفلاحين، وكان نظري لا يغيب عنها أبدًا وقد مالت تجمع الحشائش وتنظف الغيط، وأنا لا أفرق بين لون خدها الوردي الجميل وبين زهر القلقاس المنتشر هنا وهناك، فاقتربت منها وقد هاجت مشاعري ورغبت فيها رغبة لم أستطع لها سبيلًا؛ فقلت هامسًا لها:

- آمونة.. حبيبتي آمونة، فلنذهب معًا بعيدًا عن هنا بسرعة؛ فأنا أريد أن أكون معكِ الآن، سأذهب أنا أولًا ثم اتبعيني حتى لا يشعر أحد.

كان الوقت وقت ظهيرة تقريبًا، وكانت الرطوبة قد تصاعدت وباتت الأجساد لزجة مترطبة، فلما وافتني داخل الدروة التي كنا نلتقي فيها بعيدًا عن العيون، شددتها نحوي ورُحت أُقبلها قبلات كثيرة، حتى إنها ضحكت مني وقالت:

أنت تُقبلني وكأنك تفعل ذلك لأول مرة، أو كأنك لن تقبلني بعد ذلك أبدًا، هل جُننت اليوم؟ -

وراحت تضحك، فقلت لها:

- جُننت.. آه.

وظللت سادرًا بلثمها في كل موضع من جسدها تطاله شفتاي، بينما يداي تزيحان الثوب شيئًا فشيئًا عن تلك الدالية الريانة، فلما سَرَت نار شوقي إليها، وأشعلت شوقها بلهيب أشد، التحمنا ببعضنا بعضًا حتى أرمدت جمراتنا وبقينا ساكنَيْن مطرحنا، لا صوت معنا غير وصوصة عصفور على البُعد ووجيب قلبينا الصغيرين.

ثم إننا تعاهدنا على أن نكون لبعضنا البعض، نعيش أبدًا على السراء والضراء، وكان ذلك العهد هو ما نأخذه على نفسينا في كل مرة نلتقي، وكان اتفاقنا أن أفاتح أمي في أمر زواجي من آمونة لتكلم أبي في ذلك حتى يأذن لي ويبارك زيجتنا، لكن أمي التي طالما شعرت أنها تفضل أخي الأكبر عني وتعزه كثيرًا، وليسامحها الرب على ذلك، سارعت واختارت آمونة زوجة لأخي، وفاتحتْ أبي في ذلك، وكان جمال آمونة واضحًا لا يغيب عن أي عين تُحب الجمال وترى آيات الخالق في البشر، فلما علمت ذلك لم أصدق نفسي وبِتُّ وكأن النجم المذنب قد أرسل بناره الشيطانية فوقي وصعقني صعقًا؛ فبِتُّ محمومًا أيامًا لا أفارق الفراش، دون أن يكون هناك سبب مثل وباء، أو تفشي فاشية مما يحدث عادة، وأوشكت روحي على الخروج بعد أن قارب جسدي على التلف حتى إن أبي جهز تابوتي بكل مستلزمات التجنيز وأنزل غطاءه الخشبي المصورة عليه صورة وجهي، وأنا في أبهى صورة وقد تحوط بشعري الأسود الغزير، ووضعه إلى جوار فراشي، بينما شدَّدتْ أمي على النائحات أن يتأهبن في أي وقت لسماع خبري فيأتين في التو ومعهن النيلة لتلطيخ شعورهن المحلولة بها، وكانت أمي قد بدأت الندب منذ أن خرج من عندي آخر حكيم جلبه أبي وقال إنه لا فائدة؛ لأن الحُمى قد بلغت مداها والقلب لم يعد قادرًا على احتمالها، وأن كل ما أخذتُه من أشربة وابتلعتُه من أعشاب لم يأتِ بما يُرتجى منه، وكان قسيس بيعتنا لا يفارقني منذ ذلك الحين كرامة لأبي ولأجل خاطر عينيه؛ لأنه كان صاحب خير وفضل كثير على البيعة خصوصًا بعد أن قدم بعضًا من أثاث البيعة ومنه تلك المنجلية ذات الحامل المنحدر لوضع الكتاب المقدس، وهي مزخرفة بتصميمات وأشكال بديعة قد طعمت وحُشيت بسن الفيل، وتزينها الصلبان من كل ناحية، وكانت توضع على الرف المفتوح تحت حاملها أطباق العطاء والصنوج والمثلثات والأجراس الصغيرة المضروب عليها بالقضبان، وكان قد قدم - كذلك وهو المقتدر - للبيعة شمعدانًا على هيئة تنين تركب عليه شمعة كانت تشعل أمام باب الكنيسة خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من أسبوع الآلام، وكانت الحية التي على هيئة التنين تثبت الشمعة بفمها الذي هو ثقب محفور، وكان الشمعدان من النوع النقال غير الثابت في موضع واحد.

لكن الله أراد ما أراد وأفقت مُعافًى من الحُمى بعد ثلاثة أيام، فلما تذكرت ما كان من أمري، ونظرت ما كنت فيه من مرض وقُربي من الموت والهلاك، حمدت الله على ما أنا فيه، وقر قراري أن أقبل

بما كَتب لي، ولتكن آمونة لأخي، ولأصبر على إرادة الرب وأكتم الأمر في صدري؛ تبجيلًا لخيار أبي، واحترامًا لأخي الكبير، وعاهدت نفسي أن تكون آمونة حُبي الأول وغرامي الأخير، فأنا لن ألامس امرأة بعد ذلك أبدًا، ولم يُغرم قلبي بأحد بعد هذه الغالية أبدًا، ولتكن لي بمثابة الأخت العزيزة، وقد صارت زوجة لأخي. لكن بعد أن حدث ما حدث، وماتت وقد ألقت نفسها في السبخة الموحلة لتفنى وتعدم، لم أتمالك نفسي، وفقدت أمري، بعد أن صغر العالم في عيني، فخرجت من بلدتي؛ لأهيم في البراري، وقد كرهت الدنيا والحياة، وبقيت سادرًا في سيري، لا أدري من أمري شيئًا كالملتاث دون طعام ولا شراب، وقد رأيت بأم عيني ضواري السباع دون أن يطرف لي رمش، وكنت أدعو السماء أن يفترسني واحد من هذه السباع، أو يفتك بي وحش من الوحوش، ولكن الله يريد ما يريد؛ إذ بقيت سائرًا حتى غِبت عن الوعي وأوشكت على التلف والضياع، وتصادف أن عَثر عليّ بعض من أبناء هذه البيعة، ومنهم ثاونا الذي كان قد خرج ليجمع بعض الأعشاب التي يستخدمها في الرسم والتطبيب، فحملني معه إلى البيعة وداواني، فلما أفقت شكرت الرب على تمام نعمته عليّ ووهبت نفسي لخدمة البيعة، ولم أغادرها قط، منذ ذلك الوقت حتى هذا الحين.

كان خوفي الأكبر هو العودة إلى الأراضي الموحلة مرة أخرى، فأنا أخشى مُلاقاة أحد من أهلي، خصوصًا أبي وأمي، فلا بد أنهم قد اكتشفوا أمري مع آمونة بعد هلاكها، وفراري المفاجئ من البلدة، ثم إنه يشق على نفسي العودة إلى موطن ذكرياتي المؤلمة، ويا خوفي لو غلبني الشيطان فانهرت وأخذت في البكاء والعويل على محبوبتي التالفة، وحياتي الأولى الفانية. كانت دموع كثيرة تسقط من عيني وأنا جالس بقلايتي أرقب انبلاج الفجر من الأفق الأسود الممتد عبر السماء أمامي بعد أن غاب القمر، وتلبدت السماء بغيوم لا تُعهد في ذلك الوقت من بؤونة الحار، وكان النهر هادئًا، ساكنًا، لا تنبعث منه بين الحين والحين غير أصوات هادئة لبعض المخلوقات الكامنة في أعماقه، والتي يحلو لها عادة الخروج إلى أعلاه عند هذا الوقت المتأخر من الليل، رُحت أتخيل أن يراني بعض من أترابي الذين كانوا معي في المكتب بالبلدة، حيث كنا ندرس ونحن صغار، إنهم سيأكلون وجهي ويُعيرونني بما كان من أمري مع آمونة، وينعتونني بالشؤم، خصوصًا وأن ما حدث من خراب قد تم وقت عرس أخي العزيز وآمونة، وكان هؤلاء الأتراب في منتهى الفرح والنشوة، مثل جميع أهل البلدة وأبناء أسرتي؛ إذ كنا نسير في موكبين كبيرين منفصلين بشوارع البلدة، العروس في موكب، والعريس في موكب آخر، ونحن نغني ونرقص على أنغام الفرقة الموسيقية التي كنت قد جلبتها بمعرفة واحد من أصدقائي من مدينة أكسرنخوس، بعد أن قال لي إنها أفضل وأشهر الفِرَق المعروفة بالبلاد. وما زال عقد عملها في عُرس أخي محفوظًا بين أشيائي القليلة في القلاية؛ إذ إنه الأثر الوحيد الباقي لي من عالمي القديم في ترنيط، وقد كان داخل جيب جلبابي وقت خروجي منها، وأنا أنظره بين الحين والحين، كلما جاشت مشاعري بالحنين، وأخذني الشوق إلى أهلي وأترابي وأتحسر على ما ضاع مني وافتقدته من الحياة هناك.

رُحت أتذكر وأنا جالس في مطرحي ذلك العقد، وكيف أخذت - وأنا أبرمه آنذاك - في مجادلة رئيس الفرقة الموسيقية أورليوس أونفريس بن آمونيوس الجريكي؛ ليخفض من أجر فرقته، حتى وافق على أن يحصل على أربعين زوجًا من الأرغفة المصنوعة من البُر والحلبة، وتسع جرار من النبيذ وأربعة أنصاف فضة لكل عازف من عازفيه الذين كانوا معه: تاسيوس وأفونجنس بن هيراكليس

وكوبروس وآرسينوي. وكنت قد جلبتُ هذه الفرقة الجميلة هديةَ عرس لأخي، على الرغم من آلامي وحزني؛ لأنه سيتزوج بمَن تحبها روحي وتشتهيها نفسي وفقًا لمشيئة أبي الجسماني، لكني لم أنبس بكلمة لا، ولم أعترض على ما ارتآه ولم أبُح بما في صدري من حب لآمونة؛ لأن الأب أب، والأخ أخ، وكلمة الوالد يجب أن تُطاع وتُنفذ، فحبست حزني في نفسي، ورُحت أرقص مع الراقصين، وأغني مع المغنين، ونحن نسير في الشوارع مصطحبين أخي في موكبه حتى باب البيعة؛ ليلتقي بموكب العروس عند بابها، حتى ندخل جميعًا ونعقد العرس وفقًا لمشيئة الرب وعملًا بقوانينه.

وبينما نحن في غاية الفرح والبهجة، نتغنى مع أورليوس أونفريس ذي الصوت الصداح الشجي، بأغنية: «هو ذا الزمان طاب، فلنذق شهد الرضاب»؛ إذ أخذ قلبي في الانقباض، كلما اقتربت اللحظة التي سوف نلج فيها جميعًا من باب الكنيسة؛ حيث يرتبط العروسان برباط الزواج الأبدي المقدس، وأخذت دموعي تسيل وأنا أتمنى أن يحدث ما يمنع ذلك؛ إذ كنت رغمًا عني - وليسامحني الرب - لا أتصور أن تكون آمونة امرأة لغيري، وقد ظن كل مَن رآني وقتها أنني أبكي لفرط فرحتي وانفعالي، وما إن وصلنا لباب البيعة حتى استقبلنا الشمامسة حاملين الشموع والأجراس مع الكهنة وهم يرتلون: «مبارك الآتي باسم الرب»، وكان موكبنا الذي هو موكب العريس قد وصل أولًا ليدخل الكنيسة، كما هو مفروض ومتبع في الأعراس، ثم إن الشمامسة اقتادوا أخي إلى الخورس الأمامي وهم يرتلون الألحان، وظلوا وقتًا يفعلون انتظارًا لوصول العروس واستقبالها عند الباب؛ حتى يبدءوا في ترديد لحن «السلام لكِ يا مريم» كما جرت العادة التي تتبع دائمًا في الأعراس، ويقتادوا العروس إلى مكانها في الموضع المخصص للنساء، وكان جميع الإكليروس لابسين الملابس البيضاء الجميلة، وقد جُهزت مستلزمات العرس المكونة من صليب ذهبي ومحبس الإصبع الذهبي، والمنطقة والبخور على صينية الفضة في الخورس الأمامي، وكان أخي قد أعطى عباءة للبطرك كتقدمة بمناسبة العرس كما هو متبع دائمًا.

فلما طال انتظار الجميع، وتعب الشمامسة من كثرة ترديد الألحان، بدأ القلق يساور الحاضرين بسبب تأخر موكب العروس، وأخذ الهمس يتعالى والرقاب تشرئب بالرءوس وقد تركزت النظرات على باب البيعة؛ أملًا في مطالعة العروس المتأخرة وموكبها، وما هي إلا لحظات حتى دخل من أعلى باب البيعة غراب أسود حائمًا، وقد بدا دخوله في مثل هذه اللحظات غريبًا، فتطيَّر الناس، وسارع القيّم بهشه وطرده، ثم أعقب ذلك صوت صراخ وعويل، فهب الجميع ينظرون الأمر، فإذا بواحد من الصارخين يقول بأن العروس الجميلة قد غافلت أهلها وألقت بنفسها في السبخة الواسعة ذات المياه الساحبة إلى الأسفل مما يلي آخر منازل البلدة، فلم أتمالك نفسي عند سماعي ذلك؛ إذ شعرت وكأن تنينًا مريعًا، كذلك الذي صارعه القديس الشهيد مار جرجس، قد جثم على صدري، حتى كادت الأنفاس تغيب عني، ففغرت فمي محاولًا عبَّ الهواء دون جدوى، وبِت كالذي لا يملك من أمره أمرًا، بلا حول ولا قوة، ثم إنه سرعان ما أفلتَ زمامي، وقد تيقنت أنني على وشك أن يحل حمامي فراح جسدي ينتفض وأنا أصرخ مع الصارخين وأهرع مع الهارعين إلى السبخة الموحلة المشئومة، فلما وصلنا إلى هناك وجدنا الحبيبة الغالية وقد استقرت إلى جانب المياه بعد أن أخرجوها منها، فلما نظرتها لم أتمالك نفسي؛ إذ كانت جسدًا ممددًا على الأرض بلا حياة؛ فصرخت بعزم ما فيّ، وانهرت عند قدميها أبكي، وأنا أنظر جمالها وكان بعضهم قد أزال الأوحال عن وجهها وجيدها

تلمسًا لحياة أو نَفَس يكون فيها، فبدت أجمل مما كنت أظن، وقد انسدلت ضفائرها السود الكثيرة على جيدها الأبيض، وكأنها غمام على رخام. فبكى الجميع مثلي عندما نظروها ولطم مَن لطم، وبقي أخي الأكبر عند رأسها يندب وينوح، وأنا مثله عن قدميها، حتى لم يعد فينا ما نجود به من دمع، فراح الناس ينئون بنا عنها، ونحن لا نملك من أمرنا شيئًا.

كانت تطوف بمخيلتي كل هذه الأحداث، بينما أنا جالس بصومعتي أفكر في خروج الغد إلى الأراضي الموحلة، وأتساءل حائرًا: كيف سيتسنى لي مواجهة ما أخاف مواجهته، وأهرب منه منذ سنوات؟ كيف سيكون أمري وحالي إذا ما تعرّف عليَّ واحد من أولئك الذين كانوا معنا في العرس؟ رُحت أبكي وتمنيت أن يقبض الربّ روحي قبل أن أعيش هذه الحال، وألا أعود إلى ترنيط أبدًا، لكن خوفي من أبي الروحاني في البيعة؛ الأب يوساب، هو الذي يدفعني إلى الذهاب؛ لأن طاعته واجبة، كما أني لم أعترف له أبدًا بإثمي وخطيئتي مع محبوبتي الغالية آمونة؛ إذ حرصت على أن أقول له كلما ذهبت للمناولة والاعتراف، بأنني هربت من بلدتي؛ بسبب سرقتي بعضًا من جِرار العسل من جارٍ لنا، فلما اكتشف أمري، خفت من الفضيحة، وخجلت من مواجهة أبي، وهكذا كنت أكذب كل مرةٍ في اعترافي لهذا الأب الطيب؛ لأنني كنت لا أجرؤ على الإفصاح عن خطيئتي ومأساتي الأولى في ترنيط حتى عندما شعرت أنه ارتاب في أمري مرة، وقال لي: هل هذه كل خطاياك؟ أمن سرقة بعض جِرار من العسل تخشى العودة وتركت أهلك وذويك؟ هل قتلت؟ هل زنيت؟ فلما تلجلجت في الكلام وأطرقت برأسي، وكان شعوري بالندم والألم قد فاض، نظر إليّ بشفقةٍ وتحنان، ثم تلا كلمات الرب: «لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بي. في بيت أبي منازلُ كثيرة، وإلا فإني كنت قد قلت لكم أنا أمضي لأعدّ لكم مكانًا، وإن مضيت وأعددت لكم مكانًا آتي أيضًا وآخذكم إليّ؛ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضًا، وتعلمون حيث أنا ذاهب وتعلمون الطريق».

فبكيت وسالت دموعي عند سماعي ذلك، وقلت: لا.. لا يا أبي أنا لم أقتل، لكني سرقت، سرقت ما لم يكن لي.. وأنا نادم ما دُمت حيًّا على ذلك، وها أنا الآن قد آمنت بأن عسل الرب أحلى وأشهى من عسل الحياة، فلتباركني يا أبي الجليل، وليرحمني الرب برحمته الواسعة.

وهكذا لم يقوَ لساني على الاعتراف وقول الحقيقة أبدًا، فليغفر الغفور لي، وليشملني بلطفه وكرمه.

غادرنا - أنا وثاونا - قصر الشمع ببابليون في اليوم التالي، بعد صلاة باكر مباشرة وهي الصلاة التي تكون الأولى من الصلوات السبع اليومية الآجبية وموعدها في الفجر، وكنا قبل الصلاة قد تهيأنا للخروج فارتدينا عباءتَيْنا الصفراوين وقد خرَّج إكليروس البيعة جميعه لتوديعنا عند الباب الأخير المؤدي إلى الفسطاط، وكان على رأس مودعينا الأب الطيب يوساب، فغادرناهم جميعًا والدموع تملأ مآقينا ومآقيهم، بعد أن قبَّلنا يدَ الأب المباركة، وكرّز علينا بعصاه التي هي رمز المعمودية، ولن نركب ركائبنا إلا بعد إغلاقهم الباب خلفنا تأدبًا وإجلالًا، وكانت ركائبنا بغلَيْن يافعَيْن من ثلاثة بِغال جيدة، أحضرها للبيعة ذات مرة رجل مؤمن يُدعى سراميتس من مدينة ليكوبوليس وقدمها هديّة للأب يوساب بعدما أبرأ ابنًا له؛ كان قد أصيب بمرض طال واشتد عليه، فحمله الرجل إلى البيعة ليناوله المناولة الأخيرة، لكن الأب يوساب أعطاه عقارًا ومسحه بالزيت الفلسطيني وقرأ عليه

قرايات مقدسة، فبرئ الغلام لساعته وقام مُعافًى ووقف على قدميه، ولم يكن مسموحًا لنا باعتبارنا من القبط أن نركب الخيل، وكان هذا هو قانون الولاة المسلمين علينا، منذ أن تملكوا بيعة مصر العتيقة وقصر الشمع زمن الطمث الهرطقي الخلقدوني قيرس المدعو مقوقس، وهكذا خرجنا على البغلين أنا وثاونا، حاملين معنا زوادة من السمك المُملح والزيت والبتاو والمنين، وبعضًا من التمر، وجرة نبيذ، فاخترقنا الفسطاط خارجين إلى البساتين التي تليها، والفسطاط هو ما بناه المسلمون بعد دخولهم بابليون بمصر. وقد أخبرني ثاونا ونحن نعبر الفسطاط أنه قرأ في بعض الكتب أن دولة الإسلام بدأت لما انتقل المرّ من المثلثة الهوائية التي هي برج الجوزاء إلى برج السرطان ومثلثته المائية، فصارت دولة الإسلام عند تمام ستة آلاف وثلاثمائة وخمس وأربعين سنة وثلاثة أشهر وأن القرآن وهو ،(يعني خلق آدم) وعشرين يومًا من وقت القرآن الأول الواقع في بدء التحرك كتاب المسلمين من هذه المثلثة وقع في أربع درجات ودقيقة واحدة من برج العقرب، وهو قرآن المِلَّة الإسلامية.

كما أخبرني أنه قرأ في ذلك الكتاب أن ابتداء هجرة رسولهم كانت يوم الخميس من أول الشهر المُسمى مُحرم عندهم، وهذا مبتدأ تاريخهم، وبين ذلك وبين الطوفان النوحي ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنان وعشرون يومًا.

لم أكن قد رأيت داخل الفسطاط من قبل فهالتني كثرة خططه، وارتفاع منازله إلى أربعة وخمسة طوابق دون زينة أو استواء، وقد أخبرني ثاونا ونحن سائران أن من هذه المنازل ما يسكن فيه نحو مائتَي فرد، علمًا بأن الطبقة السفلى مما يلي الأرض لا يسكنها أحد إلا قليلًا. ويقال إن رجلًا من المسلمين في الزمن الأول عند بناء الفسطاط، يسمى خارجة بن حذافة، كان ينيبه القائد عمرو بن العاص، اتخذ لداره مشربة أو طنفًا، فلما بلغ ذلك الخليفة عمر بن الخطاب، كتب إلى عمرو أن خارجة ما فعل ذلك إلا ليشرف على مَن حوله ويطلع على عوراتهم وسِرهم، وأمره أن يهدمها في الحال. وكنا نسير داخل الفسطاط دون أن يعترضنا أحد، وقد رأينا حمّامها المسمى حمام الفار، وهو حمَّام صغير حقير إذا ما قِيس بحمامات الرومان القديمة. وقد أخبرني ثاونا، أن المسلمين الأوائل كانوا أتقياء يميلون إلى الزهد والتقشف، وأن مدينة الفسطاط بُنيت بعد أن ضاق الحصن الذي استولى عليه المسلمون عقب دخولهم مصر، فوجد القائد عمرو أنه ليس من العدل إخراج أهل مصر من القبط من ديارهم المبنية حول الحصن، ليحل المسلمون محلهم، فتركهم وبنى الفسطاط، الذي سرعان ما نما وصار مدينة ومركزًا للحكم والولاية بدلًا من الإسكندرية، كما كان معتادًا في الزمان الأول.

تركنا الفسطاط وجلّ البساتين التي هي تابعة للبيعة حتى الآن، والتي كانت في الزمن القديم، كما قال ثاونا، تمتد إلى شاطئ النيل قبل أن يُبنى المسجد المسمى بمسجد أهل الراية وسِرنا بمحاذاة بِركة الحبش، قاصدين الوصول إلى محاذاة النهر، حتى ننحدر إلى شبرا، ومنها إلى البلاد الموصلة للأراضي الموحلة. وكنت طوال الطريق أُيمم نظري شطر المكان، فهالتني روعة هذه البِركة الفسيحة، وقد تجلت روعة الخالق فيها؛ حيث نمت على أطرافها أشجار وارفة ظليلة من كل نوع وشكل، وكانت بينها أشجار مُكللة بورود زرقاء وبنفسجية وحمراء، على نحو لم أره من قبل، كما

رأيت أطيارًا عائمة في مياهها خلاف نوع الإوز والبط، على النحو الذي كنت أراه في أراضي البلاد البشمورية، وكان صدح هذه الأطيار مع طير الشجر غايةً في الروعة والحُسن، كأنه موسيقى ربانية تسحر القلوب، ويبدو أن ثاونا لاحظ انبهاري وتباطُئي في حثّ البغلة على المسير، فقال:

- علينا أن نجتاز هذا المكان بسرعة؛ إذ لا يصحّ بقاؤنا فيه كثيرًا، فعلى أطراف هذه البركة يعيش أهل اللهو والخلاعة، ولا يَسلم الأمر من قاطع طريق هنا أو هناك، ثم إنه يتوجب علينا أن نترك بر مصر قبل مغيب الشمس، لكننا سنتوقف قليلًا في حدائق شبرا؛ حتى نتزود ونسد جوعنا، لنواصل مسيرنا فندخل مدينة أتريب قبل حلول الظلام، فنبيت في ديرها حتى صباح الغد، لأننا لو دخلناها في الليل، قد لا نَسلم من بعض قُطاع الطرق، أو عصابات الجوعى، التي تخرج بين الحين والحين إلى الطريق طلبًا للقوت بأي وسيلة.

وقبل أن نترك البحيرة ومنظرها الخلاب، تنهد وهو يعب بعينيه من مشاهدها الحسنة، وأضاف:

- تبًّا للفلاسفة والاستدلال. يا له من عارف يُعرّف بالمعرفة.

لم أعلق؛ إذ لم أفهم ما قصد ثاونا بذلك الكلام، وسِرنا بجدّ، حتى أوشكنا على الدخول إلى حدائق شبرا، وإذ ببعض من عسكر المسلمين الراكبين على الخيول يسيرون ناحيتنا بسرعة، فنزلنا عن الركائب، بمجرد أن رأيناهم، ويبدو أنهم كانوا من الأتقياء، فلقد نزلوا عن خيولهم تأدبًا واحترامًا لَما رأوا ملابسنا الكنسية، فقالوا لنا أشياء، وكنت لا أفطن للسانهم كما ينبغي، فلم أفهم إلا بعضًا مما قالوه، لكن ثاونا حيّاهم وقال لهم بكلامهم المكتوب، والذي أقرؤه وأفهمه عندما يكون مكتوبًا:

- نحن ذاهبون بأمر من أبينا الرئيس يوساب رئيس بيعة السيدة العذراء بقصر الشمع، في مهمة خاصة في الأراضي الموحلة.

ما إن نطق ثاونا بـ«الأراضي الموحلة»، حتى بان الغضب على وجه مُقدّم العسكر، وبدا أنّه استراب فينا، لكن ثاونا، أسرع موضحًا:

- معنا كتاب من متولّي الفسطاط بألا يعترضنا أحد منكم؛ لأننا ذاهبون في شأن يخصّ الوالي.

ثم إنه أخرج من جرابه لفيفة بردي، دفعها لمقدم العسكر، فلما فتحها الأخير، بان أنها مكتوبة بالقلم العربيّ، والقلم القبطي أيضًا، فراح المقدم يقرؤها بعناية، وبعدما تأكد من صحة ختم الأمير الوالي عليها، طواها، ثم دفعها بأدب مرة أخرى إلى ثاونا، وقال:

- عليكم الإسراع في المغادرة؛ لأن بعضًا من العامة قد تهيّجوا في منية السيرج، وأخشى أن تلاقيا المتاعب؛ إذا كبسوا عليكما في الطريق؛ لأن أكثرهم من الغوغاء الصعاليك معدومي القوت والطعام.

ثم إنه أمرَ اثنين من جنده أن يرافقانا حتى نصل إلى حدائق شبرا.

شكرنا الجنديين وودّعناهما عند وصولنا إلى حدائق شبرا، بعد أن أعطاهما ثاونا بعضًا من المنين، وقدرًا من التمر السكوتي الفاخر، كنا قد حملناه معنا من البيعة، وهو من ثمار عدة نخلات قديمة بالبيعة، ربما يعود زمن زراعتها إلى ما قبل إنشاء البيعة بسنين عدة، ثم إننا دخلنا الحدائق، فبدت لي عظيمة الاتساع، بالغة العز بأشجارها وزراعاتها المتنوعة، وكأنه لا يوجد جنس زرع أو شجر في كل الدنيا، إلا وقد زرع أو غرس بأرضها، وبدا شجر النبق والجميز والسنط واللبخ والكافور والتوت، عظيمًا ضخمًا على غير المعتاد، فالمياه المتسربة من النهر إلى الأرض في هذا الموضع غنية وفيرة، لا تترك الشجر في حاجة إلى شُرب، كما أن الأرض بخيرها لكثرة الطمي المجلوب وقت صعود النيل.

راح ثاونا؛ غزير العلم والمعرفة، يذكر لي أسماء بعض الأشجار التي لم أكن قد رأيتها من قبل، وكانت منها شجرة الدوم التي لم أرَ في حياتي إلا ثمارها، فقد كان يجلبها إلى أراضينا البشمورية بعض من فقراء السودان الجوالين؛ ليبيعوها لنا في الطرقات، وكانت الحدائق تصل حتى حواف النيل السفلية، وقد برزت عليها أشجار أم الشعور، بأغصانها الشعرية واختلطت بمياه النهر، وكانت الحدائق عامرة بالناس في كل موضع منها، حتى إننا رُحنا نبحث عن موضعٍ خالٍ، أسفل شجرة، لنجلس مستظلين ونتقوت بشيء من طعامنا وشرابنا، فلما وجدنا توتة وافرة الأوراق، عميمة الخضرة، افترشنا النجيلة تحتها، فصلّينا وشكرنا، ورُحنا نأكل شيئًا من الطعام. وبينما نحن نزدرد زادنا سألت ثاونا سؤالًا ظل يشغلني طوال الطريق:

- ثاونا العزيز، لعلك تظن أن البشموريين سوف يرضون بكلام أبينا ويوقفون الحرب مع الأمير!

نظر ثاونا إليّ قليلا وهو يأكل، وبدا لي وكأنه غير راغب في أن أغوص في مثل هذا الأمر. تردد قليلًا في الكلام، لكنه همّ بذلك لولا أن امرأة جاءتنا بوعاءين من شراب السكر، طيفور زلابية قدمتها لنا، بينما وجهت كلامها إلى ثاونا قائلة:

- هل يسمح أبي بتقبل هذا الشيء اليسير مني، ويبارك أطفالي الذين هناك؟

ثم إنها أشارت بيدها إلى موضع شجرة حَبّ العزيز؛ حيث راح ثلاثة أطفال يجرون ويلعبون، فلما أومأ لها ثاونا موافقًا، ذهبت، ثم عادت بالأطفال وكان جميعهم من الصبيان حَسني الصورة المفعمين بالبراءة، فأخذ ثاونا يباركهم ويصلب عليهم ويرقيهم برقايا، ثم تلا: «بسبب هذا أحني ركبتي لدى أبي ربنا يسوع المسيح الذي منه تُسمى كل عشيرة في السماوات وعلى الأرض، لكي يعطيكم، بحسب غِنى مجده، أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن، ليحلّ المسيح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة، حتى تستطيعوا أن تدركوا، مع جميع القديسين، ما هو العرض والطول والعمق والعلو، وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله، والقادر يفعل فوق كل شيء أكثر جدًّا مما نطلب ونفتكر، بحسب القوة التي تعمل فينا، له المجد في الكنيسة.. في المسيح يسوع.. إلى جميع أجيال دهر الدهور. آمين».

وبعد أن انتهى ثاونا من مباركة العيال وقراياته، دقق في أوسطهم، ونظر في حدقته مليًّا، وكذا عمل في فمه، بعد أن فتحه بيده، ونظر لِثته، وكانت باهتة مبيضة، لا تشوبها حمرة، مثلما كانت حدقته على النحو ذاته، تصعّب ثاونا وسأل المرأة:

- هل يأكل هذا الولد كثيرًا؟

هتفت المرأة بدهشة، وقالت:

- أكثر مما يأكل أخواه مجتمعَيْن يا سيدي المُبجل، ولكن ليتك تُبارك الأصغر، فهو مُصاب بعِلة شيطانية دوّختني في عِلاجها، دون نتيجة، حتى يئست وخاب رجائي في برئه منها. ثم إنها رفعت جلباب الصبي، وأزاحت بعضًا من سرواله الداخلي الكتاني الخشن الساتر لعورته، حتى قرب نهاية فخذه، فبان على لحمه خُراج مُتقيح جدًّا باحمرار من كل جانب، وقد تورم موضع الفخذ كله عند هذا المكان.

تأوه ثاونا لما رأى ذلك، فصلَّب وقال للمرأة بجد:

- تبًّا للشيطان أيتها المرأة الطيبة. هذا الخُرّاج خطر بحق الرب، وقد يودي بالولد، إذا ما ظل على هذه الحال.

ثم إنه قام وهمّ إلى موضع البغلين، وأخرج من جراب بغله حُقًّا، فتحه بسرعة، وسألني أن آتيه بواحدة من أوراق التوت الطرية اليانعة، مكتملة النمو، فلما قطفت واحدة قدمتها له، وضع عليها بعضًا من الدهن الذي بالحُق، وقال للمرأة:

- عندما تعودين إلى دارِكِ، اغسلي جيدًا ذلك الموضع من الفخذ بالماء الدافئ، واعصري ما بالخراج من قَيح بخِرقة كتان طاهرة، ثم ضعي من هذا الدهن عليه، وعليكِ أن تغمسي خِرقة الكتان جيدًا في صحن مملوء بعرق البلح، وكذا عليكِ مسح أصابعكِ ويديكِ جيدًا بعرق البلح؛ حتى لا يصيبكِ في يديكِ ما أصاب ولدكِ في فخذه. افعلي ذلك مرة عندما يفيق ولدكِ في الصباح ومرة قبل نومه في الليل، على أن تلفّي موضع المرض بخِرقة طاهرة مغموسة في عرق البلح كذلك.

ثم إنه التفت إلى الطفل الآخر، وقال:

- إن ولدكِ هذا مُصاب بالدودة الشيطانية المُسماة «بند»، وقد تمكنتْ منه واستقرت في جوفه، وهي تأكل ما يأكله جميعه؛ لذا فهو مصفر هزيل، لذلك عليكِ إعطاؤه شرابًا من صمغ السليخ ممزوجًا بزهر النعناع الفلفلي مع الصاس الذي يسمونه - بلسان العرب - الآن الخروع، على أن يؤخذ قبل التريق، بعد رجّه جيدًا في قارورة لمدة ثلاثة أيام، حتى تموت الدودة وتخرج من جوفه مع ما يخرج من فضلات، وإذا تقيأ مرة، فلا تخافي، فهذا من الأمور المعتادة عند تناول مثل هذا الشراب، ومعناه

أن الترياق قد بدأ يُفني الدودة وهي في سبيلها إلى الموت والنزول، ولو شرب الشيح المغلي قبل النوم كل ليلة فسوف يأتي النفع سريعًا، ويخلص الولد مما هو فيه.

صمتت المرأة قليلًا، ثم قالت بعد تردد:

- ولكني يا سيدي أربط حِجابًا له داخل ملابسه، فهل أتركه في موضعه مع ذلك، أم أزيله وأعمل الدواء لا غير؟

رد ثاونا بتعجب:

- أي حِجاب أيتها المرأة؟

قالت بتوجس:

- حِجابٌ حافظ صنعه لي رجل مشهور بذلك في نواحينا، وقد أعطيته مقابله ثُمن بُر ونصفَي فضّة.

- أريني الحِجاب.

قال ثاونا.

مدت المرأة يدها، وأدخلتها تحت جلباب الصبي، ثم أخرجت لفيفة صغيرة كانت قد ربطتها بحبل من الصوف ولفّته حول بطنه، ليكون الحِجاب على موضع السرة منه، فلما أخذ ثاونا اللفيفة، وكانت قطعة من القماش الكتاني الأبيض وقد خُط عليها بالقلم الأحمر بكتابة قبطية، راح يقرأ ليسمعني: «أنا خرجت من مدينة آن شمس مع قسوس معبدها الكبير ومع أصحاب الحماية وملوك الأزلية والوقاية. أنا خرجت من صا الحجر مع المعبودات الأمهات اللاتي يراعينني بحمايتهن ويلقنني العزائم عن سيد جميع الأشياء بقدر ما توجد أبواب منها. وهذا لأجل أن يذهبن الآلام الصادرة عن كل معبود والمرض من رأسي هذا ومن جيدي هذا، ومن ذراعيّ هاتين، ومن لحمي هذا، ومن أعضائي هذه؛ ولأجل أن يعاقبن سفلة الرؤساء الذين أدخلوا في لحمي هذا المرض وسحروا عظامي هذه، حتى إن الوجع دخل في لحمي هذا وفي رأسي هذا وفي ذراعيَّ هاتين وفي جسمي وفي أعضائي هذه بحق شفقة رَعْ القائل: أنا أحميه من أعدائه، وبحق مرشده هرمس الذي يبلغه الكلام، ويبدع الكتب، وعنه يأخذ العلماء والأطباء جميع المعارف فيستمدون منها ويحلون مشكل كل غامض، أنا أحدُ الذين يحبهم المعبود ويجعلهم أحياء، فالمعبود يحييني ويحفظ حياتي.

هذا هو كتاب الشفاء لكل مرض، فهل لإيزيس أن تشفيني كما شفت حورس من كل ألم أصابه من أخيه ست حينما قتل أباه أوزوريس؟ فيا إيزيس أنتِ الساحرة الكبيرة اشفيني وخلّصيني من كل شيء مكدر رديء شيطاني، ومن أمراض اللبسة والأمراض المقتلة والخبيثة بأنواعها التي تعتريني، كما خلصتِ وأنقذتِ ابنكِ حورس.. فها قد دخلت النار وخرجت من الماء، فهل من الممكن عدم وقوعي

في الشرك هذا اليوم، بقولي - أنا صغير وجدير بالشفقة – يا رع أنت الذي قرأت هذه العزيمة على جسمك، يا أوزوريس أنت تُعبد لإجلالك - يتلو رع لأجل جسمه ويُعبد أوزوريس لإجلاله - هيا خلّصاني من كل شيء مكدر أو رديء، أو شيطاني ومن أنواع الحميات الخبيثة والمقتلة».

سكت ثاونا دون أن يقول شيئًا، وبدا كمَن يفكر في أمر من الأمور، ثم صلّب وقال:

اسمعي أيتها المرأة الطيبة. هذه تعويذة قديمة، لا نفْع منها في الشفاء من المرض، أنصحكِ ألا - تضعيها لولدكِ، فالرب هو الحافظ وهو الشافي من كل عِلة، وعندما تعودين إلى داركِ احرقيها، أو ارميها بعيدًا في أي مكان ولا تعودي لعمل مثل هذه التعاويذ أبدًا عند أي ساحر أو خلافه.

لكن ما إن قامت المرأة من بين يديه وهمت بالانصراف، حتى عاد يقول لها:

على أي حال، إذا كنتِ تتوسلين بها إلى شفاء ولدك، وتظنين أنها ستجلب له النفع، أرجعيها إلى - الموضع الذي كانت عنده كما كانت من قبل.

فرحت المرأة جدًّا لما قال ثاونا ذلك، وكان الغم والاسترابة قد ظهرا على وجهها قبل ذلك، فلما ذهبت قال ثاونا:

لقد قلت لها أن تحتفظ بالتعويذة؛ خوفًا من ألا تعطي ولدها الدواء؛ فعوام الناس من العلمانيين، - وخصوصًا النساء، يعتقدون كثيرًا في مثل هذه التعاويذ والأحجبة التي تعود إلى أزمنة الوثنية السحيقة، وما الأسماء التي في هذه اللفافة إلا أسماء آلهة قديمة عُبدت زمنًا على هذه الأرض.

كنت مشغولا بمعرفة الدهن الذي قدمه لعلاج ولدها الآخر، فانتهزت الفرصة وأنا أقول له:

فليرحمهم الرب يا ثاونا، هؤلاء الناس الذين يخلطون الوثنية بالديانة الحقة دون قصد؛ بسبب - ضعف علمهم وخضوعهم للهرطقات، لكن أليس الدهن الذي قدمته لها هو الدهن الذي رأيت مثله كثيرًا في نواحينا البشمورية في الماضي؟

رد ثاونا محاولًا إفهامي:

لا.. يا بدير، إنه ليس دهن الحوت الذي تقصده، وإن كان يشبهه، لكنه دهن معمول من أوراق - الصفصاف وأوراق الرجلة وعصارة الحلوة المرة والزعفران وزلال البيض وقليل من الأفيون. يُسحق مجتمعه، ثم يضاف إليه بعض من النبيذ النقي، ويستخدم كما سمعتني أصف للمرأة منذ قليل.

هجست أقول له بما يدور في داخلي:

لكن الولد ضعيف جدًّا وربما كان مبليًّا بعِلة أخرى غير دودة الشيطان. الرب أعلم -.

لا أعرف لماذا دخلني وأنا جالس أنظر إلى المرأة وأطفالها أن هذا الطفل لا بد أن يموت، ورُحت أتفكر في موت الأطفال والرضَّع، وأنا الذي أشهد موتهم كثيرًا، عندما يأتي أهاليهم بهم إلى البيعة للصلاة على أجسادهم قبل دفنهم ويتوجب عليّ عندئذ عمل ما تتكلفه الجنازة، وأؤجر على ذلك. كانت مسألة موت الأطفال تحيرني كثيرًا فسألت ثاونا:

- أترى يا ثاونا أن الله يأخذ الأطفال كثيرًا لأجل ذنوب والديهم.. أم لأمر آخر؟

رد ثاونا قائلًا:

- لا تظن يا ولدي ذلك. لكن ينظر الله جنس البشر، وقد عمل أكثرهم إرادة الشيطان باهتمام باطل، والجحيم عامر، والنعيم الفردوس خالٍ، فيأخذ الأطفال الذين ليس لهم خطيئة إلى الفردوس موضع الرحمة.

عُدت أسأله:

- ولماذا أخرج الله الشيطان من السماء من قبل أن يخلق العالم والناس؟

فأجابني وهو يتابع بنظره خنفسًا قد حمل فتيتة خبز مما تساقط من أكلنا:

- يا ولدي، ومَن أنا البائس الحقير عند هذا القول؛ حتى تسألني عنه؟

لكني أكثرت عليه اللجاج والطلبة في السؤال، فقال لي: قال القديس غريغوريس الثاولوغس: «إن الشيطان كان منذ أن خلقه الله يسعى بأصحابه الملائكة إلى الله، وكان الله يُمهله ويصبر عليه، فلما خلق الله سماء جديدة، وأرضًا جديدة، وخلق الإنسان بصورته ومثاله، وقد سبق في علم الله أن الشيطان مُحب للكبرياء، فأمره أن ينظر إلى آدم وحسن منظره، فأخذ معه العسكر الذي جعله مقدَّما عليه ومضى إلى حيث آدم، فلما نظره تعجب منه، وقال لأصحابه: أريد أن أنصب لي كرسيًّا على السُّحب، وتكون الجبال العالية تحتي، وأكون مثل العلي، فيكون العالم كله في قبضتي وأملك عليه، ثم إنه صعد إلى السماء، فقال الله له: أأعجبك ما رأيت ورضيت بالعالم المخلوق؟ لعلمه بضميره، ثم قال له: قد جعلتك رئيسًا عليه. وقال له: كل هذا لئلا يسقط من المجد الذي كان فيه، وكان هو يحفظ الشر، وفكره فيه السوء، ثم إنه بعد ذلك تأمل فقال: أنا أريد أن أعرف كيف اللاهوت، لكي أفعل ذلك إذا نزلت ولا تبقى لي حاجة عند الله بعد هذا. وهذا ما كان يهتم به، وأراد أن ينظر اللاهوت، فدخل في وسط الملائكة بسرعة فأمر الله ربوة من قوات الملائكة السمائية أن تحطه إلى الجحيم الأسفل في الظلمة البرانية هو وكل مَن معه، وهذا ما أظهره الله لغريغوريس الثاولوغس، وهو الذي وضع لنا ذلك، والمجد لله إلى أبد الآبدين».

ثم إننا قمنا فسحبنا ركائبنا إلى حافة النهر، ونزلنا بها قليلًا حتى شربت وارتوت، وكنا أثناء الطريق نعلفها بالفول المنياوي والحشائش، فلما كفت عن الماء، أفلنا راجعين إلى الطريق وقد توكلنا على

.الله لندخل أتريب قبل حلول الظلام

خُيّل لي ونحن نهمُّ بدخول مدينة أتريب، أنني قد مررت على هذا المكان من قبل أثناء هيامي وتجوالي بعد هربي من بلدتي ترنيط، وقبل العثور عليَّ هائمًا في البرية التالية لقصر الشمع من ناحية حلوان؛ إذ كانت صورة برباها الظاهرة على البُعد من الأماكن التي أظن أنني رأيت مثلها من قبل، فلما صِرنا عند أسوارها العالية وأبوابها العديدة التي أحصيتها عند وصولنا فكانت اثني عشر بابًا. دخلنا من بابها الكبير المسمى باب الخلق، فوجدناها مدينة عظيمة عامرة بالأسواق مليئة بالناس، وكان بها خليج تجري فيه مياه النيل تتفرع إلى ترع صغيرة، يحمل منها الماء إلى المساكن، أما بيوتها فبدت في عيني غاية في الحُسن، خصوصًا تلك الواقعة على شارعها الأكبر المتعامد على خط النيل، وكان به متنزه جميل، وكان هناك شارع أصغر عمودي على شارعها الأكبر ويشقها من جنوبها حتى شمالها.

قادنا بعض الطيبين - لما سألناهم - إلى الدير مباشرة، وكان يُسمى دير العذراء على مسمى بيعتنا في قصر الشمع، وهالنا أن أبوابه لم تزل مفتوحة على الرغم من أن الوقت كان حوالي درجتين قبل الزوال، فلما دخلنا رأينا أناسًا كثيرين من الرجال والنساء يبيعون ويشترون، وبعضهم يأكل ويشرب، والأطفال يمرحون، وكان جل الناس من الفلاحين، وقد جلبوا معهم شراب السكر والجلاب ومثارد السميذ، وقِطع الخمير، والأطفال يشخللون بشخاليل الخوص، وهم في أثواب جديدة ولا يكفون عن النط والصياح والتهييص.

هتف ثاونا وقد أخذ بمشهد الناس غير المتوقع:

فليرحمني الرب يا بدير، اليوم هو العيد السنوي للبتول، فهو يُقام في الحادي عشر من بؤونة. إذن - فقد وصلنا هنا يوم العيد.

رددت: آه. ثم تابعت مبهورًا مشاهد العيد، وقد ذكّرتني بمشاهد الأعياد التي طالما عشتها في بلدتي الحبيبة ترنيط، وإن كان ملبس النساء هنا في أتريب أجمل وأبهى من جلابيب نساء ترنيط؛ إذ إن معظمها قد صبغ بألوان الأرجوان الزاهية، والزعفران الأصفر، وقل ما صبغ منها بالنيلة الزرقاء كما في ترنيط، كما أن نسيجها ناعم رقيق يشف ويرف على الجسد.

أَخَذَنا قيّم الدير إلى ناحية مقر الأسقف، فاستقبلنا بحفاوة وكرم، وقد عرفه ثاونا بنا، وبأسباب مجيئنا، فراح يسأل عن الأحوال في مصر العتيقة وفي بيعتنا، فأخذ ثاونا يفضفض عما يعتريه من قلق، ويقول:

نحن في كرب طوال الوقت، فالوالي يضيّق علينا بالخراج، مثلما هو حادث في كل مكان، وعينه - على بساتين البيعة ومَعاصرها، وهو يرسل بين الحين والحين مَن يُحصي القائمين عليها والعاملين في أرضها وزرعها، وليشم كل مَن يجده هناك، ومَن يكن غير موشوم بعد بعلامة الأسد، يتعرض لمشقة عظيمة، وأنت تعلم أن ذلك كان قد سرى، منذ سنة ٤٢٢ شهداء، على الفلاحين القرارية

بغرض حصر الضرائب، لكن ذلك صار يسري علينا الآن نحن أهل البيع والأديرة، والتشديد في مصر العتيقة على ذلك أكثر من أي موضع آخر في البلاد؛ بسبب أنه صار في بساتيننا من القبط والمسلمين مَن يعمل بالفلاحة، وكذا بالمعصرة، فلزم تمييز هؤلاء عن تلكم. أما في الفسطاط فالجند يثورون بين الحين والحين بسبب انقطاع الرواتب، وبعضهم صار يعمل لدينا في البساتين سِرًّا حتى يجد ما يتقوت به، وقد عطفنا عليه، وأثناء قدومنا إلى هنا في أتريب، قال لنا مقدم حراس الطرق الذي التقيناه إن الناس قد خرجت تطالب بالطعام في منية السيرج من نواحي شبرا.

تمتم الأسقف مؤمِّنًا على كلام ثاونا، وقال:

ليرحمنا الرب جميعًا، القلاقل في كل مكان. وأنا خوفي يتزايد على هذا الدير يومًا بعد يوم، - خصوصًا بعد حلول قبيلة كبيرة من قبائل العرب، ورسوها عند مشارف البلدة من ناحية الصحراء؛ فهي لا تفتأ تغير على زراعتنا وعلى الفلاحين؛ فتنهب الزرع وتفسد الأرض، بل إن الأمر وصل ببعض منها إلى حد خطف البنات والأولاد من الأهالي ونحن لا نملك من أمرنا شيئًا، وقد سألنا الوالي أن يحمينا من الإغارات عدة مرات، دون جدوى، والآن الخوف كله أن يدخلوا علينا الدير ذات مرة وينهبوه، وهذا الدير إن ضاع ضاعت معه المدينة واندثرت؛ لأن معظم أهلها من المشتغلين في أراضيه ومعامله، خصوصًا معمل نسج الكتان، ومعمل الزجاج، فلدينا زجاج يضارع أفضل أنواع الزجاج المعمول في دير الزجاج الواقع ببرية هبيب قرب مريوط، وأنا أتضرع للرب ألا يحدث ذلك، خصوصًا وأن كثيرًا من الأهالي قد تركوا بيوتهم، وذهبوا للالتحاق بالبشموري كمحاربين في جيشه بالأراضي الموحلة.

صلّبنا جميعًا طالبين رحمة الرحيم، ثم إن قيّم الدير قادنا إلى موقع قلاية لنستريح فيها قليلًا حتى يحين المساء.

لبثنا في القلاية وقتًا، وسرعان ما حل المساء فقمنا وشاركنا الرهبان الصلاة، ثم تلونا بعض الساذوكيات، وفي الآخر تعشينا عشاء ربانيًّا خفيفًا، وكانت ساحة الدير لا تزال عامرة بالناس الذين أخذوا يوقِدون الوقايد والشموع لحلول الليل، أما خارج أسوار الدير فقد كان هناك لغط عظيم؛ إذ تخالطت أصوات الغناء مع دقات الطبول والمزامير، وراح الراقصون يشطحون في حلقات عديدة، ضمّت رجالًا ونساء على السواء، وقد بدوا جميعًا في حالة من النشوة الغامرة.

زفر ثاونا بضيق وهو يحادث الأسقف محتجًّا على كل ذلك اللهو داخل ساحة الدير وخلف أسواره، خصوصًا وأن ذلك لم ينقطع حتى أثناء إنشادنا المزامير وصلواتنا وتقديسنا، وكنا قد جلسنا معه بعد تناول العشاء، فقال الأسقف إنه حاول منع الناس مرارًا من فعل ذلك دون جدوى، وهو يخاف التشديد عليهم حتى لا ينفروا من الدين وأهله من الرهبان، خصوصًا أن معظمهم كان في الوثنية حتى عهد قريب، ولم يدخلوا حظيرة الإيمان إلا مؤخرًا، بعد ذلك وأثناء توجهنا لقلايتنا حكى لي ثاونا أن الأب شنودة رئيس الدير الأبيض المتنيح منذ زمن بعيد قال ناهيًا عن فعل العامة في الموالد والأعياد: «جميل جدًّا أن يذهب الإنسان إلى مقر الشهيد ليصلي ويقرأ وينشد المزامير ويطهر نفسه

ويتناول من الأسرار المقدسة في مخافة المسيح، أما مَن يذهب ليتكلم ويأكل ويشرب ويلهو، أو بالحريّ ليزني ويرتكب الجرائم نتيجة للإفراط في الشراب والبغي والفساد والإثم، فهذا هو الكافر بعينه. وبينما البعض في الداخل يُرتلون المزامير ويقرءون ويتناولون الأسرار المقدسة، إذا بآخرين في الخارج يملئون المكان بآلات الطبل والزمر.

بيتي بيت صلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص. لقد جعلتموه سوقًا لبيع العسل والحُلي وما شابه ذلك. لقد جعلتم الموالد فرصة لتدريب بهائمكم ولسباق حميركم وخيلكم. جعلتموها أماكن لسرقة ما يعرض فيها للبيع. فبائع العسل بالكاد يحصل على قليل من الزبائن المتشاحنين، أو يستخلص لنفسه شيئًا من الفائدة نظير أتعابه. حتى الأشياء التي لا يمكن أن تحدث للباعة في الأسواق العامة، تحدث لهم في موالد الشهداء.. يا للغباء؟ يا لعقولكم المغلقة؟ وإذا كانت بناتكم وأمهاتكم يعطرن رءوسهن ويكحلن عيونهن ويتجملن لخداع الناس الذين ينظرون إليهن، وإذا كان أبناؤكم وإخوتكم وأصدقاؤكم وجيرانكم يفعلون هكذا عند ذهابهم إلى مواطن الشهداء، فلماذا جعلتم لكم بيوتًا؟ هناك كثيرون يذهبون إلى الموالد لإفساد هيكل الرب وليجعلوا من أعضاء المسيح أعضاء للإثم والفُجر، بدلًا من أن يحفظوا لها قداستها وطهارتها من كل رِجس. دعوني أقول لكم بصراحة تامة إن كثيرين منكم يلتمسون لأنفسهم عذرًا قائلين: ليست لنا زوجة أو ليس لنا زوج، فلا تجعلوا زيارتكم لموالد الشهداء، فرصة لتدمير أجسادكم في المقابر التي حولها أو المباني القريبة منها أو في أركانها».

هتفت لثاونا متعجبًا:

كان الأب المقدس شنودة حاضرًا بيننا، يشهد بعينه ما يحدث هنا في هذا المولد الآن، وهو ما يجري مثله في كل الموالد الأخرى بالبلاد فيما أظن، فأنا أذكر من أيامي في ترنيط أن وقت خروجنا إلى الموالد، كان من أبهج الأوقات، ونحن كنا نُقيم مولد القسيس إستيفانوس في بشنس من كل عام، ونفعل فيه فعل هؤلاء الناس هنا في دير أتريب. يا لله!

ولم أفض لثاونا بما فاضت به مشاعري وأنا أقول ذلك، فلقد أخذتني الذكرى، وعصفت بروحي؛ إذ إن ولعي بالغالية آمونة بدأ عند ذلك الوقت الربيعي الجميل، كنت أنا وكذلك هي في مقتبل اليفاعة والصبا، فوقعتْ عيني عليها لأول مرة، وقد خرجت مع أخواتها وأمها، وهي ترتدي ثوبًا من الكتان الأبيض الخفيف الموشَّى بخيوط من الحرائر المذهبة، فبدت لي أجمل من بسنتة الماء اليانعة، وأروع من زهرة الرمان المتوجهة، لم أتمالك نفسي لمرآها واشتهاها قلبي الآثِم، وضعفت روحي، تحت وطأة رغبتي فيها، فرُحت أتقرب منها وقت أن بدأ الرقص، وأخذت أهمس في أذنيها بأجمل كلمات الوجد، حتى سَرت عدوى روحي في روحها، فأخذتها وابتعدنا عن حلقات الراقصين، وزحام الناس في المولد، وجرينا باتجاه الحقول فدخلنا دروة من دورات الفلاحين الطينية المعمولة في الغيطان للاستفاءة وقت القيظ، ورُحنا نتهامس وأنا أقول لها: يا أجمل بسنتة على مياه النهر، يا وردة البلاد الجميلة، يا رمانة الشتاء وبرتقالة الصيف، أما هي فقد همست لي بأجمل كلمات الحب وشعرت أن قلبها فاضَ بما فيه وكأنه فيضان النيل إذ يجيء فجأة كل عام، وأن قلبها بات مثل قلبي، ريشة لا تملك أمرها وقد طوحها النسيم.

ولم نتمالك أمرنا، فأخذتنا جاذبية الأجساد، وتملّكنا جنون الأرواح إلى الحد الذي أقسمنا عنده على الحب والمودة ما بقينا، وأعلنت لها أنني سأطلب من أبي أن يزوجها لي بعد موسم الحصاد، لكن القدر كان أسبق، فكان من أمري وأمرها ما كان.

أظن أنني سرحت بعيدًا بأفكاري وأنا أستعيد كل ذلك؛ إذ لم أنتبه إلا لنهاية كلام ثاونا، وهو يقول:

ثم إن الأب شنودة مات سنة ٤٥١ بتواريخ الروم بعد رياسة دامت ٦٦ عامًا للدير. وهذا معناه أن - كثيرًا من الناس لم يتخلوا عن عادات الوثنية الأولى حتى الآن. يا رب ارحم كيراليسون.

نِمت نومًا متقطعًا في القلاية طوال الليل، فقد كانت الحرارة شديدة خلافًا لما هي عليه عادة في هذا الوقت من السنة، وقد ترطب الهواء ترطبًا شديدًا ببخر النيل، على الرغم من أننا لم نبلغ شهر مسرى بعد، وكانت أصوات الطاربين والراقصين خارج الدير مع طبلهم وزمرهم لا تتيح مجالًا للنعاس والنوم، إضافة إلى هائمات الريف من الناموس والطائرات المتغذية على أخضر الأرض، وقد سهرت تطن طوال الليل، وما إن قارب الفجر على الانبلاج، وبينما كان النوم يأخذني حينًا والصحو حينًا آخر، إذ سمعت أصوات صراخ وهرج في الدير، فخرجت من القلاية مع ثاونا سريعًا لنستجلي الأمر، وكان قد هبَّ مفزوعًا عند سماعه ذلك. تتبعنا مصدر الأصوات في الظلام، حتى وصلنا إلى الجناح الخاص بقلايات الرهبان عند الطرف الآخر من الفناء المواجه لقلايتنا، فوجدناهم قد تجمعوا حول راهب بينهم، وقد أخذوا في ضربه وركله، بينما هو يصرخ ويستغيث، ثم سحبوه واقتادوه إلى قلاية الأب الأسقف سرابيون رئيس الدير ونحن معهم، فأمرهم أن يكفوا عن ضربه ويتركوه ليتمكن من استجلاء الأمر، وما إن كفوا عن ضربه وتركوه ليتمكن من استجلاء الأمر وهدءوا قليلًا حتى تقدم راهب، كنا قد تعرفنا عليه أثناء العشاء واسمه نركيصوص، حاملًا لفائف أوراق بردية خاصة بالراهب المضروب، وكان بعض الرهبان قد أشعلوا خلال ذلك وقيدة ليستضيء بها الجميع، وقال نركيصوص إنه لما فتح تلك الأوراق، وجد بها هرطقات ودسًّا على يسوع والكنيسة، فأمر الأب سرابيون بإحضار المزيد من المشاعل والشموع، فلما أحضروها، أمر الراهب المضروب أن يتلو على الجميع، والذين كانوا بقمصان النوم الخفيفة، ما بها بعد أن استفهم عن ملكية الراهب لهذه الأوراق، فلما قرأ ما بها، اتضح أنه فسر كلامًا من الكتب العبرانية على غير وجهته، وأخفى ما فيها من نبوءات الأنبياء عن السيد المسيح، حتى إنه لما جاء إلى ذِكر الشجرة التي كان فيها كبش إبراهيم الخليل مربوطًا بقرنيه، وفسر الآباء أنها مثال خشبة الصليب، أخفى ذِكرها وأزاله، واتضح أيضًا من قرايته أنه فسّر كتبًا كثيرة كذبًا، كما أن له أقوالًا مخالفة كلها شقاق، مثل قوله: إن السيد المسيح مولود من مريم ويوسف، وأنكر قوة الولادة العجيبة، وإن السيد المولود بلا تعب، هكذا وُلِد من العذراء بلا تعب، هو الإله وهو الإنسان بالحقيقة وهو واحد من اثنين، وخالف الإنجيل الصادق كما شهد متّى، وما قال في الولادة ولا تقدر أبواب الجحيم أن تقاومها، واتضح من قرايته للفائفه المكتوبة بخط يده الآثمة، أنه قرأ كتب الصابئة والمعتزلة، وكان يتلو ذلك دون أن يعتذر أو يستغفر، بينما نحن جميعًا نصلب ونستغفر ولا تكف أفواهنا عن قول: حاشا لله. وكان الأب سرابيون صابرًا عليه، وعلى سماع قوله الطمث حتى يستجلي الأمر منه كله مرة واحدة، ثم إن الأب سأل نركيصوص عن كيفية وقوع أوراق الملعون فلاأس - وهذا كان اسمه - في يده، فقال

نركيصوص إن فلأس دفعها إليه بعد صلاة الليل ليقرأها، وإنه كان قد تجادل معه في الصباح، فقال الملعون له إنه يعتقد بأقوال الألعن منه آرابيا، وخصوصًا مقالته بأن النفس تموت مع الجسد، وتقوم معه في يوم القيامة، فصلّب الرهبان جميعًا بعد أن قال الأب سرابيون: إن هذه مقالة مفسودة أبعدتها البيعة المقدسة بعد انعقاد مجمع للنظر فيها، ثم إنه آمن بأن الابن مخلوق والروح القدس، فما إن بلغ نركيصوص هذا الحد من أقواله حتى أمره الأب سرابيون بالسكوت، ثم إنه سأل فلأس عن اعتقاده في هذه الهرطقات، فلم يرد ولم يستغفر، وعند هذا الحد، أمر الأب سرابيون أن يجُر الملعون إلى سرداب مظلم بالدير، وأن يمنع عنه الطعام، وألا يُعطى إلا شربتَي ماء كل يوم حتى يتوب، ثم إنه أمر بإحراق هذه البرديات الطمث، وأن تُفتش قلاية فلأس جيدًا ويُخرج كل ما فيها، وأن تُطهر بطهورات كثيرة حتى تَخرج ما بها من شياطين، وأن تُقرأ بها المزامير عند صباح غد بعد فعل ذلك.

فأخذ الرهبان فلأس وظلوا يضربونه حتى سحَّ دمه، وتمزقت ملابسه، وبان لحمه، فلما نظروا عورته، وجدوا قلفته كما هي، وظهر لهم أنه غير مُختتن، فاكتملت فضيحته وتأكدت نجاسته، وتيقن الكل من أنه ليس مسيحيًّا تاوضوسيًّا حقًّا.

وهكذا عُدنا إلى قلايتنا جميعًا لنلبث بها، حتى وقت صلاة باكر عند الفجر.

كانت هذه هي المرة الأولى منذ التحاقي بالبيعة، التي أرى فيها إنسانًا هرطقيًّا بعيني، وأسمعه بأذني؛ لذا كنت مضطربًا جدًّا، وزاد اضطرابي ما رأيته من ضرب وبهدلة له، وهو لا يقوى حتى على رفع رأسه والنظر إلى أحد لشدة حنق الجميع عليه وكراهيتهم له، فما إن دخلت القلاية حتى ارتميت على فراشي وطلبت من ثاونا - بكل أدب ورجاء – أن يعطيني شربة ماء من القلة الموضوعة بجانب كوة القلاية، فلما شربت واستعدت نفسي قليلًا، قلت لثاونا وكنت في غاية الانفعال:

أنا حتى الآن لا أكاد أصدق كل ذلك الذي رأيته، كيف يجرؤ بربك واحد كافر كهذا الفلأس أن - يُخفي أمره ويدلس بالعقيدة على إخوانه في الدير؟!

ما طينته بحق الرب؟! والله أظن أنها من طينة الشياطين يا أخي!

تنهد ثاونا وقال بعد أن تناول القلة مني وشرب:

الشياطين ليسوا من طين يا بدير، إنهم من نار، وربما كان فلأس هذا ملكانيًّا، وقد ثبتت حقيقته - بمسألة الختان، فقد يكون اندسَّ في الدير لسبب من الأسباب. ربما جاء ليتعرف على أحوال كنيستنا الديرانية، فهو لا يمكن أن يكون يعقوبيًّا مثلنا، فنحن أشد تحفظًا في ديننا وممسكون بنظام الديانة أكثر من الملكية، ومسألة الختان هي من مسائل الخلاف بيننا وبينهم في الفروع، فنحن القبط متبعون آثار أبينا إبراهيم في الختان الذي أمره الله تعالى به؛ حيث قال له: «أكل نفس لا تفعل هذا تفرز تلك النفس من شعبها». وأطاع إبراهيم مع شخيوخته اللهَ واختتن، والقبط يتبعون ناموس الله في ذلك هنا في العتيقة. والسيد المسيح له المجد صاحب الشريعة الجديدة دخل بيت الختان واختتن، وإلا فما كان اليهود يجدون عليه في صلبه عِلة أكثر من أنه غير مختون، ولولا أكمل سُنّة التوراة في الختان ما

كتب اليهود اسمه في منظرة الكهنة ليخدم في الهيكل، كما شهد إنجيل لوقا أنهم دفعوا له السفر ليقرأ، وكان الفصل الذي قرأه: «روح الرب عليّ، لهذا أرسلني أُبشر العميان بالنظر، والمأسورين بالتخلية، وأبشر بالسنة المقبولة للرب».

آه. قلت. ثم واصلت قولي -:

كنت أظنّ أن الفرق بين القبط والملكية هو في أصل واحد فقط وهو الاتحاد -.

قاطعني ثاونا موضحًا:

لا.. لا يا بدير. فنحن مختلفون في ثلاثة عشر فرعًا غير الأصل، ومتفقون في الثلاثة الأقانيم - ووحدانية الجوهر.

فنحن الذين على مذهب يعقوب، نعتقد أن المسيح له طبيعة واحدة من طبيعتَيْن ومشيئة واحدة من مشيئتَيْن وأقنوم واحد من أقنومَيْن؛ لأن أقنوم الابن الوحيد الكلمة له المجد لمَّا شاء اتحاده بطبيعة البشر أخذ من الظهر المريمي ناسوتًا كاملًا ذا نفس عاقلة وجعله واحدًا مع لاهوته من غير اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة ولا تغيير، فصار الناسوت المأخوذ من الظهر المريمي مع كثافته بهذا الاتحاد الذي يفوق العقول البشرية من الابن الأزلي قبل كل الدهور، واحدًا في فعله الإلهي من إشفاء المرضى وإقامة الموتى وتطهير البرَص وفتح عيون العُمي للنظر.

قاطعته بدوري متسائلًا:

ولكن ما علاقة الملكانية بالكتب الممنوعة؟ لقد اتهمه فلأس بقراءة كتب ممنوعة؟ -

فبدا الحزم في صوته وهو يقول:

بدير، فلنُنهِ حديثنا هذا ونُصلِّ ثم ننام. الكتب الممنوعة هي للصابئة والمعتزلة، ولا داعي للخوض - في أمرهم، وأمر فلأس الملعون.

فليكن كل منا مهتمًّا فيما يعنينا ويخصنا. الدنيا ليل، والشياطين تسعى في الظلمات، فلا داعي لأن نفتح لها بابًا تدخل منه وتهيمن.

ثم أخذ يتلو: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب. انظروا، اسهروا، وصلّوا لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت. كأنما إنسانٍ مسافر ترك بيته وأعطى عبيده السلطان، ولكل واحد عمله، وأوصى البواب أن يسهر. اسهروا إذًا لأنكم لا تعلمون متى يأتي رب البيت، أمساءً أم نصف الليل، أم صياح الديك، أم صباحًا لئلا يأتي بغتة فيجدكم نيامًا، وما أقوله لكم أقوله للجميع: اسهروا».

غادرنا الدير بعد الصلاة مباشرة، والشمس عروس مُزهزهة في سمائها، فتركنا أتريب لنواصل رحلتنا إلى الأراضي الموحلة دون أن ننتظر لنقف على ما كان من أمر الملعون فلأس، وكان الرهبان قد زودونا بزوّادة من عسل أتريب المشهور بجودته وحلاوته، وقدرته على شفاء الأمراض؛ لأن النحل العامل للعسل أكثر غذائه على زهر البلسان الذي يقال إنه يكثر وينمو جيدًا في هذه النواحي منذ الزمن البعيد، وكذا قدموا لنا جرّة صغيرة من السمن المصنوع من أجود أنواع حليب الجاموس المنتشر بقرى المدينة، وكان من عادة أهل القرى في هذه النواحي، كما قيل لنا، أنهم يتركون هذا الجاموس يرعى طيلة الوقت في أحشاش البرية دون خوف وكأنه يرعى في الحقول، على أن يجمع للحَلْب والمبيت أواخر النهار. وقد علمنا كذلك أن العديد من أراضي قرى أتريب هي تبعية ديرها؛ لذا فهذا الدير يعد من أعظم وأغنى الأديرة في البلاد، وقد شاهدنا الفلاحين وهم منصرفون إلى أعمالهم في الغيطان، فكانوا كلما مررنا بالقرب من بعضهم يرفعون رءوسهم ويُحيوننا باحترام وإجلال، أو يسألوننا أن نُباركهم. كما قدم لنا بعضهم جميزًا وتوتًا وغيرهما مما كان يُجمع من ثمار وقتئذ.

هكذا رُحنا نجتاز القرى حتى وصلنا إلى البرية، وبقينا سائرَيْن، حتى وجدنا نفسَيْنا أمام عمارة مهيبة شامخة، قال لي ثاونا إنها بربة أتريب القديمة.

بقيت وقتًا واقفًا أمامها، مأخوذًا بمشهدها العظيم، وقد رأيت عمارتها قائمة على عمدٍ طوال ضخام من الحجر الأسواني الأسود، المُكلل بتيجان حُفرت على شكل زهرة البسنت التي لم تتفتح أوراقها بعد، وقد بدت لي هذه التيجان وكأنها تيجان أعمدة بيعتنا التي تركناها في قصر الشمع بمصر العتيقة. سألت ثاونا أن ندخل قليلًا لنشاهد هذه البربا من الداخل؛ لأن البرابي القديمة العظام قلَّما كانت توجد في أراضينا البشمورية، ربما كان ذلك بسبب كثرة الماء والغمر في مُجمل هذه الأراضي؛ مما يعرض العمائر مهما كانت عظمتها للتلف. وكنت مدفوعًا برغبة الولوج ومشاهدة ما بداخلها؛ ربما لأن هذه المرة كانت الأولى في عُمري التي تسنى لي فيها رؤية بربة كهذه من برابي الكَفَرة ومشاهدتها عن قُرب. بدا ثاونا مترددًا قليلًا، لكنه سرعان ما تحمس للدخول، وكأن هاتفًا قد هتف به أن يفعل. نزلنا عن ركائبنا، ودخلنا مُجتازين العتبات الحجرية العالية، وما إن انتهينا، حتى وجدنا نفسَيْنا داخل بهو فسيح ممتد، وقد خرجت جوانب من حوائطه وعُمده، أمام ما تبقى منها، فهو مُزين منقوش بالنقوشات البديعية التي لم تقع عيني على جمال مثلها قط؛ إذ حفلت بتصاوير وأشكال غاية في الذوق والتناسق. أخذ ثاونا يُصلب وهو يتأمل النقوش. قلت له:

- يا الله! بربا عظيمة يا ثاونا! يبدو أنها كانت ذات شأن في زمنها القديم، وربما بناها واحد من ملوك العماليق الأقدمين!

لم يرد ثاونا؛ إذ كان منهمكًا في تأمل النقوش والتصاوير المحفورة على بقايا الحوائط، وبعد ذلك قال لي إنها كتابات سُجلت بالقلم العتيق.

لا أدري، لماذا خُيل لي أن ثاونا يقرأ جيدًا ويفهم ما هو موجود على هذه الحوائط، فلقد نظرت إليه وراقبته خلسة أكثر من مرة أثناء تجوالي وتفقدي للبهو، فخُيل إليَّ أنه يحرك شفتيه حركة القارئ للكتابات، وهو يُصلب بين الحين والحين.

قلت له لأخرجه من تأملاته، ولأجاذبه بعضًا من حديث:

أترى هذه العُمُد العِظام يا ثاونا؟ أليست أخت أعمدة قاعة الصلاة الجامعة في بيعتنا المحروسة - بقصر الشمع؟! وكأن مَن عمل تلك، هو مَن أبدع هذه التي نقف أمامها ونراها الآن!

تنهَّد ثاونا، وردَّ:

في بيعتنا فقط؟! قل في كل البِيَع والمساجد، ألم ترَ أعمدة المسجد الجامع في فسطاط المسلمين؟ إن - عمارة بِيَع القبط، وعمارة مساجد المسلمين، ما كان لها أن تكون على ما هي عليه من العظمة والجلال، لولا هذه البرابي يا بدير؛ لأن العُمُد العظام، والأحجار الجيدة من الجرانيت والبازلت وخلافه، والتي شُيدت بها البِيَع والمساجد، إنما جيء بها من عمارة هذا البرابي، وخصوصًا برابي منف وعين شمس وأتريب لقربها من بابليون وقصر الشمع وفسطاط المسلمين. أما في مصر العليا فقد تحولت برابي بكاملها إلى كنائس وجوامع، ولم يَسْلم منها إلا ما كان بعيدًا عن الأعين، عزيزًا على الأيدي، واقعًا خارج القرى والبلدان. ولقد ظلت هذه البرابي لزمن ملاذًا ومقرًّا لكثير من المؤمنين المسيحيين الفارّين من اضطهاد الروم والوثنيين وملوكهم، وفي بربة إدفو دلائل تدل على دخول المسيحيين إليها والعيش تحت أسقف قاعاتها المسربلة بسخام الشموع والوقايد والأسرجة التي كان يستضيء بها هؤلاء الأتقياء أثناء قراءتهم المزامير وتأديتهم الثاذوكيات.

سكت قليلًا وهو يشخص ببصره بعيدًا، ثم واصل كلامه:

لكن هذه البربة لن تستمر على حالها وتَسْلم من الأذى؛ إذ سرعان ما ستختفي مثلما اختفت من قِبل - بربة عين شمس، وهي المدينة التي كانت تُسمى قديمًا «أون»، وهذه البربة كانت في الأصل هيكلًا يَحج إليه الناس ويقصدونه من أقطار الأرض في جملة ما كان يُحج إليه من الهياكل التي كانت في قديم الدهر، ويقال إن الصابئة أخذت هذه الهياكل عن هرمس الأول المُتكلم في الجواهر العلوية، والحركات النجومية، وبنى الهياكل ومجّد الله فيها.

ويقال إن هياكل هذه البربا، كانت عدتها في الزمن الغابر اثني عشر هيكلًا، وهي: هيكل العلة الأولى، وهيكل العقل، وهيكل السياسة، وهيكل الصورة وهيكل النفس، وكانت هذه الهياكل الخمسة مستديرة، والهيكل السادس هيكل زحل وهو مسدس، وبعده هيكل المشتري وهو مثلث، ثم هيكل المريخ وهو مربع، وهيكل الشمس وهو أيضًا مربع، وهيكل الزهرة وهو مثلث مستطيل، وهيكل عطارد مثلث في جوف مربع مستطيل، وهيكل القمر مثمن.

وعلّلوا عبادتهم للهياكل بأن قالوا: «لما كان صانع العالم مُقدسًا عن صفات الحدوث، وجبَ العجز عن إدراك جلاله، ويتعين أن يتقرب إليه عباده بالمقربين لديه، وهم الروحانيون، ليشفعوا لهم ويكونوا وسائط لهم عنده».

وعنوا بالروحانيين الملائكة، وزعموا أنها المدبرات للكواكب السبعة السيارة في أفلاكها، وهي هياكلها، وأنه لا بد لكل روحاني من هيكل، ولا بد لكل هيكل من فلك، وأن نسبة الروحاني إلى الهيكل نسبة الروح إلى الجسد.

وزعموا أنه لا بد من رؤية المتوسط بين العباد وبين بارئهم حتى يتوجه إليه العبد بنفسه، ويستفيد منه، ففزعوا إلى الهياكل التي هي السيارات، فعرفوا بيوتها من الفلك، وعرفوا مطالعها ومغاربها واتصالاتها، وما لها من الأيام والليالي والساعات والأشخاص والصور والأقاليم، وغير ذلك مما هو في موضعه من العلم الرياضي.

وسموا هذه السبعة السيارة أربابًا وآلهة، وسموا الشمس إلهة الآلهة ورب الأرباب، وزعموا أنها المفيضة على ألسنة أنوارها، والمظهرة فيها آثارها فكانوا يتقربون إلى الهياكل تقربًا على الروحانيين لتقربهم إلى الباري لزعمهم أن الهياكل أبدان الروحانيين، وكل مَن تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه.

وكانوا يُصلون لكل كوكب يومًا يزعمون أنه رب ذلك اليوم، وكانت صلاتهم في ثلاثة أوقات: الأولى عند طلوع الشمس، والثانية عند استوائها في الفلك، والثالثة عند غروبها. فيصلون لزحل يوم السبت، وللمشتري يوم الأحد، وللمريخ وللقمر يوم الجمعة.

طُفنا بالبربا قليلًا، كانت تماثيل عظيمة الحجم، دقيقة الصنعة، مُلقاة هنا وهناك، وقد تهشمت أجزاء منها، أو سُلب ما كان يغطي بعضها من ذهب على الرءوس وجوهر في مواضع العيون، وكانت أحجار كثيرة مُلقاة على نحوٍ مهمل. وقد تغطت برسومات ملونة بديعة، أو نقشت بالقلم المصور القديم. وقفت أتأمل كل ذلك بإعجاب، لكني كنت لا أكف عن اختلاس النظر إلى ثاونا بين الحين والحين، وقد داخلتني ريبة بشأنه، فقد تيقنت أنه يقرأ القلم القديم، وربما عرف مغزى هذه الرسوم والتصاوير، ويبدو أنه تنبه لذلك؛ إذ قال لي فجأة:

- هيا يا بدير، علينا أن نجدّ السير؛ حتى نصل إلى مكان مأمون قبل أن يليل الليل علينا، ونواجه مشاكل قد لا نتوقعها في الطريق.

هممت أن أسأله، هل كان يقرأ حقًّا ما هو منقوش على الأحجار؟ وهل هو مُلم بالقلم العتيق المنعدم الآن؟ لكني خِفت أن يظن ثاونا بي الظنون بعدما تذكرت ما كان من أمر الراهب، فلاأس، وخصوصًا أنني أبديت له إعجابي بالأصنام - وليسامحني الرب على ذلك – وقد حبست سؤالي، على الرغم من أن ثاونا لم يكن - فيما يبدو لي - كبعض من الكنسيين المتزمتين الذين أصادفهم في بيعتنا، بل كان واسع الصدر، غزير العلم، عميق الإيمان، وإن كان قد تردد عنه في البيعة أنه كان

في حياته العلمانية الأولى، قد درس في مكتب للصبيان ببلدته أخميم، كما تعلّم الحكمة والطبابة وفنون التصوير على يد عجوز مشهورة في هذه البلدة، يقال لها دلوكة، وأن هذه المرأة ظلت حتى موتها متمسكة بوثنيتها، وكانت تجل دين آبائها من عبدة الشمس، وأن المسيحيين المؤمنين، كادوا أن يفتكوا بها أكثر من مرة، كما جرى مع كثير من الوثنيين.

وفي النهاية تركوها، بعد أن طالبوا الجميع بتجنبها، فلما شاخت، ذهبت إلى بربا قديمة بالبلد، وظلت مقيمة فيها، حتى وجدها بعض البدو الرعاة ميتة هناك ذات صباح، وهناك مَن يقول إن المؤمنين فتكوا بدلوكة داخل البربة وهدموها، والله أعلم بذلك.

لذا كان بعضهم يتهامسون بين الحين والحين بأن ثاونا له في السحر والكيمياء والسيمياء، ويقال إن الأب يوساب أمر بتفتيش صومعته ذات مرة، لكنهم لم يجدوا عنده شيئًا يشين، بل كانت صومعته كلها - وكما هي الآن – مملوءة بكتب العقيدة، وكل هذا كان بسبب كتاب فسيولوجي، وجدوه يقرؤه ذات يوم في فناء البيعة، وهو كتاب به كلام وأساطير وقصص خيالية وتلميحات لاهوتية، فنصحوه بتركه، والفروغ إلى كتب اللاهوت الخالصة.

عند خروجنا من البربا وكانت واسعة جدًّا، وجدنا جماعة من هوام الناس ينبشون بهمة في أكوام الحجارة والشقافة، عند الأجزاء التي تهدمت منها. هالني منظر هؤلاء الناس؛ إذ كانوا برءوس حاسرة لا تغطيها طواقٍ أو عمائم، كما هي عادة أهل الريف والمدن، وكانت شعورهم متربة مهوشة، منكوشة على أجسادهم شملات خشنة رثة، وبدوا لي وكأنهم من العلمانيين البرابرة الذين لا يعرفون اللسان القبطي ولا اللسان العربي. داخلني خوف من مرآهم، وخشيت أن يهاجمونا فيُلحقوا بنا مكروهًا، وأفضيت بمخاوفي إلى ثاونا، مقترحًا عليه أن نختبئ حتى يذهبوا، لكنه أخذ يهدئني، ثم إنه أقبل عليهم وحياهم، وسألهم عن الطريق، وكنت أعرف أنه يعرفها كما أني أعرفها، لكن خُيل إليّ أنها وسيلة ابتدعها ليأخذ منهم الأمان، وقد صدق حدسي؛ إذ تحمس بعض منهم وتقدم ليدلنا على الطريق، فلما نظرت إليه متأملًا، وجدته يحمل صنمًا صغيرًا من الحجر الأسود لا يزيد حجمه على كف اليد، وقد تعجبت عندما سأل ثاونا أن يأخذه ويعطيه مقابله أي شيء.

أخذ ثاونا الصنم من يد النباش، وراح يقلب فيه ثم قال:

- لا.. أريد شيئًا أفضل من ذلك، هل لديك ما هو من الذهب أو به جوهر.

أشار النباش على ثاونا أن ينتظر قليلًا، ثم إنه غاب بعض الوقت، وعاد حاملًا وعاء ارتفاعه حوالي شبرين، قدمه لثاونا وهو يرمقه، بنظرات ذات معنى.

تناول ثاونا الوعاء الذي بدا لي للوهلة الأولى وكأنه غير ذي معنى، وراح يرفع غطاءه المُحكم عليه، وهو على هيئة ابن آوى، انقبضت قليلًا بينما كان ثاونا يعمل ذلك، فلما نظرت معه ما بداخل الوعاء وجدنا ما يشبه بقايا أحشاء آدمية جافة، وإن كانت زكية الرائحة، أعاد ثاونا الغطاء إلى ما

كان عليه مرة أخرى، ووضعه داخل جراب سراج بغله، ثم أعطى للنباش نصف فضة، ومضينا بينما الرجل يلهج بالشكر والامتنان لثاونا.

قلت لثاونا مُحتجًّا:

- ماذا ستفعل بهذا الشيء الذي أخذته من الرجل بربك يا ثاونا؟!

رد ثاونا بهدوء:

- اسكت يا بدير، ولسوف ترى بعد قليل.

وقبل أن ألحف عليه بمزيد من الأسئلة، استمر شارحًا:

- هؤلاء الناس من الحوربات؛ وهم جماعة من العلمانيين الذين لم تهتدِ أرواحهم بالإيمان بعد، وقد ظلوا جيلًا بعد جيل، لا يتعيشون إلا من نبش البرابي القديمة والحفر والتنقيب فيها، وهم منتشرون في جميع أنحاء البلاد، ولقد أُطلق عليهم اسم الحوربات، نسبة إلى معبود قديم، انتشرت عبادته في أزمنة قديمة اسمه حور، وكان كثير من هذه البرابي يقام لعبادته، والتقديس له.

عندما يتحدث ثاونا بكلام من هذا النوع أشعر أنه يُخفي معرفة لا يبوح بها، لكنها تفلت من لسانه بين الحين والحين، وكان يبدو لي كلما تكلم بكلام من هذا النوع، وكأن هناك أمرًا يعذبه، أو أن روحه لا تعرف الطمأنينة واليقين، وكنت أوشك في كل مرة يخبرني فيها بمثل هذا الكلام أن أسأله:

- كيف عرفت ذلك يا ثاونا؟ مَن أخبرك بكل هذه المعرفة؟ لكني كنت أوثر السكوت؛ إذ يظل شيء ما بداخلي، مُخرسًا للساني، يمنعني من الفضفضة والبوح؛ ربما لأني كنت أخاف أن يقول لي ما هو غير إيماني فأفقده، بعد أن أكون تأثرت بما يقال عنه في البيعة، وربما لهذا السبب أتشكك دومًا في صحة إيمانه. لكن، فليسامحني الرب، فأنا لم أسمع عنه أبدًا ما يلوثه، ولم تخرج من فمه إلا الكلمات الطاهرة الطيبة.

آثرت السكوت، بعد أن قال ثاونا ما قاله، وإن بقيت متشوقًا إلى ما سوف يكون من أمر هذا الإناء الذي حمله معنا.

قطعنا مسافة تاركين أتريب وبربتها خلفنا، وبقينا سائرَيْن حتى أوشك النهار على الانتصاف. كنا قد دُرنا حول الزراعات مرة أخرى، وبقينا ملتزمَيْن الانحدار مع خط النهر، إلى حيث غايتنا في الأراضي الموحلة، وكنا قد بدأنا ندخل في مناطق حرشية من البراري؛ حيث انعدمت آخر قرى أتريب من نظرنا، بعد مدى قصير من رحلتنا، وكانت هذه المناطق البرية، لا تفلح ولا تزرع من قِبَل أي إنسان، بل كان ينبت في أغلبها البوص والهيش وأصناف عدة من الحشائش الطوال، وكانت الطريق صعبة بعض الشيء؛ إذ كانت تضيق حينًا فلا يمكن لنا اجتيازها إلا ركوبة خلف ركوبة،

وتتسع حينًا آخر اتساعًا عظيمًا، حتى إننا نضل، ولا نعرف إلى أي جهة نهتدي، اللهم إلا إذا بدت لنا علامة تدل على الطريق، كأثر لأقدام ركوبة، أو رِجل إنسان، وكان خط النهر يضيع منا أحيانًا، فلا نعرف أين الأرض، وأين الماء؛ لكثرة المياه المتجمعة في الأراضي السبخة، فلما بلغنا ذلك الحد من السير، قلت لثاونا:

- من هنا يكون مبتدأ أراضي البشموريين، فهي ممتدة من الشمال عند البحر الرومي، لكن ما زال أمامنا الكثير من المسير حتى نصل إلى مبدأ البلدان والقرى ونصل إلى موقع حربهم، وهذا الطريق لا يسلكه إلا بعض من الأهالي؛ إذ إن أكثرهم يروحون ويجيئون بالمراكب والفلايك في النهر، إذا ما هبطوا إلى بابليون أو بلاد الصعيد، أما إذا أرادوا التعدية إلى الإسكندرية أو مريوط فهم يركبون مراكب في البحر الرومي، وهو لا يخلو من مخوفات؛ فقد ذهب عم لي ذات مرة إلى الإسكندرية فظهرت للمركب الذي أقله دابة عظيمة من دواب البحر، وكادت أن تقلب المركب أو تفتك بمَن عليه، لولا أن الرب ستر، واستطاع المراكبية قتلها بحرابهم والتغلب عليها.

غامت الشمس فجأة لوقت يسير، وسرعان ما هطل مطر غزير، لم يسبق لنا أن شاهدنا مثله في هذا الوقت من السنة؛ إذ إن شهر بؤونة الذي نحن فيه من الشهور الحارة، المعتاد فيها انعدام الأمطار. رُحنا نحمي أنفسنا من ذلك الهاطل، الذي باغتنا دون أن نحسب له حسابًا، فقصدنا شجرة عريضة الأوراق، وقفنا نحتمي بها حتى يتوقف الماء، وبالفعل فقد انتهى دفعة واحدة فجأة، مثلما هطل فجأة، ولكن لم يمر إلا وقت يسير، وبينما نحن نتأهب لمواصلة المسير، وإذا بالسماء تسوَّد مرة أخرى، وتصبح الدنيا وكأنها حالك الليل، على الرغم من أننا كنا فيما بعد الزوال، بقليل، تطلعنا إلى الأفق، فوجدنا جيشًا جرارًا من الجراد، يهبط إلى الأرض، ويخبط بعضه بوجهَيْنا ورأسَيْنا، ويحط بعضه على البغلين، فأخذنا ندفعه ونحن نصلب ونقدس، ذاكرين اسم الرب مرارًا، بينما راح البغلان ينهقان وينفران وقد فزعا من هذه الهوام الطائرة الهابطة من السماء. لا أدري، كم من الوقت مضى علينا، مغمضيْن عيوننا ونحن على هذه الحال، لكن ما إن فتحناها مرة أخرى، ونظرنا الأرض حولنا، إلا وجدنا الأخضر وقد تحول إلى اصفرار، فقد أتى الجراد على كل مخضوضر مُورِق، ولم يترك على مرمى البصر إلا الأعواد التي بدت وكأنها حِراب طوالٌ ثبتت إلى الأرض.

تمتم ثاونا بحزن:

- يا مُخلصنا يسوع.. إنها مصيبة سوف تحل على الفلاحين وأصحاب الزراعات في القرى والبلاد، فهذا الجراد لن يترك لهم شيئًا من الزرع الذي أوشك معظمه على النضج والحصاد.

لم أرد، إذ كنت أفكر في دويبات الأرض ووحوش المكان المختبئة بين الأعواد والحشائش، والتي لا بد أن تكون قد خرجت بعد نزول الجراد، كنت أخشى في الحقيقة أن تسبب لنا أذى أو مكروهًا، فلما عبَّرت لثاونا عن مخاوفي هذه، قال:

- لا أظن ذلك يا بدير، فمعظم دويبات الأرض سوف تسعد بهذا الجراد، فهو وليمة ربانية جاءتها من السماء، إن الرب يسبب لكل شيء سببًا، المسألة الآن هي أن لدينا عملًا نريد أن ننجزه في هذا

.المكان قبل تركنا له

كان يقول ذلك وهو يتلفت حوله كمَن يبحث أو يفتش عن شيء، بقيت أتبعه وهو يسير، حتى بلغنا موضعًا توقف عنده وراح ينظره باهتمام، كان بقعة بلقعًا لا نبت فيها ولا خضرة، على نحو مغاير لما حولها كثيرًا، تعجبت وسألت ثاونا، وقد لاحظت ارتفاع ذلك الموضع قليلًا عما حوله من الأرض:

- كيف تأتَّى ذلك يا ثاونا؟ كيف تتحجر الأرض في هذا الموضع ولا يشملها الطين مثل المواضع التي حولها؟!

- انزل يا بدير أولًا، وهيا معي حتى ننتهي من مهمتنا.

طلب مني ذلك وراح يُخرج الوعاء الحجري الذي كان قد أخذه من النباش والموضوع داخل خُرجه، وحمله سائرًا وأنا أتبعه حتى وصلنا إلى فتحة في الأرض، وقبل أن ندخل أمرني ثاونا:

- اعقل الدابتَيْن وتعالَ.

ذهبت إلى الشجرة التي كنا قد احتمينا بها منذ قليل وأنا أسحب الدابتين، وكانت على بُعد خطوات قليلة من الموضع الذي بقي عنده ثاونا ينتظرني، فلما عدت هبطنا من الفتحة قليلًا لندخل إلى مساحة صخرية جافة، وبدا المكان وكأنه مأوى لوحش من الوحوش البرية التي تعيش في هذه المنطقة. خفت أن أتقدم أكثر، لكن ثاونا أشعل وقيدة من الزناد الذي يحمله بجيبه السيال ولا يفارقه دومًا، فلما استبان المكان هالنا ما رأينا من رسومات ملونة لشخوص وحيوانات على جدران هذا الكهف، وزاد اندهاشي لوجوده في هذا الموضع، وكانت التصاوير جيدة وبحالة سليمة وألوانها زاهية دون فساد، وكأنما رسمت بالأمس فقط. تمتم ثاونا وقد حبس أنفاسه:

- إذًا.. فقد قادتنا إلكا إلى صاحبها، والجراد كان علامة أظهرتها لنا. ثم إنه شمر عن كُميه وراح ينقب الأرض بسكينة؛ حتى نقبها نقبًا يكفي لإنزال الماعون بها، وكنت أرقبه مرتعدًا، فأنا لم أفهم شيئًا مما قال، بل الحق أقول - لقد خفت منه قليلًا أثناء ذلك، وقد شعرت أنه يعمل عملًا من أعمال السحر والغموضات، فلما استقر الوعاء في الحفرة، وهال عليه التراب مرة أخرى، طلب مني أن نشرع في ترتيل قداس جنائزي، ترددت قليلًا قبل أن أفعل، لكني تذكرت وصايا الأب يوساب، وتذكرت أن مرتبة ثاونا في الكهنوت هي ضمن التشمسة، وما أنا إلا قيّم يأتي موضعي في آخر ترتيب الكهنوت، فامتثلت لأمره دون أن أنطق، ورحت أرتل وراءه وأنا أصلِّب، وقد أخذتني آيات الرب:

«وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضًا بهم هكذا، وإن أحببتم الذين يحبونكم فأي فضل لكم؟! فإن الخُطاة أيضًا يفعلون هكذا، وإن أقرضتم الذي ترجون أن تستردوا منهم فأي فضل لكم؟! فإن الخُطاة أيضًا يقرضون الخُطاة لكي يستردوا منهم المثل، بل أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا

وأنتم لا ترجون شيئًا، فيكون أجركم عظيمًا وتكونوا بني العلي، فإنه مُنعم على غير الشاكرين والأشرار، فكونوا رُحماء كما أن أباكم أيضًا رحيم، ولا تدينوا فلا تدانوا. لا تقضوا على أحد فلا يُقضى عليكم. اغفروا يُغفر لكم. أعطوا تُعطوا كيلًا جيدًا مُلبدًا مهزوزًا فائضًا يعطون في أحضانكم. «لأنه بنفس الكيل الذي تكيلون يُكال لكم.

فلما انتهى وانتهيت، تنحنحت وسألته بأدب واحتشام:

عفوًا أيها العزيز ثاونا، ولكن كيف نصلي ونقرأ كلمات الرب على هذا الشيء الذي هو بقايا جسم - لم يتعمد، ألم يقل سيدنا يسوع المسيح للناس: «إن لم تُولدوا من الماء والروح لم تعاينوا ملكوت الله لأن المولود من الجسد، جسد هو، والمولود من الروح فهو روح»، وحث على حياة النفس بهذا الشرط، فصار كل مَن يشتهي أن يُحيي نفسه من موتها، يقبل شروط الغطس في ماء التوبة أولًا، ثم الاعتماد على اسم الثالوث المقدس: الآب والابن والروح القدس، وحفظ جميع ما أوصى به سيدنا المسيح.

نظر إليّ ثاونا بمحبة، وقال:

صدقت أيها الأخ الطيب، وصدق الرب في كلماته، لكن هذا الإنسان الذي عثرنا على بقاياه، عاش - زمن الوثنية، قبل أن يوافي ملاك الرب سيدنا، ربما بأكثر من ألف عام، فهو لم يعش زمن الإيمان، لكنه إنسان ربما لو عاش بيننا الآن، لكان قد آمن وصار مثلنا من أهل الديانة والتقوى، ونحن بصلاتنا هذه نتشفع له ونضمه إلى قطيع المؤمنين؛ وذلك لأن سائر النفوس كلها كانت ميتة، بخطية آدم منذ أول الزمان، لما أخطأ قال الله له لأجل خطيئته: «موتًا تموت»، فماتت نفسه من الحياة، هو الذي كان حيًّا بروح القدس الذي كان مشتملًا عليه، حتى إن آدم بذلك تنبأ وقال عن حوّى: إن هذه لحم من لحمي، وعظم من عظمي، هذه تُدعى امرأة لأنها من المرء أُخذت، وتعرى آدم من الله العلي الذي كان لابسه، وماتت نفسه الموت الحقيقي، ثم جسده بعد تسعمائة وثلاثين سنة، ولم تزل نفوس نسله ميتة كما نفس أبينا آدم إلى حين مجيء سيدنا يسوع المسيح وظهوره في عالم الطبيعة.

فصاحب الجثمان الراقد هنا سُلبت منه أحشاؤه الموضوعة في هذا الوعاء على عادة أهل الزمان القديم الذين كانوا يعتقدون مثلنا أن الروح تفارق الجسد عند الموت، لكنهم، وليرحمهم الله، كانوا يظنون بعودة هذي الروح إلى الجسم عند الدينونة؛ لذا فهم كانوا يحرصون على حفظه من التلف، ويبذلون في سبيل ذلك الشيء الكثير للمشتغلين بالتحنيط والحفظ، وفقًا لمقدرة كل منهم وثروته، ولما كانت الحشا هي أكثر أجزاء الجسد عرضة للفساد، فقد كانوا ينزعونها من الجوف بطرق وفن، ويضعونها مع ملح النطرون الكثير، حتى تذبل ويجف ويزول عنها ماؤها، ثم يضعونها في آنية كذلك الإناء الذي نظرته ويخلطونها بالمر والحنوط وزيت خشب الأرز الثمين المجلوب من الجبل اللبناني، وها أنت نظرت الإناء بنفسك، فما وجدت غير بقايا المصارين وقد جفت وقطعة من كبد، وقلب مُتحجر، ويبدو أن نبّاشي القبور في الماضي البعيد قد نهبوا مقبرة الميت صاحب هذا الإناء بحثًا عما يدفن معه من ذهب وجوهر وثمائن؛ لأجل وقت قيامه في الآخرة وفقًا للمعتقد القديم،

فحملوا معهم هذا الإناء ضمن ما حملوه من المقبرة، ويبدو أنهم رموه في بربا أتريب، فعثر عليه هؤلاء النباشون الجدد، وباعه لنا هذا النباش، لكن روح الجسد الهائمة ظلت تدفع بالإناء حافظ الأحشاء إلى موضع الجسد، فقادتنا إلى هذا المكان وظهر لنا الجراد كعلامة، لنتوقف ونرده إلى مثواه، وربما كانت هناك قبور أخرى عديدة، جعلت في هذه البقعة كلها، لكنها اندرست مع اندراس مدن وقرى أصحابها وتغطت بالطمي والحشائش، فلم يتبق ظاهرًا منها غير ذلك الموضع الصخري لارتفاعه عن بقية ما حوله من أرض، فلم يترسب الطين عليه وتطلع به خضرة، وربما كان الموضع كله في الأصل من الصخور، لكن الطمي طمرها شيئًا فشيئًا على مر الأيام والسنين، غفر الله لصاحب الروح ولنا جميعًا يا بدير.

لا أدري لماذا تذكرت فلاأس النجس فجأة، وتشوقت لأن أعرف ما الذي سوف يكون من أمره، فسألت ثاونا:

- أتُرى أيها العزيز ثاونا، ما الذي سوف يكون بعد ذلك من أمر فلاأس في دير أتريب؟!

زفر ثاونا بقنوط ورد مفكرًا:

فلندعُ الرب أن يهديه ويعود إلى زمرة الأتقياء يا بدير فيقر ويعترف بخطاياه ويتوب عنها، فأنت - تعرف أن ما قاله تجديف خطير، فإذا أراد أن يُحيي نفسه من موتها فعليه أن يعترف لأبيه في دير أتريب بجميع خطاياه، وأنه كان عبدًا للشيطان بطاعته له في المخالفة بكُتبه المقدسة وقراءة الهرطقات الطمث، وكل خطية أخرى يكون قد ارتكبها سواء بقتل أو زنا أو سرقة أو كذب أو شهادة زور، أو بارتكاب أي من المحارم، فيبتدئ الأب يجربه، وهل أقبل إلى الله من كل قلبه، أو ذلك تجربة منه وقنطسة لا لزوم لها، ويوجب عليه الأب صومًا وصلاة وصدقة من ماله، وسجودًا على قدر قوته مدة معلومة؟ وإذا ثبت في حرارة شدة شوقه إلى السيد المسيح وإلى الحياة الدايمة، فيما أمر الأب به، عند ذلك يعذبه الكاهن مرة أخرى في دهليز سرداب ويوقفه فيه مدة أخرى معلومة. فإن ثبت على هذا الشوق، عبرَ به إلى أحد جوانب الدير ليحضر سماع الفصول والإنجيل المقدس خاصة، ثم يمسكه الكاهن بيده ويخرجه حتى لا يحضر تقديس السراير الإلهية، ولا تتقدس نفسه بحلول روح القدس عليها، كل ذلك امتحان وتجربة لصبره، هل هو عائد ثابت لما يُراد منه أو لا؟! وهذا هو حد الإقامة تحت التوبة والوعظ.

ثم يتقدم به ويُدخله إلى عرى البيعة في الدير ويصلي عليه صلاة الموعوظين أولًا، ثم يقرأ عليه التحليل من نجاسة الأمم الغريبة، ويدهنه الكاهن بزيت فارغ ثم يقرأ عليه صلاة تليق بأوايل أمره، ثم بعد ذلك يؤمر برفع يده اليسرى إلى فوق ويستقر على حقيقة جحوده للشيطان وجنوده وأسبابه التي منه وبه، الصايرة إليه، وهي: القتل والزنا والسرقة والكذب وشهادة الزور والجور والحقد والبغض والنميمة والكسل عن الصلاة والعظمة التي هي أول الرذائل، والانصراف إلى قراءة الهرطقات والممنوعات، والتجديف والزندقة.

فإذا تحقق عن الموعوظ جحوده ذلك بعدة دفوع، في حضور جميع الكهنة والرهبان، يُعرى حينئذ ذلك الفلأس، كما تعرى سيدنا المسيح له المجد عند صلبه ويشهره الكاهن كما شهر جسد سيدنا المسيح وهو عريان.

فإن بانت منه الأمانة المستقيمة التي هي: نؤمن بالله واحدًا.. إلى آخرها، ويقول ما يقوله الكاهن ويداه الاثنتان مرفوعتان، ثم بعد فراغ تلقينه الأمانة يسأله الكاهن سؤالًا استفهاميًّا: آمنت؟ يقول الموعوظ الذي هو هنا فلأس:

- آمنت. (هكذا ثلاثة دفوع).

ثم بعد ذلك يُجرى نقله إلى مكان المعمودية المقدسة ويُدْهَن بدهن الغاليلاون. ثم يبتدئ الكاهن بصلاة على ماء المعمودية ويسأل الله الأب ضابط الكل باسم الابن الوحيد يسوع المسيح ربنا أن يحل على الماء العنصري الذي هو في المعمودية روحه القدس ليتقدس به الماء، ثم يقدس على الماء قداسًا كاملًا خصيصًا به في إحياء تلك النفس المؤمنة بالله وبابنه الوحيد وبروحه القدس.

ثم إنه لا بد أن يُجرى تختين فلأس ونزع قلفته حتى يتطهر بذلك تطهيرًا كاملًا، كل هذا إذا تاب وعاد، وبرئت نفسه مما بها من غواية الشيطان وجنوده الفاسقين.

سرح ثاونا بعد ذلك ببصره قليلًا، وسألني فجأة:

- تُرى كم تبقَّى لنا من الطريق حتى نصل إلى محلة البشموري؟

فكرت، وأنا أحسب بالتقريب، البلاد والكور التي علينا أن نقطعها ومسيرة الوقت لزوم ذلك، حتى نصل إلى محلة البشموري، وقلت:

- سنعبر عدة قرى وبلادًا، وقد يتطلب الأمر بقية النهار قبل أن نصل إلى قرب بحر حاروس، ومن هناك سننطلق إلى سكة محلة البشموري بعد ذلك لو شاء الرب.

فكر ثاونا قليلًا قبل أن يرد:

- إذن علينا أن نبيت ليلتنا في مكان قريب. ربما كان أول قرية تصادفنا، ونواصل بعد ذلك المسير مع بزوغ نور الصباح لو أراد لنا الرحيم البقاء حتى ذلك الوقت.

رُحت إلى موضع الدابتين لأحلهما من الرباط في الشجرة التي ربطناهما عندها. فلما جئت بهما وركبنا، بادئين التقدم والمسير، بدت الأرض زلقة للغاية صعبة السير بسبب سقوط المطر عليها، وكان الجراد يفترش الطريق، بعدما تعب من طول ترحاله وأكله بنهم، فمات أكثره وسقط، ويبدو أن البغلين قد عافا المسير فوق الجراد والزلاقة؛ إذ إنهما أجفلا وتنحنحا كثيرًا، فلم نتقدم في المشي إلا

قليلًا، مع اقتراب الشمس من الدخول في الغياب، وكنا قد تعبنا ومللنا هذا البطء الذي بلا طائل، فقال ثاونا:

- ما رأيك يا بدير، نبيت هنا في هذا الموضع حتى يصبح الصباح؟ الصباح رباح.

هتفت منزعجًا:

- هنا في هذه البرية الموحشة غير المسكونة! لا أظن أن ذلك سوف يكون من الحكمة والأمان يا ثاونا.

حاول إقناعي قائلًا:

- لا بد أن يكون هناك ما نأوي إليه في هذا المكان، ونحن نستطيع المبيت تحت شجرة من الأشجار، ألا تذكر رحلة السيدة البتول مع السيد المسيح من بيت لحم إلى أرض مصر، وكل تعبها ومعاناتها، دون أن تفكر في متاعب الطريق؟ ألم تركن إلى جذع شجرة لتستريح وتستفيء، ولم يكن هناك من مأوى يحميها أو سقف يقيها حر النهار وبرد الليل؟ إن الرب هو الحامي يا بدير، ونحن في رحلة لأجل مجد الكنيسة، وخطاب الأب يوساب يجب أن نحفظه ونصونه حتى نؤديه للبشموري، وتلك هي مهمتنا، فيجب أن نحتمل فيها كل ما يواجهنا من صعاب.

سكتُّ وقد خجلت من اندفاعي في الكلام، ولم أجادله فيما قال، وقد ردني إلى طمأنينة الإيمان، بينما راح يجول ببصره باحثًا بعينيه عما يمكن أن نأوي إليه، وكنا قريبَيْن من حافة النهر، فتركني وابتعد قليلا لينظر المكان، وسرعان ما ناداني لأتبعه، فلما وصلت إليه، أشار بيده إلى موضع قريب عند أسفل الشاطئ، وقال:

- أرأيت هذا؟ إنه فيما يبدو خُص لبعض صيادي السمك، قد أقاموه ليستفيئوا فيه وقت صيدهم. إن الله لا ينسى عباده الصالحين.

يا بدير، هيا نحتمي به حتى صباح الغد إن شاء الله.

بدا ثاونا فرحًا جدًّا بعثوره على الخص، وكنت قد بدأت أشعر بالطمأنينة والسكينة بمجرد أن رأيته، فثاونا لا يعرف مخاطر الأراضي الموحلة مثلما أعرفها؛ لأنه لم يَعِش فيها، إنها مليئة بالحيوانات والوحوش البرية المتخذة من أدغالها مستقرًّا ومعاشًا، وهي في أغلب الأحوال شرسة قاتلة، كثيرًا ما تنقض على الدواب والناس وتفتك بهم، ولعل أخطرها الحلوف الذي يفضل الاختباء والعيش في الأحراش وكل برية غير مأهولة، وهو شديد الخطورة والكل يحتقره لنجاسته وطياشته في العدوان على الزرع. نزلت عن البغل ومشيت ساحبًا إياه منحدرًا مع ثاونا إلى أسفل الشاطئ، وقد أمسكت طرف ثوبي الطاهر الكنسي بيدي حتى لا يتوسخ ويتدنس من حمأة الأرض، ثم إننا دفعنا باب الخص ووقفنا نستجلي ما خلفه قبل حلول الظلمة، فوجدنا فيه بالفعل ما يدل على أثر لصيادين، مثلما

توقع ثاونا؛ إذ كان به منقد لحرق الأخشاب وبعض من فروع الأشجار الجافة، كما كانت به حصيرة من تلك الحصر التي يصنعها الصيادون، ملمومة ومركونة إلى جانب أحد الحوائط اللبنية للخص، إضافة إلى جرة بها بعض الماء، وسنانير وشبك تالف وعدة من الأشياء لزوم حرفة الصيد.

أدخلنا الدابتين حتى نأمن عليهما، وسارعنا بفرش الحصير، ورُحنا نُنزل الزاد من الأجربة؛ حتى نستريح ونأكل شيئًا، وبينما نحن نفعل، قال ثاونا:

ما رأيك أن نتعشى سمكًا من عطايا الرب؟ سأصطاد سمكة أو اثنتين نشويهما. ونأكل قبل أن نبيت - ليلتنا.

ثم إنه سحب سنارة وخرج إلى النهر، بينما بقيت أنا أهيئ مائدة ما حملناه معنا، وكان رهبان الدير في أتريب قد زودونا ببعض أرغفة أتريبية معجونة بليّة الخروف مما تشتهر به أتريب، وبعد ذلك قمت فوضعت بعضًا من فروع الأشجار في المنقد وأشعلتها وخرجت لأجمع بعضًا من الأعشاب؛ لأقوت البغلين قبل أن يحل ظلام الليل علينا، ولا نستطيع الخروج من الخص.

صلَّبت وصليت لله في سري وأنا أتمنى ألا تكون الحشائش عشبة سامة تفتك بركائبنا، فتتعثر رحلتنا، وكان الأب يوساب قد عرض علينا بغلا ثالثًا نسيره معنا طوال الطريق، كما هو متبع في العادة، حتى إذا أصاب مكروه بغلًا، وجدنا ما يعوضنا عنه، لكن ثاونا آثر الاكتفاء ببغلين؛ لأن الثالث لا بد أن يلزم الإكليروس في شئونهم إذا خرجوا من قصر الشمع إلى أي موضع من المواضع في الفسطاط، أو إذا عدوا بالمراكب إلى بر الجيزة، وقال للأب يوساب: وهل ركب السيد غير أتان واحدة؟ الرب هو الحافظ يا سيدي. فَسُرَّ الأب يوساب لذلك وباركه وهو يدعو لنا بالتوفيق.

بينما كنت أحش بعض الأعشاب بالخنجر الصنعاني، الذي أعطاني إياه ثاونا قبيل رحيلنا من قصر الشمع، إذ سمعت صرخة تتعالى من الجهة التي هبط إليها ليصطاد أسفل شاطئ النهر.

تركت ما بيدي، وهرعت إليه قاصدًا وجهة صرخته، وقد حملت الخنجر بيدي لأتصدى به لمن يهاجمه سواء أكان وحشًا أم إنسانًا، إلا أنني عندما بلغته وجدته جالسًا القرفصاء، وقد تكور على نفسه، ممسكًا بساقه، التي أخذت تنزف من أسفله بغزارة، وما إن رأيته على هذه الحال حتى صرخت بدوري، لكنه أخذ يهدئني بصوت متماسك، ويقول:

اهدأ يا بدير، إنه حنش. لقد لدغني دون أن أشعر، يا الله، إن أنيابه كأنها موسى حادة لحكيم، هيا يا - بدير، شرّط الجرح بسرعة بالخنجر، قبل أن يسري السُّم مع الدم إلى كل أنحاء الجسد.

ترددت قبل أن أفعل ما طلبه مني، فمنظر الدم يثيرني ويقلب أحشائي؛ مما يجعلني على وشك التقيؤ، كما أن جرح ثاونا بخنجري كان أمرًا يشق على نفسي، أخيرًا تحاملت وتجلدت ورُحت أشرط موضع الجرح باسم الصليب، حتى خرج منه أكثر الدم، ثم إن ثاونا انحنى على ساقه وراح يمتص

دمه بفمه، وينقله سريعًا، ثم خلع زناره الكنسي الملفوف على وسطه وراح يربط به ساقه فوق موضع الجرح جيدًا، وأخيرًا قام وأخذ يتوكأ على كتفي حتى دخلنا الخص.

ما إن تمدد على الحصير حتى قال لي:

- اذهب إلى خرج بغلتي، هناك بعض الحقوق، أحضرها بسرعة وعُد لي بها.

مددت يدي إلى الخرج، وأخرجت منه عدة أحقاق مثلما طلب، وكنت في غاية الدهشة؛ إذ كانت هذه المرة الأولى منذ ارتحالنا أعرف فيها أن ثاونا يحمل معه كل هذه الأشياء داخل خرجه، كان بعض هذه الأحقاق قد صُنع من خشب السنط والعنبر والأبنوس، وبعضها الآخر من الألباستر والجمشت والجزع العقيقي، والعاج واليشب، طلب مني أن أفتح ذلك المصنوع من العاج؛ لأعطيه بعضًا مما فيه ليبتلعه.

رفعت غطاء الحُق، وأخرجت منه حبوبًا بُنية صغيرة، لم أرَ مثلها من قبل، فهي لا تشبه الذرة أو الفول، أو أيًّا من الحب الذي أعرفه مما يؤكل أو ينقع، وبدا لي حبًّا أقرب إلى فول النوبة، وإن كان أصغر حجمًا مع بُنيته، قدمت له الحب فجرشه بأضراسه قبل أن يبتلعه، ويقول:

- هذا حب العرب يا بدير، يجلبونه من بلادهم البعيدة، وهو عظيم الفائدة وسيجعلني متنبهًا لا يغلبني النعاس، إياك أن تتركني أوسن ولو قليلًا يا بدير، حتى لو اضطرك الأمر لأن تلطمني على وجهي، أو تصب على رأسي ماء باردًا، فلو غِبت عن الوعي فإن السم سوف يسري في دمي بسهولة حتى يصل إلى مكامن الأعصاب في الرأس، وتكون في ذلك نهايتي المحتمة.

صلَّبت وأنا أتمتم بخوف وانفعال:

- بعُد الشر عنك يا ثاونا وعافاك. سوف أفعل كل ما تأمرني به. لا تخشَ شيئًا، أنا معك والرب يحفظك، سأظل ساهرًا إلى جوارك طوال الليل. ثم إنه طلب مني أن أعطيه حُق الأبنوس بعناية فائقة، وكان حُقًّا صغيرًا للغاية، فتحه بهدوء وحَذَر بعدما تناوله مني وراح يأخذ شيئًا يسيرًا مما فيه من دهن، بدا لي أشبه بدهن الميرون المقدس، وراح يمسح به موضع الجرح حيث غرز الثعبان أنيابه، وهو يجز أضراسه جزًّا، صابرًا متجلدًا، دون أن يتأوه أو يتأفف مما أصابه من بلاء، فما إن انتهى من الدَّهن، أخذت الحق وأعدته إلى موضعه في الجراب ثانية، ثم إني رحت أعمل وقيدة في بعض من قلاحات الذرة الجافة لنستدفئ بها، فلما بانت النار وأجمرت كما يجب، دفّأت شيئًا من العسل في قارورة من ثلاث قوارير زجاجية كنا ابتعناها في أتريب وقدمته له كي يشربه، فلما انتهى جلست إلى جانبه وعرضت عليه أن يأكل شيئًا مما معنا أو أن نشرب نبيذًا، لكنه رفض وقال إن النبيذ لا يفيد في حالة اللدغ، وكنت أظن أنه سيخفف عنه أوجاع الجرح، لكنه أفهمني أن كل مُغيب عن الوعي لا يفيد في مثل حالته.

تضرعت إلى الله في سِري أن ينقذ ثاونا ويحفظه من سم هذا الحنش الذي كان أبي دومًا يحذرني من أمثاله؛ فحنشان الشط خطيرة. ولدغتها يصعب الفكاك والبرء منها. كنت أقوم بين الحين والحين لأغذي النار حتى لا تنطفئ وأرتل: «وأما الروح فحياة بسبب البِر. وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكنًا فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيُحيي أجسادكم المائتة أيضًا بروحه الساكنة فيكم». وتلوت كذلك بعضًا مما أحفظه من المساغوجي والتعاليم الإيمانية، كما رُحت أذكر قول يوحنا فم الذهب: «كل إنسان على ظهر البسيطة لا بد أن يرى ما كُتب عليه».

لكن بعد انتصاف الليل بقليل، بدأ ثاونا يغيب عن الوعي بعد أن أخذته الحُمى، وراح جسده في الارتعاد بشدة حتى إني وضعت خرج الدابة الصوفي عليه، مع أنه كان قد تغطى بغطاء الكتان الذي حملناه معنا لنتغطى به أثناء الليل في الطريق.

سددت باب الخص ووضعت خلفه حجرًا، وعلى رغم سخونة الجو فإن ثاونا ظل يرتعد وبدا لي وكأن الحُمى قد دخلته وتمكنت منه؛ إذ صار واهنًا ضعيفًا يبذل جهدًا كبيرًا كي تظل عيناه مفتوحتين وهو يقول بصعوبة:

- اسمع يا بدير، إذا غبت عن الوعي، عليك أن تعالجني بالماء البارد، اجلبه من النهر في أي قدر وبلِّل رأسي طوال الوقت به، فإن هذا يفيد، أما إذا حمَّ قضاء الله، فلا تبتئس، افعل ما يُفعل للموتى، واطلب لي الرحمة. لكن عليك أن تذهب بأقصى سرعة إلى البشموري؛ لأن أبانا يوساب ينتظر رده، فهو يريد أن يواتيه ويكلمه وجهًا لوجه إذا ما وجد منه اللين والقبول. فهذه مهمتنا الكنسية الآن يا بدير، يا أخي الطيب العزيز.

ثم إنه أخذ يدخل شيئًا فشيئًا في الحُمى، على الرغم من أنني قُمت لفوري وجلبت ماء باردًا من مياه النهر، وكانت قلنسوتي المضروبة كما هو مفروض في قلانس الأقباط مفيدة لتشربها بالماء جيدًا، حتى بعد عصرها ووضعها على رأسه، لكن ذلك لم يوقف الحُمى، بل إنها زادت إلى الحد الذي بِت فيه يائسًا تمامًا، فرُحت أبكي عليه بكاء مُرًّا؛ إذ كان ثاونا هو كل ما لي في الحياة الآن، وهو أقرب الناس إلى روحي وقلبي، تذكرت ما كان من أمري الأول في هذا العالم، آمونة. أمي. أبي. إخوتي. أصدقائي وأترابي، فلم أتمالك نفسي ورُحت أنتحب كالنساء؛ لأنني بعد غياب ثاونا، لن يكون لي أحد في هذا العالم، فليرحمني الرب. فجأة وبينما أنا جالس إلى جواره، ضائع الروح، كمدًا لا أدري ما الحريّ بي أن أفعله في هذه المحنة، إذ به يهذي متمتمًا بين الحين والحين:

- يسوع المُخلص.. مريم البتول، عشاؤنا الأخير، الحنش، سمّ. البلسان، آه.. الإله أعظم من الزمن والأبدية وكل المخلوقات. لا يمكن تسميته، لا يمكن رؤيته بأي عين. نستعين على معرفته بالأسماء والصور. الذهب. العاج. الصندل. هو رب الجميع. كل يعرفه بطريقته. الثالوث المقدس. هرمس المعظم (ثلاثًا). تحوتي. مثلث الرحمات. أتريب الضائعة. فلأس الطمث. البلاد تقاسي الألم. الآلهة هجرت الأرض وذهبت إلى السماء. العوز والإملاق في كل مكان. إن أردت أن تكون كاملًا فاذهب وبع أملاكك وأعطِ الفقراء ن ى ف ي(5). كا. با. ب ن وم(6).

أمحوتب. أوكير يوس ميتابنتون إيمون(7). أمحوتب. رئيس الكهنة أين أناتولاس فليباس(8) ملك الحكمة. أناستاسيس(9). ساكالمورا. ذوكسا. باتري كي أيوكي أجيو(10). ابنفماتي هكسبلا.

لم أتمالك نفسي وأنا أستمع إلى كل ما يتفوه ويهذي به ثاونا. وراح جسدي يرتجف خوفًا، مثلما يرتجف جسده بالحُمى، وقد أيقنت أن الشيطان قد تغلب على روحه ودفعه إلى مثل هذا الكلام المخلوط مع كل ما هو طاهر ومُقدس من كلمات. تملكني قلق عظيم من أن هذه الاختلاطات علامة على اقتراب تلف أخي العزيز وفنائه. وأن هلاكه سيكون هلاكًا للروح والجسد. فهذي هي الشياطين - ويا حسرتي- تقود روحه إلى السعير. أسرعت بإحضار لفيفة الكتاب المقدس الذي كان قد أعطانا إياه أبونا يوساب لنستعين به على مخاطر طريقنا وما قد يصادفنا من شياطين وأرواح شريرة، إن لم تسعفنا الذاكرة مما نحفظه من آيات تستلزم ذلك.

كان الكتاب قد دون بالقلم الأخميمي في كل آية من آياته، يقابله القلم العربي، فكنت أقرأ مرة من هنا ومرة من هنا؛ إذ كان ثاونا صاحب الفضل، وولي المعرفة قد علمني قدرًا يسيرًا من الأخميمية وقد كنت أجهلها، أما العربية فقد حصَّلت مقدارًا منها على يد خال في ترنيط كان قد استعمله مُتولي الكورة التي تتبعها البلدة، كمازوت من موازيت القرى، والذين كان أكثرهم من القبط للترؤس على القرى والبلاد؛ لأنهم أعلم بأمورها وأعرف بأحوال أهلها.

وكنت خلال قراءتي المتعثرة يداخلني ندم كثير؛ لأنني لم أتعلم كما يجب ويصح، فليغفر الرب لي إن كنت قد أخطأت في رسم كلماته المقدسة بلساني، ولِتُعمَ عيني؛ إذا لم أتعلم بعد ذلك - بمشيئة السيد - لغة كُتبه المقدسة.

ثم إني نذرت أثناء ذلك أن أعترف صادقًا للأب يوساب بخطيئتي الأولى وأتوب توبة حقة؛ إذا ما قُدّر لثاونا أن يبرأ من عِلته ونعود سالمَيْن إلى قصر الشمع بعد انتهاء مهمتنا عند البشموري. وقد حلفت برأس المبارك مرقس ابن القنبري أن أفعل صادقًا وهو القائل: «لا غفران للخطايا بدون الاعتراف».

ذلك أنني أُوقِن الآن بأن ما حل بثاونا وما أنا فيه من حيرة وضياع، لم يكن إلا بسبب ضعف إيماني وتدليسي على أبينا في الاعتراف، فليرحمني الرب وليواتني سريعًا باللحظة التي أعترف وأتطهر فيها، ولتحل أربطتي بكلمته مثلما أحل الأنبا ساويروس شماسًا بكلمته، ولسوف أرضى بحكم أبينا يوساب، وما يأمر به، من تأديبات كنسية تحل عليّ، ولسوف أقف بين يديه بكل أدب كما يجب، جاثيًا على رُكبتيَّ مطأطئ الرأس، مؤديًا مطانيات ثلاث أمام المذبح، وليصلّ عليَّ في النهاية صلاة التحليل لأمنح بركة التناول. وقد تُبت وتطهرتْ روحي من كل إثم مضى.

كانت دموعي لا تتوقف عن النزول، وأنا أفكر في كل ذلك، بينما لساني يعمل في تلاوة الآيات والمزامير. وإن كنت قد توقفت عن تبليله بالماء، وقد اضطربت وخشيت أن أضع يدي عليه أو ألامسه حتى لا يصيبني مس من الشيطان مثلما أصابه. وقد تأكد لي ذلك بعدما نطق باسم هرمس الممنوع وتخلط كلامه عن يسوع والعذراء بتجديف خرج من أعماقه. ونطق لسانه بطلسمات لا

أدري من أمرها شيئًا، وعلى الرغم من أنني أعتبر ثاونا قرين نفسي، وخليلي، ورفيقي، وتوءم روحي، وأخي الروحاني بالمعمودية، إن لم يكن أخي الجسداني بالدم، إلا أنني بدأت أشك في صحة إيمانه، وأنا أستعيد، ما كان يتردد عنه ببيعتنا في قصر الشمع، وما كان يتناقله البعض عنه من أحاديث وحوادث جرت لهم معه مثل تلك الحادثة التي حكاها ذات مرة الشماس إسطفانوس من أنه في إحدى الليالي أراد أن يخرج من القلاية لشم الهواء في ساحة الدير، فلما وصل إلى قلاية ثاونا وجد ماء كثيرًا آخذًا في الارتفاع شيئًا فشيئًا، حتى وصل إلى ما هو فوق قامة الإنسان وهو واقف فخاف جدًّا، وتسمَّر في موضعه ممتنعًا عن التعدية والعبور كي لا يغرق، وعاد إلى قلايته مرة أخرى وهو يرتجف.

وكذلك ذكر قَيّم آخر في البيعة اسمه سمعان أنه نظر ثاونا ذات مرة عند الظهيرة. فوجده يحادث هدهدًا صغيرًا، حط على ركبته، ويقول له كلامًا بلسان غريب لم يسمعه من قبل، لكن الأب يوساب كان يستمع إلى كل ذلك، ويدحض أقوالهم بالآيات لما ظهر له من حُسن إيمان ثاونا وطاعته الكاملة لقوانين البيعة وتفانيه في الخدمة.

ساورتني رغبة في فتح أحقاقه جميعًا لأتبين ما بها، وأن أفتش في خرج البغلة فقد أجد ما يشفي غليلي ويرسيني على حقيقة الأمر، لكني كنت خائفًا أيضًا. فربما مسّني ضر من جراء ذلك، أو لحقني سحر، فبقيت في مكاني ساكنًا، مرتعدًا، أنظر إليه، وقد تورم ما حول جرحه وانتفخ. وقد تحول لونه إلى الأحمر وكأنه نقع نقعًا في صبغ الأرجوان، وفي لحظة لم أتمالك نفسي فأوشكت على الصراخ رعبًا، إذ وجدته يهتف:

دلّوكة.. أيتها الأم العظيمة يا مَن بُوركتِ من المقدسة أم الآلهة إيزيس سليلة الآلهة الأوائل، سيدة العطر والمر.. يا مَن زرعتِ الساكمورا وأدخلتِها إلى بر مصر.. يا ربة الأرباب.. مُعلمتي في المكتب.. يا مَن دِنت لكِ طوال الحياة بالعلم والمعرفة.. ربة أرباب أولئك الذين لا يُعرفون ولا يُنطق باسمهم أبدًا.

تحوتي.. مُعلمتي.. أجل.. أجل.. أحفظ كيميت في قلبي، مجدها العظيم.. لا.. لن يزول.. البلسان. أجل. أجل. يا أمي سأتلو عليكِ ما حفظته من درس. آه. انعدم وقل. نعم وهو في المطرية وعين شمس الآن فقط. أعرف أنه في موضع محوط عليه محتفظ به. سأقول كل شيء يا مُعلمتي. بربكِ أمهليني فقط. أمهليني، لا تعاقبيني، لا تضيعيني في دهليز المكتب المظلم. فيطلع لي أنوبيس وينهش قلبي. لساني ثقيل، سأقول لكن لساني ثقيل. وجسدي يؤلمني كله. آه. شجرته. يبلغ ارتفاعها نحو ذراع. ذراع وربما أكثر. عليها قشران الأعلى أحمر خفيف، والأسفل أخضر ثخين. وإذا مُضغ ظَهر في الفم منه دهنيته. رائحته عطرة مُحببة. ورقه شبيه بورق السنداب. آه الجَنْي سأقول في الجَنْي. يُجتنَى دهنه عند طلوع الشُّعرى. تُشدخ السُّوق إلى ما يحت عنها جميع ورقها وشدخها يكون بحجر يتخذ مجددًا؛ بحيث يقطع القشر الأعلى ويشق الأسفل شقًّا لا ينفذ إلى الخشب. فإن نفذ إليه لم يخرج منه شيء، فإذا شدخه كما وصفنا أمهله ريثما يسيل لثاه على العود، فيجمعه بأصبعه مسحًا إلى قرن، فإذا امتلأ صبه في قناني زجاج، ولا يزال كذلك حتى ينتهي جناه وينقطع لثاه، وكلما كثر الندى في الجو كان

لثاه أكثر وأغزر، وفي الجدب وقلة الندى، يكون اللثا أنزر، ثم تؤخذ القناني فتدفن إلى القيظ وحماره الحر وتخرج من الدفن وتجعل في الشمس، ثم تتفقد كل يوم. فيوجد الدهن وقد طفا فوق رطوبة مائية وأثقال أرضية فيُقطف الدهن ثم يُعاد إلى الشمس، ولا يزال كذلك يشمسها ويقطف دهنها حتى لا يبقى فيها؛ فيؤخذ ذلك الدهن ويطبخه قيُّمه في الخِفية. لا يطلع على طبخه أحد، ثم يرفع إلى الخزائن ومقدار الدهن الخالص من اللثا بالترويق نحو عشر بالجملة، الميرون. في ماء المعمودية البلسان.

هل حفظت الدرس يا أمي جيدًا؟ قولي بربكِ براوة.. براوة يا تلميذي النجيب المطيع، وامنحيني بركتكِ. آه يا سيدتي البتول. يا أم السيد. لقد وضع الميرون في ماء المعمودية بأمر الرب. السنسكار أحفظه عن ظَهْر قلب كما حفظت الحكاية دون زيادة ولا نقصان. أقول حفظتها. نعم سأقول أنا أعرفها. فليحفظني الرب يسوع، لما خرجتِ به أيتها البتول العظيمة ومعكِ يوسف النجار من بيت المقدس. كان الشيطان هيرودوت ملك اليهود. نزلتِ أول موضع من أرض مصر بسطا.

بسطا المقدس بوبس. رابع عشري بشنس. لم يقبلكم أهلها. بقيتم بظاهرها وأقمتم أيامًا. بدير.. الطيب. القراري العائش في الخطيئة. نعم سِرتم إلى سمنود تعدية النيل إلى الغربية. السير إلى مدينة الأشمونين.

هتفت باكيًا وقد قال عني في هذيانه ما قاله:

لا.. لا يا ثاونا العزيز.. لا لن أعيش في الخطيئة بعد ذلك أبدًا. فليرحمني الرب. اشفَ يا ثاونا وعُد - لي، ولن تجدني إلا طاهرًا تائبًا، سأعترف لك يا ثاونا.. سأعترف لك بخطيئتي وإثمي الأول الذي يُعذبني ويأكل روحي.

بدأ جسده في الرجفة والارتعاد، لكنه ظل يواصل، وقد تسارعت كلماته وزاد في تخليطه:

فرس النماس القائم على أربعة أعمدة. سقط الفرس وتكسر لما نظرته ودخلت. له المجد. آيته في - الأشمونين. خمسة جِمال مُحملة. زاحمتكم أيها المقدسون في مروركم. صرخ يسوع فيهم. فيهم صرخ في الأشمونين. فصارت الجِمال حجارة فيلس. فيلس بها أيام، ومنها إلى قس وقام - القوصية ...- فنطق الشيطان من أجواف الأصنام التي بها. وقال.. قال.. قال

كِدت ألطم وجهي وقد لبث وقتًا يردد قال هذه، وقلت ها هو قد دخل في النزع الأخير. يا لتعاستي وشقائي. يا لمصيبتي في خلّي وصفيّي ثاونا.

ولكن ما أذهلني بعد ذلك هو أنه يتكلم وكأنه يردد عن ظهر قلب بعضًا من الساذوكيات، إذ أخذ يقول:

نطق الشيطان من أجواف الأصنام التي بها. وقال: إن امرأة أتت ومعها ولدها يريدون خراب - بيوتكم ومعابدكم. فخرج مائة رجل بسلاحهم وطردوكم من المدينة. فمضيتم إلى ناحية ميرة غربي

القوصية ونزلتم موضع الدير المحرق وأقمتم به ستة أشهر وأيامًا، فرأى يوسف النجار - في المنام - مَن يخبره بموت هيرودوس ويأمره أن يرجع بالسيد إلى القدس.

فعُدتم جميعًا من ميرة حتى وصلتم قصر الشمع. أقمتم بالمغارة عند كنيسة أبي سرجة، ثم خرجتم منها إلى عين شمس واسترحتم جميعًا بجوار ماء، فغسلت البتول ثياب السيد يسوع من ذلك الماء. وصببتِ أيتها المقدسة غسالتكِ قبالة الأراضي فأنبت الله هناك البلسان، وكان إذ ذاك بالأردن فانقطع من هناك وبقي في هذه الأرض.

آه.. فلترضِ عني أيتها العظيمة دلوكة.. يا مُعلمتي. مريم البتول والسيد سيدي.. سيد بدير.. وسيد يوساب وسيد كل مَن على الأرض أجمعين.

* * * *

عندما فتحت عيني وقد غشاهما ضوء النهار الساقط من بين أعواد البوص المُكللة لسقف الخُص، لم أجد ثاونا مُمددًا إلى جانبي في مكانه على الحصير، فهببت وقد أخذتني الدهشة، وتملّكني الخوف الذي لم يفارقني منذ الأمس، وخرجت مسرعًا بعد أن وضعت قدميَّ داخل خفيَّ وكنت قد عدلت شراكه، مخالفًا بذلك أوامر والي الفسطاط، كما أشار عليَّ ثاونا عند دخولنا في البرية الحلفاء للأراضي الموحلة، حتى لا تتلوث مؤخرة أقدامنا وكعوبنا بالوحل، ففي هذا المكان لا يمكن أن يرانا أحد من رجال الوالي.

وإن كنا قد التزمنا طوال الوقت بملابسنا زعفرانية اللون، وبعقدَي زنارينا المعمولَيْن من خيط الكتان الغليظ على وسطَيْنا وكذا برمانات الخشب على سروج الركائب في موضع القرابيس، وكل ما فرض علينا كأقباط حتى نفترق في هيئتنا عن هيئة المسلمين.

ما إن خطوت مبتعدًا عن الباب، حتى وجدت ثاونا واقفًا قبالتي، يبتسم ويلقي إليَّ بتحية الصباح، وكأنْ لم يكن في الأمر شيء، أو كأنه لم يحُم طوال ساعات ليلته.

هتفت مذهولًا وقد أخذني الفرح:

ثاونا.. العزيز ثاونا.. يا أخي الحبيب، هل أنت بخير؟ كيف استطعت القيام والخروج؟ حمدًا لله - على نجاتك. هذه معجزة من عند الرب يا ثاونا.. يا الله!

كنت مضطربًا للغاية، والكلمات تتلاحق مندفعة خارجة من فمي، بينما الدموع تنهمر من عيني، كنت أشبه بطفل تائه عثرتْ عليه أمه بعد حين.

ضمني ثاونا إليه، وراح يربت عليَّ قائلًا:

يبدو أنك سهرت إلى جانبي طويلًا ليلة أمس يا بدير وتعبت جدًّا، حتى أنك لم تفق وقت صلاة - الصبح. على أي حال، لقد أديت صلاتي، وصليت لأجلك أيضًا، الحمد للرب، الذي بفضله ونعمته نجوت مما كنت فيه. دهن البلسان من أعظم الدهونات الشافية للدغ الحيات والعقارب، وكل الآفات والدويبات الضارة، كما أن بُن العرب أفادني في أن الغيبوبة لم تصل إلى مداها في الدماغ، حمدًا لله.. هيا نتريق، فقد جمعت بعضًا من ثمرات رمانة، يبدو أن صاحب الخص قد زرعها بالقرب من هنا ووجدتها دانية فأتيت بها لأنها ممسكة للمعدة إذا ما أكلناها، ولسوف تمنع زلاقة أي خضار نأكله من الأرض أثناء مواصلتنا المسير.

دخلنا لنأكل، وهممت أكثر من مرة أن أفاتحه فيما بدر منه أثناء حُمته في الليل. لكني كنت أتراجع في كل مرة، وآثرت تدبر الأمر حتى أصل إلى وسيلة فيها كياسة وذوق لقول ما أريد طرحه عليه من سؤالات دون أن أجرحه، فلما أشار عليَّ أن ننجز طعامنا بسرعة ونواصل المسير، وافقته على الفور ولم أُضِف شيئًا.

التزمنا السير بحذاء النهر معظم مسيرنا بعد ذلك، وكان الطريق يُقطع أحيانًا بالمياه التي أخذت في الزيادة كلما توغلنا أكثر، فنضطر إلى الالتفاف والدوران حتى نجد طريقنا مرة أخرى، وكان بعض الصيادين يتطوعون بنقلنا في قواربهم لمسافات قصيرة بالقرب من الشاطئ، فهم يخافون الخوض بعيدًا داخله خلال ذلك الوقت، وكانت كثرة من البلاد والقرى التي عبرناها أثناء ترحالنا، قد خربت، وباتت مهجورة من أهلها تمامًا، وكان كثير من حقولها قد تلف وخرب، وقد أخبرنا بعض الصيادين أن كثيرًا من الأهالي الزراع قد التحقوا مع نسائهم وعيالهم بالبشموريين وراحوا يحتمون بهم مُعلنين العصيان، بعد أن سُدت السبل في وجوههم ولم يعد لديهم ما يقتاتون به، وهم يخشون التعصير والضرب من قِبَل متعهدي الكور والمحتسبين، وكنا نشاهد أثناء سَيرنا كثيرًا من الهائمين على وجوههم من الرجال اليافعين، وكذا النساء، وهو يتسولون في الطرقات، وهم في ملابس بالية، وأحوال مزرية قذرة، وقد نصحنا الصيادون أن نتجنب هؤلاء قدر استطاعتنا، لأنهم قد يخطفون منا الرحائل، ويسلبون ما نحمله من حوائج وما معنا من طعام عنوة، وقد عز القوت عليهم فلم يجدوا ما يأكلونه.

وقد أخبرنا عجوز ممن التقيناهم أثناء ذلك، أن معظم هؤلاء الناس كانوا من أهل القرى الموجودة على أطراف البرية من ناحية الصحارى التي سكنها العرب القبائل، وخصوصًا قبائل الحوف الشرقي، فأكد لنا أن هؤلاء لا ينئون عن مهاجمة هذه القرى، فيسلبون سكانها ممتلكاتهم وعيالهم وأحيانا نساءهم، وكذلك يُتلِفون الزرع، حتى خربت معظم هذه البلاد وهجرها أهله؛ فرارًا من هذه الحال، وأن ذلك العجوز، هو الذي أخبرنا بحادثة دير العذارى العجيبة، ولم نكن أنا وثاونا قد سمعنا بها من قبل، ولا أظن أن أي إنسان من أهل بيعتنا قد علم بأمرها شيئًا حتى هذا الوقت، فكل ما علمناه هو أن مروان متولي البلاد قد أباح لأعوانه الذين عادوا إليه بعد أن هزمهم البشامرة وطردوهم، أن ينهبوا ويعملوا القتل في كل البلاد التي يطّلعون إليها، فسار هؤلاء إلى الصعيد وقتلوا جماعة من الأراخنة ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم وأهاليهم وأولادهم وأحرقوا ديارات الرهبان.

أخبرنا العجوز أن بِدَيْر العذارى رهبانات كن عرائس للمسيح وعدتهن ثلاثون عذراء، فملكهن عسكر مروان، وكانت فيهن صبية عذراء دخلت إلى الدير وهي ابنة ثلاث سنين، فلما نظروها بُهِتوا من حُسنها وقالوا ما شاهدنا قط في بني آدم صورة مثل هذه. فأخذوها وأخرجوها من وسط إخوتها وتشاوروا فيما يفعلونه فيها، فمنهم مَن قال نقترع عليها، ومنهم مَن قال نمضي بها إلى الملك، وفيما هم يقولون هذا قالت لهم الصبيـة: أين هو مقدمكم أُعلمه بشيء يساوي أموالًا، وتخلوني؛ فأنا عابدة لله وما يحل لكم أن تُفسدوا عبادتي، بل إذا أعلمتكم بذلك الشيء الذي يحصل لكم فيه أموال تردوني إلى دَيري؟ فقال لها مقدمهم: أنا هو. فقالت له: آبائي كانوا قومًا مقاتلين شجعانًا أقوياء، دفعوا لي دواء كانوا يدهنون به إذا خرجوا للقتال فلا يعمل الحديد فيهم شيئًا، وتصير السيوف والرماح مثل الشمع قُدامهم، فإن خليتَ سبيلي دفعته لك، وإن كنت لا تصدق كلامي فأنا أدهن رقبتي قدامك، وجب أجود سيف يكون مع رجالك ودع أقوى مَن فيهم يضربني فلا يُقطع فيَّ شيء لتعلم صحة قولي، وإنما قالت ذلك لأنها رأت أن تموت بالسيف، ولا تلتصق بها نجاسات الإثم ولا يتنجس بها جسدها الطاهر. ثم دخلت بيتها فأخرجت برنية فيها زيت قد صلى عليه القديسون، وكان محفوظًا عندها، فدهنت به رقبتها ووجهها، وجميع جسدها، وصلَّت تركب على ركبها ومدَّت عُنقها، فظن الجُهال أن الأمر صحيح، ولم يعلموا ما في قلبها. ثم قالت لهم: مَن كان فيكم قويًّا، وكان سيفه ماضيًا قاطِعًا فليُظهر قوته فيَّ، فإنكم ترون مجد الله في هذا الدواء؟ عند ذلك وثب شاب شجاع بسيف يُفاخر به، فسترت وجهها ببلينها وطمأنت رأسها، وقالت له: اضرب بقوتك كلها ولا تبالِ. فضرب القديسة الشهيدة، فطار رأسها فعلموا حينئذ ما فعلت، وأنها خدعتهم، فندموا وحزنوا حزنًا عظيمًا، ووقع عليهم خوف شديد، ولم يلتفتوا بعدها لواحدة من الرهبانات العذارى، بل تركوهن ومضوا وهم يُمجدون الله.

فتمتمنا بمجده نحن أيضًا بعد سماعنا ذلك، وراح ثاونا يُكفكف دموعه المتساقطة رغمًا عنه تأثرًا، ومضينا تاركين العجوز، على أن نحكي لأبينا يوساب عن هذه القديسة الشهيدة، بمجرد عودتنا إلى قصر الشمع، إن كان لنا عُمر ونَصيب في العودة.

لاحت لنا بعد مسافة قرية على البُعد، فاقترح ثاونا أن نعرج إليها، لنغتسل ونُبدل ملابسنا التي كانت قد اتسخت أطرافها على رغم حرصنا على ألا تتلوث بقذارات الأرض، وكنت ميالًا للتوقف أيضًا، حتى نتمكن من حلق رءوسنا، وفكرت أنه ربما سنحت لي فرصة خلال ذلك لسؤاله عما بدر منه أثناء مرضه. لكن وبينما نحن نسير على الطريق، رُحت أفكر في كل ما مر بنا، فلما وصلت إلى حد ما كان من أمر فلأس الهرطيق، تذكرت حكاية الشماس الساحر، ووجدت أنها تمحيكة مناسبة لمفاتحة ثاونا فيما أرغب بمفاتحته، فهتفت بسرعة أقول له:

- ثاونا.. هل تذكر حكاية الشماس الساحر التي رواها بعض الآباء البطاركة؟

توقف قليلًا، لدرجة أنني تقدمته بعدة خطوات رغمًا عني، وقال:

- أعوذ بالله! لماذا تتذكر حكاية هذا الملعون الآن ونحن في الطريق؟!

صمتَّ قليلًا، ثم قلت:

لا أدري لماذا خطرت ببالي الآن! أظن أن ذلك الشماس قام بعمل سحر وقتل طفلًا، فعُوقب لهذا السبب.

تحمس ثاونا، وقال:

لا.. لا.. لم يقتل الصبي، فوفقًا لما هو مروي، أن الله أنزل على كورة مصر بلاءً عظيمًا، لمَّا خرج عبيد الله من مصر وتولى بعده القاسم ولده الذي صار فيه الشر أكثر من أبيه دفعات كقول الإنجيل المقدس: إن كل شجرة ردية تثمر عمرة ردية، هذا فعل الشر قدام الله والناس في مملكته وسلك المسلك الردي، وقد قال سليمان بن داود الحكيم: الويل لأهل المملكة التي ملكها صبي. وكان هذا القاسم صبيًّا في عُمره وفعله، وارتكب خطايا كثيرة، وكان أول البلاء غلاء عظيمًا، فأول سنة كانت البلاد شراقيا فقلت الخيرات وغاب القمح وعُدم حتى لم يجدوه، ومات خلق كثير وبهائم كثيرة، ثم جاء وباء على كورة مصر ثاني سنة لم يكن مثله، ومع ذلك لم ينقص شر القاسم بل ازداد، وضاعف الخراج على الناس، وكان الإنسان إذا نام ليلًا يخاف من ضوء الصبح، وما يشتهي الليل حتى يفرغ من كثرة البلايا، وبعد السنة الثانية المواتة، جاءت السنة الثالثة شراقيا، لم يصعد النيل البتة، ولم ير الناس في أيامه خلاصًا، بل كانت السنين تتقلب، هكذا بأمر الله سَنة وباء، وسَنة شراق إلى آخر السنة التي أُخذت منه فيها المملكة، وهي السنة السابعة، وكان الوباء من أول هتور كل سنة إلى الثاني والعشرين من بؤونة، ومعظمه بمصر لكثرة الخطايا التي كانت بها، وكان من ثامن يوم من بشنس إلى أول يوم من بؤونة حل بالناس فناء لم يُحص بعض مَن مات فيه. يومًا يموت ألفان، ويومًا ألف ومائتان ويومًا ألف وأربعمائة بمصر والجيزة من سائر الناس القاطنين بهما، وتجار من الغرباء، حتى انقطع دفن الناس الأموات، والقبور، ولا يُدفن رجل حتى يعلم به السلطان، ويكتب اسمه واسم والده، حتى الطفل الذي يرضع، ثم إن آباءنا سألوا الرب، وأيضًا الفقراء والأغنياء، وتضرعوا إليه بالصوم والصلاة والبكاء والابتهال، إلى أن ترأف الرب بهم، ورفع الوباء ورحمهم.

وبعد هذا باع التجار القمح للناس، وظهر وكثر، فمضى قوم من تجار القمح إلى شماس ساحر كان يسكن في منف؛ وهي مصر القديمة، ودفعوا له مالًا كثيرًا، وسألوه أن يعمل سِحرًا ليغلوا به القمح، فبدأ يعمل أعمالًا تغضب الله بصنعته وسِحره المرذول، وكان عنده صبي يتيم ابن امرأة أرملة ليس لها ولد سواه، فقال لها: أنتِ ما لكِ شيء تأكلينه ولا تطعمين ابنكِ، ادفعيه لي أجعله لكِ ولدًا وأعلمه صنعتي. فسلّمته له وهي مسرورة، وكان ذلك الكافر قد مضى إلى سحرة كثر في مواضع حتى علموه سحرًا عظيمًا، ففعل ما غلا به القمح، ثم إن الكافر أخذ ولد الأرملة ودخل به بيتًا وأغلق عليه الباب وعلقه بيديه ورجليه عن الأرض وفعل به ما يغضب الله، ولم يزل يسلخ جلد الصبي من وجهه إلى رأسه كل يوم إلى أن انتهى إلى أكتافه، فغاب القمح وعُدم بعد أن كان قد بِيع عشرة أرادب بدينار وبِيع مُدان بدينار، ولا يوجد، فمضى عريف صبيان المكتب إلى الأرملة، وقال لها: لولدكِ عدة أيام ما جاء عندنا، فبأي موضع هو؟ فمضت إلى ذلك الكافر وسألته عن ولدها فقال لها: لي عدة أيام ما رأيته وخرج من عندي ومضى إلى عندكِ ولم أعلم له خبرًا. فلما سمعت هذا منه مضت بحزن

عظيم، وكان الصبي إلى ذلك اليوم لم يمت، بل كان مُعلقًا قد سُلخ كثير منه، وكان الصبي العريف ينظر مُعلمه الساحر يدخل ساعة بعد ساعة إلى الخزانة التي فيها الصبي مُعلقًا، فقال في قلبه: ماذا يصنع مُعلمي في هذه الأيام، يدخل هذه الخزانة ويخرج؟! وكان ذكيًّا، فدخل المعلم فتتبعه الصبي بمَكْر فسمع ابن الأرملة يبكي ويتضرع إليه وهو لا يرحمه، وكان يقول كلامًا يحزن القلب: الويل لكِ يا أمي الحزينة الأرملة لأنكِ ما تعرفين ما حلَّ بي، الويل لبطنكِ الذي حملني ولثدييكِ اللذَيْن أرضعاني، أين أنتِ تنظرين عذاب ولدكِ اليتيم؟ ليتني متُّ وأنتِ حامل بي ولم تلديني على الأرض حتى أقع في هذا العذاب. ويقول مثل هذا كثير، والصبي العريف يسمعه، فخرج مسرعًا بخوف عظيم يقع ويقوم من شدة الخوف إلى أن وصل بيت الأرملة أم الصبي، فقال لها: قد وجدت ابنكِ. فجاءت مسرعة بعد أن أعاد عليها ما سمعه من فم ابنها، فمضت إلى الوالي وأعادت عليه القضية وما سمعته، فأنفذ معها قومًا ثقات من المسلمين ومعهم أعوان إلى بيت الكافر، فوجدوه داخل الخزانة التي فيها الصبي مُعلقًا مسلوخًا من رقبته إلى كتفيه فحملوه، والساحر مكتف معه إلى الوالي، وبغتةً ربطوا يديه ورجليه وقُطعت أذناه بين يدَي الوالي، فاعترف له بكل ما كان منه، وأحضروا الصبي، وعاينوه على تلك الحال وكتبوا في الوقت إلى القاسم ملك مصر، فلما وقف على الكتاب أمر برجم الكافر وحرقه بالنار.

ما إن فرغ ثاونا من حكاية الشماس الساحر، حتى التفت لي بجد وقال وهو يثبت نظره في ناظريَّ:

- بدير.. اصدقني القول، هل قلتُ شيئًا لا يليق بينما كنت محمومًا أهذي؟

رُحت أراوغ، محاولًا ألا أغضبه أو أخجله وهو بمكانة المُعلم مني، فقلت له إنه تحدث بكلام كثير تضمن اختلاطات في المعاني والألسنة، وإنه كان يهذي بلسان قبطي حينًا، وعربي حينًا آخر، كما قال يونانيات، وقد ذكر يسوعَ الكليم والسيدة البتول، وأسماء أخرى وكلمات غير مفهومة لا أعرف بأي لسان هي، وإن كنت أظن أنه اللسان العتيق.

احتدت نظراته وبدا ساهِمًا وتساءل:

- أي أسماء غريبة يا بدير تلك التي نطقتُ بها وأنا غائب عن الوعي؟ بالله عليك قل يا بدير أخي الطيب شبيه يوحنا فم الذهب.

قلت وقد ضيَّق عليَّ:

- أسماء لا أتذكرها الآن يا ثاونا.

- بدير.. اصدقني القول بحق الصليب!

عند هذا الحد، فاض بي، وكنت قد استشعرت مدى ضيقه وألمه، فقلت:

الحق؛ وقد قلتَ بحق الصليب، أقول لك إنك نطقت باسم ذلك الذي لا يجوز النطق باسمه، كما أنك - ذكرت الأوثان يا ثاونا.

رُحت أزدرد ريقي الجاف وأنا أخبره بذلك، ولم أكن أجرؤ على النظر في عينيه خوفًا من أن يتهمني بشيء أو يكشف لي عن إثم أكون قد اقترفته، فالشيطان شاطر ويستطيع أن يخدع الإنسان دون أن يدري، وما أنا إلا قيم مسكين أخبز القربان وأرعى شئون البيعة، ولا طاقة لي بالعمل الكنسي ولا أملك الخوض فيه، وما زال إثمي الدنيوي الذي اقترفته في ترنيط يعذب روحي ويدنس أفكاري.

زفر ثاونا بحزن ويأس، ثم قال:

إذن. فقد أفلت لساني لمّا كنت محمومًا، ونطق بما لا أرغب في النطق به. أجل يا بدير لقد عِشت - زمنًا في الهرطقات قبل أن تطهرني الكنيسة، وعرفت العلم والفلسفة سنين طويلة. وكنت مسيحيًّا غنوصيًّا أقول بالمعرفة الحقة الموصلة إلى السبب الأول الذي هو الخير عن طريق الحدس واكتشاف النفس للخاصة المصطفين، وذلك لفترة من الزمن، لكني تطهرت بفضل الرب من كل ذلك الرجس، وصِرت تاوضوسيًّا حقًّا، والفضل في ذلك يعود إلى كثرة اجتهادي في الإيمان وقراءة اللاهوت الحق.

ولكن الحق أقول لك يا بدير: في بعض الأوقات تراودني أفكار مختلطة عن هذا العالم الذي نعيش فيه، وهناك مسائل لا أفهمها على الرغم من اجتهادي في العلم ودرايتي بالناس وأمورهم. قل لي بربك يا بدير: ما معنى كل ذلك الذي يحدث الآن؟ وأبونا في قصر الشمع يبعث الرسل بين الحين والحين إلى البشامرة يأمرهم بطاعة أولي الأمر والسلطان ودفع ما عليهم من خراج، وها نحن من أولئك الرسل الذين يرسلهم، والخوف كل الخوف أن يتجرأ علينا البشامرة بالعنف، أو يقتلونا مثلما قتلوا إسحاق ومَن معه، وهو الرسول الذي كان أبونا قد أرسله لهم في العام الماضي. ثم إن العرب المسلمين يثورون أيضًا ضد هؤلاء الولاة ويرفضون دفع الخراج مثل القبط، ودين المسلمين يأمر بالمعروف وينهى عن فعل المنكر، ولا ينكر السيد والبتول، وعامة الناس من المسلمين العرب بُسطاء متقشفون في حياتهم وملبسهم وجوامع الصلاة لا ذهب فيها ولا فضة، فهم يركعون ويسجدون للرب في خشية وخشوع بكل أدب وبساطة. إذن.. قل لي بربك يا بدير: لماذا يتجبر هؤلاء الأمراء والولاة ويسلكون مسلك أباطرة وملوك الروم في الزمن القديم؟ ولماذا يتوسطهم أبونا يوساب بينهم وبين البشامرة بدلًا من أن يقوي البشامرة عليهم؟ ولماذا لا يأمر الولاة بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ليكونوا مثلما كان الولاة في مبتدأ الإسلام، كما قرأت عنهم في الكتب وسمعت: أتقياء بُسطاء، يخشون الرب ويعيشون في الزهد والتقشف وكأنهم رهبان داخل قلايات؟ لكن انظر أولئك الذين يحكموننا الآن. انظر هذا المروان، كيف يتصرف ويسلك هو وأجناده الذين باتوا متغطرسين جبابرة وكأنهم عسكر في جيش بيزنطة. أنا لم أعد أفهم شيئًا يا بدير، لا أفهم لمَ كل هذه الحرب؟ ولمَ كل هذه المشاحنات في البلاد؟ أنا خائف يا أخي والله، ولم أعد أعرف أين الحقيقة وأين رأسي من قدمي!

صلّبت وقد أخذتني الدهشة ورُحت أقول:

أأنت أيها العزيز ثاونا الذي تقول ذلك؟ أأنت لا تعرف أين الحقيقة وأنت غزير العلم والمعرفة. لا، - لا أظن ذلك، ولكن لعلك لا تعرف البشموريين مثلي، فهم أهلي وناسي، إنهم أجلاف قُساة، خشنون لا يعرفون شيئًا من أمور السياسة، فهم أهل فلاحة وصيد، ولعل أبانا أدرى بمصلحتهم منهم، فهو في قصر الشمع بمصر العتيقة يرى ما لا يرونه هم في كورهم البعيدة، وهو يريد تجنيبهم سفك الدماء ويحرص على سلامتهم وسلامة نسائهم وعيالهم، ويريد أن يكون واسطة خير بينهم وبين الوالي.

(3)

تنهد ثاونا بضيق، وبدا وكأن كلامي لم يعجبه، بل لمحتُ ما يشبه البسمة الساخرة المشفقة على وجهه، بينما هو يلكز بغله ليبطئ سَيره قليلًا، ويقول:

يا لك من بريء طاهر يا بدير الطيب. لا، لا أظن أن ذلك هو السبب فقط يا عزيزي، فأبونا يوساب - عينه أولًا وأخيرًا على بيعتنا اليعقوبية وممتلكاتها وثرواتها، وحربه أولًا وأخيرًا ضد الملكانيين الهراطقة، وهو يتمنى الوقت الذي يجيء فينقطع دابرهم من البلاد، فانتشار الإسلام في القرى والكور لا يقلقه، هو حريص على رباط الود مع المسلمين جميعًا وخاصة الولاة والأمراء، حتى يُقووه في حربه ضد الكنيسة الملكانية، التي إن سادت في البلاد، فربما عاد الروم إليها وسادوا مرة أخرى مثلما كانوا في الماضي. آه يا بدير، فليرحمنا الرب برحمته. إن بلادنا مسكينة يا بدير، مبتلية دومًا، تخرج من نقرة فتقع في حفرة. ربما كانت مأساتنا تكمن في أننا نتخذ جل معاشنا من الزرع والفِلاحة، ولا نعرف لنا حيلة غير الأرض والطين، فنلتصق بها نروم السلام والدعة ونكره الاشتغال بأمور الحرب.

كان يقول ذلك وهو متألم جدًّا. فتذكرت ما قاله في هذيانه وهو محموم: «البلاد تقاسي الألم. الآلهة هجرت الأرض وذهبت إلى السماء. العوز والإملاق في كل مكان يا يسوع المخلص. يا مريم البتول».

نظرت إليه مُشفقًا، كان سارحًا يتطلع بعينيه بعيدًا إلى الأفق الأخضر الممتد أمامنا، بينما يحث دابته على المسير مرة أخرى، وبدا لي أنه يتألم، لا.. بل يقاسي الألم.

دخلنا القرية وقد قيل لنا إن اسمها «غيفة»، وبدت للوهلة الأولى وكأن بها قليلًا من الناس الساكنين، إذ كان معظم أبواب بيوتها مُغلقًا، وليس هناك مَن يستقبلنا بالصياح والزياط عند ولوجنا طرقاتها من الأطفال والعيال الذين يوجدون في ذلك الوقت عادة للهو واللعب، فيعلنون بذلك في التو لأهاليهم عن مقدم الأجانب والأغراب.

فلما بلغنا ساحتها، وكانت ساحة واسعة لزوم دَرْس البر وذرايته كما هو معتاد في البلاد والقرى، لم نجد بها إلا نورجًا واحدًا في ركن منها، ثم إن فَلَّاحة ذات وجه شائه كثير الغضون انبرت لنا، وراحت تتأملنا باسترابة من خلف باب دارها الموارب، ويبدو أنها اطمأنت إلينا بعد حين، وقد تيقنت من لباسنا الأصفر وزنارَيْنا المجدولين، وأننا من أهل البِيَع وأصحاب المِلة، فرحبت بنا كثيرًا، وكأنها عادت إلى الشباب، وهي العجوز التي ليس في فمها إلا سن وحيدة، إضافة إلى ناب ظهر لنا وهي تتبسم، ثم إنها اعتذرت عن استرابتها وتلكئها في الترحيب بنا بسبب خوفها من الأغراب، وضعف باصرتها بسبب المرض، وقد ألمَّ منذ زمن بعينيها، ثم إنها لمَّا سلَّمنا عليها وطمأناها ورُحنا نستفهم منها ونسألها، أخبرتنا أن القرية صار يسكن بها قليل من الفلاحين المشتغلين بالأرض، بعد أن هجرها معظمهم، وأن القرية صارت منزلة قافلة الحاج فأسلم كثير من الناس لما يحصلونه من

فوائد وميز من جرّاء ذلك، وفضّلوا خدمة الحاج على خدمة الأرض لإدرارها عليهم الفضة والدنانير، مقابل ما يؤدونه من طعام وشراب للمرتحلين، لذلك لم تعد بالقرية إلا قِلة من أهل الكنيسة، وقد أخبرتنا هذه الأم الطيبة لما سألناها، أن هذه القرية القديمة كانت عامرة حتى وقت قريب، وأن مَن هم أكبر منها وحضرتهم قبل موتهم، كانوا يقولون بأن البلد تعود إلى زمن صُواع الملك، الذي فُقد من مدينة مصر، ووُجِد في رِحال إخوة يوسف النبي، وإنه كان من «غيفة» هذه.

ثم إن العجوز استقبلتنا في مودة، وأجلستنا في مكان المضيفة، وقدمت لنا الكامخ والصحناء والصبر وشيئًا مما طبخته لغدائها، كما أشربتنا شراب الحلبة المحلى بالعسل، وقدمت لنا ما كان عندهم من عنب الفيوم؛ وردي اللون كبير الحب، وهو عكس ما كان من كروم بيعتنا المخصص للخمر؛ الأصفر اللون صغير الحَب والمُسمى بالبناتي لخُلوه من البذر، فلما انتهينا من كل ذلك شكرناها كثيرًا وهممنا بتوديعها ومعاودة المسير، لكنا قبل أن نفعل قالت إنها تريد أن تسألنا مسألة، ونساعدها على حل مشكلة، أما المسألة فهي أنه لما كان معظم سكان القرية الذين تبقوا فيها قد تحول إلى الإسلام، ولم تعد هناك إلا قِلة من المسيحيين لا يوجد منهم مَن يصلح لابنتها البكر، فقد اضطرت لتزويجها برجل كان قد دخل في الإسلام منذ زمن يسير، وشارطته أن يترك البنت على دينها إذا ما أرادها تحته في بيت واحد، على أن يكون له كل مالها وموجودها وأرضها بعد أن تموت وترثها الفتاة، فوافق الرجل وترك زوجته على ما هي عليه، تتطقس بطقوس الكنيسة، مثلما كانت تفعل في بيت أمها، وقالت العجوز إنها تخشى أن تكون قد عصت أمرًا لله، لأنها ما أرادت غير سعادة ابنتها والاطمئنان عليها قبل موتها، لكنها لا تريد أيضًا إلا رضا السيد المخلص عنها، وأن تموت وهي مطمئنة للتنعم في ملكوت الرب.

أُسقِط في يد ثاونا، وهو المتكفل بالكلام في هذا المقام، أما أنا فسكتُّ؛ لأنه لا تحق لي الفتيا فيما لا أعلمه. وظل ثاونا صامتًا لفترة، يتأمل المرأة وأحوال الدنيا، لكنه قال أخيرًا:

- هذا زمن صعب يا أمي، وهناك مسائل لا تحل إلا يوم الدينونة، فليغفر الله لكِ ولابنتكِ ولزوجها ولنا جميعًا، ولكني أقول لكِ ما قاله بولس الرسول إلى أهل رومية من كلمات درية مقدسة:

«وأما أنا فجسدي مبيع تحت الخطيئة، لأني لست أعرف ما أنا أفعله، إذ لست أفعل ما أريده، بل ما أُبغِضه فإياه أفعل. فإن كنت أفعل ما لست أريده فإني أصادق الناموس أنه حَسَن. فالآن لست بعد أفعل ذلك أنا، بل الخطيئة الساكنة فيَّ. فإني أعلم أنه ليس ساكنٌ فيَّ، أي في جسدي، شيءٌ صالح، لأن الإرادة حاضرة عندي، وأما أن أفعل الحُسنى فلست أجد، لأني لست أفعل الصالح الذي أريده، بل الشر الذي لست أريده فإياه أفعل، فإن كنتُ ما لست أريده إياه أفعل، فلست بعدُ أفعله أنا، بل الخطيئة الساكنة فيَّ».

ثم إن ثاونا أخذ يصلي ويُصلّب، والمرأة تُصلّب وتصلي معنا، وبعد ذلك أشار عليها ثاونا بضرورة أن تتحصل على كتاب الرب وتحفظه في بيتها، حتى يحفظها ويحفظ ابنتها، ولو أنها لا تقرأ ولا تنظر فيه، كما نصحها بالذهاب كلَّ أحدٍ إلى البيعة للصلاة الجامعة، وكذا بالصوم، والحرص على

التطقس بالطقوس التاوضوسية والالتزام بها، وأن تُحصِّن ابنتها على فعل ذلك دومًا، لأن المسلمين لا يخالف مِلتهم التزوج من مِلة اليهود والتاوضوسيين، لأنهم أهل كتاب يعترف بنو الإسلام بأنبيائهم ورُسلهم، ثم إنه قام برقي العجوز كما طلبت منه. ثم قادتنا إلى موضع المشكل الذي أرادت أن نعينها على حلّه، وكان قنًّا للدجاج وضعته إلى جانب موضع حيواناتها التي تُربيها وترعاها في فناء دارها الخلفي، حيث كانت إلى جواره حضانة كتاكيت، وقالت إنها تتبع الأصول المعتادة في التفريخ بالحضانة، لكن أغلب البيض يفسد ولا تخرج منه الكتاكيت، ثم إنها أرتنا بيت الترقيد، وكانت صفته مربعًا طوله ثمانية أشبار في عرض ستة في ارتفاع أربعة تقريبًا، وله باب في عرضه، سعته شبران وعقد في مثله، وفوق الباب طاقة مستديرة قُطرها شِبر مُسقفة بأربع خشبات، وفوقها سدة قصب؛ يعني نسيجًا منه، وفوقه ساسي؛ وهو مشاقة الكتان وحطبه. ومن فوق ذلك الطين، وكان الطوب مرصوصًا كما هي العادة، وسائر البيت مُطين ظاهره وباطنه وأعلاه وأسفله حتى لا يخرج منه بخار، وكان في سقفه شباك كما ينبغي، سعته شبر في شبر بما يحكي صدر الدجاجة، وكان هناك أيضًا حوضان من الطين المخمر بساس، طول الحوض ستة أشبار وعرضه شبر ونصف وسُمكه عقدة إصبع، وحيطانه نحو أربع أصابع، وكان هذا الحوض لوحًا واحدًا كما ينبغي على أرض معتدلة. وهذا الحوض يُسمى الطاجن، وقد جف الطاجنان وركبا على طرف السقف، أحدهما على وجه الباب والآخر قباله على الطرف الآخر تركيبًا محكمًا، وقد أخذ وصولهما بالطين أخذًا متفقًا، وهذان الطاجنان يحاكيان جناحَي الدجاجة كما هو مقدر، والبيت مفروش بقفة تبن وممهد وفوقه ضب حصير، والبيض مصروف فوقه رصفًا حسنًا بحيث يتماس ولا يتراكب لتتواصل الحرارة فيه، وكان كله قد وضع في هذا الوضع الذي هو وضع الترقيد، والحضانة مسدودة الباب بلبد مهندم، والطاقة مسدودة بساس، وكذا الشباك، وفوقه زبل حتى لا يبقى في البيت منفس للبخار. وكان في الطاجنَيْن زبل البقر اليابس؛ أي الجلة، وهو حوالي قفتَيْن؛ أي نحو ثلاث ويبات، وموقد فيه سراج من جميع جهاته وهو لم يصبح رمادًا بعد ولم ينتهِ اشتعاله. وقد قالت العجوز إنها ظلت تتفقد البيض ساعة بعد أخرى بأن وضعته على عينها، واعتبرت حرارته؛ أي أنها اختبرت زواقه، فلم تجده يلذع العين لتقلبه ثلاث تقليبات في ثلاث دفعات تجعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله، بما يحاكي تقليب الدجاجة للبيضة بمنقارها وتفقُّدها إياها بعينها، وهذا ما يُسمى السماع الأول؛ لذا فهي لم تُزل الزبل الذي صار رمادًا، ولم تتركه بلا نار إلى نصف النهار، بل أضافت إليه زبلًا وعاودت الإشعال وذاقت البيض بعينَيْها فلم تجد أن حرارته معتدلة، بل كانت تلذع، وقد تكرر معها ذلك عدة مرات، وكان البيض يفسد فسألت كاهنًا ممن عرفت عنهم الأعمال ليعينها على نجاح الحضانة، فعمل لها تعويذة لم تنجح ولم تؤتِ مفعولها، ثم إنها دفعت إلينا برق، أخرجته من حفرة كانت قد حفرتها بالأرض إلى جانب الحضانة، فلما فتحها ثاونا رُحنا نقرؤها، وكانت مكتوبة بالعربية واليونانية والقبطية التي أدركت قراءتها جيدًا وكانت:

«أنا أدعوك أنت يا أتراك، العظيم الذي يقف عن يمين الشمس والذي تدين له بالولاء كل قوات الشمس، اذهب حتى حافة الهاوية، الفضة اذبحها، الصلب اكسره، الحديد أذِبه، الحجر فتته، مياه البحر جففها، الجبال حركها. إني أدعوكم يا رؤساء الملائكة السبعة ميخائيل وجبرائيل وأورييل وراكوئيل وسروييل وأنوئيل وسلفوئيل، لتنزلوا جميعًا حتى ميخائيل إلى هذا المكان، ولا تسمعوا شيئًا إلا ما أقوله لتمنحوني طلبي وتُحققوا الرغبة التي تجيش في عقلي وتتوق إليها نفسي. أنا سأعبر

أنهار النار السبعة. وأصعد إلى السماء السابعة حيث يتربع رب الصباؤوت. وسأجد ميخائيل واقفًا عن يمين الآب. أسرعوا.. أسرعوا.. أسرعوا. أنا أتضرع وأستحلف وأتوسل إليكم أيها الشهداء القديسون. أنا تيودورا المرأة العجوز الخاطئة، أضع أمامكم هذا الاتهام ضد كل مَن يُفسد بيض حضانتي من الناس والأرواح الشريرة المتخفية في الحيوانات، ولتحل اللعنة على كل مَن يفسد بيضي وليشتت شمله ولتشمله النقمة ولتنزل في الحال الذراع الجبارة واليد القوية عليه. أيها الشهداء القديسون أسرعوا ونفذوا مطلبي. أرسلوا قواتكم ومعجزاتكم. أسرعوا ونفذوا مطلبي».

دفع ثاونا الرقعة إلى تيودورا مرة أخرى وهو يقول لها:

- أستغفر الله من كل هذا. احرقي يا تيودورا الطيبة هذا اللغو في النار عندما تخبزين خبزك، أما كتاكيتك وحضاناتك فالمُشكل فيها أن السراج لا يشتعل كما ينبغي، إذ إن فتيله مُهترئ ويحتاج إلى تغيير.

ولم تكن العجوز تُدرِك ذلك بسبب ضعف بصرها.

ثم إنه قال بحُنو وهو يربت على كتفها:

- هل استعملتِ يا أمي شيئًا يفيد في تقوية البصر، حتى يمكنكِ تأدية ما ترغبين لتدبير شئون حياتكِ؟

ردت المرأة بقبطيتها الممزوجة بالعربية، والتي كانت تُحدثنا بها من قبل:

- أنا أقطر فيها بين الحين والحين ملح الشب المطحون، بعد أن أمزجه بالماء الأول من النيل والذي أخزنه في قواريري عند نزوله كل عام وقت هلول بشنس.

رد ثاونا بسرعة:

- لا.. لا.. محلول الشب لا يكفي وحده يا أمي لعتامة العين، بل عليكِ بالعصارة الطرية من الجميز، ثم إنه يتوجب عليكِ بين الحين والحين، خصوصًا في شهور الله الحارة، أن تقطري في عينيكِ مزيجًا من الخروع والزاج الأزرق وزيت الفجل وبعضًا يسيرًا من القلافونية، على أن يكون كل ما سَبق بمقادير متساوية ومقدارَيْن من الماء الطهور، فهذا القطر يدرأ سموم الحر التي يدفع بها الشيطان إلى أبصار الناس.

* * * *

على الرغم من المشقة وتعب الطريق، فإن رحلتي مع ثاونا إلى الأراضي الموحلة، بدت لي من أجلّ الأزمنة التي عِشتها في حياتي، فملازمة رجل قليل الوجود مثله لهو من دلائل النعم التي يفيض بها الرب على الإنسان، ولئن قال مَن قال: الرفيق قبل الطريق، فإن ثاونا لم يكن مجرد رفيق جديد، ولا مجرد شماس تقي، غزير العلم، واسع المعرفة، أرافقه في مهمة كنسية واجبة، بل كان مني بمثابة

الروح من الجسد، والهواء من التنفس، أو إنه ضياء يستضيء به وجداني ويعتمر، فأهتدي إلى شطآن السكينة واليقين، أنا المُتخبط دومًا في ظلمات اليأس والعذاب، لا يفارقني القنوط أبدًا وهو مَن أرشدني إلى حقيقة أن الحجاب على منى، وأني الغمامة على شمس نفسي، وأن عليَّ أن أعرف حقيقتها ومواطن العتمات واللين فيها.

لقد حدثته ذات مرة بما يثقل صدري، وكنا جلسنا تحت شجرة نبق لنستفيء ونستريح قليلًا، فوجدتني أبوح له بما لم أبُح به لأحد أبدًا، حتى لأبينا يوساب، وحكيت له حكايتي مع آمونة كما كانت وجرت على وجه الدقة، دون زيادة ولا نقصان، فأمسك بكفي، وهو يكفكف دمعي بمنديله وقال:

- أتعرف يا بدير أن الرب يُسبب الأسباب؟! فلولا حكايتك هذه مع آمونة.. لما كنت قد سلكت طريقك في الحياة، حتى وصلت إلى طريق الرب في البيعة وصِرت مسيحيًّا جيدًا سليم الإيمان، وربما لو بقيت إنسانًا علمانيًّا بعيدًا عن الخدمة، لم تسلك في الإكليروس، أخذتك الدنيا إلى شطآن الضلال تتخبطك الأفكار، وتدفع بك في كل اتجاه ولا تسلمك إلى سكة اليقين أبدًا. إن قصتك ليست وحيدة فريدة أيها الأخ العزيز، فأنا أيضًا، كلما تذكرت قصتي الأولى عندما كنت أعيش في الوثنية والضلال، أتيقن أن الرب إنما وضعني فيها حتى تقودني قدماي في النهاية إلى طريق الصدق والإيمان:

هتفت بدهشة، وقد دفعني الفضول:

- ثاونا.. قل لي بربك ولا تحجب عني شيئًا، هل لك قصة مثل قصتي؟ هل عرفت صنف النساء في حياتك من قبل يا ثاونا؟ يا الله!

ابتسم ثاونا ابتسامة باهتة، ربما لأني قلت ذلك بلهفة بينة، ورغبة قوية في معرفة أمر يخصه ويُخفيه. ربت على كتفي وقال:

- ولماذا تظن أنني لم أعرف نساء من قبل، وتدهش إذا كانت لي قصة معهن ذات يوم؟ ألست رجلًا كاملًا أمامك..وكنت ذات يوم شابًّا فتيًّا يافعًا له جسد يطلب ما يطلبه الرجال؟!

ثم إنه أخذ يبتسم مرة أخرى وهو ينظر إليَّ بحُنو وعطف.

خجلت من نفسي، وقد رد عليَّ بذلك، لكني في الحقيقة، كنت أرى ثاونا وكأنه كائن نوراني، وكأنه سارووفييم سماوي وليس كبشر جسداني، فقلت له:

- لا.. لا بحق السيد ثاونا، أنا لم أقصد ما يعني أنك لستَ كاملًا، لكني أُنزهك عن كل خطيئة شهوانية وأستحيلها بالنسبة إليك، فأنت حكيم، راجح الوجدان، راسخ المعرفة.

قاطعني بسرعة:

لا.. لا يا بدير؛ ذلك لأنك عرفتني بعد أن اهتديت، أما في الماضي فقد عِشت في الخطيئة، - والمشكل يا بدير - ودعني أصدقك القول، وليسامحني ويغفر لي الرب - هو أنني حتى هذه اللحظة التي أجلس فيها وأحدثك، لا أشعر أنها خطيئة، بل كلما طافت الذكريات برأسي، وتمثلت صور الماضي أمام ناظري، وكأنها حدثت بالأمس القريب، انتعشت روحي بالفرح، وغمرتني سعادة لا أقوى على احتمالها أحيانًا، فأشعر أنني أرغب في القفز والطيران والعلو والارتفاع حتى أعالي السحاب.

فتحت عيني بقوة وأنا أحدق في عينَيْه بدهشة، وقد وجدتهما تلمعان بقوة زادتهما جَمالًا وبَهاء، فصار وجهه أكثر وسامة وجلالًا، وقلت له وقد أخذني الشوق والعجب مما يقول:

- يا الله يا ثاونا! أنت تقول ذلك؟! تقول إنك لا تشعر حتى هذه اللحظة بالخطيئة!

- أجل.. أجل يا بدير.. أن لا أشعر بالخطيئة أبدًا، وأتعذب لذلك كثيرًا، لأنه يُفترض أن أشعر بالخطيئة وأتوب إلى الرب، ولا أعرف، لماذا يحدث لي لذلك يا بدير؟ قل لي لماذا لا أندم وأتوب؟ بل لماذا أتمنى أن أعيش ما عِشته من قبل والذي يُسمى خطيئة؟

صلَّبت بسرعة، وداخلني شعور مُباغت، بأن ثاونا بدأت تُداهمه اختلاطات.

وقد تذكرت من جديد ما أشيع عنه في السابق وكذا هذياناته وهو محموم، وآثرت أن أنهي الكلام، فربما كانت ثمة شياطين تحل في المكان أخذت في الهيمنة علينا مبتدئة به، قلت له بارتباك:

- ثاونا، هيا بنا نصلي صلاة المساء، فالساعة الآن حوالي الرابعة بعد الزوال، ولنتوجه بعد ذلك بسرعة إلى غايتنا ونعاود المسير.

قال بسرعة، وكأنه يحادث روحه أمام صفحة نبع رائق، وكأن قوة جبارة تدفعه إلى الكلام دفعًا، ولا يستطيع أحد مهما كان أن يوقفه.

- لا يا بدير، لن نعاود المسير قبل أن تَسمع حكايتي، أنا أريد أن أقص لك خبري عن دلوكة، أريدك أن تعرف حبيبتي دلوكة؛ مُعلمتي وسيدتي ومولاتي أمس واليوم وغدًا، وحتى أبد الآبدين.

كيف أصفها لك يا بدير؟ أأصف لك روحها، أم أنشدك أغنيات جسدها؟ إنها مُعلمتي الأولى، عرفت الحكمة على يديها، فهمتُ الفلسفة والحساب، خبرت أمور الطبابة، إنها آخر النساء العظيمات.. وربما لن تجود القرون القادمات بمثلها. كانت تُعلّم في مدرسة بربة بلدة أنطونيوبوليس، وكانت هذه البربة تقع عند آخر البلدة على مشارف الجبل القريب منها، وكانت دلوكة موقرة، محترمة بين الناس، مشهورة بعلمها ومهارتها، التي يقال إنها ورثتها عن آبائها وأجدادها، وكان أبي أثناء ذلك متمسكًا بدين الوثنية، يذهب إلى البرابي ويتعبد، فدفع بي إليها لتُعلمني منذ أن أبلغ العاشرة، فلما بلغت وصِرت فتى يافعًا، تأخذني أشواق الذكورة والرجولة إلى نوع النساء، تولعت بها، ولم أعد

أملك من أمري أمرًا، وكانت دلوكة جميلة آسِرة، كشمس شتوية في نهار بارد، وقد زادها العلم بهاء، والحكمة فتنة وحضورًا، وقد هيمن على جسدها فأصبح يأتمر بأمره، ولعلك تعلم أن أبدع الأجساد هو ما كان مطية للعقول، فتتحول الغرائز إلى ملكات، ويروض الإنسي كل ما هو وحشي. وهكذا كانت دلوكة، فالمرء لا يدرك سِر هيامه بها، أهو بسبب تشكيلها الجسماني المترتب في تناسق وإحكام، أم أنه يعود إلى فيضها الروحاني السابغ عليه بما لا يقوى على مقاومته ولا يسعفه به الفهم والتفسير؟ وهكذا باتت تهيمن على روحي وعقلي، وتأسر كُلي وبعضي، فزهدت الطعام، وأخذت بالشراب، وصِرت أبيت ليلي وأصبح صباحي، لا أدري قمرًا مثلها ولا شمسًا، ويبدو أنها فطنت إلى حالي، وهالها ما سوف يصير إليه مآلي، وهي المرأة العليمة الحاذقة، فقالت لي ذات يوم وقد ذهبتُ إليها في البربة لأسألها في أمر من أمور جالينوس في التشريح، وقد كنت رأيت في بعض الرمم أن عظم الفك الأسفل هو عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز أصلًا، على عكس ما يرى جالينوس في كتابه؛ حيث يقول إنه عظمان بمفصل وثيق من الحنك، المهم أنها أفادتني وأجابتني عن المشكل بما نفعني، ثم إنها قالت وهي تحدق في عينيَّ طويلًا:

- ثاونا.. اتبعني يا حبيبي الجميل، إلى حيث أكون معك وحدي.

سِرت وراءها كالمسحور، وكأنها أرسلت من لحظ عينيها نارًا أشعلت بها جسدي، وضجت بها نفسي، حين هتفت بندائها: «حبيبي الجميل».. فلا أعرف كيف عبرت الدهليز، أسِرت أم طِرت؟ ثم إنها أمسكتني لما وصلنا الباحة المنتهي إليها ذلك الدهليز، وراحت تنضو عني ردائي شيئًا فشيئًا، وتدفع بجسدها - وقد تعرت مثلي - تجاه جسدي، فما لبثنا إلا قليلًا، حتى غرقنا في منهل القُبل، وسرعان ما ارتفعنا حتى بلغنا فراديس النشوة العلوية، وكانت هذه هي مرّتي الأولى التي ألج فيها إلى بساتين النساء، وكانت الأخيرة أيضًا أيها الصديق العزيز، فقد وجدت دلوكة ميتة بعد ذلك بوقت يسير، وقيل وقتها إن جماعة من المسيحيين المؤمنين هاجمت البربا في وضح النهار، وهدمتها بعد أن قتلت كلَّ مَن فيها، وحطمت ما بها من أصنام وأتلفت كل ما كان على جدرانها مكتوبًا بالقلم المرسوم، ثم إن أبي ارتحل بي وبأهلي من البلدة بعد ذلك، بعد أن بقينا مختبئَيْن فيها ننتقل من مكان إلى مكان سِرًّا، وذلك بسبب تخوفه من هذه الجماعة. فليرحمني الرب يا بدير وليغفر لي، وليحشرها في زمرة التائبين، لكني أقول لك إن دلوكة أول وآخر النساء في حياتي، فأنا لا أرى النساء كلهن إلا فيها، ولا أراها إلا كل نساء الأرض؛ ولذا أقول لك، وليرحمني الرحيم، إنني لا أنساها أبدًا، فهي كامنة في أعماق روحي كسلافة عتيقة، تزيدها الأيام تعتقًا ويندر مَذاقها، لذلك فإن ذكراها تُعطر روحي وتمنحني نشوة حاضرة تعينني كقنديل مضيء في ليلٍ حالِك، فما من شيء - في عالمنا هذا - يمنح المرء اليقين. كل شيء مضطرب يا بدير، والتحولات لا تترك لك مجالًا ترتب روحك عليه بسبب سرعتها، فما هو كائن اليوم يختفي في الغد، وما تراه عينك في هذه اللحظة سرعان ما يغيب في لحظة أخرى.

لقد عِشت في بلدتي وأنا أظن أنني لن أغادرها أبدًا، وها أنا قد غادرتها منذ سنوات بعد مقتل دلوكة، وقد عِشت زمنًا في الوثنية والعلمانية، لكني صِرت بعد حين من رجال الإكليروس، فلما صِرت في الدير، جلبت إلى بيعتنا في قصر الشمع وأنا أظن أنني لن أغادرها أبدًا، وها أنا الآن أسير إلى

الأراضي الموحلة - والله يعلم وحده - هل سنعود إلى قصر الشمع مرة أخرى، أم أنه سيُقضى بنا أمر آخر كان مفعولًا.

لم أكن أدرك أن ثاونا مضطرب مثلي، إلا خلال هذه الآونة.

وعندما قال ذلك قاله وهو واثق الإيمان، قوي المعرفة، لكن يبدو أن هناك أشياء تحدث حولنا تدفع بالمرء إلى أن يتخبط بين الحين والحين. ربما كانت الأرواح الشيطانية ما زالت أقوى من الأرواح الطيبة في تسيير كثير من الأمور، قلت لأهوِّن عليه، وقد شعرت بمزيد من الحنو، وبنوع من الشفقة عليه: إنه زمن صعب يا ثاونا، ولكنْ لكل شيء آخِر، والله لن يتخلى عنا أبدًا، وهو القادر وحده على منح الراحة لأرواحنا.

تنهَّد، ثم سألني فجأة:

أتعلم أنني مُتشوق جدًّا لرؤية الأراضي الموحلة؟ فأنا أتخيلها وكأنها جُزر في البحر يحيطها الماء - من كل جانب، ولا أعرف كيف تكون موحلة كما يقال عنها يا بدير؟!

شعرت للمرة الأولى عندما قال ذلك أنني أعرف شيئًا لا يعرفه، وربما - وليسامحني الرب - داخلَني شيء من الرضا بسبب ذلك، فسارعت أقول:

والله من الصعب أن أصفها لك، لكنك - على أي حال - سوف تراها بعينك بعد وقت ليس بكبير، - وهي – على أي حال - أرض يتم فيها اختلاط مياه البحر الرومي بمياه النيل العذبة، وقد تداخل فيها رمل البحر مع طمي النيل وغرينه. وترسب كله ترسبًا قويًّا متينًا في بعض المواضع، بينما بقي لطيفًا خفيفًا في مواضع أخرى من الأرض، وباتت له سيولة وزلاقة تغوص فيها أقدام السائر، وأقل إهمالٍ أو عدم احترازٍ في السير أو غيابٍ للتنبه، قد يؤدي إلى الغوص والتهلكة، لأن كثيرًا من مواضع تلك السيولة ليس له قرار، ويمكن أن يبتلع الإنسان ويحتويه داخل الطين مثلما هو الماء الخالص تمامًا، لذلك يجب أن يكون هناك أدلاء عارفون بمواضع السير في هذه الأراضي، إذا ما كان هناك غُرباء. أما أهالي هذه الأراضي وساكنوها – وكلهم من البشموريين أمثالي - فهم يعرفونها جيدًا، بسبب تمرسهم عليها منذ صغرهم، وقد بنوا كورهم وقُراهم على ما بها من مواضع راسخة التربة متينة القرار.

تنحنح ثاونا قليلًا، وبان كأنه متحرج من أن يسألني شيئًا، فقد صمت، وربما كان يفكر في قول ما يرغبه على نحو لا تُجانبه الرهافة، ثم قال:

ولكن - ولتسامحني في ذلك يا بدير - لماذا اشتهر أهل الأراضي الموحلة من البشامرة بالخشونة - والغلظة والعنف؟ ولا تؤاخذني - يا عزيزي - في ذلك فأنت منذ أن عرفتك في البيعة وما زلت حتى الآن لطيف المعشر، لين الطباع، لم يظهر منك ما يعتبر من الغلظة والخشونة في المسلك والأخلاق!

حرت جوابًا، فأنا وإن كنت قد سمعت ذلك مرارًا خلال تجوالي، لا أدري له سببًا، وإن كنت أتضايق كثيرًا بسبب ذلك، بل كدت أضرب رجلًا ذات مرة، لأنه عيَّرني عندما عرف أنني بشموري، فقال: مياه مالحة ووجوه كالحة! وكان يقصدني ويقصد أهلي البشامرة بذلك، ولم أتركه إلا بعد أن خلَّصه الناس مني، وكان ذلك بالقرب من قرية صادفتها وبدَت في عيني وقتها كئيبة مُريبة لا زرع ولا خضار فيها، أهلها المجذومون المنبوذون الذين يترقبون خروج ووصول الحجاج المسلمين عند البِركة الواقعة على أطراف الصحراء، فيتسولون منهم ما يقتاتون به.

أفضيت إلى ثاونا بذلك، ثم قلت مُجيبًا عن سؤاله: كان أبي يقول لي دائمًا إننا نعيش كمَن يعيش في الماء، فنحن لا نعرف مبتدأ أراضينا من منتهاها وهي في حالة تغير دائم، بسبب دخول البحر إليها حينًا، وانحساره عنها حينًا آخر، كما قال لي ذات مرة إن مبتدأ وجودنا في هذه المواضع كان سببه البحر، فأجدادنا الأوائل كانوا من راكبي البحر والمشتغلين به، لكنهم مع مرور الأزمنة تواطنوا وأنِسوا إلى الزراعة فصارت معاشًا لهم، وإن ظلت طباع البحر وأخلاقه هي المهيمنة عليهم، السائدة فيهم، فانتقلت إلينا من جيل إلى جيل، كما أن وجودنا في مبتدأ البلاد بالقرب من البحر دومًا، جعلنا في موضع الصدارة لكل وافد غريب، أو معتدٍ باغٍ، فكثيرًا ما تعرضنا للغزو والنهب، خصوصًا من لصوص البحر، الذين كانوا يَسرقون - إذا ما هبطوا – كل شيء حتى الناس.

لذا فأنت ترى أن سحنات الناس عندنا متخالطة، متداخلة، وإن مالت إلى البياض وكأننا من الروم أو من السوريين.

كنت قد تذكرت أبي وأهلي وأنا أروي له ذلك، فجاشت مشاعري بالشوق إليهم، لكني تجلدت كثيرًا حتى لا تتساقط دموعي، ويبدو أن ثاونا أدرك ما أنا فيه، فقال مُحيدًا بالحديث إلى موضع آخر:

يا الله يا بدير.. أذهبتَ إلى قرية المجذومين أثناء هيامك قبل وصولك إلى البيعة؟! عجيب أمرك - والله يا بدير! لكن الحمد للرب لأنك لم تُصب بعدوى من هؤلاء المجذومين؛ لأن الجذام مرض فظيع يا عزيزي، ورحم الله يوحنا بن ماسوية الطبيب، فقد كان واسع العلم، عظيم المعرفة، وقد صنف كُتبًا كثيرة، فاق عددها الأربعين، ومن بينها مصنف عظيم في مرض الجذام، لم يسبقه إليه أحد ولا حتى جالينوس، ويقال إن هذا المرض يأتي وينتشر من عِلة تتعلق بدابة عضّاضة، وربما كانت نوعًا من السلاحف، والتي يسميها بعض العرب «فكرون».

بقيت فترة صامتًا أسير وقد تجسدت في عيني مشاهد المجذومين في قريتهم الغريبة، بعد أن نجح ثاونا أن يأخذني بعيدًا، عمَّا يهيج ذكريات أهلي في ترنيط. ربما كانت مشاهد هؤلاء أبشع ما رأيت طوال حياتي، وقد تجمعوا نساء ورجالًا في ذلك المكان وكأنهم ليسوا من أهل الأرض، وقد تساقطت أنوف معظمهم، وبقي كثير منهم بلا أصابع تقريبًا، وكانوا قذرين على نحو لا يصدق، وربما لا يدل على بشريتهم إلا عيونهم الشاخصة دومًا إلى لا شيء، وعلى الرغم من توهاني خلال ذلك الوقت، إلا أنني لم أنسَ مناظر هؤلاء القوم أبدًا، بل أقول إنهم ربما ردوا إليَّ جانبًا من وعيي وشعوري، وكانوا عبرة لي لأحمد الرب على ما أنا فيه، وعلى كل حال، في كل وقت ومكان.

هكذا رُحنا نتحايل على ساعات الوقت ودروجه، وكلما أوغلنا في الكلام ومكاشفة النفس للنفس بما يعتريها ويهجسها، ازداد شعوري بأن ثاونا هو قرين روحي، وصنو ألمي وهمّي، وهو أهلي وناسي، ومَن يمنحني اليقين ويساعدني على تقبل وجودي وحياتي.

بقينا نقطع الطريق تلو الطريق، حتى وصلنا موضعًا يقال له الحوف الشرقي، لم أكن قد رأيته من قبل، وكذا ثاونا، فلما ولجنا إليه، وجدنا أن أكثر ناسه من العرب، وإن كان بينهم مَن هو من القبط، لأن الرجل الذي رآنا عند مبتدأ الغيطان أثناء قدومنا، تحدث إلينا بلسانٍ قبطي مخلوط بلسان العرب، ورحب بنا ترحيبًا بالغًا، قبل أن يقودنا إلى دار كبيرة حسنة البنيان، قال لنا إنها لمُترئس هذه البلدة من الحوف، ويقال له بلسان العرب «العمدة»، وهو في مقام المازوت باللسان القبطي، وإنه يتوجب على أي قادم إلى البلدة أن يلتقيه ليستعلم منه عن سبب قدومه، ويأذن له بالمكوث إن أراد.

وقد أخبرنا الرجل أن هذه البلدة، وكثيرًا من بلاد الحوف، تقع على طريق حجيج المسلمين على البلد المقدس المكرم، وأن كثيرًا من الناس صاروا يتعيشون على خدمة الحجاج وتركوا الفِلاحة والزرع بسبب تكسبهم الكثير من ذلك. فلما دخلنا على صاحب الدار الذي هو العمدة، استقبلنا بحفاوة كبيرة وكأننا من أهل مِلته؛ لأنه كان من المسلمين، وكان لطيفًا بشوشًا، دون افتقار إلى الوقار والنُّبل، وتعجب كثيرًا من مجازفتنا ومرورنا في هذا الوقت، لأن الحوف كله في حالة ثورة وانتقاض ضد الولاة، فلما أعلمناه بأننا نحمل رسالة إلى رئيس البشامرة، تعجَّب أكثر، لأنه لم يكن يعلم بانتفاضة هؤلاء.

وظل يقول: سبحان الله. ويكثر من قول ذلك وهو يصلي على رسوله الكريم.

ثم إنه أصر على أن نأكل في داره، وقام فأمر بذبيحة، فلما قدم لنا شواءها، وكانت شاة جيدة المذاق، إضافة إلى ثريد العرب، وفاكهة الموسم، أكلنا وحمدنا الرب كثيرًا، فراح الرجل يسألنا عن ديننا وطقوسنا، ومبتدأ دخولنا في مِلة المسيح وأنا ساكت تأدبًا، بينما ثاونا يرد، والرجل يستمع إليه بكل جد ووقار، ثم إن المؤذن نادى للصلاة كما في عادة المسلمين، فقام الرجل مستأذنًا، فدخل إلى محل الأدب ثم عاد وجاء غلامه بماء طهور في سطل من النحاس، وراح يصب على يدَيْه فغسلها حتى رسغيه، ثم غسل فمه ووجهه وأذنيه، وكذا ساعديه ومسح على رأسه. وكذا غسل قدميه، فتعجبت لذلك عجبًا شديدًا، وهمست لثاونا مبديًا دهشتي ولم أكن قد رأيت ذلك من قبل فقال لي بصوت خفيض إن الرجل يتوضأ؛ أي يتطهر ويغسل جسده في المواضع التي تكون عُرضة للاتساخ، حتى يقف بين يدَي ربه نظيفًا طاهرًا وقت الصلاة. وقال أيضًا إن المسلمين يفعلون ذلك خمس مرات كل يوم، فتعجبت أكثر لذلك. ولم أكن أعرف من قبل أنهم حريصون على النظافة والطهارة مثلنا نحن الأقباط، وبدا لي ذلك كثير الشبه بوجوب غسل القدمين قبل الطلوع إلى هيكل قدس الأقداس في البيعة وتطهيرهما من الإناء النحاس المملوء ماء طهورًا، والموضوع على مطهرة الخميس الكبير، وكما شهدت التوراة بأنه كان في القبة الخارجة والقبة الداخلة سطل من نحاس لتطهير أقدام الكهنة قبل دخولهم قدس الأقداس في قبة الزمان.

ثم إن العمدة اتخذ موضعًا في ركن الغرفة، وراح يصلي ونحن موجودان في المكان ذاته، ليس بعيدًا دون أن يتحرج من وجودنا أو يجد ما يمنعه من عقيدته ونحن من أهل البيعة، كما هو ظاهر من مخبرنا ومظهرنا.

فتعجبت لذلك أكثر، وإن كنت بقيت صامتًا وكذلك ثاونا، ولم ننطق تأدبًا وإجلالًا، والرجل واقف يصلي في حضرة ربه، فلما انتهى وسلم وصلى على نبيه وسلم تسليمًا، وعاد إلى مجلسه بيننا، أخذ يحدثنا عن العرب اليمانية، وكذا العرب القيسية الذين جاءوا إلى هذه البلاد وكان مبتدأ ورودهم زمن الولاة الأوائل، وأنهم نزلوا بهذا الحوف الشرقي، واتخذوا الزرع معاشًا، لكن الولاة ظلوا يضيقون عليهم بالخراج بين حين وحين مثلما فعلوا مع القبط، كما ظلوا يضيقون في حساب القصبات كثيرًا، حتى ضجت الناس وضاقت بعسف هؤلاء الولاة، لذلك فلقد امتنعوا - في نهاية الأمر - عن دفع الخراج، خصوصًا بعدما جاءهم آخر مسَّاح وأخذوا يمسحون الأراضي المنزرعة. فانتقصوا من كل قصبة أصابع، فتظلم الناس إلى أمير البلاد فلم يسمع منهم؛ لذلك فقد عسكروا جميعًا وثاروا.

كان الرجل يحكي هذا وهو غاية في الغضب، يمسح على لحيته بعصبية وتأثر بين الحين والحين ويدعو دعوات كثيرة على الولاة، متمنيًا على الله أن يُحل عليهم نقمته، فتكون آية تجعلهم يرعوون عما هم فيه من ظلم للناس، ويعودون إلى العدل وفعل الخير، وظل يقول إن فعلهم ليس بفعل المسلمين الأوائل، الذين يجب الاقتداء بهم في الأفعال والأقوال، وإن دين الإسلام ما أمر بظلم أو بجور أبدًا، وإن هؤلاء الولاة والأمراء، إن استمروا سادرين في غيهم، يزرعون الشر، فإنهم - في النهاية - لن يجنوا غير الحسك والشوك.

وظل الرجل يقول كلامًا كثيرًا بلسانه العربي، وقد فهمت بعضه، وثاونا يُترجم لي ما لا أفهمه، وكنت لا أتردد في سؤاله أثناء ذلك، ثم إن الرجل خرج ليُودّعنا بعد أن استأذنا في معاودة المسير، ومشى معنا ونحن إلى جانبه مترجلَيْن عن الدابتَيْن تحشمًا حتى بلغنا نهاية البلدة، كنا أثناء مسيرنا قد رأينا الناس في الأزقة والطرقات، وقد ارتدى أغلبهم الملابس العربية، وكانت النساء يسرن مكشوفات الوجوه، يخالطن الرجال فيما يستوجب المخالطة من معاملات وبيع وشراء، دون أي حرج، وقد كنت أظن أن نساء المسلمين لا يخرجن من دورهن ولا يخالطن الرجال في أي أمر من الأمور.

فارقنا الرجل بعد أن ودّعناه شاكرين، وقد أوصى بنا العسكر الذين كانوا يحرسون مخارج البلدة وهم في حالة تأهب واستعداد، فأكرموا خروجنا دون أي مضايقة، ودلّونا على الطريق الأسهل للوصول إلى حذاء النهر بُغيتنا، حتى نسلكه صعودًا إلى الأراضي البشمورية، لكن ما إن سِرنا قليلًا حتى استوقفنا رجل قبطي طيب، حذّرنا من السير بحذاء النهر قائلًا: إن هناك بلدة قبطية يقال لها سمنود، يمكن أن يحصل لنا مكروه كبير لو دخلناها، لأن بها شغبًا كثيرًا؛ بسبب أن بعض الرهبان قد وفدوا عليها من دير لم يُسمه، ودخلوا بيعة من بِيَعها، فلما كان وقت القداس الإلهي، أضاف هؤلاء الرهبان إلى الاعتراف الأخير كلامًا وقالوا: «المحيي كصفة لجسد المسيح، هذا هو الجسد المحيي»، فثار عليهم القساوسة والناس، وكادوا يفتكون بهم.

ثم إن الرجل نصحنا بالدوران حول البلدة لنلزم خط النهر من الجهة الأخرى، فشكرناه ومضينا، فلما بقينا وحدنا بعد أن غادرنا الرجل، قال ثاونا:

أرأيت ذلك الاضطراب في كل شيء حتى الرهبان في الأديرة صار بعضهم يخلط ويهرطق دون - خجل أو مواربة! بل ما زال هؤلاء يفعلون مثلما كان يُفعل في الماضي، من صياغات تلفيقية إيمانية لمآرب في نفوسهم، وأغراض تخص مصالحهم، فيقولون بمشيئة واحدة في المسيح، بدلًا من طبيعة واحدة في المسيح! كما فعل ذات مرة الطاغية الرومي هرقل الذي ابتدع هذه البدعة المونوثيليتية المرذولة، وحاول إرغامنا - نحن الأقباط التاوضوسيين- على قبولها، وقام بتعيين بطريرك نسطوري على كنيستنا في ذلك الوقت. ماذا أقول؟ لنا الله يا بدير وهو الحافظ للجميع أولًا وأخيرًا.

* * * *

بقينا سائرَيْن، أقود ثاونا حامل رسالة الأب يوساب بمنتهى السهولة واليسر، وأنا أميز بين التربة المأمونة الراسخة التي يتوجب السير عليها، وتلك المرملة المبيضة التي هي غيض غائض لا قرار له، حتى أوشكنا على الاقتراب من بلدان كورة البشموري، ولم نلبث إلا قليلًا حتى اجتزنا الأريسيّة، بعد أن استجوبنا العسكر الحراس على مداخلها، فشرحنا لهم الغاية من مرورنا بها، ولما أذنوا لنا، توجّهنا إلى النجوم وهي محلة البشموري ذاته، وقد هالنا عندما نظرناها، ما كان قد أخذنا عند مرورنا بالأريسية كذلك، أن الفلاحين منتشرون في كل مكان وقد تسلحوا بالعصي والقسي والحجارة والمقاليع والآجر المُقطع والبارية المقيرة والجعبة أو المخلاة والتراس من البواري، كما كانت على رءوسهم الخوذ من الخوص النابت كثيرًا في المستنقعات والمجاري بأراضيهم الموحلة، وكان بعضهم يكتفي بمئزر يلف به وسطه، وقد جعل في عنقه الجلاجل والصدف الأحمر والأصفر ومقاود ولجمًا من مكانس ومذاب، وهو عارٍ ما عدا ذلك المئزر الساتر للعورة وموضع الحياء، ثم إننا طلبنا الحمَّام من بعضهم لنغتسل ونتهيأ قليلًا قبل دخولنا على مينا بن بقيرة، فلما أوصلونا إليه، وجدناه حمَّامًا قديمًا حسنًا. قال ثاونا: إنه ربما يعود إلى زمن حُكم الروم للبلاد. ثم إنهم قادونا إلى حجرة ضيقة قالوا لنا إنها المستخدمة الآن في أمور النظافة والتطهر من بين مواضع الحمَّام كله، إذ إن مساحاته وفسحاته كلها قد عُينت لأمور الحرب والقتال، فهو بمثابة موضع السلاح ومخزنه لرجال البشموري المحاربين، كما أنه كُرس لمبيت أكثر عسكره، فطلبنا بلطف أن نعاين ذلك ونراه بعد فراغنا فوافق القائمون على الحمّام بعد لأي وقد تلمسوا فينا الطيبة والخير، وتأكدوا أننا لسنا من الجواسيس أو البصاصين التابعين لوالي البلاد، بل رجال كهنوت لا ناقة لنا ولا جَمل في هذه الحرب الدائرة، ولا نبغي غير حَقْن دماء عباد الله، سواء أكانوا من القبط أم من المسلمين.

فلما جُلنا متفقدين المواضع داخل ذلك الحمَّام، هالنا السلاح الكثير وتعدد الرجال المحاربين من البشامرة الفلاحين ومعهم بعض المسلمين العرب، الذي انضموا إلى البشموري، وثاروا ثورته. وكان مَن يجلس منصرفًا إلى عمل يعمله بسلاحه، ومَن يقف يتدرب على الرمي وقد اتخذ من صحن الحمَّام ميدانًا للتدريب والرماية، فلما رأونا التفوا حولنا، وقد سمعت بأذنيَّ البعض يرمينا بالشتائم القبيحة، وينعتنا بأننا من أهل مصر المُنعمين، وهو يقصد بمصر أهل قصر الشمع، فلم أترجم لثاونا

ذلك، حتى لا يغضب ويتضايق، بل حثثته على الإسراع بالخروج خوفًا مما لا يبتغيه قبل وصولنا إلى موضع مينا بن بقيرة، وقد هالنا خلط النساء بالرجال في هذا الموضع من الحمَّام؛ إذ كان هناك من النسوة مَن يشتغلن بتكسير الطوب وإعداد الحجارة والآجر، وعمل المخالي، كما كانت هناك عجائز منصرفات إلى شئون الخدمة من طهي وتنظيف وخلافه، وقد شاهدت «أزانًا» ضخمًا يصطلي بنار قوية أُعِدت من خشب البوص، وبه مرق يغلي من ذلك النوع المسمى السخين، وقد قال لنا مَن لازمنا أثناء تفقدنا مواضع الحمَّام إن جل أكل المحاربين هو من خبز بر الشعير، وذلك المرق المتخذ لهم كإدام.

وأثناء خروجنا من الحمَّام، تقدم منا أحد الفلاحين العسكر برق، فلما فتحه ثاونا، وجد مكتوبًا فيه بعربية واضحة:

لا صبر لا صحناة ولا دلنيس

ولا نيدة أو ثريد أو خبيز

فثُر على الولاة وقم

لا ترجُ سببًا لهم أو عذرًا

فوضعها ثاونا في جيب ردائه وهو صامت، فلما تركنا هؤلاء وخرجنا لنعاود المسير مرة أخرى، قال ثاونا:

- ألا ترى أن هؤلاء العسكر لا يعتنون بأمور الدين كثيرًا؟!

قلت له موافقًا:

- أجل.. لاحظت ذلك وتعجبت كثيرًا، لكن تعجبي الأشد كان لوجود هؤلاء العرب المسلمين بين البشامرة. نحن لم نسمع عن ذلك من قبل في قصر الشمع!

رد قائلًا:

- ليسوا عربًا مسلمين فقط، ولكن مسلمين من القبط أيضًا.. ألم تر ذلك الذي كان يحت بسكينة قرون البقر؟ إنه من المسلمين القبط وملبسه يشي بذلك، فهو يلبس عمامة وإن كانت مُهترئة. أما المرأة التي كان يُحادثها وهي تغرف له المرق فهي قبطية؛ لأن أحد خُفيها كان أسود والآخر أبيض.. إن التذمر والغضب دفع أناسًا للانضمام إلى البشموري، وقد تتعدد الأسباب لكن الرغبة واحدة في العصيان والتمرد. وقد سمعت في قصر الشمع أن هناك بعضًا من أولئك الذين قالوا بخلق كتاب المسلمين، قد تسللوا سِرًّا إلى مصر السفلى والتحقوا بالبشموري، بسبب اشتداد المُلاحقة لهم من قِبَل الخليفة، والحث على طلبهم والقبض عليهم. إن من العجيب أن ترى هؤلاء المقاتلين في نشاط وهمة دائبَيْن

يهزرون فيما بينهم ويتضاحكون على رغم الهزال الواضح عليهم! أرأيت ذلك الذي كان جالسًا يغني هازجًا وكأنه في حفل وليس في وقت حرب واقتتال؟!

وكان قد جاءنا ونحن في الحمَّام بعضهم، وطلب منا أن نرسمهم بالزواج، وقد رجونا أن نبقى في البلدة مدة من الوقت، فلا رجل كهنوت فيها ليقوم بذلك.

عند مدخل المحلة، وجدنا رجالًا مسلحين بعصِي وسيوف ونقافات وقسي ونبال، وما إن رأونا نقترب منهم حتى صاحوا صارخين فينا وقد وجّهوا إلينا أسلحتهم، وكادوا يرموننا برميهم لولا لطف الله وصياحي فيهم بلسان بشموري جلي ألا يفعلوا، لأننا قبط جئنا من مصر العتيقة حاملين رسالة تخص الرئيس مينا، من متولي بيعة السيدة العذراء في قصر الشمع بمصر العتيقة. فتوقفوا قليلًا، ثم اقتربوا منا بحذر، وراحوا يفتشون ملابسنا وكذا جرابات البغلين، وبدوا لي أفظاظًا غِلاظًا، ذوي مسلك يفتقد إلى الذوق والأدب، وعلى الرغم من ذلك صبرنا عليهم وظل ثاونا يتلطف معهم، حتى تيقنوا أننا لم نكذبهم القول. وقد أبرز ثاونا لهم الرسالة وعليها أختامها، فقادونا إلى مقر البشموري عابرين بنا طرقات البلدة، وقد حرسوا علينا من كل ناحية بأسلحتهم.

كنت أسير خلال ذلك أفكر متوجسًا في أن يتعرف عليَّ أحد من الناس في هذا المكان فيكتشف أمري، وكنت أتلصص خلال المسير، متطلعًا إلى الوجوه التي تصادفني، دون أن أنظر البيوت والأبنية، كما يفعل ثاونا الذي بدا لي مندهشًا من تواضع بيوت الفلاحين وافتقارها إلى العمارة الجيدة، كما هي الحال في مصر العتيقة والفسطاط. وعلى الرغم من خوفي وتوجسي، كنت أتمنى أن أجد أو أتعرف على واحد من أترابي الذين عرفتهم وصادقتهم ذات يوم، أو أن أجد شخصًا من أهلي، لكني حمدت الله كثيرًا على أنني لم أصادف أيًّا ممن عرفتهم في الماضي، وربما كان ذلك من حسنات الزمان وقوته.. فهو يغير كلما مرَّ سحنات البشر ويُبدلها، دون أن يشعر بذلك إلا مَن يتأمل نفسه ويطالعها كثيرًا، فمَن كنت تعرفه في طور اليفاعة والصبا، قد لا تعرفه عندما يكبر ويشيخ، وللقدير في ذلك حكم.

لما وصلنا إلى مقر مينا بن بقيرة، وكان دارًا قديمة واسعة مبنية من الطوب اللبن، كما جرت العادة في بيوت الفلاحين يشي حُسنها واتساعها بأنها ربما كانت فيما سبق مَقرًّا لمازوت البلدة ورئيسها، لم يكن مينا حاضرًا وقيل لنا إنه خرج في أمر من أمور تحصيناته في قرية قريبة، فبقينا ننتظره، وخلال ذلك رُحنا نتحدث إلى مَن مكثوا معنا من أتباعه حتى يجيء، وقد أجلسونا على «دكة» من «دكك» الفلاحين الخشبية المعتاد صنعها من خشب الجميز في هذه المناطق، وكان فرش المكان كله من الحصير المجدول والطبالي الفلاحي، ولا أكثر من ذلك، بعيدًا عن الترف ومظاهر النعمة والغِنى، وقد قيل لنا إن مينا كثير التواضع، ميّال إلى التقشف، لا يسعى إلى خير يستأثر به وحده أبدًا، وإنه لا يأكل غير الخبز إن وُجِد ويصوم كثيرًا، بل قال مَن يحبه كثيرًا من بين الذين تحدثنا إليهم إنه لا يشرب غير نبيذ البطيخ الأحمر في بعض الأحايين، وإنه صار يأكل الفأر المتولد في الغيطان مثلما بات يفعل الفلاحون، ويُطلِقون على ذاك سماني الغيط، والجميع يُجله هنا؛ لأنه عاش قبل ذلك زمنًا في العز أيام أن عمل في حسابات الخراج، فكان يأكل الحلويات المتخذة من السكر

كخبيص اليقطين وخبيص الجزر والوردية المتخذة بالورد والزنجبيلة المُتخذة بالزنجبيلية وأقراص العود وأقراص الليمون وأقراص الممسكة، وقد زعم بعضهم أنه رآه يأكل في زمن العز ما يأكله الولاة والملوك، فكان يصنع في داره رغيف الصينية، وصفته أن يؤخذ من الدقيق ثلاثون رطلًا ويُعجن مع خمسة أرطال ونصف رطل سيرج، ثم يقسم بقسمين ويبسط أحدهما رغيفًا في صينية نحاس، ثم يُعبَّى على الرغيف ثلاثة خرفان مشوية محشوة الأجواف بلحم مدقوق ومقلب بالسيرج والفستق المهروس والأفاوية العطرة الحارة كالفلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكى والكزبرة والكمون والهال والجوزة ونحو ذلك، ويُرش عليه ماء ورد قد أضيف فيه مسك، ثم يُجعل على الخرفان، ويبدو أن مَن قال ذلك كان جائعًا يتشهى الطعام، فبدا كمَن يحلم وهو يقظان مفتوح العينين، فتبسم ثاونا قليلًا وأخذ يسايره بالكلام، حتى نقطع الوقت، ونصرف مَلل الانتظار، ثم إن ثاونا أخذ يسألهم «سؤالات» ويطرح عليهم حزازير لاهوتية حتى يُقوّي إيمانهم، ويُعلمهم العقيدة الحقة دون أن يستشعروا ذلك، أو يُدركوا إدراك المُتلقي للموعظة والعلم، وكان يستمع إلى إجاباتهم الخاطئة بكل صبر وعطف مهما كانت مرذولة محشوة بالحماقة والجهل، ثم يدلهم إلى الإجابة الحقة آخذًا بيدهم إلى طريق الإيمان، وكان مما سأله لهم: لماذا أوجب الرب عقاب الجسد مع النفس؟ فلما تخبطوا في الإجابة وتشتتوا، قال لهم: إن وجوب عقاب الجسد مع النفس القصد منه تهديده وتأديبه، لأن البهيمة غير الناطقة إذا أُدِّبت بالضرب عن إتيان شيء مرة بعد مرة، تأدبت وانتهت عن فعل ذلك خوفًا من الضرب، وكذلك الجسد إذا عُوقِب مع النفس عن ارتكاب الخطايا، تأدب هو أيضًا كمثل أدب البهيمة، فإذا اشتهى الخطيئة خوّفته النفس بالأدب الذي عُوقب به، فيخاف ويوافق النفس على ترك الخطيئة التي اشتهاها، هذا إذا كان يُبادر بأخذ العقوبة عن كل خطيئة يفعلها أولًا بأول ولا يتوانى عن ذلك، فإذا ما فعل ذلك مدة يسيرة، يبادر بعقوبة نفسه وجسده كليهما بالفضيحة والقانون، ويثبت ذلك في نفسه ويتوطد، وعندئذ تثبت مخافة العقوبة في نفسه وجسده.

ثم إن البشموري جاء فجأة، ودخل علينا بين ثلة من رجاله وأعوانه، فما إن رآنا حتى نظر إلينا بدهشة وريبة، وسمعته يسأل واحدًا من أعوانه عنا، فلما أعلمه قال: مرة أخرى يرسلون رسلًا إلينا، ويكتبون لنا كتابًا! ألن يكفوا عن هذا الأمر أبدًا؟! فترجمت لثاونا هامسًا ما يقول، وقد كنت حريصًا أن أبقى قريبًا منه قدر استطاعتي لأقول له كل ما يُقال بالبشموري، أو لأجيب عما يريد السؤال عنه، ثم إن مينا اقترب وحيَّانا، فرددت عليه تحيته بلسانه، فلانت أساريره، وهدأ حنقه، ولطفت خشونته قليلًا، وراح يسألني عن أصلي وفصلي وأنا أحتاط في الكلام معه خشية اكتشاف أمري، فقلت إنني تلسنت البشمورية عن أمي التي كان أبوها من هذه المواضع، لكنه ارتحل إلى مصر العتيقة، وقد مات كلاهما مبكرًا فلا أعرف شيئًا عن أهلي بعد ذلك، وقد تبناني رجل حجّار بعد وفاة أبي ورباني حتى اشتد عودي وصِرت يافعًا، وقدر الله لي الاشتغال في البيعة.

ثم إنه طلب لنا نبيذ البطيخ لنشربه، واعتذر لأنه لا يجد لديه شيئًا غيره يقدمه لنا، فشكره ثاونا كثيرًا، وبدأ يُكلمه بكل أدب واحترام، بينما رُحت أنا أترجم له لسان ثاونا الأخميمي، وهو يقول:

لقد جئت أيها الأخ الطيب حاملًا إليك رسالة من رئيس بيعتنا في مصر، وهي بيعة السيدة العذراء - في قصر الشمع، وأنت تعلم أنه كان قد أرسل رسائل عدة قبل ذلك فأرجو أن تقرأها وتوافيني بالرد

في التو. لكني قبل ذلك أقرئك السلام، وأعرفك أني ثاونا الشماس بالبيعة ومن العباد المؤمنين، وقد تشرفت بمعرفتك ودعوت الله كثيرًا أن يحفظك ويحفظ رجالك منذ دخولي إلى محلتكم، ولي رجاء أن توافيني بالرد سريعًا؛ لأعود إلى سيدي البطرك المنتظر هناك في مصر، فالأمر لا يحتمل التأخير والإبطاء كما قال لي نيافته، وكل درج من دروج الوقت يعني الكثير الخطير بالنسبة له.

كان أتباع البشموري ورجاله يتفحصوننا مليًّا أثناء ذلك، وقد التمعت أعينهم بتحدٍّ وعداء لنا، بينما نظراتهم تجول بملابسنا الكهنوتية وأحذيتنا، وتنطق بما يعتمل في داخلهم من إدانة لنا وهم أشباه الحُفاة العُراة الجائعين، بينما مدَّ ثاونا يده مقدِّمًا الرسالة إلى البشموري، وكانت محطوطة في جِراب من جلد التمساح.

وكانت رقًا مخطوطًا بأقلام عدة، ومعها رق آخر، قال ثاونا إنه حجاب حافظ صنعه الأب يوساب بنفسه، لأجل مينا، وعليه أن يحمله معه أينما ذهب وحل. أخذ البشموري يقرأ الرسالة بدقة بعد أن فض أختامها على عَجَل، فلما انتهى رفع رأسه، فبدا كأسد مُزمجر بالغضب والعنف، على رغم وسامته الظاهرة، ثم قال وقد جلس قبالتنا القرفصاء على الحصير، مثلما كان يجلس مَن كانوا معه:

هكذا تطلبون منا مجددًا في قصر الشمع، أن نسلم للوالي ونرمي سلاحنا، فنطيعه وندفع له ما - فرضه علينا من دمز (11) كل عام، وأن نحضر بعد ذلك بأنفسنا لمُلاقاة الأب يوساب بكل سرعة، حتى يقدمنا للوالي ونقدم له فروض الطاعة والامتثال.

ثم إنه التفت إلى جميع الجالسين حوله، وكانت عيونهم تتطلع إليه بكل جد واهتمام، وقال: سأقرأ عليكم يا إخواني الرسالة بحذافيرها، وأرجوكم أن تصبروا على ما فيها، وأن تملكوا زمامكم، فلا تفعلوا ما يغضبني منكم ويعرضكم للعقوبة، مثلما فعل البعض في المرات السابقة، ثم تلا:

«بعد السلام والتحية:

الذي سمعنا رأينا وأخبرونا آباؤنا، وكما أخبر موسى النبي، فإنه (كما قال الكتاب في المزمور ٧٧) كتب ما كان في الأرض من آدم الأول إلى زمانه، ثم بعده الأنبياء الذين تنبئوا على هذه القضية وتعاليم الآباء المؤيدين للبيعة والكلام المقوي للأمانة والأخوة بين المعمودية اللابسين النور، والآباء المؤيدين الذين أثبتوا الأساس القوي والدعامة الوثيقة، والرب يسوع المسيح المخلص الذي نجَّانا وخلَّصنا من آثامنا بتجسده من العذراء الطاهرة والمنعم علينا بفتح قلوبنا وأذهاننا بسماع كتبه المقدسة، فيلن ويستن ويوسابوس الذين من اليهود الذين أخبروا أولًا بخراب أورشليم، والذين وضعوا لنا سيرة البيعة المقدسة أفريقنوس وأوسابيوس والصوزامنوس، أظهروا لنا الجيد والرديء والبلايا التي حلت بالقديسين والرعاة لقطعان السيد المسيح وما نالهم من التعب على البيعة والشعب الأرثوذكسي من المتولين في كل زمان ليس بكورة مصر فقط، بل أنطاكية ورومية وأفسس التي كان فيها هارسيس نسطور الذي يستحق لسانه القطع من أصله، وبقية المخالفين في ذلك الزمان، وبدد الله جمعهم مثل الغبار أمام الريح شبل الأسد الحكيم كيرلس الذي قطعه وغيره من المخالفين وجعل كُتبه في سائر بِيَع المسكونة الأرثوذكسية، كما أظهر لنا ذلك الكتاب الذي ابتدأ بأسمائهم إلى

أن انتهوا إلى المعترف المجاهد بالحقيقة ديسقرس الذي أحرم لاؤون الذي هو السبع المفترس للأنفس كاسمه، وأحرم الستمائة والثلاثين المجتمعين بخلقدونية، وأحرم مرقيان الملك والملكة بلخارية المرذولة وجميع من اتبع لاؤون تحت الحرم.

أما بعد، فأنت أعلم أن كورة مصر، قد هلك أهلها من الظلم والخسائر والخراج، كما أن أصحاب تاووفيلكس الخلقدوني لا يألون جهدًا لاغتصاب بِيعنا التاوضوسية بغير حق، مع ما تعاني منه بِيَعنا الطاهرة الآن من ظلم وعسف، وما ندفعه عليها من خراج، والخلقدونيون يحملون الهدايا ويدفعون البرطيل لذوي السلطان حتى يغتصبوا بِيَعنا وهم يقولون.. في البداية كان الملك لنا والكنائس وجميع ما لها لنا، وإنما المسلمون سلموها للقبط عند تغلبهم على ديار مصر، ونحن الآن يا ولدي مقيمون في مواضعنا، وكنائسنا بيدنا والله ما يغفل عنا ولا يتخلى عن معونتنا، ثم إن هؤلاء العرب لا طاقة لنا بمقاومتهم، فهم قوم خلقوا للكَر والفَر، ونحن قوم قدّر الله لنا الزرع والفلاحة منذ ساحق العصور، ولا قدْر لنا على نزالهم، فإن نحن نازعناهم وضيقنا عليهم، انقلبوا علينا حتى يهزمونا، وعندئذ قد تسوء عاقبة الأمور.

وقد يؤذون الكنيسة الجامعة ويقطعون خبرها من البلاد، فتورد إلى منازل التهلكة، لأن الكنيسة هي الحافظة لمصر، فإن ضاعت، ضاعت معها البلاد إلى الأبد، فلنفاوضهم يا بُني على الخراج، ونُصالحهم على ما يرضينا ويرضيهم، حتى نحفظ كنيستنا القبطية الأرثوذكسية من كل شر وضيق.

وأنت تعلم يا ولدي أنني أطلب إليك الكف عن منازلة الحكام كارهًا. كما تعلم أنه قد أصاب الآباء والكهنة منهم بلاء كثير منذ وجودهم حتى الآن، ولعلك تعلم ما فعله عبد الملك مع مروان بعد أن جاءه بحشود كثيرة، وجرى بينهم سفك دماء لا حصر لها، ثم إن عبد الملك جمع بمصر مقدمي جيشه واعتقلهم سبعة أيام واعتقل أيضًا كُتاب الدولة ومقدمي البلاد والمواريث، وطلب منهم دفع الحساب والقيام بما عليهم، ثم أحضر الأب أنبا ميخائيل إلى مصر لأجل خراج البيعة، فلما وصلنا إليه طلب منا ما لا نقدر عليه، فأمر أن نعتقل وأن ترمى في أرجلنا خشبات عظيمة وأطواق حديد ثقيل في رقابنا، وكان معنا الأنبا مويسيس أسقف أوسيم، وأنبا تادرس أسقف مصر، وأنبا إيلياس بولس ولد أنبا مويسيس بالروح، وجعلونا في خزانة مظلمة، لا ننظر منها الشمس وليس فيها طاق، لأنها كانت نُقرت في حجر، وكنا تحت ضيق عظيم من التكبيل بالحديد من الحادي عشر من توت إلى ثاني عشر بابة، لم ننظر في هذه المدة شمسًا، وكان معنا ثلاثمائة رجل، ونساء أيضًا معتقلات في ضيق أكثر من الرجال، والحزن والبكاء والضيق العظيم عند انقضاء النهار، ويغلق المتولي السجن علينا، ويمضي ولا يعود إلى سابع ساعة من النهار، وكان المرضى والأعِلاء يجيئون إلينا في السجن لنباركهم ويسروا، ومن النصارى والمسلمين، حتى البربر كانوا يجيئون إلينا ويعترفون بذنوبهم التي فعلوها، وكذلك المسجونون.

وأنا أقول لك يا ولدي: هذا بلاء قليل من بلاء كثير قابلناه مع الكهنة الأرثوذكسيين من أبناء بيعتنا، وبِيَعنا في خطر، فارجع عما أنت فيه، لنحفظ كنيستنا وبِيَعنا وتسليم بلادنا من كل أذى، وأنا أكتب لك هذا السنوديقا، وأباركك باسم الرب، وأبارك جميع البشموريين في كورة مصر».

ما إن انتهى مينا بن بقيرة من قراءة رسالة أبينا إلى أعوانه، حتى طواها مرة أخرى بسرعة، ودفعها إلى ثاونا، وراح يجز على أضراسه، ثم قال بصوت خنقه انفعال الغضب وهو يقول لإخوانه، وقد بدا لي وكأن شيطانًا قد ركبه:

ها هي الرسالة أمامكم حرفًا حرفًا دون زيادة ولا نقصان، هم هناك في مصر العتيقة يريدوننا أن - نرجع عما نحن فيه، ونسلم لقائد المسلمين، بعد أن دوَّخنا عسكره وبات النصر قريبًا دانيًا منا على أولئك الذين أذلونا وأجاعونا وخربوا ديارنا واعتصرونا اعتصارًا، وحلبوا البلاد كما تحلب البقرة حتى جف الضرع وذبل الزرع، ألم يقل قائل منهم ذات يوم مخاطبًا سيده في هذا الأمر: إنما أنا مثل ماسك قرنَي البقرة لغيري ليحلبها، أوَليس رأيهم فينا أن يجلدونا بالخراج بدلًا من السياط، لأننا إن تيسر عيشنا وهنئت حياتنا تفرعنا عليهم وأخرجناهم الآن وقد دوخناهم وهزمناهم جيشًا تلو جيش في كل الكور من أراضي مصر السفلى، وهذا ما لم يحدث منذ مبتدأ انتفاضتنا زمن المدعو الحر بن يوسف الذي تأمر علينا وقت حكم هشام بن عبد الملك، عندما كان متولي الخِراء الذي يسمونه الخراج عبد الملك بن الحباب، فزاد على كل دينار قيراطًا فانتفضت كورة وتمي، وقربيط، وطرابية، وعامة الحوف الشرقي، فبعث إليهم الحر بأهل الديوان فحاربوهم، فقُتل منهم بشر كثير، ثم انتفض بعد ذلك أهل الصعيد.

أتنسون يا إخواني المقتلة التي أعملوها في أهلنا، عندما حارب هؤلاء الفلاحون عُمالهم سنة إحدى وعشرين ومائة بتاريخ هجرة رسول العرب، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر أهلَ الديوان، فظفروا بنا ولم يتركوا من أهلنا حتى النساء والأطفال؟

أتذكرون خروج بخنس في سمنود وقتل عبد الملك بن مروان له وأصحابه؟ أتذكرون انتفاضة رشيد، وما كان من أمرهم مع عثمان بن أبي قسعة مبعوث مروان بن محمد الجعدي لهم ودحرهم على يديه؟

أتذكرون حوادث سنة خمسين ومائة التي دوّنها كُتابهم ومؤرخوهم ليشهد شاهد من أهلها؟ حيث خرج الأهالي على يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة أمير مصر بناحية سخا ونابذوا العُمال وأخرجوهم، ثم إنهم صاروا إلى شبرا سنباط، وانضم إليهم أهالينا هنا في الأرايسية والنجوم، فأتى الخبر يزيد بن حاتم، فعقد النصر بن حبيب المهلبي على أهل الديوان ووجوه مصر، فخرجوا إلى أهالينا من القبط الذين قاتلوا العسكر، حتى ألقى هؤلاء الأخيرون النار في قُرانا وانصرفوا منهزمين.

كنت أنظر البشموري، وقد أخذه الحماس وبدا لي وكأنه يتألم وهو يتذكر ويتلو كل الحوادث الجِسام، إذ كانت يداه ترتعشان، وصوته يرق تارة بالحزن ويخشوشن ويجيش تارة بالغضب. وكنت متعجبًا من علمه العليم بكل هذه التواريخ وحفظه لها، ويشهد الله أنني تأثرت جدًّا بما قال، ولان قلبي له جدًّا، حتى إن عيني دمعت، وكنت أمسك نفسي وأتصبر حتى لا تفر الدمعة منها، ثم إن البشموري

واصل كلامه، بينما أعوانه شاخصون إليه بكل شعور واهتمام، لا يحيدون بأبصارهم عنه، ولا يهمس بينهم هامس، حتى لا تفوتهم كلمة واحدة من كلماته التي واصلها بقوله:

أقول لكم كل تلك الحوادث يا إخوتي، حتى أذكركم بما كان فيه آباؤنا، وحتى لا تثبط لكم عزيمة، - ولا يهمد لكم حماس، والآن: آباؤنا الطيبون في مصر العتيقة يريدوننا أن نترك السلاح.. وما هم إلا أهل بيعة أتقياء، تفرغوا لخدمة الرب، وهم ليسوا بزارعين للأرض ولا كادحين فيها، بل هم لا يعلمون حقًّا ما نحن فيه، هنا في مصر السفلى وفي الأرض الموحلة، وقد ضيق هؤلاء الولاة علينا بالخراج حتى أكل الناس حشائش الأرض، وديدانها، وهرب من هرب إلى الصحراء والبوادي مع نسائه وعياله، ومات مَن مات، بل إن كثيرين قد جُنوا، وهاموا على وجوههم بسبب الجوع وانعدام الغذاء، وانتشر الوباء وتمزقت الأسر وتخرب وجدان الناس، لأن البعض آثر الدخول في الدين الجديد، حتى أصبح تحت سقف البيت الواحد أخوان: أحدهما مُسلم والآخر مسيحي، بل يجوز أن يظل الأب مسيحيًّا دون سائر أهل بيته، والآن أنا أقول إنني لن أدع لهذا الأمر نهاية إلا بحد السيف، ولن أكف عن القتال حتى آخر نفَس في جسدي، وقد صارت الحياة كالموت، لا فارق بينهما في ظل هذه الأحوال والأهوال.

فلن أعيش عبدًا على أرضي، مُلزَمًا بدفع دينارَيْن وثلاثة أرادب حنطة، وقسطي زيت وقسطي عسل وقسطي خل من كدّي وعرَقي، وأن ألبسهم مما أصنع جبّة صوفًا وبرنسًا وعمامة وسراويل وخفين لزامًا فرضًا، لا والله لن أعيش مع كل هذا أبدًا، وليسامحني الرب إن كنت قد خالفت ما ارتآه أبونا في مصر العتيقة، وليرحمني الغفور، إن كنت عصيت له أمرًا رغمًا عني، لأن الرب لا يرضى الظلم، وهو الحاكم لنا ومُقدر معاشنا ومماتنا، وليتولنا برعايته ورحمته الواسعة ويقضي بنا أمره ونحن له لطائعون ممتنون.

كنت أُترجم لثاونا خلال ذلك بصوت خفيض هامس، كل ما يقوله مينا الزعيم، فما إن انتهى، حتى علا اللغط وتداخلت كلمات التأييد له والثناء عليه من جميع القرارية أتباعه، وراحوا يهتفون ويُجددون له الولاء مُعلنين عن تبعيتهم له واستمرارهم معه فيما هم فيه، وعندئذ تيقنت أن هذا الشاب الذي لا يمكن أن يكون عمره قد جاوز الثلاثين بأي حال من الأحوال مُهيمن كالساحر بسحره على هؤلاء الفلاحين المأمورين بأمره، وجعلهم من القرارية الملزمين جبرًا على عدم مغادرة الأرض كمعظم الآخرين وفقًا للأحكام المفروضة عليهم منذ زمن قديم. وقد شعرت أثناء ذلك أن هذا الزعيم البشموري ذو كياسة، وكأن شيئًا قد مسّه مما لدى أهل المدن من لطافة وذوق. على رغم أن شكله لا يفترق كثيرًا عن القرارية، فهو غليظ الملامح مثلهم، وإن خالطت ذلك وسامة وعافية، إذ إنه طويل ممشوق، لجلده لون الحنطة والشهد، يُكلل رأسه شعر أسود جعد.. يمتد حتى كتفيه دون أن يضفره ولا يقطعه، وهو يرتدي وجميع مَن معه من الفلاحين اللباس الشيت والصديرية المصفرة بالزعفران، كما هو متبع هنا في هذه النواحي البشمورية، وإن بدا ذلك الملبس عليه أليق، وقد صدق مَن قال: مهما كانت رداءة الخرق، فإنها لا يمكن أن تُخفي حُسن الخلق.

وكنا أثناء وجودنا في الحمَّام أنا وثاونا، قد تسايرنا بالكلام مع رجل خدم البشموري طويلًا، فحكى لنا شيئًا يسيرًا عن حياة هذا الزعيم، وأنه كان قد تعلم ودرس في مبتدأ أمره بمكاتب الإسكندرية.. فلم يهتدِ عن ذاك الوقت إلى الديانة الحقة، وقد أرسله أبوه منذ كان صبيًّا إلى هناك، فدرس العلم الدنيوي، واطلع لسنوات عدة على علوم الحساب والفلك والتاريخ والفلسفة، وحصل شيئًا من السيمياء والكيمياء، وقرأ كتب الأقدمين في علم الفراسة، وكذا معارف أخرى مما اشتهرت به مكاتب الإسكندرية منذ الزمن البعيد، وتسربت من جِيل إلى جيل، فحفظها بعض من أولئك الشغوفين بالمعرفة الدنيوية وكتموها، مع أنهم أظهروا الديانة للكل حتى لا يفتك بهم مثلما جرت العادة بين الحين والحين، من فتك عامة الشعب المسيحي المؤمن بالوثنيين الذين يُظهرون دياناتهم.

وقد قال مَن حكى لي طرفًا من أخبار البشموري إنه ظل زمنًا طويلًا في الضلال يخلط العلم بالدين، وإن كان قد تخبط وخالط أكثر من مرة بسبب كثرة قراءاته ونظره في الكتب، وإنه اعتقد فترة في مقالات وكتاب أوريجانس الذي قطعه الأب ديمتريوس في الماضي، بسبب كتابته السحر ورفضه كتب القديسين وتجديفه بالقول من أن الأب خلق الابن وأن الابن خلق روح القدس، ولم يكن يقول إن الأب والابن والروح القدس إله واحد، وإن الثالوث لا يعجزه شيء، بل قوته واحدة وربوبيته واحدة. وقد قال لي ذلك الرجل أيضًا، وكان ضمن مَن رافقونا وقت فراق الوطن، بعدما حدث ما حدث، أن مينا وقع زمنًا في غواية ما سلكه بولة السميساطي الكافر، الذي بقي على ضلالته مفتريًا على الله بكلامه فأنكر وجحد الرب في أمانته، وهو الذي أخرجه مكسميوس البطرك الجالس على كرسي القديس مرقس بمدينة الإسكندرية زمن الملك غليانوس ووالاريانوس، وكانت صفة بولة أنه استغنى من مال البيعة بعد فقر، وكان ينهب الهياكل بالناموس ويقطع مصانعات الأتقياء في الحكم، وإذا زاده خصومهم برطيلًا عاد معهم عليهم فاكتسب له غِنى باطلًا من كل وجوه الظلم، وكان مع هذا يظهر أنه عابد لله، وكان يمشي مع الأعوان ويتسلط على الضعفاء ويدور في الشوارع ويحب أن يتسمى باسم الأسقفية، ويقلق الناس بكثرة مَن يصحبه مع الجمع، وكانت معه كُتب يقرؤها، كأنه يطلب الخراج، ويوهم الناس أنه مقدم ويصحبه قوم متسلحون قدامه وخلفه، وكان يبغض التعليم الروحاني، ويحب التعاليم البرانية، ويرفض الغرباء إذا دخلوا في البيعة، ويطلب المجد من المقدمين، ويحتال على المجد الفارغ بكل نوع حتى إنه وضع له كرسيًّا بمنبر عالٍ كأنه تلميذ للمسيح وهو غريب من البيعة، وكان قد جعل النساء يقرأن في ليالي الأعياد وفي جمعة الفصح عوض المزامير والتسابيح، وكان المؤمنون يسدون آذانهم إذا سمعوهن يقرأن، وكان لا يقبل شيئًا من الكتب ولا يقول إن المسيح ابن الله ولا إنه نزل من السماء وتجسد من مريم العذراء، بل كان يجدف تجديفا كثيرًا.

ثم إن مينا بن بقيرة، افتتن زمنًا كذلك بأقوال الكافر ماني عابد الشيطان، وكان ماني هذا قد أظهر أفعالًا ردية زمن فزوبوس الملك، وجدف على الرب ضابط الكل، وعلى الابن الوحيد وعلى الروح القدس المنبثق من الأب، وجسر أن قال إن جميعه بارقليط، وكان هذا عبدًا لامرأة أرملة كان لها مال كثير، وكان قد أوى إليها ساحر عظيم من أهل فلسطين وقع من فوق السطح فمات، فاشترت المرأة ذلك العبد السوء وعلّمته في الكتب، فلما كبر دفعت له كتب ذلك الساحر، فلما قرأها وعرف منها السحر مضى إلى الفرس وحضر إلى الموضع الذي فيه السحرة والعرافون والمُنجمون، فلما قوي في علم الخطية ظهر له الشيطان وقوّاه وحبب له بُغض البيعة فأضل قومًا كثيرًا بسحره، وصارت

الأموال تُحمل إليه، وصار له صبيان وصبايا يخدمون شهواته النجسة، وكان يستعبدهم بسحره ويضل جماعة من الناس ويقول لهم إنه البارقليط الذي وعد السيد المسيح في إنجيل يوحنا بإرساله، وكان يقول بضلال المعلمين والآباء - قطع الله لسانه - لأنهم يقولون إن الله - جل ذكره - حل في بطن امرأة، وقد قال الأنبياء قولًا غير الحق عن المسيح، لأن إله العتيق شرير لا يريد أن يؤخذ منه شيء فأما إله الحديث فهو صالح إذا أخذوا منه لا يتكلم، وقال كلامًا كثيرًا تجديفًا لا يجوز ذِكره ولا قال الشيطان مثله.

ثم إن البشموري عاد واهتدى إلى الدين الحق، بعد أن تعقل، واعترف بخطاياه على يد أبي بيعة بلدته النجوم، وصار تقيًّا حكيمًا، لا يرتكب الفاحشة ولا يفعل الإثم عندما عاد إلى أرض آبائه وموطنه في الأراضي الموحلة، وكان أبوه من الميسورين فكرسه للعلم باعتباره أكبر إخوته، وكرَّس بقيتهم للفلاحة كعادة أهل نواحينا البشمورية، ولم تزل منذ العهد القديم وحتى الآن، فلما تعلم مينا وجدَّ في العلم، وبانت عليه علامة النجابة والذكاء، ونشط في علم الحساب، استخدمه متولي الخراج في مصر السفلى كحاسب لدمز الكور في بعض النواحي، وليدل ذاك المتولي على أفضل السبل لاعتصار ما بها من خيرات، ولقد ظل مينا على تلك الحال فترة من الزمن، لكنه - في النهاية - تاب واستغفر بعد أن انتفض ضميره. ويقال إنه كان قد عايش وشاهد بأم عينه ما كان من أمر هؤلاء القرارية المساكين، والذين هم أقنان الأرض بأمر المتولي، لا يحق لهم مغادرة الأرض أو أماكنهم هم وذراريهم أبد الآبدين، حتى يزرعوها، على ألا يُباعوا أو يُشتروا كالعبيد، وكان هؤلاء لا يجدون ما يقتاتون به، حتى عدموا صناعة خبزهم المسمى بتاو، والذي اعتادوا عمله من طحين الذرة والحلبة، في الوقت الذي كان، وهو المتمرد الآن، يستخرج الخراج من أراضيهم وكورهم، حتى إنه استخرج منهم في عام واحد من الغلة ثلاثة آلاف ألف وثمانمائة ألف وعشرة آلاف ومائتين وتسعة وثلاثين إردبًا وثُمن ونصف وسُدس وثلثي قيراط، ومن العناب ربع إردب، ومن ورق الصباغ ألفين وأربعمائة وثلاثة أرادب ونصف إردب، ومن زريعة الوسمة عشرة أرادب وربعًا، ومن الفوة أربعمائة وسبعين رطلًا، ومن الأغنام مائتَي ألف وخمسة وثلاثين ألفًا وثلاثمائة من الرءوس، ومن الجاموس الأسود غزير الحلب مائتَي ألف، ومن البسر ثلاثمائة وثلاثة عشر قنطارًا وثمانية وثلاثين رطلًا، ومن عسل النحل خمسمائة وواحدًا وأربعين قنطارًا وسُدس قنطار، ومن الشهد اثنين وثلاثين زيرًا وقادوسًا واحدًا، ومن السمن ألفين وتسعمائة وستة وتسعين مطرًا وسُدس وثُمن مطر، ومن الجبن بخيره ثلاثمائة وعشرين رطلًا.

وقيل إن رجوع البشموري عما كان فيه من عمل مع الوالي هو أنه بعدما انتهى من وضع واستخراج الخراج المذكور، وبينما هو يسير ذات يوم من الأيام عائدًا إلى داره في محلته، وكانت دارًا كبيرة عامرة بالخيرات على عادة الموسرين من أهل هذه النواحي، إذ به يتسمع إلى أنين واهن لطفلة صغيرة في موضع من المواضع بين أعشاب الحلفا الطوال النابتة دومًا في المستنقعات بالأراضي البشمورية، بينما رجُل يحادثها حديثًا عنيفًا غليظًا وهي لا تكف عن التشكي والرجاء، فنزل مينا عن دابته واتجه إلى ناحية الصوت، ظنًّا منه أن الرجل يسعى إلى مفاحشتها وقضاء وطره منها، ولكن ما إن وصل إلى موضعهما، حتى هاله ما رأى من أمرهما؛ إذ كان الرجل - يهبر - ناهشًا بأنيابه لحم الفتاة الصغيرة وهي حية وينهب منه، حتى إنه نهش لحم الذراعين والفخذين

والمواطن الطرية منها، بينما الصغيرة تتوجع وتتوسل أن يكف أذيته عنها ويتركها، لكن الرجل ظل سادرًا في نهشها دون أن يتسمع لرجاها واسترحامها. فلما نظر البشموري ذلك، غلى دمه، وأخذه الغضب، وانقض على الرجل منتزعًا الصَّبية من بين يديه، وهي بين الموت والحياة، ثم إنه نازله لفترة من الوقت، وكان الرجل دون الحالة الإنسانية، وقد دخل في الصفة الوحشية، بسبب شدة الجوع وانعدام الغذاء، فأجهز عليه مينا دون جهد كبير، بسبب ضعف بِنية الرجل، وبحول الله وقوته عليه. ومن وقت ذلك، صغرت الدنيا في عين مينا، وقد هاله ما رأى من أحوالها، وأدرك أنه مشارك في الجرم الواقع على مثل هذه الطفلة المسكينة، بسبب عمله في الخراج، فتركه ولم يعد إليه بعد ذلك أبدًا، ثم إنه أخذ الطفلة إلى داره فجلب لها الحكماء ليطببوها، وكانت مليحة الوجه، نورانية الروح، فصبر عليها حتى بلغت، وعزم التزوج بها رحمة بها وتيمنًا بجودها، إذ اعتبر من حكاياتها واعتبرها آية قد أظهرها الله له ليكف عما هو فيه من ظلم وجور، ثم إنه بعد أن أظهر الندم على زمنه الأول جمع حوله البشموريين والفلاحين والقرارية، بعدما وزّع ما كان يملكه من أراضٍ وممتلكات عليهم عملًا بقول يوحنا فم الذهب: إن أردت أن تكون كاملًا، فاذهب وبِع أملاكك وأعطِ للفقراء.

وقد قال مَن حكى حكاية البشموري لي ونحن مرتحلون من مدينة تنيس العظيمة في المراكب، بعد ذلك، إنه حضر عرس البشموري على هذه الصبية، وقد صارت شوهاء، وإن ذلك كان مشهدًا مؤثرًا لن ينساه أبدًا طيلة حياته، وخصوصًا عندما تحرك الكاهن القائم بالخدمة من الخوروس الأمامي وهو يقود العريس داخل البيعة، إلى المكان الذي تنتظر فيه العروس، ثم طلب الكاهن من مينا أن يُلبس عروسه الدبلة المربوط بها التاج، فلما لم تمد الفتاة يدها كما هو متبع لتدل على موافقتها، لأن يدها كانت مقطوعة بسبب ما جرى لها، بكى جميع المدعوين تأثرًا، خصوصًا أن مينا أزاح الثوب عن قدمها بعد أن انحنى أمامها ووضع يده على الأرض، فلامست الفتاة كفّه براحة قدمها، فألبسها الدبلة في إصبع القدم، وحينذاك قام الكاهن بحني رأسيهما بحيث تلامسا معًا، ثم إن مينا أخذ عروسه إلى مدخل الخوروس وأوقفها عن يمينه كما هو متبع، فقام الكاهن بتغطيتها بعباءة من الحرير الأبيض رمزًا للاتحاد النقي المقدس، وكانت الصلوات تُقرأ أثناء ذلك وتُنشد الألحان وتُطلق البخورات.

وقال لي ذلك الرجل: إن العرس أبكى الجميع، حتى إن بعض الشمامسة القائمين بالخدمة بكوا خلال ذلك، خصوصًا وقت أن كان الكاهن يباركها ويمسحها بقنينة من الزيت المقدس، على جبهتيهما ورسغيهما كما هو متبع، ويبارك أيضًا التاجَيْن ويضعهما على رأسيهما، فلما لم يجد الساعد والرسغ عند الفتاة، لم يتمالك نفسه وتهدج صوته ضعيفًا، بدلًا من أن يصيح بصوت مرتفع وفقًا للأصول وهو يقول: «بمجد وكرامة توجهما أيها الأب، باركهما أيها الابن، وتوجهما أيها الروح القدس، وحل عليهما وكملهما». فلم يتمالك الحضور أنفسهم جميعًا، حتى إن صوت البكاء قد ارتفع في بعض المواضع بالبيعة، وجرى نُواحٌ كثير، على الرغم من أن المناسبة كانت وقتًا للفرح ولم تكن وقتًا للموت أو تجنيز!

وقد قال لي ذلك الرجل أيضًا: إن مينا بن بقيرة، ظل يحث هؤلاء القرارية، وظل خلفهم، يدفعهم إلى التمرد والعصيان والثورة وعدم دفع الخراج للمتولي، وهو يقول لهم: إنكم لن تخسروا شيئًا، فأنتم

مقتولون بسبب قلة القوت، فقاتلوا سارقي قوتكم حتى تَقتلوهم أو تُقتلوا، ثم إنه ظل يقويهم بالكلام، ويحسّن في أعينهم الخروج على الوالي ومحاسب الخراج وكل مَن يتعامل مع الدولة، ويقول لهم إن ذلك يتم برضا ومباركة السيد المسيح، الذي لم يقبل أبدًا ظلمًا، بل هو لعن جامعي المال ومحبيه، ولعن كهنة أورشليم بسبب حبهم للدنانير، فانقلبوا عليه. وإن مرقس لم يدعنا لدفع الدمز؛ ويقصد بذلك مرقس البشير، وراح يزين لهم الكلام، حتى وافقوه وتجمعوا حوله، بعد أن يئسوا من حياتهم البائسة، ومن تحسن أحوال معاشهم ومعاش عيالهم، فخرجوا معه يقاتلون، وقد سلّحهم بالقسي والحِراب، التي قيل إنه كان يجلبها سِرًّا عبر مراكب في النيل من بلاد النوبة، وكانت المراكب تسير على نحو لا يشتبه فيه، إذ كانت تُوضع عليها الأسلحة، وتُغطى بالجِرار والقُلل والأزيار وكل الفواخير القناوية المجلوبة من مصر العليا، كما جرت العادة في جلب الآنية والفواخير منها لمصر السفلى.

ويقال إن القسي والحِراب هذه كانت من أفضل الأنواع التي تصنعها قبيلة يقال لها البجة. اشتُهرت نساؤها بعمل ذلك، وأنساب هذه القبيلة من جهة النساء، ولكل بطن منهم رئيس عليهم مُتملك، وهم يعترفون بالرب ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب، ومنهم مَن يعبد الشمس والنار، ومنهم مَن يعبد كل ما استحسنه من شجر! وبهيمة! أي أن معظمهم في الوثنية، ويقال إنهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب، ويقولون إن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح، فإنه إن كان من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال.

وكان البشموري يُسلح جيشه بهذه الحِراب المجلوبة من البجة، والتي يطلق عليها اسم الحراب السباعية، مقدار طول الحديدة ثلاث أذرع، والعود أربع أذرع، وبذلك سُميت سباعية، والحديدة في عرض السيف، وكانت هذه الحِراب لا تخرج من يد حاملها إلا بصعوبة، لأن في آخر العود شيئًا شبيهًا بالفلكة يمنع خروجها من أيديهم، وكان البشموريون حاملين لهذه الحِراب، عند دخولي عليهم مع ثاونا الشماس، ويقال إن صناع هذه الحراب من النساء يتخذن لها موضعًا في كورة البجة لا يختلط بهن رجل إلا المشتري منهن، فإذا ولدت إحداهن من الطارقين لهن جارية استحيتها، وإن ولدت غلامًا قتلته، ويقلن: إن الرجال بلاء وحرب.

وكانت القسي التي رأيناها مع البشموري آنذاك أيضًا، كبارًا غلاظًا، صُنعت من شجر السدر والشوحت، يرمون عليها بنبل مسموم، يُعمل من عروق شجر الغلف بعد طبخ على النار، حتى يصير مثل غراء، وقد حكى ثاونا، كثير العلم، عن ذلك لما سألته، بعد خروجنا من عند البشموري!

لا أعرف ما الذي حدا بثاونا إلى السكوت وعدم الرد على كلام البشموري، ولا أدري لماذا لم يحثه على ترك القتال وإطاعة كلام أبينا يوساب. والحقيقة أن سكوته هذا جعل شعورًا خفيًّا يساورني - وليغفر لي الرب - بأن ثاونا قد تأثر بمقالة البشموري ووافقه عليها، وكنت أنا قد شعرت وتأثرت بكل ما قال لكن هذا شيء ومخالفة كلام أبينا شيء آخر، لذلك هممت أن أتكلم لأذكّر مينا بما جاء في رسالة أبينا إليه، لكن ثاونا لكزني برجله كي أصمت، وكنت جالسًا إلى جانبه، فسكت.

فلما وجد البشموري من ثاونا الصمت والسكوت وعدم الرد، تمادى وراح يعتب على أبينا أنه يسعى إلى تثبيط هِمته، بدلًا من أن يُقويه على حربه ويباركه وينصحه بالكف عن القتال، بدلًا من الاستمرار فيه. ثم إنه قال: إن رئيس بيعتنا يخشى على بيعته من المسلمين إذا ما ساندت البشموريين. وإنه لا يعنيه إلا أن يغضب الوالي على البيعة الأرثوذكسية، فيشمل برعايته الكنيسة الملكانية. فلما وصل إلى هذا الحد من الكلام، رأيت ثاونا وقد غضب غضبًا شديدًا -وكنت أراه لأول مرة منذ ملازمتي له في البيعة وخلال ترحالنا يغضب إلى هذا الحد – يندفع بالكلام قائلًا:

أنت لا تقر بالحقيقة، بل تخشى منها حتى تظل سادرًا في القتال. إن الأراضي الكنسية هي أرضنا - جميعًا نحن الأقباط، وممتلكات الكنيسة سوف تذهب مع كل ما في البِيَع من فرش وأوانٍ إلى الملكانيين الهراطقة وكنائسهم، وجُلهم من الأروام الأجانب، إذا ما غضب الوالي وعسكره على كنيستنا وآبائها التاوضوسيين، وهذا معناه أن تذهب كل ممتلكاتنا وأراضينا التي ورثناها وحُزناها منذ أوائل الدهور عن آبائنا وأجدادنا إلى الإغريق والروم، وكل الأغراب من أتباع المذهب الملكاني، ثم ألم تسائل نفسك مرة: من أين جاءت ممتلكات الكنيسة هذه، هه؟ قل لي بربك: أليس كثير من هذه الممتلكات والأراضي، كان في مبتدأ الأمر لكثير من الآباء الأغنياء الذين زهدوا في الدنيا ومتاعها ووهبوا كل ما لديهم من ثروة وجاه للأديرة والبِيَع؟ أأذكرك بأن الأراضي وعقارات البيع جاءت جُلها من الهِبات والتبرعات، وما ذاك إلا ملكية لنا جميعًا نحن الأقباط؟ ثم إن...

سكت ثاونا فجأة، إذ دخل علينا بين أيدي الحراس، رجل وامرأة وأربعة من العيال، وقال الحراس إنهم وجدوا هؤلاء يتسللون إلى الكورة، فظنوا بهم الظنون، فضربوهم واقتادوهم إلى هنا، وكان الرجل والمرأة وجميع العيال في حالة مزرية بائسة وقد تسربلوا بعجينة الوحل لكثرة سَيرهم حُفاة فوقه، وكان الأطفال شِبه عُراة، ينظرون ذاهلين وقد تمكنت منهم البلادة لشدة الجوع والهزال والتعب. فلما سأل البشموري الرجل واستفسر منه عن أمره وأمر مَن معه، طلب الأخير الماء أولًا، ثم حكى أن اسمه بخنس، وأنه هرب ذات ليلة مع امرأته القادمة معه وعياله من بلدته الأصلية في الصعيد، بسبب انعدام ما يدفعه إلى ملتزم الخراج في ناحيته الذي يتشدد في التحصيل والجباية، وأنه ذهب بامرأته وعياله إلى بلدة تسمى كوم أشقاو يلتمس الخلاص، مثلما فعل كثيرون وجدهم في تلك البلدة، وقد أطلق رجال الوالي على هؤلاء الفارّين من أمثاله اسم الجالية، وأنه تناهى إليه أن الوالي كتب إلى صاحب أشقاو بردّ كل مَن كان من الجالية إلى أرضه مرة أخرى، فخرج مع عياله هاربًا، وراح يركب الماء تارة صاعدًا مع النهر في مراكب الصيادين خِلسة، ومرة أخرى يسير مع عياله في البراري حتى وصل إلى مبتدأ الكورة فتسلل إليها وهو لا يعلم شيئًا عن الحرب الدائرة فيها بين الأهالي وجيش الوالي، ثم إن الرجل سجد مُحاولًا تقبيل قدمَي مينا بن بقيرة ليرحمه، فلا يسلمه لمَن يُعيده مرة أخرى إلى أرضه، وظل يسترحمه ويستعطفه على نحو مؤثر دفع الدموع إلى عيني، فطمأنه مينا ورفعه بيده لينهض عن الأرض، وطلب من أعوانه أن يأخذوه وأهله ويُقدموا لهم ما يُؤكل ويُشرب ويستر أجسادهم، ثم إنه طلب من الرجل أن يبقى إن شاء وينضم إلى أعوانه المحاربين. ران الصمت بعد أن ذهب الرجل وعياله، قبل أن يقول البشموري بصوت خفيض: أرأيتم؟ هذا يسير من كثير يمر علينا هنا كل يوم، ووالله لو تراجعت بيني وبين نفسي لحظة عما أنا فيه، فإنني واجد ما يردني إلى الحقيقة في اللحظة التالية لذلك، فإنما أنا مثلي كمثل مَن يده موضوعة

في النار، لا يشعر من الدنيا بشيء غير لَسْع السعير وأكلانه للحمه، ولو عِشتم معنا هنا أيها الآباء الطيبون يومين فقط، لانقلبتم عما أنتم فيه، وكفرتم بوجود أي حق، أو عدل في هذه الدنيا، وهذا العالم الصعب.

صلّبنا واستغفرنا عند سماعنا ذلك، وكنت أترجم لثاونا بسرعة وبصوت خفيض كل كلمة يقولها البشموري، لذا ردَّ عليه قائلًا بحزم:

اسمع يا مينا، أنا أستطيع أن أحكي لك العديد من القصص مثل ما رأيناه الآن، فما تقوله.. وما - رأيناه هو من الحادثات المعتادات في كل مكان من البلاد الآن، لكن هذا شيء، وما أنت فيه شيء آخر، فحربك ضد الولاة المسلمين لا يمكن أن تدوم إلى الأبد، وإنهم إن آجِلًا أو عاجِلًا لهازموك بعتادهم الأقوى وجيوشهم الأعتى، فالعرب قوم قوتهم الكَر والفَر، وليسوا بأهل أرض وزرع، وأنت لا يمكن أن تستقل بأرضك وأهلك.. وتكون لك سياسة ورياسة بمعزل عن أولئك القائمين المتحكمين في مصر والفسطاط، فارجع عن أحلامك وأوهامك ولعلّي أرى ما لا ترى لأني بعيد، وعمومًا فأنا لم آتِ إلى هنا لإقناعك ومحاججتك. ولا تفويض لي بالرد على مقالتك، فالرسالة هي رسالة أبينا إليك، وما أنا إلا حاملها لك، ومطلبي هو أن تُحملني رسالة منك، أعود بها إليه في قصر الشمع، وهذه هي غايتي ومهمتي أولًا وأخيرًا. أذكر في النهاية أن هؤلاء المسلمين هم أقرب إلينا من الروم الملكانيين، فهم وإن كان بعض من ولاتهم قد عسف وتجبر وجار علينا، إلا أنهم في مبتدأ الأمر لم يبتغوا لنا إلا السلامة والأمان، ورسولهم كريم أوصى بنا خيرًا، وفي مبتدأ أمرهم ببلادنا أحسن ولاتهم معاملة الناس، والآن أنت تعلم أن هناك الكثير من القبط المسلمين، والعرب المسلمين، ضد الولاة وظلمهم، ولا تنسَ أننا نحن الذين جلبناهم في سالف الزمن ورحبنا بهم لنتقوى بهم ضد الروم، وارتضينا حكمهم بديلًا لحكم هؤلاء الأجانب.

أتريد يا مينا أن تقع البلاد في أيدي الروم مرة أخرى؟ فكر في الأمر واتقِ الله، فنحن في زمان صعب، كل شيء فيه يتحول ويتغير ويتبدل، الحصيف هو مَن ينظر إلى الأفق البعيد، ويترك النظر إلى ما تحت رجليه. وثورتك هذه قد تقود البلاد إلى طريق لا عودة منه، لأنها إن وقعت مرة أخرى في أيدي الملكانيين، فلن تقوم لكنيستنا قائمة بعد ذلك، ولسوف تضيع ممتلكاتنا وثرواتنا إلى الأبد، ولعلك تعلم أن الآباء الطيبين يسعون بكل وسيلة إلى الحفاظ على الكنيسة، ولقد عربوا الصلاة حفظًا للديانة، وسلامة للطقس اللاهوتي، وقد وجدوا أن أكثر الشعب لن يفهم الديانة ولا الصلاة القبطية، بعد تحول أكثره إلى لسان العربية يومًا بعد يوم، وأنا أقول لك: لو قُضي على انتفاضتك، فدماء هؤلاء الفلاحين سوف تكون في رقبتك، لأن بطش العسكر لن يكون يسيرًا، وأنت أدرى بمعنى المَثل القائل: إن وقع العِجْل كثرت سكاكينه، فلن يرحمك أحد، وكما تَدين تُدان، والناس يا عزيزي - وهذا أمر الله فيه حكمة - مع الغالب ضد المغلوب دائمًا، وأنا أقول لك ذلك حرصًا عليك وعلى هؤلاء الذين حولك، وقد توسمت فيك صدق العقيدة، وطباع القديسين، فأنت تعيش عيشة خشنة مثل هؤلاء القرارية لا تبغي جاهًا ولا تروم مجدًا، ولكن فكر في الأمر، وزِنه بميزان العقل والحكمة، ولا تكن كمَن ينطبق عليه القول: خيرًا تفعل، شرًّا تلقى. وهذه مقالتي لك، من عند أخ لا يبغي لك غير الخير، ولا يَرتجي لقومك إلا الأمان والسلام.

حدق البشموري في ملابسنا الكهنوتية مليًّا، وكأنه يفكر في أمر من الأمور، ثم قال بصوت بحّه الانفعال، دون أن يطرق له جفن:

ما سمعته ورأيته الآن عندنا أيها الأب المحترم هو رسالتي إلى أبينا المُعظم في قصر الشمع، وزِد - عليه ما تراه عندنا، فنحن قوم دُفعنا لأن يأكل بعضنا بعضًا، ورحم مَن قال: الفقر يُولِّد الكفر، ووالله لن يستمر ذلك حتى أبد الآبدين، فإننا قد عزمنا على أن نأكل بحِرابنا وقسينا مَن أكلوا قوتنا، وأباعونا أولادنا وعيالنا، ولسوف نكون نارًا تشوي أجسادهم، أو نكون مأكلة لسيوفهم وخناجرهم، وليكن لحمُنا خراجهم ورءوسنا المقطوفة جزيتهم.

ما أريد أن توضحه لأبينا في قصر الشمع أن الأذى الذي جرى لرُسله السابقين إلينا قد تم دون علم مني، فالذين ضُربوا أو سُرِقوا أو أُخذ ما معهم، جرى لهم ذلك من قِبَل بعض أتباعي الدهماء، بسبب سوء مسلكهم وترفعهم واستكبارهم على هؤلاء الرجال. والذي قُتل، جرى له ذلك لأنه سبَّ الجميع هنا بمَن فيهم أنا، واتهمنا بالكفر والمروق، فلم يتمالك أحد الرجال نفسه فقتله. وعلى الرغم من ذلك فلقد عاقبت جميع مَن تعرض لأولئك الرسل ورميت القاتل بنفسي حتى يكون عبرة لمَن يعتبر. أقول ذلك وأنا غاية في الأسف والحزن، لأننا لسنا قُطاع طريق، ولا لصوصًا مجرمين، لكننا قوم اضطُررنا إلى ما نحن فيه، والله وحده أعلم كم أكره الحرب، وكم أمقت السلاح، فأنا رجل لم أشتغل بمثل هذا أبدًا طوال عمري، ولم أكن أتصور أن الأيام سوف تدفعني إلى ما أنا مدفوع إليه.

انصرف الآن أيها الشماس المحترم إن أردت، وإذا رغبت أن تكون بيننا حتى صباح الغد، فأهلًا بك في ديارنا، والأفضل ألا تذهب وقد أوشك الليل على الحلول، فتتعرض لأي شر في الطريق.

توجست خوفًا من أن يوافق ثاونا على المبيت فيحدث ما لا تحمد عُقباه، لكن ثاونا رفض البقاء، متذرعًا بضرورة عودتنا سريعًا إلى مصر العتيقة، وأنه لا يرغب في التلكؤ ليوافي أبانا يوساب بالجواب، ويرسيه على حقيقة ما يدور هنا.

هبَّ البشموري واقفًا عندما وقفنا، ومد يده بالتحية لنا، ثم قال:

- إذن.. أنتما سوف تمضيان الآن.. كما تشاءان. فلترافقكما السلامة.

ثم أمر أتباعه أن يوصلونا إلى أبعد نقطة ممكنة بالنسبة إليهم خارج حدود البلدة، ولاحظت أثناء ذلك أنه اكتفى بالشد على أيدينا، دون أن يُقبلها مثلما يفعل المؤمنون عادة مع أهل البِيَع والكهنوت.

* * * *

كان الوقت قد أوشك على الغروب، حينما بدأنا الخروج من أراضي البشموري، وكانت الأرض قد زادت وحلتها بسبب زيادة مياه النيل المفاجئة، فلم نكد نسير قليلًا، مبتعدَيْن عن الشونة الواسعة التي التقينا فيها البشموري، وندخل في طرقات القرية، لنعبر طريقها الرئيسة ونخرج منها في اتجاه خط

النيل إلا وكان رجال ونساء وأطفال قد خرجوا من دورهم وتجمعوا حولنا لمشاهدتنا، بعد أن شاع خبر وجودنا بالمحلة. نظرت إلى الجميع فداخلني شعور بأنهم يحدقون فينا وكأننا بدعة من البِدَع، أو أعجوبة من الأعاجيب لم تصادفهم خلال حياتهم من قبل، وكان الأطفال والصبايا يسيرون خلف ركائبنا، وقد راحت تتحرك بصعوبة وبطء على زلاقة الأرض المتزايدة، مما دفع الأطفال لانتهاز المناسبة، فأخذوا يتحسسون أرديتنا الكهنوتية، وينظرون بدهشة إلى أخفافنا كما لو كانوا لم يروا أخفافًا من قبل، أو كأنها من الثمينات المفتخرات النكات، وكان بعض الصغار عُراة تمامًا ليس عليهم ما يسترهم، والبعض الآخر تسترهم أسمال بالكاد. أما النساء فقد بَدونَ - على الرغم من دلائل الضنك عليهن - صبوحات ذوات وجوه حسنة، وقد لفت ثاونا نظري ونحن نسير ونتحادث إلى أن الصبايا هنا يمكن أن يصادفن مصائب كبيرة إذا ما انهزم البشموري أمام عسكر الوالي بسبب حُسنهن، الذي لم يغب عليَّ رغم هزالهن الشديد وملابسهن المهترئة. وقد ظل ثاونا يعطي من زادنا للأطفال حتى نفد كل ما كان معنا من خبز ومنين وسمن وعسل، وكانت النساء يخطفنها منهم لفرط جوعهن وحاجتهن إلى القوت، وبينما كنت أُقدم لصَبية من الصبايا ما تبقى معي من عسل في خابية صغيرة، إذ بها تنظرني طويلًا وقد طفح من عينها شعور الشكر والامتنان، فلم أتمالك نفسي من النظر إليها كذلك وكانت مليحة، ناهدة، ناعمة، حسنة القوام، وقد تعرى جسدها واستبان في أكثره، بسبب قلة ما يستره، فاضطربتْ نفسي كثيرًا، وقد تداخلت مشاعري بين الشهوة والشفقة، وقد راعني حالي وانتعاش الرغبة في بدني، ومباغتتها روحي ونفسي، ويبدو أن ثاونا كان قد لحظني وقد اضطربت، فرُحت أحث الركوبة على الإسراع دونما ضرورة، وأظن أن شفتيه رسمتا ابتسامة، وهو يقول:

يا الله، أيها الأخ العزيز بدير! صدق السيد إذ قال: «العين سراج الجسد». تمهل يا أخي في - المعمودية، وألجم جسدك بتلاوة الآيات وذكر الحق، واحفظ دومًا ما قاله اللسان العطر بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: «أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم، الذي لكم من الله، وأنكم لستم لأنفسكم؟ لأنكم قد اشتريتم بثمن. فمجّدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي الله».

هتفت أرد عليه وأنا أزدرد ريقي بصعوبة، وقد شعرت بسخونة تسري في كل جسدي وبنار تستعر لتحرق روحي:

فليرحمني الرب أيها العزيز ثاونا، فليرحمني الرب وليغفر لي إثمي الذي داهمني رغمًا عني، - وليذهب شيطان الجسد إلى الجحيم.

لم أشعر إلا والدموع تنحدر من عيني، فرُحت أمسحها بكُم ردائي، وقد تدافعت ذكرياتي مع آمونة تطوف بمخيلتي، وقد جاشت ذكراها بداخلي جيشان ماء تفجّر من باطن نبع عميق، فرُحت أتذكر أوقات سعادتي الدنيوية معها، وما كان من شقائي وتعاستي بعد فراقها، ثم إني أخذت أستغفر الرب كثيرًا وأقرأ آيات التوبة والندم، محاولًا طرد صورة الفتاة التي رأيتها من مخيلتي فتغيب صورتها برهة، لكن شيطان الجسد ظل يراوغني ويلاعبني، فكانت صورتها تتجسد من جديد في ذهني على

نحو كبير من القوة والوضوح، وأنا أحاول جاهدًا أن أهدئ نفسي، وأستعيد ثباتها ويقينها الضائع مُيممًا البغل بعيدًا عن الفتاة التي سرعان ما لحقتني، وبحركة مباغتة، مدت يدها وتحسست صليبي المُدلى في حبله الطويل على صدري، وكنت قد وضعته من سيور جلد البقر الجيد، فلم أتمالك نفسي - ولم يكن قد تبقى معي شيء لأعطيه لها - فخلعته دون أن أشعر ووضعته في عنقها، وأنا أتجنب النظر إلى لحمها المُستبين، فأمسكت كفِّي بكلتا كفيها وضمتها إلى صدرها قويًّا، ثم انحنت عليها ولثمتها، وعندئذ خِفت ألا أقوى على لجم مشاعري فسحبت يدي متسرعًا، ورحت أدفع البغل دفعًا حتى كأنني رغبت أن يطير بي طيرانًا، ولم أتوقف إلا عندما صرخ ثاونا فيَّ: أبطئ. أنسيت أن الأرض زلقة موحلة ومن الخطر العَجلة والإسراع عليها؟!

كان البشامرة الحراس، الذين ظلوا برفقتنا حتى أواخر البلدة، يُوبّخون الناس ويعنفونهم، حتى لا يقتتلوا على ما أخذوه منا من طعام، وقد أخبرنا بعض هؤلاء الحراس، ونحن نسير، أن العسكر التابعين للوالي قد نهبوا كل شيء في الكورة أثناء إغاراتهم المتتالية عليها، وأنه لم تعد هناك بيعة واحدة بين مدينتَيْ دمياط ورشيد، على امتداد بلدان الساحل البشموري، إلا ونهب كل ما فيها من فرش مهم، حتى صنوج الخورس، وأواني الهيكل، وأن أحدًا لم يذهب إلى الصلاة الجامعة. وأن المقابر خربت ونُهبت، إن لم يكن بفعل العسكر، فبفعل اللصوص والعيارين وأولئك الباحثين عن أي شيء يأكلونه أو يلبسونه، وقد قال واحد ممن خرجوا لحراستنا، إنه بالقرب من سمنود مقبرة ليهود نُهبت، فكان أعجب ما وجد فيها موتى جرى تصبيرهم ولفّهم باللفائف، كما جرت العادة في الأزمان الغابرة، مثلما يوجد بين الحين والحين في البرابي الوثنية المتبقية من الزمن العتيق.

وقالوا لنا كذلك إن عقود الزواج ظلت تتم داخل ما تبقى من البيوت، وأحيانًا في الطرقات، وإن القسس ندر وجودهم لعمل ذلك، لأن معظمهم تركوا هذه البلاد وغادروها إلى برية هبيب وأديرة النطرون، بعد أن يئسوا وخربت بِيَعهم، ولم يجدوا مَن ينفق عليها، أما الميرون المقدس اللازم للتعميد، فقد انعدم في هذه النواحي تمامًا وعز وجوده، ولم يعد يوجد ما يُعمد به، وقد حدث أن بعض الناس جلبوا قسيسًا بالقوة إلى بلدة مجاورة، وحملوه إليها مُقيدًا بالسلاسل، فاستبشر الناس خيرًا بذلك، لكنه امتنع عن التعميد والطقس بسبب انعدام الميرون، فعجبنا أنا وثاونا لذلك أشد العجب، وقد قيل لنا كذلك إن أكثر المكاتب قد خربت ولم يعد الصغار يذهبون للدرس، وبات أكثرهم لا يعرفون قراءة ولا كتابة الحرف، كما أن الصناع وأهل الحِرَف قد ضجوا بالحياة هنا، فهاجر مَن هاجر منهم للاشتغال بالبلاد الأخرى. ويقال إن جماعة منهم عدَّت البحر إلى جزيرة قبرص عن طريق اللسان الموصل إليها من مدينة الفرما والعريش.

وقال رجل: إن أقباطًا كثيرين قد أسلموا بعد أن ضاقت بهم السبل وعدموا الحيلة، واستصعبوا الحياة مع مينا بن بقيرة، لكن هناك من المسلمين من انضم إليه ثائرًا منتفضًا، وإن ظل على دين الإسلام، والبشموري لا يحول بينهم وبين ما ارتضوه من ديانة، وفي كل يوم يتسلل قوم من هنا إلى مواضع عسكر الوالي ويلتحق قوم من الغرب المسلمين بالبشموري، والأمر غاية في التقلب والتغير والاختلاف بين الحين والحين.

(4)

فلما سمعنا ذلك تأثرنا كثيرًا حتى إن ثاونا تندت عيناه بدموع واضحة، وقال إنه يشعر بالأسف والحسرة، لأنه لم يجلب معه طعامًا ولا لباسًا لهؤلاء المساكين، ولأنه لم يأتِ بمَراهم وعقاقير ليعطيها لأولئك النسوة والأطفال، وقد لاحظ عليهم كثرة الأمراض الواضحة على أجسادهم التي ملأتها التقيحات والبثور، وتبدت الانتفاخات في أعضائهم وبطونهم خاصة؛ مما يعني انتشار عِلة الخلوروز بين الناس، وهي العِلة الناتجة عن عِظم فقر الدم؛ وذلك لشدة افتقاد الغذاء وانعدامه، وقال إن هذه العِلة على الرغم من خطرها إذ ما استدامت طويلًا، يسهل الشفاء منها إذا خُلِط تين بنسبة ١/ ٣٢، إلى ملح بحر بنسبة ١/ ٨، إلى خبز صابح بنسبة ١/٨، إلى فقاع حلو بنسبة ١/٣، ثم يُطبخ جميعه ويُصفى ويُؤخذ في يوم واحد، وإن هذه وصفة قديمة جدًّا متوارثة منذ أجيال بعيدة، وإنه لو علم بوجود هذه العِلة بكثرة هنا، لكان قد أعد من دوائها الشيء الكثير بنفسه وأحضره معه ليوزعه على الناس.

وقال لي ثاونا: إن هناك عِللًا تُشفى بالقرايات الربانية عليها، وعِللًا تُشفى بالتطبيب والعقاقير، وإن أكثر عِلل البطن الناتجة عن الجوع تُشفى بالعقاقير المعوضة للأكل الجيد، ولما كان هؤلاء القرارية يأكلون أكلًا ضعيفًا رديًّا منذ زمن طويل، فقد أصيبوا بالهزال واصفرار الوجه وانتفاخات الأمعاء مما يمكن التغلب عليه.

أما ما يكثر هنا من بعوض وهوام بسبب كثرة المياه الراكدة وانتشار السبخات فهو الطامة الكبرى، لأنه الجالب للحميات وأمراض الدم التي تروح وتجيء كلما زاد وكثر اللدغ، وهنا تذكّر ما كان ذات مرة، زمن طفولتي البعيدة حين مات في قريتي خَلْق كثير بسبب الوباء، والذي قيل وقتها إن سببه ذبابة شيطانية وفدت إلى البلدة من البراري، وراحت تعمل المرض في الناس، حتى اكتشفت أمرها، بعد أن أفنت عِيلًا بأكملها، فلما ذكرت لثاونا ذلك، قال:

إن الوباء يحل على الكور والبلاد، ويُفني أكثر الناس، عندما تنزل عليهم لعنة من لعنات الرب - بسبب جرايرِ اقترفوها، فيسلط عليهم الزلازل أو الصواعق، أو السيول المهلكة حينًا، كما أنه يسلط عليهم الهائمات كالبعوض وخلافه، بعد أن تحل بها الأرواح الشريرة، فتهجم على الجسوم، وتحدث الأمراض والأوجاع وتوهن العِظام وتشرب الدم وتُحدث النهوكة في أجسادهم ويعقب ذلك الموت. لذلك فعلى الحكماء المطببين، أن يبحثوا في سبب اللعنة، حتى يرفعوه، كما أن عليهم تِبيان حقيقة الأرواح الشريرة الحالّة في الهائمات، ويكون ذلك بكثرة التعزيم والقراءات الربانية، ثم عليهم معالجة الناس بالنباتات والمعادن ووصف الجواهر التي تناسب أمراض الوباء.

ظللنا سائرين نتحادث، والناس يتبعوننا ماشين خلفنا وحولنا من كل جانب كي نباركهم حتى أوشكنا على الخروج إلى البراري، وهم وراءنا في الطرقات الضيقة، فلما بلغنا الطريق الذي كنا قد جئنا منه، توقفوا وتركونا نسير منفردَيْن بعد أن ودعونا وداعًا حميمًا مؤثرًا.

سِرنا والمَشاهد التي رأيتها في محلة البشموري لا تفارق خيالي؛ الأطفال الهزيلون في أسمالهم، والنساء الجائعات وهن يتخاطفن الطعام، البيوت المهدمة، رجال البشموري القرارية في ملابسهم الغريبة، وأسلحتهم التي كأسلحة اللصوص والحرافيش، كانت مشاعري تتردد وتنقلب من لحظة إلى أخرى، بين العطف على أولئك الناس وبؤسهم المريع وبين الكُره لعصيانهم وتمردهم وعدم امتثالهم لكلام أبينا يوساب، وكان الحنين يأخذني أخذًا، ويخطف قلبي خطفًا وأنا أخرج من هذه المواضع، وأخذت أسأل نفسي: تُرى.. هل لو بقيت هنا في مسقط رأسي، وأماكن أهلي، وسارت حياتي في مجراها المفترض، ولم يدفع بها القدر إلى ما أنا فيه الآن.. هل كنت سأكون واحدًا من هؤلاء؟ هل كنت سأصير واحدًا من أتباع البشموري؟ أأتمر بأمره بينما أرتدي مِئزرًا وأعتمر خوذة من الخوص وأتسلح بحربة من الحراب؟ كنت أشعر أنني ضائع، حزين، وكأن كبدي قد انتُزعت مني انتزاعًا، فأسئلتي لا إجابة لها، لكن ما تيقنت منه وأنا على هذه الحال، هو أن للأوطان ملمسًا وروائح وصورًا مجسمة، محسوسة لا يمكن أن تغيب عن الحواس والنفس، مهما تباعد الوقت وطال الزمن. يبدو أن ثاونا لاحظ كدري وسكوتي الطويل، فقال:

- إذن. ها نحن نعود مرة أخرى من حيث جئنا، لينطبق علينا قول مَن قال: «تيتي تيتي، زي ما رُحتي زي ما جيتي»! إن أبانا الذي ينتظرنا في قصر الشمع سوف يتنكد لعودتنا، دون البشموري، بل حتى دون وعد منه بالكف عن القتال، لأنه سيبدو أمام متولي البلاد، وكأنه لا كلمة له على أتباع بيعته، ولا سلطان لأمره عليهم، ثم إن الملكانيين سيعملونها جنازة، وهات يا لَطْم، بينما يلعبون في أذن المتولي ويُزينون له كلامًا شيطانيًّا بأن الأب يوساب لا يرغب في إخماد فتنة البشامرة، وأنه متواطئ معهم، ويرغب في إحداث القلاقل بالبلاد، وكثير من مثل هذه الأكاذيب التي يروجون لها عنده كثيرًا، أملًا في أن يكون لهم ما لبيعتنا من هيمنة ونفوذ على الشعب، وطمعًا في الاستيلاء على كنائسنا وأديرتنا وما للبيعة من ممتلكات.

على أي حال، ها أنت رأيت مسقط رأسك وبلدك مرة أخرى، ودون حدوث ما لا يرغب فيه، ألستَ مسرورًا بذلك بالله؟

- هممت بسرعة، بينما كنت ما أزال منشغلًا بما قاله لي في التو:

- أجل أجل، والحمد للرب الإله، لأن أحدًا من معارفي لم يرني ولم يتعرف عليَّ.

- تابع ثاونا وهو يتبع سَيري بدقة ويحترس كثيرًا كي لا يمشي بالدابة على موضع غائص:

- لكني أخشى يا بدير أن ذلك البشموري سوف ينتهي نهاية بائسة مؤسفة، ولعلّي أخبرتك بما يتردد سِرًّا في البِيَع قبل خروجنا إلى هنا، من أن خليفة المسلمين سوف يأتي بنفسه لحسم الأمر، إذا لم يسكت هؤلاء البشامرة ويكفوا عن قتال عسكر المتولي، ويرضخوا لدفع الخراج المطلوب منهم، لقد آثرت ألا أخبر مينا بذلك، حتى لا يثور ويتمرد، ويظن أنني جئت حامِلًا إليه تهديدًا من أبينا؛ يوساب، فيسلك معنا مسلكًا خشنًا قاسيًا قد لا تحمد نتائجه، لكني لا أكتمك سِرًّا، أنني كِدت أضعف، في لحظة من اللحظات، خصوصًا كلما زاد تشدده – وبتُّ على وشك أن أهتف صائحًا: أتدري أيها

الأحمق أن خليفة المسلمين سوف يأتي بنفسه لإنهاء هذا الأمر، إذا لم ترتدع وتعُد عمَّا أنت فيه؟ أوَتعلم معنى ذلك؟ أنه سيكون المَحق والسحق ولا شيء غير ذلك. لسوف تكون الجاني على قومك ونفسك، لأن الرجل لن يرحمهم أو يرحمك، وهو الذي يحارب بعسكره، جيش بيزنطة ولن يكون قتالك بالنسبة إليه إلا كاللعب والبرجسة في ساحة من ساحات البرجاس.

قلت بسرعة:

لا.. لا.. حمدًا لله أنك لم تقل له ذلك، لأنه وكما رأيت ليس من النوع الذي لا يأخذ بالنصيحة - ويرعوي، ثم إن الأب يوساب لم يطلب منك أن تحدثه في هذا الأمر، لكن ما يحيرني يا أخي هو انضمام بعض هؤلاء العرب المسلمين للبشموري، فكيف يكون ذلك بربك؟

صمت ثاونا قليلًا، ثم قال:

إن المسلمين شِيَع وفِرَق مثلما نحنِ في المسيحية يعاقبة وملكانية، وهناك اختلاف ومسائل تتعلق - بصحة الديانة بين هذه الفِرَق. أتذْكُر عندما كنت تغتسل بالحمَّام، وأنا أنتظرك خارجه؟ لقد جاءني أثناء ذلك رجل وهو يلتفت يمينًا ويسارًا، فلما اطمأن إلى خلو المكان، أعطاني رقعة وهو يرجوني أن أقرأها، ومضى بسرعة فلما دخلت لأغتسل بعدك، قرأتها، فوجدته يطلب مني أن أصل إلى أهله وعياله القاطنين عند جبل يشكر المشرف على النيل، وعلى بركة الفيل، لأنه التحق بالبشموري سِرًّا، بعد أن هرب من ملاحقة الوالي له ولجماعته التي يقال لها القرامطة، وأن الخليفة نفسه يشدد عليهم ليس في العراق فقط، ولكن في جميع أمصار خلافته، وأن كثيرًا من رفاقه قد صُيروا في الحبوس وعُذبوا بسبب خروجهم على الخليفة الذي جعل المشايخ وأهل الدين يرمونهم بالكفر والزندقة، وكان رجاؤه هو أن أُطمئِن أهله عليه، وأقدم لهم ما أستطيع إليه سبيلًا، بسبب انعدام مَن يعولهم ويُنفق عليهم.

وقد سمعت عن جماعة أخرى من المسلمين يُقال لها العلويون، وهم ممن شقّوا عصا الطاعة على الخليفة أيضًا، وها أنت رأيت بعينك ما يقع في الحوف الشرقي. إن الصراعات لا تنتهي هنا وهناك، والدنيا كلها في فوضى واضطراب، وكل ذلك يُبلبلني كثيرًا يا بدير، وأشعر أن قلاقل الدنيا حولي، تهز داخلي، فأنا مع إيماني وصدق معتقدي لا أكتمك أني خائف، خائف جدًّا، وكأنني مَلَّاح ضائع في بحر الظلمات الرهيب، وأنا أخشى على مصير كنيستنا ولا أعرف ما سوف يكون عليه إذا ما قدر وانتصر البشموري، وأخاف على هؤلاء المساكين إذا تمت هزيمتهم، ولا أعرف ماذا سيكون عليه الحكم في البلاد، ولأي فريق من المسلمين سوف تكون الغلبة، وكل ما أتمناه يا بدير هو ألا تقع بلادنا أبدًا ومهما حدث، مرة أخرى، تحت سيطرة الأباعد من الروم الملكانيين.

لم يكد ثاونا ينتهي من كلامه إلا وكان الأفق أمامنا قد ارتسم بشريط قاتم من السواد الممتد إلى ما لا نهاية، وكأنه خط من المداد قطع زُرقة المدى السماوي المفتوح فوقنا عن خضرة الأرض المترامية على مرمى البصر، وكان قرص الشمس قد توهج بنار حمراء وهو يغيب شيئًا فشيئًا معلنًا نزعه الأخير، مفسحًا السماء لظلمة تتقدم حثيثًا، والشريط الأسود يتدفق باتجاهنا شيئًا فشيئًا، وقد وقفنا

متسمرَيْن في موضعنا ونحن مبهوتان مأخوذان، وسرعان ما راح ثاونا يحثني على الفرار، وقد ملك أمره مرة أخرى، وهو يقول:

- لا بد أنهم فرسان الخليفة لابسو السواد، ترجل واهرب قبل أن يدركونا ويدهسونا بسنابك خيلهم.

فما إن تحركت وفعلت، إلا وكانوا قد بلغوا الموضع الذي كنا فيه، وأخذوا يتقدمون شيئًا فشيئًا في يُسر، ودون معاناة، فلقد كان معهم مَن يدلهم على المواضع الحسنة للسير من الأدِلاء القبط، وقد توضحوا وبانوا بسبب أرديتهم عسلية اللون.

كنت قد اختبأت في موضع ليس ببعيد بين أعشاب الحلفا الطوال والبوص، وقد قفزت بسرعة من فوق البغل وتركته، ولم أنتبه إلى ما فعل ثاونا، لشدة ارتباكي وخوفي، وقد بوغتُّ؛ فأنا لم أحسب لما حدث لنا حسابًا من قبل.

وقد كاد قلبي يتوقف من الخوف.. لما رأيت أحدهم يسحب البغلين ويتردد قليلًا في المسير وكأنه يرغب في التفتيش عن صاحبَيْهما، لكن مَن كان خلفه حثَّه على الحركة والمسير وعدم التلكؤ حتى لا يعوق مَن وراءه، ثم إنني أخذت أزحف زحفًا يسيرًا باحتراس حتى أخفي نفسي جيدًا بين الحشائش، محاولًا التدثر بها والاختباء فيما بينها حتى لا يلحظني أحد من العابرين، ثم أخذت أنادي ثاونا بصوت خفيض محاولًا استبيان مكانه وقد هبطت الظلمة شيئًا وغشت المكان، كنت أثناء ذلك متخوفًا جدًّا، أدعو الله ألا تلدغني حية، كتلك التي لدغت ثاونا، أو تخرج عليَّ دابة من دواب البرية المفترسة فتهبر لحمي أو تُحدث بي مكروهًا. ولم يمضِ على اختبائي إلا وقت يسير، حتى كان العسكر قد انقطع مقدمهم وورودهم، إذ كان أواخرهم قد بقوا في موضعهم على مقربة مني في الطريق الضيقة عرفت ذلك على رغم الظلمة بسبب صهيل الأفراس وتحمحمها المثير، ويبدو أنها أخذت تجفل كثيرًا بسبب غرابة المكان بالنسبة إليها وكثرة مواضع الماء فيه، وخمَّنت أن العسكر هؤلاء ربما كانوا على الأرجح قد حُوّطوا وحاصروا الطريق والطرقات المؤدية إلى المحلة، وقد صدق حدسي؛ إذ سرعان ما أُشعِلت المشاعل، وأخذت تُلقي باتجاه المحلة، وسرعان ما جاء الرد من ناحية عسكر البشموري؛ إذ أخذوا يرمون بدورهم النيران باتجاه عسكر الخليفة، فأخذت أزحف مجددًا ملتمسًا النجاة لنفسي، لكني خشيت أن تسحبني المياه الموحلة إلى بعض مواضعها الخطرة، فرُحت أربط نفسي بالأعشاب اللينة الطوال الراسخة المستقرة دون أن أقطعها، وكنت قد تعثرت كثيرًا خلال ذلك وتوسخ ثوبي وأكثر جسدي، حتى إن وجهي لحقه الطين وقذاه، واستمر القتال دائرًا، وأنا أدعو الله ألا يصيبني مكروه، وقد أخذ البشامرة يرمون في اتجاه جند الخليفة الأحجار وقِطَع الطوب وما جهّزوه من مقذوفات للمقاليع، أما عساكر المسلمين فكان أكثر رميهم بالحِراب والسهام وإن ركّزوا على كرات النار الملتهبة، وكأنهم يبغون حرق المحلة كلها، قبل الدخول إليها.

أخذت أصلّب كثيرًا وقد أخذني اليأس وهدّني التعب ورُحت أقرأ القرايات ليعينني الرب على ما أنا فيه، وفككت نطاقي الكهنوتي وربطت نفسي أكثر بالحشائش، إذ شعرت أنني على وشك النعاس، وبقيت قليلًا على هذه الحالة، حتى غِبت عن الوعي تمامًا.

أفقت عند الصباح على تغريد طير حاطط على مقربة مني، فلما فتحت عينيَّ ونظرته وجدت بشروشًا ضخمًا ينبش بحثًا عن سمكة من الأسماك التي تصل سابحة من المالح إلى هذه المواضع، وربما كانت من البني أو اللبيس أو الراي أو الشلبة، استبشرت خيرًا حين رأيته واعتبرته فألا حسنًا أستقبل به هذا اليوم الجديد، خصوصًا وقد أخذ يُغرد ساردًا تراتيله الصباحية للرب، فقُمت أنظر نفسي، فإذا صعوبة تعتريني، كلما حاولت تحريك طرف من أطرافي، فتحاملت على نفسي بصعوبة، وقد صممت أن أنهض مهما كانت آلامي، لأبحث عن ثاونا العزيز، وأقف على ما كان من أمره، واكتشفت أن ملابسي قد توسخت وتبللت بطين الأرض الأخضر الذي كنت راقدًا فوقه، فدُرت بعينيَّ باحثًا عن موضع ماء جارٍ، أذهب إليه فأطهر لباسي الكهنوتي فيه، إلا أن عيني لم ترَ غير مدى ممتدًّا من الأخضر، بسملتُ وصلّبت، وقلت لروحي: فلأسِر قليلًا حتى أجد موضعًا هنا أو هناك.

سِرت أجُر ساقي بصعوبة، كأنني وليد يخطو خطواته الأولى، وكنت حريصًا على تمييز الماء من الأرض لئلا تَزِلّ قدمي في زلاقة تسحبني إلى داخلها فأغرق، ثم إنني وصلت أخيرًا إلى قناة ضيقة بها ماء جارٍ، فوقفت على أطرافها وخلعت ردائي الكهنوتي وبقيت حاسر الذراعين لا أرتدي سوى الصديرية الفلاحي واللباس اللذَيْن حافظت على لبسهما تحت الرداء، رُحت أغمر الثوب في الماء أبسمل وأصلّب وأقرأ قرايات الطهارة، ثم إنني عصرته، ونفضته حتى أزيل ما به من ماء قدر استطاعتي، وسطحته فوق الحشائش، على أمل أن ألبث ساعة في مطرحي حتى تُجففه الشمس فأرتديه. وبينما أنا أفعل ذلك أخذت أفكر في كيفية عودتي مرة أخرى إلى مصر العتيقة في ظل هذه الظروف الصعبة، وكنت أرغب في معرفة ما تم من أمر البشامرة مع عسكر الخليفة ليلة أمس؛ لذا قلت لروحي إنني سأعود بمجرد أن أرتدي ثوبي مرة أخرى قافلًا إلى محلة البشموري حتى أستجلي الأمر، ولعلي أجد ثاونا الذي ربما كان تسحّب أثناء الليل وقت المعركة إلى هناك ليحتمي بجماعة البشموري، إن لم يكن قد استطاع الفرار عائدًا إلى بيعتنا في مصر العتيقة.

فجأة، تذكرت أن ثاونا قد جاءني في المنام أثناء غفوتي بالليل، رُحت أستعيد المنام في مخيلتي، كان ثاونا يرتدي أسمالَ وخِرَق المساكين ويتوكأ على نقف من الجميز على النحو الذي يفعله أولئك الهائمون في البراري، وكان يعتلي تَلّة عالية وهو يشير نحوي بيده، ويقول: «اتبعني يا بدير العزيز إلى برية هبيب». وبدا لي وهو يقول ذلك مبتسمًا راضيًا نوراني الوجه وكأنه قديس من القديسين، فالتفت حولي، أفتش عن موضع أسير فيه لأصل إليه، فإذا أنا مُحاط بوحوش كواسر من كل ناحية، تمنعني من النفاذ والتقدم إليه، فرفعت يدي وصرخت بعزم ما فيَّ: «ثاونا.. ثاونا يا غزير العلم والمعرفة، هبَّ لنجدتي، فإني غير مستطيع». وبقيت أناديه، لكنه كان يبتعد عني شيئًا فشيئًا، حتى اختفى تمامًا، فأخذت أنوح وأندب حظي العاثر وأصلّب، وكان ثاونا وهو آخِذ في الغياب يباركني بيده المرفوعة، وأنا أمد يدي إليه آمِلًا في الخلاص.

انقبضت روحي وقد تذكرت ذلك المنام، وأخذتني الطيرة، إذ صاح البشروش فجأة وطار، فنظرت السماء فوقي، فإذا بنسر رهيب من نسور الفلاة يحوم فوق البقعة التي جلست فيها أنتظر جفاف ثوبي، ولم تكن النسور من الطيور المعتادة في هذه النواحي البشمورية حسب عِلمي ودرايتي بها، إذ

إن أغلب طيورها تكون من ذلك النوع المهاجر القادم من جهة البحر الرومي كالسمان والطورية والذهبية، واللقالق، بالإضافة إلى طائر أبيس الأبيض المشهور بالديار كلها.

لبثت وقتًا أفكر حائرًا، وقد جفَّ حلقي لكثرة انفعالي وتوجسي، وقلت لروحي: ربما أراد النسر اقتناص طير قد حط، أو دابة خرجت تسعى من دواب الأرض المحوشة في هذه البقعة، رُحت أصلي مشجعًا نفسي على الاصطبار، وقد أخذ عطشي في التزايد، ولم أرضَ أن أحفن بيدي شيئًا من مياه المجرى خوفًا من أن يكون به شيء من عليق الحشا ينفذ إلى جوفي، بسبب أن بعض البرابرة من ساكني البراري كانوا قد حذّروني من مياه السبخات وجداولها الصغيرة حتى وإن بدَت جارية، وكانوا قد أتوا إلى البيعة وفاءً لنذر نذروه لأمر من الأمور، فقالوا إن بنواحيهم نوعًا من العليق يدخل إلى الحنك مع الماء المشروب، لينفذ إلى مواضع البلع ويلتصق بها، ويظل ثاويًا بها، يقتات على دم الجسد، حتى يفنى صاحبه ويتلف تمامًا.

هبط النسر المُحلق فجأة وخطف لباسي الكهنوتي في لَمْح البصر وارتفع عائدًا إلى السماء، لم أتمالك نفسي، فحاولت الجري خلفه واللحاق به، لكني لم أتمكن من المضي في ذلك، بسبب ضعف ساقي وجسدي ولخوفي من الانزلاق، شعرت بحنق وغيظ عظيمَيْن، وأنا أرى النسر يبتعد بثوبي، وقد بهتُّ من مسلكه، فماذا يفعل ذلك الطائر بمثل هذا الثوب، دعوت عليه وتذكرت قول القائل:

ما طار طيرٌ وارتفع

إلا كما طارَ وقع

بقيت في مكاني مذهولًا ساكنًا لفترة، أنظر نفسي وأنا على هذه الحال بلباسي أبي دكة وصديرتي الكتان، وتحيرت كثيرًا فيما أنا فاعل، وقد شعرت أنني صِرت كالعريان حقًّا، وقلت لأنهض وأسير قليلًا، فربما يكون النسر قد ألقَى بالثوب على أرض قريبة، فألتقطه وأضعه فوقي لأستر نفسي، حتى لو كان قد توحّل بكامله في الطين، وربما وجدتُ أناسًا طيبين، أسألهم أن يعيروني ثوبًا أيًّا كان، أعود به إلى مصر العتيقة. على أي حال كنت في حال عجيبة من اليأس والدهشة، وبقيت حائرًا لا أجد تفسيرًا لما جرى لي، فقلت لروحي: ربما يُنعم عليَّ الرب ويُظهر لي كرامة الآن، فيَسترني ويُطمئِن روحي الضائعة، ورُحت أتصبر وأعين نفسي على ما أنا فيه متمتمًا بما قاله بطرس الرسول إلى أهل رومية: «فإذ قد تَبررنا بالإيمان لنا سلامٌ مع الله، بربنا يسوع المسيح، الذي به أيضًا قد صار لنا الدخول بالإيمان، إلى هذه النعمة التي نحن فيها مُقيمون، ونفتخر على رجاء مَجْد الله، وليس ذلك فقط، بل نفتخر أيضًا في الضيقات عالمين أن الضيق ينشئ صبرًا، والصبر تزكية، والتزكية رجاء، والرجاء لا يُخزِي، لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطَى لنا». ورُحت أتلو أيضًا ما تيسر لي من آيات الرب وأصلي وأصلّب كثيرًا وأنا أتذكر سِيَر القديسين والشهداء، والآباء والبطاركة، قائلًا لنفسي: فليكن لي فيهم عبرة وموعظة، وليكن اتكالي على الرب وحده، وأنا في هذه البرية الموحشة وحيدًا غريبًا كفرخ سمك صغير في شبكة صياد هائلة، ولأكن شاهدًا على زمني، وأحوال هذه الدنيا الغريبة، ثم إني أخذت في تذكُّر وقت هيامي وترحالي في

البراري بعد خروجي من ترنيط، وكيف صادفت وحوش الفلا وبِتُّ الليالي الطوال على لحم بطني دون أن تدخل في جوفي لقمة خبز أو شربة ماء، لكن الرب في الأعالي أراد لي النجاة والسلامة، فإذا كان - وهو الجبار السيد – قد امتحنني في صِباي الأول ببلية الهوى الجسداني، والعِشق الشهواني، فما ذلك إلا ليُدخلني في هوى العبادة وعِشق المسيح زمن رجولتي واكتمالي، فها أنا بكرم الله وفضله، صِرت في الإكليروس راضيًا قانعًا حامدًا له على كل حال، وهو لا بد ناظر في أمري الآن، مثلما نظر في أمري من قبل، ولعله يُدخلني امتحانًا أمتحن به حتى أفوز بما يحوز نعمته ورِضاه.

لبثت على هذه الحال ساعة، وربما أكثر من ساعة، إذ كانت ظلال النباتات حولي قد أخذت في التغير، وقد بدأت في التطابق معها، مما يعني أن الشمس باتت في كبد السماء، وقد تعامدت على الأرض، والوقت وقت ظهيرة، فقلت لروحي: فيمَ الانتظار يا ولد؟ إن الوقت يَسرقك وأنت جالس لا تفعل شيئًا غير التفكر، فقُم وامشِ حتى تجد ما يُخرجك مما أنت فيه وتحصل بأي طريقة على ما تلبسه بدلًا من ثوبك المخطوف، ولتبحث عن ثاونا وتطمئن عليه. لكني ما إن هممت بالوقوف والمشي، إلا سمعت وَقْع أقدام أفراس تقترب مني وهي تدب على الأرض، فلما نظرت وقد ظننت أن الفرج قد جاء، وأسعفني بما أبتغيه من رجاء، إذ أجدني مُحاصَرًا، حصار طير في فخ، وقد وقفتْ فوق رأسي جماعة من لابسي السواد، وقد تمنطقوا بعدة الحرب. خفت وتراجعت قليلًا بينما هم يتصايحون ويُشيرون نحوي قائلين بلسانهم، هذا بشموري قراري مُختبئ هنا، تعالوا بسرعة. فأتى عسكر آخرون وسحبوني من مكاني وأنا أصيح بدوري بلسان عربي كي يفهموا، وقد أخذني الرعب، وسيطر عليَّ هلع كاد يرسل البول مني، وقد فقدت كل سيطرة على مواطن الشعور في أعضائي وجسدي: لا.. لا، لست بشموريًّا، لست فلاحًا قراريًّا. أنا بدير قيم بيعة السيدة العذراء بقصر الشمع في مصر العتيقة. ثم إني وجدت الدنيا تلف حولي. ولم أعد متمالكًا لنفسي، فغُشي عليَّ من شدة الهول، وعِظَم الصدمة.

أفقت من غشيتي، لأجد نفسي في محلة البشموري مرة أخرى، وفي الدار ذاتها التي كنا التقينا بداخلها مينا بن بقيرة الزعيم، أخذت أتلفت حولي لأتبين الأمر فوجدتني في المكان هو هو الذي جلسنا أنا وثاونا فيه بين رجال البشموري في اليوم الفائت وقت كلامنا معه، لكن الجدران كان قد تهدم معظمها بفعل النزال والرمي، وقد ملأت آثار الحريق والنار من سخام وخلافه ما تبقى من هذه الجدران، ورُحت أهتف لروحي: ثاونا - أين أنت يا عزيز عيني ثاونا؟ هل هربت أم قُتلت، أم أسروك مثلما أُسِرت؟ كنت أرتعد وقد بدد حواسي القنوط وأقول محادثًا روحي: سبحان مُغير الأحوال بين عشية وضحاها، ثم رددت بصوت خافت قانط: «وليرأف بي أبو الرأفة وإله كل تعزية، الذي يُعزينا في كل ضيقتنا، حتى نستطيع أن نعزي الذين هم في ضيقة بالتعزية التي نتعزى نحن بها من الله». وظللت أردد هذه الكلمات العطرة لبولس الرسول مِرارًا وقد وجدتني مُحاطًا بجماعة من العسكر ومُقيدًا بقيد الفولاذ، وكذا كانت أحوال جماعة كبيرة من النساء والرجال والعيال، بعضهم أخذ يبكي ويُولول والآخر ظل ساهمًا واجِمًا ربما لشدة التعب، أو لفرط الصدمة والذهول. حاولت أن أشرح للعسكر حقيقة أمري، لكن مقدمهم قال قبل أن أبادر بالكلام، وهو يضحك:

هه.. أما زِلتَ مُصِرًّا على أنك واحد من رجال بيعة قصر الشمع بمصر العتيقة؟ -

استبشرت خيرًا بكلامه، وقد ظننت أنه قد فهم وصدَّق ما سبق أن قلته له من قبل:

أجل يا سيدي.. أنا بدير قيم السيدة العذراء بقصر الشمع -.

ضحك العسكر جميعًا، وقال واحد منهم:

قسيس بلا لحية! هل رأيتم ذلك من قبل يا ناس؟ -

تحسست ذقني بيدي رغمًا عني، وشعرت بضيق لأنني أمرد، لا شعر على صدغي وذقني، لكني سرعان ما تذكرت ثاونا العزيز عندما كان يقول لي: يا شبيه يوحنا فم الذهب. لم أتمالك نفسي وقد هاجت مشاعري بذكره وأخذتني اللهفة عليه، فرُحت أبكي وأنتحب وقد أسقط في يدي، ولم أعد واجدًا ما يُقال، فهم لن يصدقوني مهما قلت لهم، وقد التفوا حولي، التفاف وحوش صادوا فريسة، وراحوا ينهشونها، قلت ليكن ما يكون فلأسألهم عن ثاونا، فقلت بضراعة:

بحق دينكم ومعبودكم أيها السادة، هل رأيتم زميلي ورفيقي الشماس ثاونا؟ -

ضحكوا جميعًا لقولي هذا، وقد بدوا مُصرين على عدم تصديقي، لكن واحدًا منهم قال بجد:

ماذا قلت أيها الرجل؟ هل كان معك رفيق من القساوسة؟ أظنني رأيته! -

هتفت وقد صِرت كمَن هو ميت ورُدت إليه روحه:

هل هو حي؟ قل لي بربك، ينوبك ثواب في الدنيا والآخرة -.

رد وقد بدا مذهولًا:

لقد خُيل لي أنني رأيت إنسانًا في رداء القساوسة، بدا لي كالمخبول، وهو يعبرني سريعًا عند - دخول البلدة، وهو يصيح زاعقًا، إذن لا أمل ولا ملاذ غير البرية، فلتدم لنا بريتنا.. برية هبيب المقدسة. ولنلُذ بها مثلما لُذنا بها من قبل.

ثم إنه التفت إلى زملائه العسكر، وقال:

أظن أن هذا الرجل صادق، فهو من القساوسة، وربما يتوجب علينا تركه وإخلاء سبيله -.

صادق! أتقول صادق؟ -

قال رئيس العسكر بغضب وهو يزيح زميله من أمامي، ويمسك بساعدي شاهرًا إياه في وجوههم جميعًا وهو يسألني بسخرية:

- وما هذا الذي على ساعدك أيها الفلاح الكاذب اللئيم، أليس هذا وَشْم الأسد؟ أهذا يكذب أيضًا؟

كدت أقول له مدافعًا عن نفسي إن هذا الوشم قد وسموني به عندما كنت طفلًا صغيرًا وقبل دخولي البيعة بزمن طويل. ومع ذلك، فحتى الرهبان في الأديرة باتوا يُوشمون كالفلاحين وسائر الأقباط المفروضة عليهم الجزية بعد صدور مرسوم من الوالي يقضي بذلك، بعد أن تمادى الولاة في تعصير الأقباط، وبعد أن دخل كثيرون منهم في الإسلام هربًا من دفع الجزية، أو التحاق بعضهم بالأديرة تهربًا من تلك الضريبة الغشوم، إذ كان الرهبان لا يدفعون جزية في مبتدأ الإسلام زمن أوائل الخلفاء المسلمين، كما أردت أن يمهلني وقتًا يسيرًا حتى أثبت له حقيقة أمري وسبب وجودي في محلة البشموري، لكن الرجل كان عنيفًا غشومًا - قبَّحه الله ووضعه في سعير الآخرة - فلم يستمع إليَّ ولم يُمهلني لأقول له ما أريد، بل لطمني لطمة قوية على وجهي جعلتني أدوخ، إذ كانت يده ثقيلة، غليظة، مؤلمة، فلم أعد أدري من أمري شيئًا حتى غُشي عليَّ وقد كنت تعبًا يائسًا، بائسًا مكدودًا، لا أستشعر في هذه الدنيا غير الخراب، وقد وضعت أملي في أن يصدقني هؤلاء الناس، مهما قلت أو حاولت إقناعهم.

أحسب أنني نُقلت إلى شونة غلة واسعة، ربما كانت تُستخدم لتخزين البر وقتما كان الفلاحون لا يزالون يزرعون الأرض، إذ إنني وجدت الليل قد غشي عندما أفقت من غشيتي، وألفيت نفسي مطروحًا على الأرض ضمن جماعة أكبر من أولئك الذين كنت بينهم من قبل، وقد أبصرت ملامحهم التعسة على ضوء مشاعل الحراس الذين حوطوا علينا من كل ناحية، وكان مشهد النساء يدفع الدمع دفعًا إلى العينين، مهما حاول المرء التحامل والجَلد؛ إذ كان معظم النسوة من الصبايا الصغيرات، وربما كان جُلهن من الأبكار العذراوات، فهن لم يعتدوا بالعجائز – وما الرجاء فيهن لأولئك العسكر - وكان هناك عديد من الأطفال إلى جانب النسوة يستصرخونهن طلبًا للطعام، أما الرجال من الشبان، فقد كانوا في حالة مزرية بين جريح ومكسور، وقد ضَرب الذل عليهم جميعًا فأخذهم اليأس والبُهات.

ومضت ساعات عدة قبل أن يأتوا لنا بمقطف خبز وزلعة ماء، فصاروا يوزعون على كل منا رغيفًا، ويمررون الزلعة علينا لنبلّ ريقنا، فما يكاد الإنسان يرفعها إلى فمه ليلعق منها شربة سريعًا، حتى يخطفها منه الجندي، وربما قبل أن تصل فمه، ليُعطيها لإنسان آخر، فلم يشرب أكثر الناس، وظل الأطفال على صراخهم وربما أزهقت أرواح بعض منهم بسبب ذلك. ثم إن واحدًا من المعسكر أخبرنا أمرًا أنه يتوجب علينا الاستعداد؛ لأننا سنرتحل إلى تنيس بعد ساعة من طلوع النهار، وأن علينا بمجرد أن يُنفخ في الصور، ونسمع ذلك، أن نهب جميعًا ونصطف، النساء مع النساء والأطفال، والرجال مع الرجال في طابور مؤلف من اثنين وراء اثنين، فما إن سمع الجميع ذلك حتى ارتفع البكاء والعويل، بل راح بعض من الرجال يصرخون كالنساء ويلطمون الخدود، وقد أدركوا أنهم مأسورون أسْرًا لا فكاك منه، ولا راد، وكأن حِمامهم قد حم وقضاءهم قد أذن،

خصوصًا أن الجندي أضاف أننا سنرتحل من مدينة تنيس بالسفن والمراكب إلى مقر خليفة المسلمين في مدينة بغداد.

كنت قد بدأت في قضم رغيفي، عندما سمعت ذلك، فتوقفت عن الحركة وبقيت جامدًا واجمًا أشخص إلى لا شيء، فالأمر برمته منذ خروجنا من البيعة في قصر الشمع، وحتى هذه اللحظات، بدا لي وكأنه كابوس من كوابيس الشيطان، التي تهيمن على المرء أحيانًا إذا ما نام دون أن يُخلِص في صلواته، وينقّي قلبه من آثام النهار، وكنت أجدني في لحظات - أثناء ذلك - وكأني وقعت تحت ضرب من ضروب السيمياء أو السحر، فمهما شطح خيالي بخصوص المخاطر والصعوبات التي طالما حدثني عنها ثاونا منذ خروجنا من قصر الشمع إلى هنا، لم أكن أتخيل بأي حال من الأحوال أن ينتهي مصيري إلى ما سيكون عليه في الغد عند انبلاج النهار، أأرتحل عن بلادي وأرضى مرغمًا، وأؤخذ كأسير، قد يُباع في أسواق النخاسة ببغداد، أنا بدير بن بشاي البشموري المصري، الذي وُلِدت وعشت حياتي كلها على هذه الأرض التي عاش آبائي وأجدادي عليها منذ أقدم السنين! أينتهي بي الأمر أسيرًا من أسرى الخليفة المُرحلين إلى بغداد؟! لا أعرف أأبكي أم أبتسم؟! إنها مسخرة والله كمساخر الكافر الهرطيق بولة السميساطي، كما كان يقول ثاونا دائمًا عن أي شيء يتداخل فيه الجد والهزل. تصورت حالي، وقد وضعوني على منصة دلَّال، يتفرج على الرائح والغادي ويساوم النخاس في ثمني وكأني بهيمة من البهائم، أو متاع من الأمتعة، شعرت أنني على حافة الجنون، وقد صعبت عليَّ نفسي، ورُحت أسترجع كل ما قاسيته خلال حياتي كلها، وكل العذابات التي عِشتها فزفرت رغمًا عني وأنا أهمس متضرعًا للرب:

أوصنا(12).. أوصنا يا يسوع الرحيم». مثلما كان يقول دومًا ثاونا الحبيب، كلما تضايق أو ألمّت به ملمة.

رُحت أصلّب بيد مرتعشة، إذ شعرت بأنه لم تتبقّ لي إلا معجزة سماوية من عند الرب تحدث فجأة فتخرجني مما أنا فيه. ويبدو أن جاري الذي كان يرقد إلى جانبي قد لاحظ ذهولي وجمودي وانصرافي عن الطعام، فسألني أن أعطيه رغيفي إن كنت زاهدًا فيه، فقدمته له راضيًا، إذ لم تكن بي رغبة في طعام أو شراب، بل كانت أمنيتي أن أموت ويحشرني الرب في ملكوته، قبل أن ترى عيني فراقي لأرضي وأوطاني، وهواني في بلاد غريبة لا أعرفها ولم تطأها قدماي من قبل.

قلت وقد رجعت أُقوي نفسي، وأُثبت إيماني ويقيني بالله: لا بد أن تكون هناك حِيلة ما للخروج مما أنا فيه، ولا بد أن يُظهر الرب علامة إن عاجلًا أو آجِلًا، تُبين لأولئك العسكر الغشومين خطأهم وحُمقهم فيما فعلوه معي، وربما سارع أبونا يوساب في قصر الشمع بإرسال مَن يدركنا ويُغيثنا أنا والعزيز ثاونا، وقد حمل معه أمرًا من الوالي أو الخليفة، إلى هؤلاء الحراس ليفكوا أسري، ويأتوا بثاونا فنعود إلى حيث جئنا، انتعشت روحي وأنا أفكر في ذلك، وداخلني أمل كبير، حتى إني عُدت لا أشعر بآلام جسدي، وبذلك العطش الشديد المُحرق لحلقي، فأخذت أعب مرتويًا من الماء الذي كانوا قد جاءونا به في أساطل، وقررت أن أشرع في تلاوة صلوات الليل، وأخلد إلى النوم، حتى حلول الصباح، فيكون الرب قد نظر إليَّ بعين العطف وشملني برحمته الواسعة.

نِمت ربما ساعة أو ساعتين وأفقت فزعًا، إذ شعرت أن هناك مَن يتلمس جلدي ويتحسس لحمي، فانتفضت جالسًا في مطرحي، وسرعان ما أبصرت على الضوء الشاحب للقنديل الوحيد، الذي تركه الحراس مُضاءً في ركن الشونة، الفتاة الشابة المليحة، التي كنت قد رأيتها في الطريق، عند خروجنا في اليوم الفائت أنا وثاونا، بعد أن التقينا البشموري، وقد جلستْ إلى جانبي، أجفلت، ورُحت أباعد ما بيني وبينها وقد شعرت أن نارًا سَرتْ في جسدي وأحرقت روحي وكياني، اضطربت وتعجبت لوجودها في هذه البقعة بجواري، لأنهم كانوا قد وضعوا الرجال والصبيان الذكور في جانب من الشونة، أما النساء والصبايا والأطفال الرضع، فقد كانوا في الجانب الآخر منها، رُحت أتلفت حولي، وقد أسقط في يدي، ولم أدرِ ما أنا فاعل، وقد داخلني خوف، فربما استيقظ واحد من النائمين فظن بي الظنون، أو لحظ واحد من الحراس الساهرين على بوابة الشونة وجودها إلى جانبي فاستراب في أمرنا، وحدث ما لا تُحمد عُقباه، ويبدو أن ما اعتمل بداخلي قد ظهر على وجهي، لأن الفتاة همست إليَّ متوسلة أن أبقى ساكنًا، وكنت على وشك نهرها بصوت عالٍ كي تبتعد عني، ثم إنها أخذت راحتي بكفيها وهي تقول هامسة:

أرجوك أن تستمع إليَّ أيها الأب الطيب، لقد رأيتك في اليوم الفائت مع رفيقك الأب الآخر عند - خروجكما معًا من محلتنا وأعطيتني صليبك، وكنت ضمن اللواتي باركهن رفيقك الأب الآخر؛ لذا أرجوك أن تساعدني وتجد حيلة لئلا يأخذني هؤلاء العسكر معهم، أريدك أن تجنبني ما سوف يحدث لي إذا ما تملكوني وصِرت وحيدة بين أيديهم فأنا عروس بِكْر، قُتل أهلي جميعهم، ولسوف أُجَن إذا ما مسني واحد من هؤلاء الملاعين، أو لامستْ يدُه موضعًا من مواضع جسدي.

ثم إن الفتاة راحت تبكي بمرارة وأنا لا أدري ماذا أفعل لها، وفجأة توقفتْ عن البكاء وحدقت بي بقوة وهي تقترب بأنفاسها من أنفاسي وتلامس جسدها بجسدي، وتقول:

تزوجني أيها الأب الشاب - اسمي سويلا – تزوج سويلا الضائعة. الآن، الآن وبسرعة، فربما - حدث ما يفسد عليهم آمالهم، إذ أصير حاملًا، فلا أُبَاع عند النخاسين إلا بأبخس الأثمان إذا ما عرّفتهم أنني حبلى، وربما أخذني أحدهم لأخدم في بيت من البيوت، فتأمن نفسي وتستقر روحي؛ إذ أظفر بالبُعد عن هؤلاء، فأنا يا أبي فكرت في قتل نفسي، لكني أخاف.. ولا أقوى على فعل ذلك.

ثم إنها ارتمت على صدري بسرعة وراحت تعانقني وتلثم وجهي وفمي بقوة وعنف، فلم أتمالك نفسي وقد ثارت شهوتي، فنسيت الدنيا، وفقدت لزمنٍ الزمان، ولم أعد أنتبه إلى المكان، فرُحت أضمها وأُقبلها، وأتحسس كل مواضع جسدها اللين الناعم، وأنا أهتف هامسًا: سويلا.. سويلا.. فلما لامست أناملي وشفتاي فاكهة صدرها اليانعة، لم أتمالك نفسي وصِرت كمَن مسه مس من الجنون، فطرحتها وجثمت فوقها ورحت أستجمع طاقة الحياة التي انتفضت في جسدي، نافخًا إياها لها، وكأنني كنت خلال ذلك أتحدى الضعف واليأس والفناء، وقد أخذتني لذة شيطانية باهرة لم أستطع لدفعها سبيلًا، فلما انتهينا - وكانت سويلا قد قابلت جوابي لها بجواب أشد - وجدت نفسي بعد ذلك وقد غمرتني راحة لا حد لها، وكأن كل آلام جسدي لم تكن، وشملت بصفاء عجيب لم تعهده روحي منذ زمن وصالي القديم مع الفانية آمونة، فبقيت فترة أضم يد الفتاة إلى صدري، عند مواضع القلب

مني، وأربت عليها حينًا، وألثمها حينًا آخر، وأنا أقول لها: لن أتركلكِ أبدًا، سأضعكِ في بؤبؤ العين، وسأجعل رمشي حجابًا عليكِ، ولن أتركلكِ أبدًا ما حييت، وأنتِ منذ هذه الساعة ومن مبتدأ ذلك الوقت زوجتي وخليلتي ووليفتي حتى يوم الدينونة. ثم إن سويلا لملمت حالها وقامت متسحبة بهدوء واحتراز دون أن يشعر بها أحد، وهي تشكرني وتحمد الرب كثيرًا، فلم أعرف ماذا أقول أو أفعل، إذ إنني على رغم عهدي لها - وقد كنت صادقًا - داخلني ندم شديد، وقد أدركت أنني وقعت في الخطيئة، وأن الشيطان قد تمكّن مني وهيمن على روحي وجسدي بنجاسته، وأنني استسلمت له وضعفت دون أن أسعى لدفع غوايته وشره، وعرفت خلال هذه اللحظات معنى الخطيئة والإثم، وأن ما كان ينصحني به الآباء في بيعتنا بقصر الشمع، لهو عين العقل، إذ فلطالما نصحوني بأن أتزوج حتى لا تقع نفسي في الخطيئة، وأشاروا عليَّ أكثر من مرة بصَبية صالحة لأربطها معي برباط الزوجية المقدس، لكني كنت أذهب عن ذلك بوجهي، وأرفض قطعيًّا، إذ لم تكن لي رغبة في النساء بعد فناء غاليتي آمونة، أما هذه الفتاة فلا أدري بربي كيف أقبلتُ عليها بنفسي.والحق أقول الآن، وأنا أندم على فعلتي: إنني اشتهيتها منذ اللحظة التي وقعتْ عيني عليها فيها، بل اضطربتْ نفسي كثيرًا لما وجدتها تنتظرني طويلًا ونحن في الطريق.

رُحت أستغفر وأستعيد بعضًا من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، والتي طالما كان ثاونا يسعى لأن أستذكرها وأحفظها حتى تعصمني دائمًا، كلما تذكرتها ورددتها بلساني: «أم لستم تعلمون أن مَن التصق بزانية هو جسد واحد؟ لأنه يقول: يكون الاثنان جسدًا واحدًا، وأما مَن التصق بالرب فهو روح واحد. اهربوا من الزنا. كل خطية يفعلها الإنسان هي خارجة عن الجسد، لكن الذي يزني يُخطئ إلى جسده، أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم، الذي لكم من الله، وأنكم لستم لأنفسكم، لأنكم قد اشتريتم بثمن؟ فمجدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله».

بكيت بحُرقة، وتمنيت لو كنت قد استطعت إخصاء نفسي، مثلما فعل القديس أوريجانوس بنفسه في الماضي، على الرغم من غضب البابا عليه وقتها لذلك، إذ إن معاناة الرغبة والتغلب عليها لهو ضرب من ضروب اختبار صدق الإيمان.

تمنيت أن تحدث معجزة فأغمض عيني وأفتحها لأجد نفسي في بيعتنا بقصر الشمع، وقد وقفت بين يدَي أبينا يوساب لأعترف له بكل خطاياي: خطيئتي التي وقعت فيها الآن، وخطيئتي القديمة مع آمونة، بل وأن تتم فضيحتي ليس أمامه فقط، بل في خورس خاص لوحدي، فيفتضح أمري أمام جميع الناس، وأن تحل عليَّ العقوبة التي يرتضيها؛ لأني لم أومن إيمانًا خالصًا أن الذي في الصينية والكأس هو المُخلص وهو الديَّان، ثم إني عاهدت نفسي ألا أعاقِب جسدي بصوم ولا بسهر ولا بغير ذلك قبل اعترافي وقبولي الفضيحة، وإن لم يقدر الرب لي العودة إلى بيعتنا في قصر الشمع، فسوف أعترف داخل أقرب بيعة ألتقيها بعد خروجي من هذا المكان، حتى لو لم تصادفني بيعة في طريقي إلا في بغداد.

كان كل ما لاقيته من متاعب وأهوال في حياتي كومًا، وما قابلته خلال خروجنا من محلة البشموري وحتى وصولنا إلى تنيس كومًا آخر. فالرحلة، التي قطعناها فيما لا يزيد على يوم واحد، مرت عليَّ وكأنها دهور بكاملها، فلقد أخرجونا في الصباح الباكر ونحن مصطفون، ثم اقتادونا سيرًا ونحن محوطون بالحراس والعسكر من كل جانب، وقد سار أمامنا مقدم العسكر في كوكبة من فرسانه، وكانت الطرقات الصاخبة بالحياة والناس حتى ما قبل المعركة، وكأنها طرقات سدوم منتشرة في كل مكان، وقد اختلطت بروائح التراب الناتج عن تهدم البيوت الطينية البائسة، بينما الجثث مُلقاة هنا وهناك، ولقد تعجبت من طغيان هؤلاء الجبابرة، فلمَ كل هذا التخريب والدمار لهذه المنازل البسيطة التي يمكن أن تنهار بسرعة إذا ما أُلقي عليها بعض من الحجارة.

وكان خروجنا ونحن في أبأس حال وسَيرنا في طرقات هذه الخرائب، من الأمور التي يصعب وصفها، فقد مَشينا نُجرجر أرجلنا جَرًّا، وقد كابدنا آلام العطش والجوع، وأوجاع الجسد، فما من أحد منا إلا وكان مكدومًا أو مكسورًا أو جريحًا، وبقيتْ أحوال النساء اللواتي سِرن في المؤخرة هي الأسوأ، ومعاناتهن ظلت أشد، وقد فُقد كثير من الأطفال خلال ذلك اليوم حتى وصولنا إلى تنيس.

كنت خلال ذلك أقول لروحي إن كل ما عانيته، وما سوف ألاقيه بعد ذلك، ما هو إلا حصاد زراعتي الإثم منذ زمني الأول مع آمونة، وكذا بسبب إثمي الأخير الذي أوقعني فيه الشيطان داخل الشونة، وشعرت وكأنني خُلقت للإثم والخطيئة، وأن هذا قدَري الذي لا فكاك منه مهما مرت الأيام. أليس استسلامي السريع لسويلا تأكيدًا لذلك أيضًا؟! وكأن روحي لا تعيش ولا تحيا إلا بعذابات الإثم، والندم عليه في كل ساعة ووقت، وكان يزيد عذابات روحي – خلال رحيل الأسر - هذا عدم تيقني مما آلت إليه حال ثاونا وعدم وجوده إلى جانبي! فهل هرب ونفذ بجِلده بعد أن رآه الجندي؟ هل ما قاله الجندي صحيح من أنه ذهب إلى برية هبيب.. أم تُراه عاد إلى أبينا يوساب في قصر الشمع؟ كان أخشى ما أخشاه أن يكون قد حدث له مكروه أو قُتل، ليته كان إلى جانبي هنا، يواسيني ويعضدني بروحه الطاهرة وعِلمه الغزير، فلربما كان ألجمني وحال بيني وبين سويلا وردَّني إلى جادة الصواب، لكنني كنت على الرغم من شعوري البالغ بالإثم، أشعر بالشفقة على سويلا؛ هذه الفتاة المسكينة التي أظن أنها ستُلاقي أسوأ مصير في حياتها المقبلة، بعد أن فقدت أهلها وذويها وكل مَن يهتم بها في هذه الدنيا. كنت أنظر هؤلاء المرتحلين معي جميعًا وأفكر في مصيرهم المجهول، الذي هو مصيري أنا كذلك، ورُحت أتخيل حالنا وقد عُرضنا جميعًا في سوق النخاسة، ليتفرج علينا، ويُقلب فينا الرائح والغادي، فتذكرت مشهدًا كنت قد رأيته أثناء هيامي بعد خروجي من ترنيط وقبل وصولي إلى قصر الشمع، ربما كان ذلك في مدينة منف، وربما كان عند عين الصيرة أو حلوان، لا أذكر الموضع الآن على وجه الدقة، كانت بلاد مصر جميعًا غير معروفة بالنسبة لي، وهي تتشابه على الأغلب، لكني لا أنسى كيف كان النخاس قد نصب خيمته على أطراف بستان، وقد أوقف عددًا من الغلمان على دكته وراح ينادي عليهم، والناس واقفون يُقلبون فيهم وكأنهم بهائم من جنس الحيوانات، وبينما هو يفعل ذلك، إذ برجل عجوز، وبصُحبته امرأة شمطاء، وقد جرَّا خلفهما صَبية مليحة، وهو يصرخ ويقول صائحًا إن النخاس قد غشَّه، لأنه باعه الجارية على صفة أنها قندهارية صفراء مولدة؛ ولهذا قبض ثمنها عشرين دينارًا، فلما ذهب بها إلى البيت، بان تدليسه وغِشه، إذ وجد أنها من جملة أجناس السودان بذات بدن يابس، وقد غاب عنها اللون الذهبي، بعدما استحمت،

وقد قالت في سبب ذلك إن النخاس وضعها في أبزن فيه ماء الكراويا أربع ساعات من النهار السابق لبيعها.

ثم قال الرجل، وكان يستشيط غضبًا ويزبد لشدة غيظه، إنه اشتراها لكونها بِكرًا، فوجد أنها ثيب، وشهدت العجوز التي كانت معه أنها اختبرت الفتاة فوجدت فيها قلوب الرمان الحامض وعفص أخضر وقد عُجنا بمرارة البقر. وقالت: إن الطامة الكبرى بالنسبة إلى المشتري، وكان قريبها على الأغلب، هو أن الجارية حامل، وأنها عرفت ذلك، بأن وضعت تحتها بخور العنبر، ومنعت خروجه من أردانها وفرج ثيابها فلم تظهر الرائحة من فم الجارية، وأنها مُتيقنة - والعلم عند الله - أن الجارية حامل في أنثى بسبب كآبة لونها وعدم إشراقه بعد أن راح عنها ذهب الكراوية، وأنها قاستها بخيط من وسط السُّرة حتى وسط الفقرة المحاذية لها من أحد الجوانب، ثم علمت المكان بمِداد وأدارت الخيط إلى الجانب الآخر، فطال الخيط ولم ينقص، مما يدل على أن الجارية حامل في أنثى.

عند ذلك الحد، هجم الناس على النخاس وأوسعوه ضربًا هو وغلمانه، وأجبروه على أن يرد الدنانير إلى صاحبها، ويستعيد الجارية المغشوشة، ثم إنهم اقتادوه إلى صاحب الشرطة في ديوانه.

شعرتُ بآلام رهيبة في بطني عند تذكُّري ذلك، وقد تخيلت أن يحدث ذلك لسويلا البائسة، فشعوري بالحنو عليها كان هو الأشد كلما فكرت فيها، وكنت أرجو من الله ألا يمسها مكروه، بل تحدث معجزة فلا تؤخذ كسبية أو تُباع في سوق النخاسة.

أما خراب الديار وفراقها، فكان ينحر في قلبي وكأنه نحرِ الموج لشطآن البحر، فالأسر وفراق الأوطان هما العدم في عِز الحياة، وهما آية البلوى التي كُتب عليَّ أن أحياها على مدى حياتي وأيامي. فكَّرت فيمن سوف يشتريني، فأنا وإن كنت صحيح البدن موفور الصحة، إلا أنني - وأحمد الله على ذلك وأشكره شكرًا كثيرًا - لست بالشاب الذي يُقبل عليه الرجال بغرض المتعة، كما أني لست من القوة والعافية المغرية للشاري لاستخدامي في عمل من الأعمال الشاقة المجهدة، رُحت أتخيل مَن سيشتريني: صفته وعمله، وعملي معه، وكيف سيسلك معي؟ وهل سيصدقني إذا ما أعلمته أنني قيم بيعة السيدة العذارء في قصر الشمع بمصر؟

كنت أفكر في ذلك وأدعو الله أن يلهمني فكرة ووسيلة أهرب بها من أسري هذا، فأنجو بجلدي وأعود إلى مصر العتيقة مرة أخرى، ولا أغادر الديار. أخذت أقدح ذهني، باحثًا عن مخرج مما أنا فيه، وقد حضرتني حكاية، رُحت أتمثلها جاهدًا، لأغزل على غرارها واحدة تنفعني، إذ كنت قد التقيت لصًّا أثناء هيامي بعد خروجي من ترنيط في موضع خرب أويت إليه لأبيت فيه حتى طلوع النهار، فلما رأى ما عليه حالي من مسكنة وذُل، وأن لا رجاء له في أن يحصل على شيء مني، أشفق عليَّ وصادقني وأخبرني أنه ذات مرة تسور إلى منزل رجل يهودي من أهل الغنى والمال، لكن اليهودي اكتشف أمره، واستطاع هو وخدمه أن يحبسوه بالدار، ثم سلمه إلى متولي الشرطة، الذي أمر بحبسه في حجرة لها جدران عالية داخل السجن، وكان على باب هذه الحجرة سجّان

يحفظه ويُكلمه من خلف الباب، ويناوله من تحته ما يتقوت به، فقال له زعبل - وكان هذا اسمه – إن أظافره طالت جدًّا وهو محتاج إلى مقراض، فجاءه الحارس بمقراض.

ثم قال للحارس:

إن في هذا البيت فيرانًا تؤذيني إذا قربوا مني، فاقطع لي جريدة من النخل تكون عندي أطردهم بها - ففعل، فأخذ يضرب بها في الحجرة التي هي محبسه، ويُسمعه صوت ذلك أيامًا، ثم إنه قشر الخوص عنها، وقطعها على مقدار يوهم أنه من عمل الفيران، وضم كل ما قطعه منها ببعضه إلى بعض وقطع اللبد الذي كان يتخذه وطاء وفراشًا بالمقراض، وضفر منه حبلًا وتسلق به إلى أعلى الحجرة، وتدلى من طاقتها خارجًا أثناء هزيع الليل الأخير دون أن يشعر به أحد. وتمنيت أثناء رحيلنا هذا أن نلاقي في طريقنا وحوشًا كاسرة تطلع علينا فتفترسنا ونخلص مما نحن فيه، أو أن يرسل الرب ريحًا صَرْصرًا تُطيح بالمركب التي ستنقلنا إلى الشاطئ الفلسطيني لنعبر من هناك إلى مقر الخلافة في بغداد، وكانت يداي تؤلمانني كثيرًا، بسبب الوثاق الذي أوثقوني به مثلما أوثقوا بقية المأسورين، وكان العسكر لابسو السواد يحثوننا على السير كي نُدرك تنيس قبل حلول الليل، وما إن فارقنا محلة البشموري، حتى علا الصراخ والعويل من جديد، وقد استشعر الجميع أن فراق الوطن حادث لا محالة، وأن البُعد عن مرابع الأهل والأحباب آتٍ كالموت الفاجع، فأخذت أبكي بدوري، وقد شعرت بضياع حياتي، وبلوغ أوج شقائي، توسلت للرب أن يرحمني، ويرفعني إلى ملكوته لأستريح، لكنني سرعان ما تذكرت ما كان يقوله لي ثاونا عن رحلة السيد وأمه المباركة، ومعاناة الآباء البطاركة وسائر القديسين الأحرار فهدأت روحي قليلًا وتصبرت، وقلت لنفسي: ربما أراد الرب حشري في رحلة هؤلاء المساكين المعذبين، حتى أشد من أزرهم وأعمل على تقوية إيمانهم، وأدفعهم إلى أن يصبروا على ما هم فيه من بلاء. وقلت لروحي: سوف أحدثهم عن القديسين الشهداء، سوف أحدثهم عن عذابات البابا ديوناسيوس زمن الملك الكافر ولاريانوس الذي أخذ نوابه البابا واعتقلوه بأمر منه وقتلوا جماعة من الشهداء لا يُحصى عددهم، وكانوا يشقون بطون الأطفال ويأخذون مصارينهم ويصلحونها لفائف على أنابيب القصب ويرمون بها للشياطين، وقد عاقبوا ديوناسيوس البطرك وطالبوه أن يسجد لأوثانهم، فقال لهم: نحن نسجد لله تعالى، وأنتم تسجدون لما تحبون، وسجودنا للسيد المسيح خالق السماء والأرض الذي نحبه. فقال له الحاكم: أنت ما عرفت قدر صبر الملوك عليك، فإن سجدت لآلهتهم أكرمناك. وأخذ جماعة ممن كانوا معه فأمر بقتلهم بعد أن خاطبه كثيرًا، ثم أخرجه ونفاه إلى موضع يقال له «قولوئي»، وتفسيره حاجب، فعمل أهل ذلك الموضع الجميل معه ومع كل مَن كان معه ممن لم يسجدوا للأصنام، وبعد ذلك أعاده رجال الحاكم إليه ليحكم عليه بالموت، فقال له: بلغنا أنك تنفرد في الموضع وتقدس أنت وأصحابك. فقال له: نحن ما ندع صلاتنا ليلًا ونهارًا... وخاطبه خطابًا كثيرًا، ثم تركه. والتفت البطرك إلى الذين كانوا معه وقال لهم: امضوا إلى كل موضع وصلّوا وقدّسوا، فإن غبت عنكم بالجسد فأنا معكم بالروح. ثم إن البطرك أعيد إلى الموضع الذي كان فيه منفيًّا فحزن الذين كانوا معه لأنه افترق عنهم، لكنهم قالوا: نحن نعلم أن السيد المسيح معه في كل طُرقه. ثم استُشهد في تلك الأيام جماعة لا يُحصى عددهم على اسم السيد يسوع المسيح؛ لامتناعهم عن السجود للأصنام.

وقد شاهدت أثناء صعودنا إلى تنيس الخرائب والدمار الذي خلفه العسكر وراءهم، فلم نمُر بمحلة ولا بلدة، ولا كورة، إلا وكانت محروقة الزرع، متهدمة المنازل والبيوت، وكانت الطرقات والسكك خالية من الكلاب والقطط والهوام الضالة.

وفي أثناء سَيري، تصاحبت مع شاب من البشموريين اسمه بخنس ابن أيوب، قال لي: إن العسكر قد خربوا كل مواضع البشموريين في سمنود وسحا وشبرا سنباط والأريسية والنجوم، ولم يتركوا فيها حجرًا على حجر، بعد إضرامهم النار، حتى إن حيوانات الدور الداجنة كالإوز والفراخ والأرانب، كانت تجري في الطرقات صارخة ناطة والنار مشتعلة بريشها وجلودها، وإن ما حدث في ناحيتنا؛ يقصد ناحية البشرود كما يطلق عليها هؤلاء العسكر بلسانهم، لم تكن الوحيدة وإن كانوا قد شنوا عليها أكثر لعلمهم بأن الزعيم مينا بن بقيرة، كان يتحصن فيها ويتخذها محلة لحربه ضدهم لصدهم عن البلاد.

وقد قال لي ذلك الشاب، أثناء سَيرنا أيضًا: إن مينا ظل يرمي على العسكر ويقاتلهم حتى نفدت ذخيرته، وكان أكثر رميه ورمي رجاله لا ينفع، لأن العسكر كانوا واقعين في الظلمة وما يسقط عليهم من مشاعل البشموري ينطفئ في الحال لكثرة الماء في المواضع التي كانوا فيها. أما الوقايد التي كانت تسقط على محلة البشموري، فقد كانت تُحول الليل نهارًا لكثرتها، وتجعل كل شيء يستبين وكأنه تحت ضوء الشمس، فلما تمكّن العسكر منه ودخلوا عليه، أعملوا السيوف فيه وفي أعوانه، وكان بخنس منهم حتى قتل أكثرهم، لكن البشموري ظل يدفعهم عنه وقد أخرج لهم سيفه وهو من الحسامات القوية التي كان قد جلبها له بعض خواصه من عند الروم، فظل يذود عن نفسه حتى دوخ العسكر، فلما تناهى ذلك إلى مقدمهم المدعو الأفشين، وكان هذا هو الذي يتقدم مسيرتنا الآن - جاء ونازله بنفسه ودام النزال بينهما، حتى أجهز الأفشين على مينا، فظل مينا يلعن ويسب ويدعو عليهم بالخيبة، ويتمنى على الله أن ينتقم منهم وتدور عليهم الدوائر حتى لفظ أنفاسه.

ثم إن الشاب بكى بكاء مُرًّا على زعيمه مينا بن بقيرة، وهو يقول لي: إن الفتاة المسكينة التي كان قد أنقذها وصارت زوجته بعد ذلك، جاءت ولبثت تبكي على جثته وتندبه مدة، فلما رأى العسكر ما أصابها بسبب ما كان قد جرى لها، تركوها دون أن يسبوها ضمن السبايا، وقد وجدوا أنْ لا نفع ولا رجاء فيها.

كانت سويلا تسير خلفنا مع جماعة النساء المسبيات، وقد حرصت على تجنب النظر إليها، خشية أن يتصادم نظري بنظرها، فأضعف ويلين قلبي بسبب ذلك، أو تهيج ذكرى مواقعتها بجسدي، فأصبو إليها من جديد ولا أملك من أمري أمرًا. لكن عندما أوقفونا لنستريح قليلًا ونشرب بعضًا من الماء اختلست النظر إليها رغمًا عني فوجدتها في حالة شنيعة، وقد أخذها الضعف والإعياء، وتسخم وجهها بالغبار، وتشعث شعرها الجميل، فلم أتمالك نفسي من الرثاء لحالها ورق قلبي من جديد، وعاهدت نفسي أن أبذل كل ما في طاقتي لأحميها، وأنا أدعو الرب وأقرأ القرايات لأجل ذلك، دون أن أصلّب كما أشتهي بسبب يدي المغلولة.

دخلنا مدينة تنيس قبل الزوال بحوالي ساعة فوجدنا عسكر الخليفة ممن كانوا فيها، قد تهيئوا وخرجوا لملاقاتنا، وقد تجمع هوام العوام لمشاهدتنا وتجريسنا مثلما هي عادتهم في نصرة كل غالب على المغلوب، فأخذوا يصيحون في وجوهنا، وينعتوننا بالكفار المارقين، وراح عيالهم يرموننا بالوسخ والقاذورات، بينما العسكر يذبّونهم عنا بالأسواط لئلا يهجموا علينا ويفتكوا بنا. فلما دخلنا إلى الطريق الكبير بالبلد، لنتجه منه بعد ذلك إلى جهة البحر ونركب المراكب التي سوف تخرج بنا من بر مصر، وجدت بخنس بن أيوب يبكي وهو في غاية الحزن والألم، فرُحت أواسيه وسألته الصبر والتجلد، وحاولت الأخذ والعطاء معه في الكلام، لأسايره فينسى ما هو فيه من غم وكرب، فقال: إن ما يبكيه هو أن أمه أصلها من تنيس، وإنه عاش جانبًا من طفولته في هذه الكورة عندما كان يأتي لزيارة جده مع أمه وقت الأعياد، وأنه يحب هذه المدينة حبًّا عظيمًا؛ لذا فهو حزين، لأنه سوف يفارقها ويكون فراقه لبر مصر منها، ثم قال لي إنه كان قد قرأ في المكتب، وله ولع بمعرفة تواريخ الأولين، على رغم أنه من الفلاحين، لأن جده لأمه كان من الوراقين المشتغلين بالكتب، وكذا بوضع التواريخ، وقد ترك عدة من الكتب، قرأ فيها - أي الشاب - كورة تنيس أنها واحدة من أعظم كور المعمورة على الرغم من وقوعها وسط الماء، لأنها من كور الخليج، وأن البحر أغرقها مرة، وكانت لها قرى ومعاصر للخمر وعمارة لم يكن أحسن منها، لكنها قامت مرة أخرى بعد غرقها بزمن طويل فعمرت واستوت جنانًا ونخلًا وكرمة وشجرًا ومزارع، وكانت فيها مجارٍ على ارتفاع من الأرض، وقد أخبرني ذلك الشاب العليم أيضًا - وكنت أحثه على الكلام حتى نتناسى ما نحن فيه ولا ننتبه لأذى العوام – أن الماء لا يزال ينحدر إليها لا ينقطع عنها صيفًا ولا شتاء، وسائره يُصب - بعدما يأخذ الناس حاجتهم منه - في البحر، وأنه كان بين البحر وأرض تنيس مسيرة يوم، وكان فيما بين العريش التي ربما نهبط إليها بالمراكب وبين جزيرة في البحر يقال لها قبرس طريق مسلوك تسلكه الدواب يبسًا حتى علا الماء وغطى ذلك الطريق.

وأنه لما مضت لدقلطيانوس من مُلكه مائتان وإحدى وخمسون سنة، هجم الماء من البحر على بعض المواضع التي تسمى اليوم بحيرة تنيس، فأغرقها، وصار يزيد كل عام، فما كان من القرى التي في قرارها غرق، وأما الذي كان منها على ارتفاع من الأرض فبقي منه تونة وبور، وغير ذلك مما هو باقٍ إلى هذا الوقت، والماء محيط به.

وكان أهل القرى التي في هذه البحيرة ينقلون موتاهم إلى تنيس، فنبشوهم واحدًا بعد واحد.. وكان استحكام غرق هذه الأرض بأجمعها قبل أن يتملك المسلمون مصر بمائة سنة.

قال: وقد كان لملك من الملوك التي كانت دارها الفرما، مع أركون من أراكنة البلينا وما اتصل بها من الأرض، حروب عُملت فيها خنادق وخلجان، فتحت من النيل إلى البحر، يمتنع بها كل واحد من الآخر، وكان ذلك داعيًا لتشعب الماء من النيل واستيلائه على هذه الأرض.

وأضاف، أفاده الله، أنه قرأ أيضًا في كتاب أن لهذه المدينة سورًا كان في الماضي له مائة باب، وأن أهلها اشتُهر عنهم في القديم اللهو والخلاعة، وأنه كان يولد بها كل سنة - كما قال بعضهم - مائة مخنث، وأهلها كانوا يحبون النظافة والدماثة والغناء واللذة، وأكثرهم كانوا يبيتون سكارى، وقد

حصل لهم مرة مرض يُقال له الفواق التنيسي أقام بأهلها ثلاثين سنة، وقد لاحظ بخنس ونحن نسير في الشارع الكبير تعجبي من عمارة البلد الجميلة ودُورها العظيمة وانتشار الحاكة الجالسين على أبواب دكاكينهم وجُلهم من الكبار العجائز يحيكون الثياب المُوشاة، وهم يرفعون رءوسهم عما بيدهم بين الحين والحين وينظروننا دون مبالاة، وكأنهم قد تعودوا على مناظر الأسرى المرتحلين من مدينتهم بين أيدي العسكر إلى السفن جهة البحر، فقال لي بخنس إن أكثر أهل البلد هنا من الحاكة المنصرفين إلى أعمالهم، إنهم لا يحبون دس أنوفهم فيما لا يعنيهم، لأنهم يتكسبون كثيرًا من حياكة الثياب الشروب؛ وهي نوع فخيم لا يُصنع مثله في كل أنحاء الدنيا، وإن أعظم ثوب لخليفة المسلمين يُصنع هنا في هذه الدكاكين - وهو ثوب يقال له البدنة، لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة - غير أوقيتَيْن، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا حياكة، وتبلغ قيمته ألف دينار، وليس في الدنيا ثوب كتان يبلغ الثوب منه - وهو ساذج بغير ذهب - مائة دينار عينًا غير طراز تنيس، وربما مدينة دمياط، مما جعل تنيس من أجلّ مدن مصر، وإن كانت شطا وديفو ودميرة وتونة، وما قاربها من تلك الجزائر، يُعمل فيها الرفيع، فليس ذلك يقارب التنيسي. وقد أخبرني بخنس أيضًا أنه حدث في تنيس منذ سنوات أن ولدت معزى جديًا له قرون عدة ورأسه مع صدره، وبدنه ومقدمه بصوف أبيض ومؤخره بشعر أسود، وذنبه ذنب شاة، كما حدث في العام الماضي أن صِيد بأشتومها حوت طوله ثمانٍ وعشرون ذراعًا ونصف، من ذلك طول رأسه تسع أذرع، ودائر بطنه مع ظهره خمس عشرة ذراعًا، وفتحة فمه تسعة وعشرون شبرًا، وعرض ذنبه خمس أذرع ونصف، وله يدان يجدف بهما طول كل يد ثلاث أذرع، وهو أملس أغبر، غليظ الجلد، مخطط البطن ببياض وسواد، ولسانه أحمر، وفيه خمل كالريش طوله نحو الذراع تعمل منه أمشاط شِبه الذيل، وله عينان كعينَي البقر، فأمرَ أمير تنيس به، فشُق بطنه، ومُلح بمائة أردب ملح، ورفع فكه الأعلى بعود خشب طويل، وكان الرجل يدخل إلى جوفه بقفاف الملح، وهو قائم غير مُنحنٍ، وقد فشا خبر هذا الحوت العظيم في جميع أنحاء الأراضي البشمورية، وصار الناس يحجون إلى موضعه، وقد وضع ملقحًا في مكانه للفرجة عليه ومشاهدته بأعينهم.

فصلّبت وتعجبت من قدرة الخالق العظيم، فقال لي: إن في تنيس أمورًا وغرائب كثيرة، تحتاج إلى ساعات وأيام لحكيها، ويكفي أنها منذ مدة عَذُبت بحيرتها صيفًا وشتاء، ثم عادت في العام التالي لذلك مِلحًا صيفًا وشتاء، وعادتها أن تقيم ستة أشهر عَذبة وستة أشهر مالحة، فلما وصلنا حتى خليج المدينة، وكنت قد أنست وتصبرت كثيرًا بحكايا بخنس عن تنيس على رغم تعبي وألمي الجسماني الشديد، أجلسونا قليلًا لنستريح، مثلما كانوا يفعلون بين الحين والحين، في الطريق ليعطونا رغيف الخبز وشربة الماء، وما كِدنا نجلس إلا وضجت السماء بالرعد والبرق، وهبَّت ريح شديدة، وعمَّ سواد عظيم في الجو، فبقينا على تلك الحال نحو ساعتين والحراس معنا، ثم ظهر في السماء عمود نار احمرت منه السماء، وصارت الأرض أشد منها حمرة، وخرج غبار ودخان يأخذ الأنفاس استمر إلى ما بعد منتصف الليل، فأبقونا في أماكننا، وبِتنا في مطرحنا على الشاطئ ولم نصعد إلى المراكب إلا بعد انصرام نهار اليوم التالي، وقبل حلول الغروب بقليل، صعدنا جميعًا إلى المراكب حيارى نقدم رِجلًا ونؤخر رِجلًا، وقد صعبت علينا مفارقة الأرض والديار، ولسوف أبقى ما حييت دون أن تغيب عن أذنيَّ أصوات العويل والبكاء والصراخ الذي أخذ يتعالى من جميع المأسورين رجالًا ونساء.

ولن أنسى مشهد الدموع التي كانت تسيل وتشَر على وجوه الجميع وكأننا في مندبة نندب عزيزًا مات، وقد لبثنا على هذه الحال وقتًا حتى بدأ النوتية يحلون القلوع والأشرعة ويفردونها في وجه الريح، فطابت قلوبنا جميعًا، وأدركنا أننا مودعون الديار لا محالة، وأن هذا هو القضاء المكتوب لنا، فتعصرت قلوبنا، ودفن بخنس رأسه في صدري وراح يبكي وينهنه كالنساء، وفجأة تصاعد صوت شجيّ بالغناء، كان آسِرًا عميقًا خلال هذه اللحظات العصيبة، فالتفتُّ ناحية الصوت مثلما التفتَ الجميع، فإذا بنا نرى مجذوبًا من مجاذيب الصوفية المسلمين، وقد وقف قبالتنا على الشط، وجسده قد تعرى بكامله إلا من خرقة يستر بها عورته، وراح يقول:

أفي كُلِّ عام غربةٌ ونزوحُ

أما للنَّوى من منية فتُريحُ

لقد طُلح البين المشتُّ ركائبي

فلا أرينَ البينَ وهو طليحُ

وأرّقني بالري نَوح حَمامة

فنُحْت وذو الشجو الحزين يَنُوح

على أنها ناحت ولم تَذَر دمعة

ونُحتُ وأسراب الدموع سفوحُ

فلم أتمالك نفسي وشهقت مثلما شهق الجميع ونحن نبكي، وسرعان ما تذكرت قصة أرخليدس وسنسكلتيكي ورُحت أستعيد جانبًا مما قرأته منها من السنكسار الذي كان قد دفعه إلى ثاونا العزيز ذات يوم لأقرأه، وقد كُتب على رق غزال بخط قبطي مُذهب جميعه، وبدأت أهمس لروحي:

إنني أبحث عن شخصٍ أبدي

أبثُّه أشجاني

فإذا متُّ صلَّى من أجلي

وحضرني في التو قول يوحنا فم الذهب:

كل إنسان على ظهر البسيطة

لا بد أن يرى ما كُتب عليه

ثم إني نظرت الفتاة سويلا، فقلت لأواسيها بصوت سمعه الجميع:

اهدئي أيتها الصغيرة وتذكري ما جاء في السنسكار:

ليست الصداقة أكلًا وشُربًا

إنما الصداقة الحقة هي..

إذا وقع صديقك في خطية

عليك أن تبذل نفسك لتخليصه

إن المسيح صديق لآدم

فما إن وقع في معصيته

حتى بذل جسده ودمه لأجله

وأعاده إلى المركز الذي كان يشغله.

ثم إن المجدفين بدءوا في التجديف والسَّيْر، وأخذتِ المراكب تندفع إلى عرض الماء مُبتعدة عن الشط، وبدأ بر مصر يغيب عن ناظري شيئًا فشيئًا، وأنا شاخِص إليه لا أحيد بنظري عنه، وكلما صُورَتُه تتضاءل وتبهت أمامي كانت ترتسم داخلي وتقوى فيه قوة لا حدّ لها ستبقى معي ما حَييت.

لم أكن قد ركبت البحر من قبل، ولم يكن لي خبر بحضرته، فشعرت لما مثلت أمامه، ونظرت هيئته، كأن قلبي قد انشق وانشطر، وأن دمي قد غاب وانقشع، وأنا على ما أنا عليه من يأس وانفطار وتسلسل في العجز والمرار، بسبب كل ما قد كان، وحتم البُعد عن الأوطان، وهكذا سِرت لا أدري كيف أرفع القدم وأحطها وأنا أصعد إلى العمارة البحرية الكبيرة التي سمعت الجند يطلقون عليها الحراقة؛ وهي من جاريات الماء، ذات مرامي للنيران، يُرمى منها العدو في البحر، وهيئتها هيئة عقاب ضخم مُخيف، مما زاد في وَجَل القلب، وفعل فعل الزهومة في النفس.

أخذوا يفرزوننا - نحن الأسرى - وكان عددنا كثيرًا جمًّا، فمَن قال أنَّا كنا ثلاثة آلاف نفس، ومَن قال دون ذلك، أما النساء والأطفال فقد تحوطوا عليهم في موضع قصي بمؤخرة العقاب، بينما جرى تقسيم الفِتية والرجال كل حسب هواهم وغرضهم منه، وكان قدَري أن أوضع ضمن شغيلة الوقايد في بطن الحراقة.

ولم تكُ الحراقة التي أودعوني بها هي الوحيدة المُغادِرة من مياه البر المصري، بل كانت هناك حراقات أخرى وزع عليها المأسورون، إضافة إلى ثلاث سلالير، كما أخبرني بنيامين الصوري - بعد ذلك - وهو خير مَن تعرفت عليه أثناء عملي بالوقايد، والسلالير من المراكب البحرية الأصغر في هيئتها من هيئة الحراقة، ذات شرع ثلاثة. قال بنيامين؛ وهو خبير عليم بهذا المضمار لكثرة عمله واشتغاله بالبحر: إن الواحدة منها تحوي أربعين مجدافًا، وهي سريعة الحركة، وقد سُميت على مُسمى نوع من الطير يُحلق سريعًا في السماء، وإن سلورة من هذه السلالير، وقد حُمّلت بكل ما جلبه

الخليفة من أرض مصر، سواء أكان قد حصل عليه عن طريق الأعطية والهدايا، أم كان قد أخذ عنوة رغمًا عن أهلها، مثلما كان أمره مع كل المتحصل من ورق البردي الذي صنعه أهل البشمور، وما كانوا يتخذون تجارة ومعاشًا لهم.

أما حراقتنا، فكانوا - قبل صعودنا - قد وسقوها بكل ما يحتاجه الملَّاحون من الميرة والزاد، على نحو الخبز والماء، ومن جميع الفواكه، والأدم، والسفرجل، والبطيخ، والشاه بلوط، والحمّص المجوهر، والباقلاء، والبصل، والثوم، وجبن الحلّوم، والشبّ اليماني الأبيض الذي يحمل إلى الآفاق، وغير ذلك مما يطول ذكره، والذي أخبرني به أيضًا بنيامين الصوري، وهو الذي أعلمني - بعد ذلك – أن مخازن الغِلال التي تُسمى الأهراء المباركة تخرج منها جرايات رجال السفن والأسطول، وكذا جرايات السودان العاملين بها.

كان بخنس قد أُخذَ ضمن خُدام السواري والبنود على السطح، فافتقدته وابتأست لفرقته كثيرًا، ويبدو أنهم توسّموا فيه الشدّة والبأس بسبب عِظَم جثته وقوة عضلاته، فتوجع قلبي لفرقته على الرغم من معرفتنا القصيرة ببعضنا البعض، وتنادمِنا القصير السريع، لكن الربّ شاء أن تكون أرواحنا أسبق من الزمان في حركة التلاقي وحدوث التصافي، فالمُحب تظل بلورة روحه دائرة دون توقف حتى تُصادِف بلورة محبّة دائرة بحثًا عن الاقتران والمودة، فإذا ما تصادمتا وتماسّتا مع سرعة الدوران وشدّتها، تولّد شعاع المحبة متدفقًا عظيمًا لا يدانيه شعاع الزمان قوة وبأسًا على رغم هيولة حدوثه.

وربما كان ما حكاه بخنس لي عن سويلا سببًا في توثق محبتي له، فقد أخبرني أنها كانت قد فقدت ذويها أجمعين في آخر طاعون شهدته أراضي البشامرة قبل الحرب الأخيرة، وكان ذلك قبل عدة أعوام خلت، وكان فناء عظيمًا لكثير من الناس والدواب، وسويلا كانت حينذاك صَبية لا تتجاوز أعوامها العشرة، فهامت على وجهها في الوحلات، حتى حنَّ إليها رجل طيب فحشرها ضمن عياله ورعاها، لكن علّة شيطانية باتت تعتريها بين الحين والحين، تجعلها تذهل عن الدنيا، فتصرخ ساقطة على الأرض ويتخشب جسدها تخشّب الأجساد الميتة - إلى حين - فتظل على هذه الحال، وقد زاغ بصرها وترغرغ ريقها خارجًا من فمها، حتى ينظر الرب في أمرها ويرحمها، فتفيق وتثوب إلى رشدها مرة أخرى، وأن الرجل مربيها - وكان من الميسورين المشتغلين بصناعة قراطيس الكتابة من ورق البردي المنتشر بالأراضي البشمورية - لم يبخل عليها، بل اهتم لعلّتها، وطاف بها على كنائس الملكانيين حينًا، وعلى كُهان الوثنية حينًا آخر، دون أن يتوصل لمخرج من مأزقها، وذلك بعد أن أعيته الحِيَل، وباركها العديد من آباء كنيستنا المباركة الذين مسحوها مرارًا بالزيت المقدس، وقرءوا عليها قرايات إيمانية دون جدوى.

صِرت في الأسفل أعمل عند بيت النار مع الوقادين، وكان دوري أن أظل حريصًا منتبهًا إلى اشتعال جمراتها طيلة الوقت دون ملل أو كلل، بينما تدور آلاتها ويدفعها المجدفون؛ وهم عصبة من الرجال الأشداء المقدامين لم أرَ أخشن منهم طيلة حياتي، وجُلهم من العبيد السودان شديدي السواد، حتى إن جلودهم - وقد تعرقت - كانت تلتمع كالأبنوس المصقول، وليس عليها إلا ما يستر عوراتهم، ومواضع العفّة فيهم، وقد وقف عند رءوسهم عسكر الخليفة يُلهبون ظهورهم بالسياط، إذا ما تباطئوا

في عملهم أو زينت لهم نفوسهم التواني والكسل، أما مَن كانوا معي في عمل الوقايد فقد كان جلّهم أجلافًا وأدنى من ذلك، وكانوا يتكلمون معي بلسان عربي خولط بلكنة ثقيلة لا تخلو من سذاجة، أما فيما بينهم فكانوا يتحدثون بلسان غريب لم أسمع مثله من قبل، فلما سألت بنيامين الصوري، وهو الداري بأحوال الملاحة من المبتدأ إلى الخبر، بسبب أن أهله من المشتغلين بالبحر أبًا عن جد، قال لي إن هؤلاء معظمهم من طائفة عبيد يقال لها «المنبوذون»، يجرى جلبهم من بلاد الهند والسند، ويُباعون في أسواق النخاسة بأبخس الأثمان، بسبب جهلهم وفظاظتهم وخيبتهم في تعلم الحِرف والمِهَن، وأنهم كانوا في موطنهم بالأصل لا يُقبل عليهم الناس ولا يحادثهم كائن مَن كان، فيعيشون مُحتقَرين منبوذين ملعونين، حتى إن أشراف بلادهم كانوا يعاقبونهم بصب الرصاص المصهور في آذانهم إذا ما تجرأ أحدهم ورفع صوته بالكلام في حضرة واحد من هؤلاء الأشراف الهندوس.

كان بنيامين الصوري لطيف المعشر، ظريف الهيئة، وهو فتى باسم بشوش، بادر بالعطف عليّ والتودد إليّ، وهو يحدثني بقليل من قبطية حينًا، وبالعربية حينًا، وكان قادرًا على التفاهم مع المنبوذين أيضًا، ويقول لهم شيئًا بلسانهم، وكانت مهنته رئاسة الوقايد، والإشراف على الداخل منها إلى بيت النار - في موضعنا أسفل الحراقة - وضبطه بمعيار الخبرة، حتى تظل جذوته مُتقدة دون انطفاء، فلما لاحظت نباهة لسانه ورطانته بكل كلام مهما تباينت الأجناس، ضحك، وقال:

إن هذا دأب كل مَن اشتغل بالبحر، فكثرة الطواف والذهاب والإياب تُلقي به على شطوط البشر، فيستقر على لغاتهم وعاداتهم ومشاربهم ومآربهم في الحياة.

ظللنا نعمل طيلة اليوم، وكان هدفنا بعد الخروج من أشتوم بحيرة تنيس هو شطّ مدينة الفرما، لكن بسبب معاكسة الريح لنا، ولهوها بسير الماء عند أشتوم البحيرة، تعطّل خروجنا بعض الوقت إلى فناء البحر الرومي، فما لبثنا إلا وكان الليل قد سحبنا إلى غزير عتمته، فجاء إلينا بعض الحُراس، وأمر بعضنا بالذهاب معهم، فلما امتثلنا وسِرنا وراءهم حتى صِرنا في موضع آخر بجوف الحراقة، حمّلونا إناء كبيرًا مملوءًا بملح النطرون، وضعناه بحيث لا تطوله ريح، ثم أتوا بسلٍّ من الحديد على هيئة الصليب غرسوه في حلقة من خشب السنط وألقوا بها في الإناء، فطَفت على سطح الماء، وبعد ذلك جاء الربابنة، فأظهروا حجرًا عجيبًا في حجم قبضة اليد أو أقل، وأخذوا يقربونه من سطح الماء في حركة دائرية من اليمين إلى اليسار، حتى ظهرت آيته، وهي دوران السلّ على السطح في اتجاه موضع دوران الحجر، وكانوا يسحبون يدهم بسرعة، فيكف السلّ عن الحركة، ويستقر طرفٌ منه نحو الجنوب والآخر نحو الشمال، وهكذا حددوا الوجهة التي يتوجب أن تجري إليها الجارية في الماء.

وصلنا مدينة الفرما عند الفجر الليلة التالية، وعندما استبان بعض من معالمها في الأفق، سارع المنوطون بخدمة الأشرعة بلمّها لترسية الحراقة عند برّها، وقد توسّلوا لذلك بالثقّالات الحديد الغلاظ، وقد راح النوتيّة يفكون حبالها ويدفعون بها إلى جوف البحر، فما إن وصلنا الوصول الأخير، وتوقفت الحراقة والسلالير، حتى هرع إلينا الحمَّالون أتباع جيش الخليفة وأصحاب الركائب والذين كانوا ولا بد قد طيّر لهم الحمَام ووصلهم البرق ونحن في سبيلنا إلى الحلول في هذي البقعة،

وإلا ما كانوا قد بلغونا في هذا الموضع عند هذا الحد الأدنى من النهار، ثم إنهم بدءوا في نقل بعض من حمولة السلالير على ظهور الجِمال، وقد أمرونا - نحن المأسورين - بالحمل جميعًا، ولم يُعفَ من ذلك غير النساء والأطفال، فنالتنا من ذلك مشقة عظيمة بسبب الحمل والجهد العظيم الذي كنا قد عانيناه طوال ما مضى من نهار وليل.

أزاح الفجر ستائره فجأة عن شمس فتية لا مثيل لها، وقد تألقت في هذا الفضاء الأزرق المديد المجتمع من سماء وماء، فانشرح صدري ورُحت أصلّي خلسة، شاكرًا الرب على كل شيء حامدًا نعمته لحلول نهار جديد، وما لبثت إلا قليلًا حتى رأيت بخنس بن أيوب قادمًا نحوي، وقد حمّلوه بما حملنا بمثله، فما إن رآني حتى سارع بحطّ حمولته واندفع إليّ مُعانقًا، وقد أخذه شوق لا يدانيه إلا شوقي له، وكان وقت الزوّادة قد حل، فجلسنا على الرمال نأكل ما قدموه لنا من خبز وبصل وتمر جاف، وقد أخبرني بخنس أن كثيرين من الناس قد مرضوا وخصوصًا من النساء والأطفال، بل إن بعضهم أوشك على التلف، وأن المداوين والمطبّبين على سطح السفن، باتوا مُوزعي الجهد لكثرة المرضى، وأنهم يكتفون بماء الراوند، وشموم النشادر، لإفاقة مَن غُشي من الناس بسبب انتفاء عهده بركوب البحر، وأنهم كادوا أن يفتكوا بواحد من الأسرى أشار عليهم بجرعات من الخمر يشربها الملتاعون فتهدّئ من روعهم، لأن المسلمين يُحرّمون شرب الخمر مهما كان الأمر حتى لدفع مرض، أو لمُداواة داء من الداءات.

وكنت عندما اعتنقت بخنس قد راعني تصاعد ريح الخل منه، فأنفت من ذلك، وعجبت له، ولم أستطع كتمان الأمر في صدري، فلما سألته، قال إنهم أمروه مثلما أمروا كل مَن على السطح من خُدام الصواري بشرب ماء البحر ثم تقيوئه، وبعد ذلك طلوا وجوه الجميع بالخل، وكل ذلك بغرض دفع دوار البحر وآثاره المدوخة والضارة للنفس والبدن.

رُحنا نتسامر، بينما معالم الفرما ترتسم وتتوضح لنا، كلما تجلّت الشمس أكثر وشددت نورها، فلما نظرتها وجدت أنها مدينة ذات حصن مُطلّ على البحر، وبدا لي أن بها أخلاطًا من الناس، كما وضح من حال الحمالين وأصحاب الركائب، الذين هم من البدو والعرب والأقباط، فأعلمني بخنس أنه كان قد قرأ في بعض الكتب، أنه كان منها طريق إلى جزيرة قبرس في البر، فغلب عليها البحر، ويقال: إن فيما غلب عليه البحر مقطع للرخام الأبلق، وأخبرني أيضًا أن مما قرأه عنها أن أحدهم شعر في هدم أبواب من حجارة كانت شرقيَّ الحصن ليعمل منها جيرًا، فلما قلع منها حجرًا أو حجرين، خرج أهل الفرما بالسلاح، فمنعوه من قلعها، وقالوا: هذه الأبواب التي قال الرب فيها قولا مقدسًا على لسان يعقوب، فلا يجوز هدمها.

ما حييت لن أنسى صورة بخنس وهو يحدثني عن الفرما، بينما نحن جالسان على الرمال، والأزرق المديد أمامنا بلا حدّ فوقه غير حدّ الحزن في عينَي بخنس شديدتَي السواد، بينما تعبير شامل من الأسى قد هيمن على وجهه ذي الجبين العريض والأنف الأشم المرتسم تحته شارب داكن ولِحية خشنة خشونة شعر رأسه، فبعد ذلك الوقت لم أرَ بخنس، ولم تتكرم الأيام عليّ بلُقياه مرة أخرى أبدًا، ولقد سألت عنه مرارًا، بعد ذلك، كل أولئك الذين يمكن أن يكونوا قد صادفوه، ولكن دون جدوى،

وتضاربت رواياتهم حول موضعه ومصيره، فمَن قال لي مرة إنه سقط أثناء مسيرنا في البحر من فوق أحد الصواري فابتلعه الماء في التو، ومَن قال لي إنه شاهده وهو يُساق في جملة الأسرى الذين سِيقوا إلى دمشق. وهكذا ظل اختفاء بخنس وعدم وقوفي على مصيره، لغزًا يُعذب روحي حتى يومي هذا.

كنت في البداية أظن أنهم سوف يسوقوننا مباشرة إلى مقر الخلافة ببغداد، لكن بخنس أخبرني قبيل فراقنا ونحن في الفرما أنهم سيذهبون بنا إلى أنطاكية، وأن الذين رفعوا السلاح على الخليفة سيؤخذ جُلهم إلى دمشق، وقال إنه سمع بعضهم يقول: إن الخليفة أمر بهدم ودرس كل الكور البشمورية المنتفضة ونواحيها، وحمْل كل مَن تبقى فيها من الناس على السفن، وإنه كان قد جاء إلى مصر لتهدئة فتنة العرب الذين استقروا في الغرب بنواحي الإسكندرية ولوبية، وهو يخشى أن يتكرر ما جرى بعد عودته إلى بغداد، فتثور الفتن من جديد، ويتّحد العرب المنتفضون مع الأقباط مرة أخرى، وأنه خيّر رؤساء الكور المستسلمين في الرحيل إلى واحدة من بقاع عدة بأرض الخلافة، فاختاروا مدينة أنطاكية؛ بسبب تقارب الكنيسة اليعقوبية مع كنيسة أنطاكية هذه، وضعف الخلف بينها وبين الكنيسة القبطية في مبادئ العقيدة.

وقبل صعودنا إلى المراكب مرة أخرى قاموا بتعليق جلود ولبود مبلولة بالخل والماء والشب والنطرون حول المراكب من الخارج، وذلك لدفع أذى النفط، إن وجد مَن تُسول له نفسه الاعتداء على السفن من لصوص البحر، أو عساكر الروم البحرية الذين كانوا ما يفتئون يجوبون ذلك البحر خصوصًا أثناء الليل، وقد احتاطوا لذلك أيضًا بالطين المخلوط بالورق والنطرون والخطمي المعجون بالخل، فكل ذلك يقاوم فعل حرائق النفط هذه، وقد راقبوا الأمتعة والمنقولات ومنعوا نقل بعضها، وكان من الممنوعات عدة ديكة، أراد رَجل مرتحل معنا من الفرما أن يأخذها في أقفاصها معه، بسبب أنها مما يُستخدم في الصراعات المُحببة إلى الناس هناك، وهي تجلب لصاحبها من اصطراعها في الأسواق المال الجيد، غير أن العساكر أصروا على إجباره على تركها، إذا كان يريد السفر، حتى لا تَصيح أثناء الطريق فتكشف موضع السفن للمُغيرين إذا ما أغاروا أثناء الليل، فآثر الرجل عدم السفر والبقاء مع طيوره التي قال إنها لا تُقدر بمال، وإنها عزيزة عليه للغاية.

اتجهوا بنا بعد ذلك إلى مدينة العريش، لملاقاة بعض تجار الكارم الوافدين إليها من بلاد الصين والهند، فحملوا بعضهم معنا كما سمعت من بنيامين الصوري، الذي قال أيضًا إنهم صعدوا مُحملين بنفائس من الحرير والعطور والتوابل والورق السمرقندي المشهور وثمائن أخرى مجلوبة من بلاد الشرق البعيد سيذهبون بها إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية وبلاد البنادقة. ومن العريش راحت السفن تنهب البحر ليل نهار.

لم أغفُ خلال ذلك إلا سويعات قليلة، عندما كان الريس يسمح لي بوجبة نوم قصيرة يحل غيري خلالها محلي في عملي، وهكذا وجدتني بين عشية وضحاها أركب البحر عابرًا المدن والبلاد، وهو ما لم أتصوره أبدًا ولا حلمت به يومًا، فصِرت كمَن يعيش وهمًا لا حقيقة، حتى إنني عندما كنت

أخلد إلى النوم، كانت تأتيني المنامات والأحلام الغريبة التي تخلط زمانًا كان بزمان آتٍ، على نحو أتيقن معه مدى ضياع روحي ووقوعها في جب اليأس والحيرة.

قبل وصولنا إلى أنطاكية بقليل، غرقت ذات مرة بالنوم قبيل الفجر بعد انتهاء نوبتي في العمل، فرأيت في لطيم موج الحلم أن ثاونا وآمونة وسويلا وشابة أخرى بيضاء فارعة الجسد، ينسدل شعرها ستارة من السواد على ظهرها، قد وقفوا جميعًا على شاطئ بحر صاخب الموج، مضطرم، وهم يُلوحون لي أن تعالَ إلينا، فرُحت أسبح مجتهدًا في الماء العاصف محاولًا الوصول إليهم، لكنني كلما كنت أحاول الاقتراب منهم لا تُمكنني قواي ويأخذني الموج بعيدًا عنهم، فأعيد الكرة من جديد دون جدوى، حتى يئست وتعبت، فرُحت أبكي وأنتحب بمرارة، وبينما أنا على هذي الحال من اليأس والقنوط، إذ انبثق الماء عن لجة نورانية مبهرة، وإذا بالفتاة التي كنت قد رأيتها معهم تطلع من داخلها، أثيرية نورانية، هيولية التجسد وكأنها ملاك من ساروفيم السماء، ثم إنها راحت تدفعني دفعًا في الماء بكل لُطف، حتى صيَّرتني على الشط، وكل ذلك دون أن تمس بدني أو أشعر بلمس أناملها لجلدي.

كان شوقي لرؤية سويلا يزداد كلما توغلنا في السير قاصدين أنطاكية، فللبحر وشيش وخفخفة، وزمزمة وهدير وصخب وزمجرة، تؤرق الشجون وتعصف بالقلوب، فكنت أتمنى على الله أن أراها ولو مرة واحدة ثم يكون ما يكون، وكانت دموعي تسيل حينًا، رغمًا عني، لفرط شوقي إليها، بينما كان كل مَن حولي يظنون أنها تسحُّ حسرة على حالي، أو أن مُقلتيَّ لا تحتملان شدة النار وسخونتها، وبينما كنت أعمل في ليلة من الليالي، وقد أوشكت نوبتي على الانتهاء، إذ بمَن يدخل علينا من الحراس في موضعنا بالوقايد، وينادي طالبًا أبًا قبطيًّا في الحال، ولما لم أكن سوى قيم فقير إلى الله في بيعة من البِيَع ذات يوم، لم أردّ، بل واصلت عملي بكل انشغال، لكن الرجل لكزني بقدمه، وقال: أيا أنت! ألم تقل إنك كنت من أهل الكنيسة في مصر العتيقة، فما بالك لا ترد؟! ولماذا تُصاب بالخرس وتتجاهل الأمر، وكأن بك صممًا، أو كأن الأمر لا يعنيك؟ قلت لروحي: حمدًا لله لقد آمنوا وصدقوا الآن أنني من أصحاب المنجلية والعباءة، ولست من أهل السيف والرماية. فما كدت أفرح بذلك، وأقول مؤيدًا قوله بآي نعم، حتى أمرني بالوقوف وبالسير وراءه في التو والحال، فمضيت خلفه صاعدًا إلى سطح الحراقة، حتى بلغنا موضع النساء والأطفال، فوجدت سويلا راقدة بينهم على الأرض، وقد التف حولها بعض من النسوة والعجائز وهن يبكين ويندبن الندب القبطي المعروف، أما هي فكانت مُسبلة العينين، تُعاني سكرات الموت، فلم أتمالك نفسي واندفعت تجاهها آخِذًا رأسها بين يديَّ وأنا أهتف بلهفة: سويلا سويلا، ورُحت أُكرر ندائي لها كمَن أصابه مس من الشيطان، فلم يعد يقوى على السكوت والجَلَد، فما كان منها إلا أن فتحت عينيها قليلًا، وأومأت برأسها بصعوبة مُشيرة على صدرها، فلما نظرته على ضوء المشاعل المتراقص بفعل ريح البحر الغاضبة، وجدت صليبي متدليًا من عنقها وقد استقر عليه، فلم أتحكم بمشاعري وشهقت شهقة ملتاعة سمعها الجميع، ورُحت أنتحب رغمًا عني، لكنها عاودت الإشارة إليه بمعنى أن: خُذه. فرحت أمسك براحتها، وأمسح وجنتها، ولساني يتمتم بآيات الرب: «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التي في العالم، إن أحبّ أحد العالم فليست فيه محبة الآب، لأن كل ما في العالم شهوة الجسد، وشهوة العيون، وتعظّم المعيشة ليس من الآب، بل من العالم. والعالم يمضي وشهوته، وأما الذي يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد».

وظللت أتلو وأصلي وأنا في غاية الأسى، وقد تذكرت وقت موت آمونة، وكيف كانت راقدة ممددة أمامي كما سويلا الآن، فلما وصلت إلى قوله الجليل:

«ورءوف ها نحن نطوب الصابرين. وقد سمعتم بصبر أيوب ورأيتم عاقبة الرب، لأن الرب كثير الرحمة».

وبقيت أردد لحظات بصوت خفيض قوله: «هو ذا الديان واقف أمام الباب. هو ذا الديان واقف أمام الباب». وجدت سويلا تنفرج شفتاها عن ابتسامة واهنة راضية، ثم مالت برأسها ناحية الأفق البحري، حيث جئنا من بر مصر وهي تحدق مفتوحة العينين عن نظرة حزينة آسية، فأدركت أن ملاك الموت قد حلَّ عليها وسوف يرتحل بها. وجمدت الدموع وتحجرت في عيني، وقد بدأت أثوب إلى رشدي، وبراحتي أسبلت جفنيها، ورُحت أواصل قراياتي الربانية وأنا أريح رأسها على الأرض، وسرعان ما طلب الحراس مني أن أنتهي سريعًا حتى أعود إلى عملي، فخلعت الصليب من رقبتها وضممته في يدي وأنا أُقبله، ووقفت متوسلًا إليهم أن يُشركوني في مراسيم رحلتها الأبدية الأخيرة، لأكون آخر مَن يودعها خلال هذه اللحظات. شعرت أن الحراس أيقنوا أنني من أهل الكنيسة، لأن معاملتهم لي لانت قليلًا، ثم إنهم لما بدأ الفجر يلوح في الأفق، أتوا بعدة جثث أخرى من مواضع مُتباينة بالحراقة، فبلغت الجثث التي عددتها إحدى وعشرين جثة، بينها أربع عشرة جثة لصبية وأطفال رصوها إلى جوار بعضها البعض على الأرض، ثم طلبوا مني أن أصلي عليها صلاة التجنيز، فأخذت أتلو ما تيسر من الآيات وأدعية المغفرة، بينما رُحت أصلّب عليهم واحدًا واحدًا وأنا راكع خشوعًا وتأدبًا، ويدي تمسحهم - وليغفر الرب لي – عوضًا عن غياب الميرون المقدس، طالبًا لهؤلاء الأبرار جميعًا كل رحمة ومغفرة، وبينما أنا مستغرق في كل هذا بهمة وإخلاص، إذا بصوت مؤذن يتعالى حنونًا شجيًّا بالأذان، ثم نادى بالصلاة على جماعة من موتى المسلمين، كانوا قد ودّعوا الدنيا كذلك، ووُضِعوا على جانب من الطرف الآخر للحراقة، فلما فرغت من صلواتي، انتظرت حتى فرغ الناس من الصلاة على المسلمين المتوفين أيضًا، ثم بُدِئ إلقاء الموتى في الماء، فعددت عدد الرميات المجتمعة من كلا الجانبين، فوجدتها قد بلغت ثلاثًا وستين رمية، يصدر عن كل منها صوت مهيب رهيب، وكأنه انطلاقة واحدة من المنجنيق، وذلك وقت بلوغ الجسد الإنسي الماء وارتطامه به، ولسوف أظل حتى حين حيني، ومواراتي التراب، لا أنسى ذلك الصوت الصارم المزمجر، ولا مشهد الأفق البحري المهيب وهو ينزع ستائر الظلمة عن شمس حزينة أخذت تصعد رويدًا رويدًا إلى الفضاء، فبدا كل ذلك مما يُحفر في الذاكرة، وهو يُدون بقلم الحزن الرهيب في أعماق الحس والشعور.

كان الحراس، وكل مَن حضر ذلك الوقت على سطح الحراقة، قد وقف واجمًا خاشعًا، تطل من عينيه نظرات الأسى وكأنه يتأمل قوة الموت، ورخص الدنيا وتواضعها أمام جلاله وسِره العجيب، وقد تصادف أن عبرت نوارس الماء فوقنا، ففاضت قيعان نفسي بألم شفيف، وتسارعت دموعي تنهمر مرة أخرى وقد بدت لي صوصوات تلك النوارس ضربًا من النوح ذكّرني بترنيمة قديمة كنت أسمع أمي ترددها كلما فاض حزنها لأمر من الأمور، وهي تقول:

صيّرني حزني على أحبابي

عليلًا بلا علة

وكاد الأسى والنوح

يخرجني من المِلة

ودهر يروح يا عين وشوقي

لخلي لا تُوصف له خلة

وبقيت دموعي تسح حينًا حتى بللت صليب سويلا فرُحت ألثمه بشفتيَّ حسرة وألمًا.

بعد رحلة مضنية استغرقت ما يربو على عشرة من الأيام، لاحت لنا أنطاكية عن بُعد. كانت الحراقات والسلالير تتوقف طوال رحلتنا ببعض الثغور الشامية التابعة للخلافة حينًا، حتى تتزود بالميرة والوقود، وكان البحر قد عاكسنا وقتًا، فزمجر وهاج، حتى إن سلورة من السلالير كادت أن تنقلب، لولا عناية الرب ورعايته لنا، وكان في حين آخر سلسًا هادئًا، فسارت السفن دون عسر أو خوف، اللهم إلا من دواب بحرية كانت تظهر بين الحين والحين، كذلك الحوت الصغير الذي ظهر لنا مرة، فسارع البحارة والنوتية بصيده، وكانوا غاية في السرور والبهجة، فعدا الفائدة المرجوة من لحمه الذي يؤكل جانب منه، له فوائد أخرى، وقد راحوا يطبخون أكثره في قدور فيذوب جميع لحمها ويعود شحمًا مُذابًا، يستخدم في قلفطة السفن وسد خروق أخشابها، وقد أخبرني بذلك بنيامين الصوري، وأضاف أن أكثر ذلك إنما يُعمل لسفن بحر القلزم لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر.

فلما بدأت السفن في دخول البحر الأنطاكي، وثبت أمان التسفير، وأن لا خوف من غارات بحرية الروم، أو لصوص البحر، رُفعت البنود والرايات السود، وهي علامة الخلافة، إلى أعلى حدود الصواري، وانتابت الجميع، على رغم التعب والحزن والألم، أحاسيس الفرح بالسلامة، ونشط كل إنسان فيما بين يديه من مهام ليُتمها على خير وجه، قبل الرسو والنزول الأخير من السفينة. عندما أنزلونا البر الأنطاكي، قال بنيامين: إن الساعة بلغت الثانية بعد الزوال. فعجبت لأن الشمس كانت محجوبة عن المدينة، فلما تقدمنا إليها خمنت أن سبب ذلك ربما كان قلعتها العالية المشيدة على نتوءٍ جبلي عظيم العلو، ثم بدا لي سور المدينة. والحق أقول إنني لم أشاهد سورًا مثله في الضخامة والارتفاع من قبل، وقد عرفت بعد استقراري بأنطاكية أن لهذا السور ثلاثمائة وستين برجًا، يطوف عليها أربعة آلاف حارس، يضمنون حراستها سنة، ويُستبدلون في السنة التالية، وهذا السور مبني على السهل والجبل، وهو عجيبة من العجائب.

وكان عدد كبير من الناس قد تجمع لمشاهدتنا وقت وصولنا، وقد قيل وقتها إن هؤلاء قد ترقبوا وصولنا، لأن البرق الشامي كان قد سبقنا يعلمهم بأمر حلولنا على المدينة بعد الذي جرى في الكور

البشمورية والأراضي الموحلة، فصار الناس يُهللون لمقدمنا، ولم أدرِ ساعتها: أهللوا بسبب نصرة خليفة المسلمين، أم لأنهم من أهل الملة مثلنا وعلى جادة المستقيم في حب المسيح؟! وقد علمت بعد ذلك أن بطرك أنطاكية رحّب كثيرًا بحلول البشامرة على هذه المدينة الإيمانية العظيمة.

ثم إنهم ساقونا إلى بيعة كبيرة بالمدينة سمعتهم يطلقون عليها بيعة القسيان، وذلك حتى يتسنى لهم إحصاؤنا وفرزنا مجددًا في سبيل إرسال مَن يشاءون إلى بغداد، واستبقاء مَن يريدون استبقاءه في أنطاكية، وإرسال بعض الأسرى لبَيعهم في سوق النخاسة الكبيرة بالشام.

* * * *

وجدت أن البيعة مهيبة، ذات أسوار ضخام، لبابها العالي صحنان أحدهما لساعات الليل والآخر لساعات النهار، يعمل كل واحد منهما اثنتى عشرة ساعة - كما أدركت فيما بعد - فلما ولجت منه؛ أي الباب، ودخلت مع الداخلين إلى باحتها الفسيحة المترامية حيث وضعونا، كان هناك من الخدم والمسترزقة ما لا يُحصى، ثم إنه برز من ديوان مخصوص بأحد أطرافها جماعة من الكُتاب جاءوا بقراطيسهم وأقلامهم وراحوا يسجلون ما يخص كل شخص منا بعد إحصائنا، وذلك ما عدا النساء والأطفال الذين كانوا يُجرى حصرهم دون الوقوف عند صفاتهم وماهيتهم، فمَن كان من أهل الحرب جنبوه في ناحية، ومَن كان من أهل الزرع والحِرف المعاشية وضعوه في ناحية أخرى، حتى انتهوا من ذلك دون أن يتركوا شيخًا ولا شابًّا ولا صبيًّا أمرد، ثم إنهم بعد أن تمموا عملهم وزَّعوا على الجميع الزاد والقوت، فجلسنا نأكل، وبعدها تركونا نغتسل في حمَّامات السبيل، وهي المنشأة بجانب سور البيعة لأجل السابلة والعوام والمساكين، فلما دخلت الحمَّام وجدت أن ماءه عذب سيح، ووقوده من خشب الآس الجيد، فتطهرت وحمدت الله على كل حال حمدًا عظيمًا.

كان الفرازون قد ترددوا طويلًا في تصنيفي وتجادلوا زمنًا حول حقيقتي، فمنهم مَن كان يرى أنني كاذب دعيَّ على الكنيسة، أتمسح بمسوحها حتى أنجو من البَيع في سوق النخاسة، أو من الحشر في زمرة الفلاحين، وكان آخرون يرون أنني من أهل الكنيسة حقًّا، فلا يجوز أن يتحمل وزري أمام الله يوم القيامة عندما يُسأل، لأن قرآن المسلمين أوصى بأهل الكتاب خيرًا، وكان هؤلاء من المسلمين الأتقياء الذين سأظل أدعو لهم بالخير والصلاح ما حييت، فقد رجحت كفتهم في النهاية، خصوصًا عندما أشاروا بضرورة مثولي بين يدَي آباء الكنيسة، لحسم أمري بالاختبار والوقوف على حقيقة درايتي بالديانة، وقد سارعوا بذلك بعد أن أكلت واغتسلت مثل الجميع، فأدخلوني في قلاية على بعض الآباء، والذين يطلق العرب عليهم قساوسة، وقد كانوا ينعتون كل مَن ارتدى مسوح الكنيسة بهذه الصفة، فلما دخلت عليهم رُحت أجأر بالشكوى لهم مما بي، لكني أدركت أنهم لا يفهمون ما أقوله، لأنهم كانوا يتحدثون لغة غريبة، ليست كلغة العرب، ثم كان بينهم شيخ طاعن في السن، طلب مني الكلام بحكمة وهدوء، وكنت أتكلم بالقبطية المتخالطة ببعض العربية قدر استطاعتي، وكان العسكر إلى جانبي وقوفًا، وأنا بين أيديهم مُلتاع مأخوذ مما أنا فيه، ثم إن ذلك الأب الشيخ أخذ يسألني سؤالات عن أحوال البيع في مصر، ويتقصى عن أحوال الديانة والأقباط فيها، وكنت أتعجب

خلال ذلك وأنا أجيبه عما يسأل بكل أدب واحترام، لأن سؤاله كان بلسان قبطي لم يخلَ من لكنة غريبة، وبدون أن أتمالك نفسي وجدتني أندفع - وليغفر لي الرب - وأسأله بلهفة عارمة:

- هل أنت قبطي يا سيدي؟

بدا الرجل لي طيبًا دينًا ذا سحنة سمحة، وقد تأكد لي ذلك عندما رد عليّ قائلًا بهدوء:

- كلنا عبيد الله يا ولدي. أمي أمها قبطية.

ثم إنه خاض معي في سؤالات عن الصلاة والصوم وشئون العقيدة والسبوت والذي يصح فيها، فقلت له: إن «السبت إنما جُعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت. فابن الإنسان هو رب السبت أيضًا». وهذا ما قاله المخلّص ورويت له قصة هذا القول كما وردت على لسان مرقس الرسول والتي كنت أحفظها عن ظهر قلب كما رواها لي عزيز عيني ثاونا، إذ إن السيد اجتاز في السبت بين الزروع، فابتدأ تلاميذه يقطفون في السبت ما لا يحل؟ فقال لهم: «أما قرأتم قط ما فعله داود حين احتاج وجاع هو والذين معه؟ كيف دخل بيت الله في أيام إبياثار رئيس الكهنة وأكل خبز التقدمة الذي لا يحل أكله إلا للكهنة، وأعطى الذين كانوا معه أيضًا».

فلما سمع مني ذلك، خلت أنه قد ابتسم قليلًا وهز رأسه موافقًا، ثم كلم العسكر بلسانهم العربي أن يتركوني، لأنه سيقبلني في البيعة، ثم كلم الآباء بلسانهم الغريب عليّ فتركني العسكر في القلاية ومضوا لشئونهم.

مكثت زمنًا أعمل قيمًا ببيعة القسيان في خدمة الأب توما، ومسئولًا عن شئونه بقلايته المخصصة له بأحد بروج البيعة، وقد جرت العادة على أن تكون قلايات الآباء مُكرسة في بروج البيعة العديدة، وأن يكون عبيد كل منهم قاطنين في الأسفل، ومن خلال عملي هذا تعرفت على الكثير في هذه الكنيسة والتي بدت لي مختلفة في كثير من الأمور عن كنيستنا القبطية، وإن كانت كما أظن من أعظم كنائس الرب في هذه المعمورة، فأهل البيعة من الآباء وسائر الإكليروس يعيشون في رغد من العيش على العكس من كنيستنا ببر مصر، ونظام الخدمة هنا مختلف في أمور عدة عنه في مصر، ودستور الإيمان كان يُتلى صباح الخميس الكبير أمام الأسقف أو الكاهن، وكان التائبون الذين يأتون من الآريوسيين والمقدونيين والنوفاتيين والأبوليناريين يُقبلون بعد مسحهم بالميرون المقدس على الجبهة والعينين والأنف والفم والأذن، أما البولسيون والأقنوميون فكانوا يعمّدون بغطة واحدة، والمونتانيون والصقاليون الذين يعتقدون بأن الأب والابن أقنوم واحد فهؤلاء يُقبلون كالأمم، أي في اليوم الأول يُعدون مسيحيين، وفي اليوم الثاني موعوظين، وفي الثالث يستقسمون بالنفخ في وجوههم وفي آذانهم ثلاثًا، وهكذا يوعظون ويبقون مدة في الكنيسة ويسمعون الكتب، ومثلهم المانويون. أما النساطرة فينبغي أن يعترفوا بالإيمان كتابة، أو أن يُنكروا هرطقتهم مع نسطوريوس وأوطيخا. وكان القربان يُتناول باليدين وهما متقاطعتان، اليمنى فوق اليسرى بشكل صليب، والخمر من الكأس.

وكان القداس يبدأ بقبول تقادم الشعب وبتهيئة القرابين وتقدمتها على البرويشيس، ثم بقراءة الذيبتيخة، وكانت تشمل ذِكر الأحياء والأموات من الباباوات وجميع الكهنة والشمامسة ثم الأباطرة فالشعب، وكانت الشمعة تسبق الإنجيل والترتيل: «هلموا نسجد ونركع»، وبعد ذلك يصعد الأسقف إلى السنثرونون ويبارك الشعب، وبعد هذا تُقرأ الرسائل إشارة إلى أن المسيح أرسل تلاميذه ليبشروا بالإنجيل، ثم يُتلى الإنجيل ويُقبل العطاء وينادي الشماس بخروج الموعوظين، وعند هذا الحد يفتح الكاهن الإنديمنسي؛ أي القائمة مقام المائدة، ويصار إلى الأيصوذن الكبير المعروف بدورة القداس، وفيه تدخل القرابين، وهي لا تزال غير مقدسة، إلى المائدة. والأيصوذن الكبير، كما فهمت من الأب توما، يرمز إلى نقل جسد يسوع من الجلة؛ أي المذبح، إلى القبر، أي المائدة، وكان الشاروبيكون يرتل عندئذ، وذلك لمناسبة دخول الملائكة والروح القدس والقديسين مع المسيح الملك، وكنت أتأثر للغاية عندما يُتلى:

«أيها الممثلو الشاروبيم سريا والمرنمون التسبيح المثلث التقديس للثالوث المُحيي لنطرح عنا الآن كل مهمة دنيوية، لأننا مزمعون أن نستقبل ملك الكل محفوفًا بالمراتب الملائكية - بحال غير منظورة - هللويا».

وكانت المراوح تعمل دون توقف أثناء ذلك، لأنها تمنع وقوع شيء من هوام الهواء في أواني الخدمة وهي تشير إلى أجنحة الساروفيم الستة. وكان من الممنوعات في بيعة القسيان، بعد دخول الكهنة مساء السبوت إلى الهيكل، أن يحني إحدى ركبتيه حتى عشية الأحد التالي، لأن الليل الذي يلي السبت يُتخذ تقدمة لقيامة المخلص، ومنها تُبتدأ النشائد الروحية ويُقام العيد من ظلام إلى النور.

كان الأب توما من أحن الناس الذين عرفتهم طوال حياتي، وكان كريمًا عطوفًا دينًا، وقد سبق له أن طاف بكثير من كنائس وأديرة مصر وفلسطين وبيروت وأقريطش وقبرس، وعرفت أنه أمضى زمنًا طويلًا بالبلاد المصرية عرف خلالها اللسان القبطي، أما ما كان يُحببني فيه كثيرًا فهو ولعه بالتراتيل الكنسية على نغمات الموسيقى، وكان يحفظ تراتيل الأقدمين - كما قال لي - مثل ما ابتدعه رومانوس المرتل الأبيروتي الشهير، وصفرونيوس من القدس، وأندراوس الأقريطي الذي وُلد في دمشق وخدم زمنًا في كنيسة القيامة، لكنه جنح حينًا إلى المونوثيلية ثم تاب، وكان الأب توما مولعًا بتدوين الألحان عن طريق علامات ورموز يقرؤها بعدما يدونها في قراطيس مخصوصة، وكنت خلال عمله في التدوين أقف بين يديه لساعات حاملًا الشموع أو ملبيًا طلباته، دون أن أجرؤ على النطق أو الكلام، لفرط تنبهه أو انصرافه لما يقوم به، لكني في إحدى المرات جرؤت على الكلام وقد أكلني الفضول، فسألته عن معنى ما يدونه من إشارات، فقال:

- ألا تعرف هذ؟! ألم ترَ أحدًا يدون ألحانًا كنسية في بيعتكم بقصر الشمع؟!

فلما أجبت أنْ لا، دهش وسأل مرة أخرى:

- وكيف تحفظون نغمات الثاذوكيات والتراتيل الجليلة؟

قلت بسرعة:

- لدينا المثلث والمزهر، ولعلك اطلعت على ذلك وقت إقامتك في بر مصر، لكننا لا نستخدم مثل هذه.
وكنت أقصد ما يستخدمه في العزف، وهو آلة من أوتار عدة يقال لها «الليرا».

(5)

لم تكن الألحان الكنسية أو نظام الخدمة، هو المختلف هنا في كنيسة أنطاكية عن كنيستنا في مصر، فبيعة القسيان هذه التي تنسب إلى الملك القسيان، كما أخبرني الأب توما والذي أحيا ولده رئيس الحواريين بطرس الرسول، كان لا تنقطع عنها المحاكمات الكنسية الخطيرة، وتعقد بين حين وحين، وذلك بسبب تفشي الهرطقة وانتشارها بالمدينة والمناطق المحيطة بها، كما أن المجاميع اللاهوتية كانت كثيرة الحدوث هنا، لأن البيعة هي البيعة العظمى لسائر المشرق سيريا، وكيليكيا الكرجية، وكذا بلاد ما بين النهرين.

وفي أحد الأيام، وبعد انتهاء الهيئة الكنسية من قداس البريجياز مينا والذي يقام في كل أيام الصوم الأربعيني المقدس، ما عدا يومَي السبت والأحد ويوم عيد البشارة، حدثت ضجة عظيمة عند الباب الشرقي للبيعة، وسرعان ما اندفعت جماعة من المؤمنين وهم يسوقون عددًا من الرجال والنساء، وقد أصابوهم بضرب مؤذٍ، إذ كان الدم يسيل من رءوسهم وأنوفهم وأبدانهم، وما يتنكرون به من جلود حيوانات ويصنعون به وجوههم على هيئتها، فلما خرجت لأستجلي الأمر مع جميع مَن خرج من أهل البيعة، علمت أن هؤلاء الناس وُجِدوا يمارسون الطقوس الوثنية القديمة احتفالًا ببدء السنة إله الزمان، وأن (KRONOS) الوثنية وفقًا للطقوس الممنوعة والتي تتضمن تكريم كرونوس هؤلاء ضُبِطوا بعد أن كرسوا الأسابيع الثلاثة بين الرابع والعشرين من تشرين الثاني، والسابع عشر من كانون الأول، وهذه أسماء الشهور في أنطاكية، لشرب الخمر، وتغيير الأزياء والرقص وغير ذلك مما يُشاع في عهد الوثنيين احتفاء بعيد إله قديم يُسمى باخوس. وما إن استقر هؤلاء بباحة الكنيسة حتى سارع إليهم الآباء والرهبان وراحوا يشاركون المؤمنين في سب هؤلاء الرعاع، ويوسعونهم ضربًا وركلًا، حتى أصاب أكثرهم الإعياء وسقطوا على الأرض موشكين على التلف، ثم سرعان ما ساقوهم إلى حبس الكنيسة لحين عقد محاكمة لهم، بسبب مخالفاتهم لما منعه الباباوات من قبل، وخصوصًا أن هؤلاء كانوا يقيمون الميمونة أيضًا؛ وهي ضرب من احتفالات الربيع، وكانوا يُبقون النيران في أول الشهر القمري، ويتبادلون الألبسة بين النساء والرجال لمناسبة عيد القطاف، وكله من الممنوعات المُشرعة كنسيًّا.

بعد انفضاض ذلك وخلودي إلى نفسي بالليل إثر انتهاء خدمتي، هاجت بداخلي ذكرى العزيز ثاونا، فرحت أستعيد صورته وهو يسلك مع الناس، ويدفعهم دفعًا عطوفًا هينًا لينًا للوصول إلى نبع الإيمان، لم يكُ يعنفهم أو ينهرهم قط، ولم أره يومًا مؤذيًا لأي علماني جاهل، لم يقف على حقيقة الديانة من قبل، وكان صبورًا، مثابرًا في الرد على سؤالات هؤلاء، مهما كانت ساذجة سخيفة، تشوبها فجاجة في كثير من الأحيان. وجدتني فجأة أحادث روحي، بينما أتطلع إلى سماء غاضبة ملبدة بغيوم ليلية سوداء، عبر كوت قلايتي الضيقة، كان حنيني لبر مصر وسمائها الصافية المرصعة بالنجمات قد وصل إلى مداه، فسحت دموعي وأنا أردد كلامًا منظومًا حفظته عن ظهر قلب من بنيامين الصوري، الذي ما فتئ يُغنيه بينما كنا عند الوقايد في جوف الحراقة، فرُحت أقول:

صبرًا لدهر نال منك

فهكذا مضت الدهور

فرحٌ وحزن بعده

لا الحزن دامَ ولا السرور

كنت منقبضًا جدًّا بسبب مشاهد العذاب التي وقعت عليها عيني خلال اليوم المنصرم، فتهيجت مشاعري، وقد تذكرت ما رأيته من آلام عند خروجنا من الأراضي البشمورية ببر مصر: الجثث المُلقاة في كل مكان بعد القتال ولا تجد مَن يدفنها، الجرحى والمتحرقون الصارخون بآلامهم وأوجاعهم ومنهم مَن ينادي طالبًا شربة ماء، فلا يعثر على مَن يسمع نداءه، النساء والأطفال وهم يسيرون بصعوبة ومشقة دون أن يتعطف عليهم أي إنسان يشعر بما هم فيه من عذابات، ثم ما جرى لآمونة وسويلا، واختفاء ثاونا الذي يأكل روحي السؤال عن مصيره، ثم ضياعي في هذه البلاد الغريبة التي ما كنت أظن يومًا أن قدمي ستطؤها قط، وأخيرًا كنيسة أنطاكية التي بدت روحها غريبة بالنسبة إليَّ - عن روح كنيستنا بعض الشيء، ولم أعتد طقوسها، ونظام الخدمة فيها يختلف عن نظام الخدمة في كنيستنا المصرية، فعندما كانوا يجرون سرَّ المعمودية، كان الموعوظون يأتون إلى البيعة لابسين ملابس بيضاء، ويقصدون حوض ماء يغمرهم فيغطسون فيه ثلاث دفعات على اسم أبي الأنوار وابنه والروح القدس، بعد أن يكونوا قد جدّدوا اعترافهم بالإيمان، وأقروا بأنْ لا صلة لهم بعبادة الأوثان والشياطين التي كانوا يعبدونها، أما بالنسبة إلى عديمي النطق؛ أي الأطفال، فكان يتكفل بتربيتهم وتهذيبهم، بحسب مبادئ الإنجيل، أشخاص فُضلاء يدعون أشابين؛ أي وكلاء، وهؤلاء عند المعمودية يقومون مقام الأطفال بالاعتراف بالمسيح والكفر بالشيطان.

مرت أيام كان خلالها يُجرى التجهيز لطقس اعتراف الذين جرى سجنهم بعد أن عُذبوا حتى أعلنوا توبتهم وندامتهم، وهكذا جيء بهؤلاء إلى ساحة الكنيسة في الصباح، وبدوا في حالة يُرثى لها من الضعف والهزال، وجرى تقسيمهم إلى أربعة صفوف: صف الباكين، وقد وقف عند مدخل الكنيسة حتى يتضرعوا إلى المؤمنين الداخلين إليها ليُصلوا عنهم، وصف السامعين، وكان هؤلاء مسموحًا لهم بدخول الكنيسة، وقد ثبت أن خطاياهم كانت أقل من خطايا الأولين، على أساس أن يكونوا في موضع مخصوص لسماع تلاوة الفصول المقدسة والصلاة، ثم صف الراكعين، وكان يتوجب عليهم الإقامة مدة الصلاة ركوعًا، ويلي ذلك صف المشتركين المسموح لهم أن يقفوا داخل الهيكل ويشاركوا المؤمنين في الصلاة، لكن بدون مناولة الأسرار المقدسة، وقد علمت من الأب توما بعد ذلك، لما سألته، أن هؤلاء كانوا قد أعلنوا أنهم سيدفعون جعالات ذهبية إلى الكنيسة في حالة تخفيف الأمر عليهم، كما علمت أن هؤلاء جميعًا، وقبل الإتيان بهم وتقسيمهم إلى صفوف، كانوا قد أجروا فعل الندامة أمام عدد من الكهنة، على أن يقدموا فيما بعد شهادة على تقديس ونزاهة سيرتهم، تقدم من مُعتبرين إلى الكنيسة.

وعلى رغم تعجبي من كل ذلك، وعدم ابتلاعي الكثير مما يجري في بيعة القسيان، إلا أنني لم أكن أحسب أن ما رأيته، لم يكن إلا قليلًا من كثير سوف أعيش حتى تراه عيني وتستشعره نفسي.

ففي إحدى الليالي الربيعية وبعد قدومي إلى البيعة بحوالي سنة وكسر، حدث بعد أن تكاثرت الأمطار أكثر أيام الشهر، وكان نيسان بلغة السريان، واستمرت في تواصلها، زخمت السماء ببرق ورعد أكثر مما أُلف وعُهد، وسمعت عنها أصوات كثيرة مهولة أزعجت النفوس، ثم وقعت في الحال صاعقة على صدفة مخبأة في مذبح البيعة، ففلقت من وجه النصرانية قطعة تشاكل ما نُحت بالفأس والحديد الذي تُنحت به الحجارة، وسقط صليب حديد كان منصوبًا من علو على هذه الصدفة وبقي في المكان الذي سقط فيه، وانقطع من الصدفة قطعة يسيرة، ونزلت الصاعقة من منفذ في الصدفة، تنزل منه إلى المذبح سلسلة فضية غليظة يعلق فيها الثيموطلون، وسعة هذا المنفذ إصبعان، فتقطعت السلسلة قِطعًا كثيرة وانسبك بعضها، ووجد ما انسبك منها مُلقى على وجه الأرض، وسقط تاج فضّة كان معلقًا بين يدي مائدة المذبح، وكنا قد هرعنا جميعًا إلى موضع الخدمة بالكنيسة محاولين إنقاذ ما يمكن من أدوات الخدمة، فكان مما وجدناه أن الكراسي الثلاثة الخشبية المربعة في غربيها، والموضوعة على علو قد سقطت عنها، وقلعت صلبانها الفضية الكبار المطعومة بالذهب والتي كانت منصوبة عليها، بينما انكسر الكرسيان الطرفيان تشظيًا، وتطايرت الشظايا إلى داخل المذبح وإلى خارجه من غير أن يظهر فيها أثر حريق كما ظهر في السلسلة، ولم ينل الكرسي الوسطاني ولا الصليب الذي عليه شيء، وكان على كل واحد من الأعمدة الأربعة الرخام التي تحمل القبة الفضة التي تغطي مائدة المذبوح ثوب ديباج ملفوفًا على كل عمود، فتقطع كل واحد منها قِطعًا كبارًا وصغارًا، وكانت هذه القِطع بمنزلة ما قد عفن وتهرأ ولا يشبه ما قد لامسته نار ولا ما احترق، ولم يلحق المائدة، ولا شيئًا من هذه الملابس التي عليها، ضرر ولا بان فيها أثر.

غير أن من المصائب التي جرت، انقطاع بعض الرخام الذي بين مائدة المذبح مع ما تحته من الكلس، والنورة كقطع الفأس، وكان من جملته لوح رخام كبير طفر من موضعه فتكسّر إلى علو تربيع القبة الفضية التي تغطي المائدة وبقيت هناك على حالها، وتطافرت بقية الرخام إلى ما قرب من المواضع، وكان الأب توما أثناء ذلك حاملًا فراخ قناديل زجاج، محاولًا إنقاذه والهرب به بعيدًا عن موضع التكسير، لكن شظية من الرخام خبطت القنديل فتكسر لتمسك النار بقميص نومه المصنوع من الخزّ الخفيف اللين، فتحول في لحظات إلى ثوب من لهب، فما إن رأيت ذلك، وكنت وقتها مشغولًا بإنقاذ منجلية قديمة مصنوعة من خشب الأبنوس ومُطعمة بالفضة والعاج، حتى تركت ما بيدي وجريت ناحتيه، وكذا فعل كل مَن كان بهذا الموضع من أهل البيعة، ورأى النيران تمسك به، ورُحنا جميعًا نحاول إطفاءه، فرمينا عليه زربية صوف مما يُفرش في أرض الكنيسة لمنع الهواء، وكذا طيلسانًا مبلولًا، ثم حملناه سريعًا إلى فناء البيعة ووضعناه تحت سيل المطر المنهمر، إلا أنه سرعان ما وافانا بعض من عبيده بسطل مملوء بَولًا، وسارعوا بصبه عليه من أعلاه إلى أسفله بعد أن أخذناه مرة أخرى بعيدًا عن المطر، وقد دهشت لفعل النجاسة هذا كثيرًا، لكني عرفت بعدما هدأت الأمور أن ذلك مُجرّب ومفيد جدًّا في علاج الحريق.

بقي الأب توما عدة أيام يصارع الموت، فقد تحرق معظم جلده ولحمه ورأسه، وغارت النار إلى بعض أحشائه، سملت عيناه، وكان آباء البيعة المشهور عنهم الحكمة والتطبيب، قد بذلوا كل علمهم في الحكمة والمداواة لأجل شفائه، فعالجوه بالمراهم المعمولة والعقاقير المخصوصة، أما الشمامسة والقس فقد سهروا على رأسه بالقرايات الإنجيلية والأدعية الربانية الشافية، فبدا لحين أنه يتحسن

ويبتعد عن التلف، ولكني كنت - وليسامحني الرب - غير مطمئن إلى ما سوف تكون عليه حاله، فما أحد منهم صنع حجابًا أو قرأ مقروءًا يفيد حالته، فلما تسلسل في المرض أشرت عليهم بكل تواضع وأدب أن نفعل له ما فعلناه يومًا ببر مصر مع المحروقين في المعادي وقت ريح الحسومات، فقد أشعلت الريح هذي؛ وكانت شديدة متربة أكثر من عادتها كل عام، النيران بأكواخ بعض من أصحاب المعادي على النيل، فتحرَّق بسبب ذلك كثير من الناس، فذهبت مع ثاونا وآخرين من البيعة في قصر الشمع إليهم، وكان ثاونا يعالجهم بعصارة العمت الأسود وبعر المعز المحروق المختمر جيدًا ولبخة الخرنوب، مع عزيمة تُقرأ على موضع الحرق، وكنت أحفظها عن ظهر قلب لكثرة ترديدي لها، وهي:

«حوريس يا ابن الشمس، النار في البلد، فإن كان هناك ماء أو لم يكن، فالماء في فمك والنيل في أرجلك متى جئت لإطفاء النار».

وكانت هذه العزيمة تُقرأ أيضًا على لبن امرأة ولدت غلامًا وعلى رغيف خبز وعلى صوف كبش، ومجتمع ذلك يوضع على الحرق كلبخة فيفيد للغاية. غير أن الجميع هنا في كنيسة أنطاكية رفضوا ذلك كله، بل ظهر مَن سخر من ذلك، فتأسفت أشد الأسف لعدم تقديرهم لما هو مجرّب، ومتّبع منذ أقدم الدهور، ولعدم تصديقهم إياي في ذلك، ثم إن الأب توما تسلسل في المرض ودخل شيئًا فشيئًا في زمن الغياب وحيز الضياع والتلف. وقد أعقب ذلك بوقت قصير حدوث زلزلة مكثت مقدار ساعة وسُمع صوت هائل من السماء، ووقعت بنايات كان قد بناها الملك يوستينوس ومات تحت الردم خلق كثير قيل إن عددهم أربعة آلاف وثمانمائة وسبعون رجلًا، وكل مَن تبقوا من ذلك الرجز بالمدينة هربوا ومضوا إلى أماكن أخرى، وغرقت مراكب بالبحر بسبب المد، ونفقت بهائم، وفسد مد القمح المخصص، والذي كان يرسل لها كل عام من ملك الروم، ويبلغ ستة وثلاثين ألف مد، وحدث في أعقاب ذلك أن كثرت الفئران بالمدينة، وخصوصًا ذلك النوع العظيم كالودل الذي لم أره في أي بقعة غير أنطاكية، وأُتلف كثير مما تبقى من الزرع بعد الزلزلة، وقد خافت الناس وتضرعت إلى الله ألا يبلو المدينة بطاعون من الطواعين التي تتلازم مع كل ذلك.

* * * *

ألحقوني بعد وفاة الأب توما مباشرة بخدمة الأب ميخائيل، وكنت قد تعّرفت عليه لمامًا قبل ذلك، فقد كنت أرى ذلك الشيخ ذا العينين المحولتين دومًا، والندبة الغائرة في جبينه يتودد إليَّ كلما، رأيته عابرًا بدهاليز البيعة أو ماضيًا بساحتها لأمر من الأمور، فيبتسم ويحييني وهو يرسم علامة الصليب مباركًا لي، وفي ذات مرة استوقفني قائلًا:

- هل جئت ساعة إلى قلايتي لتقرأه بعد انتهاء خدمتك؟ لديَّ رقّ قبطي قديم.

فرِحت جدًّا لأنني وجدت شيئًا يُذكرني بوطني، هنا في أنطاكية، فقلت متلهفًا دون أن أكتم مشاعري:

سمعًا وطاعة يا سيدي. سآتي إليك بعد الغروب عندما أفرغ من مطالب الأب توما، ويأذن لي - بالانصراف إلى موضع سكني.

ابتسم ابتسامة لن أنساها ما حييت وراح يتأملني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي بتفحص وسرور، ثم أردف:

- تعالَ. ولسوف أدعوك إلى أكلة حلاوة حمراء ربما لم تذُق مثلها من قبل.

لا أعرف، لماذا داخلني شيء من عدم الراحة آنذاك، على رغم شوقي لأكل حلاوة سد الحنك التي يطلقون عليها هنا في أنطاكية حلاوة حمراء، ورُحت أتذكر كيف كانت تعدها أمي لنا في المساء ليلة عيد الغطاس، وكيف كنا نتحلق حولها أنا وإخوتي بينما هي تحمّر الدقيق في لية الخروف، وتضيف إليه شيئًا فشيئًا شرابَ السكر حتى يحمرَّ ويتحرَّق وتتصاعد رائحته شهية مُحببة إلى أنوفنا، فنأكله ساخنًا حارًّا في عز برد طوبة العنيف. كانت نظرات الأب ميخائيل هي التي أحرقت شيئًا ما بداخلي، خلال تلك اللحظات التي استوقفني فيها، فمضيت بإحساس الملسوع مُسرعًا إلى قلاية الأب توما، أخطف خطواتي خطفًا، عابرًا فناء البيعة، فلما أدركته وحكيت له ما كان من أمري مع الأب ميخائيل، ورُحت أستأذنه في الذهاب إليه بعد انتهائي من خدمته. حدجني بنظرة طويلة باردة متسائلة، وكأنه يبطن شيئًا بداخله، ثم قال بامتعاض لم أعهده فيه من قبل:

- ستكون مشغولًا معي بعد الغروب؛ لأن الهيئة الكنسية ستجتمع كلها استعدادًا لمحاكمات سوف تُعقد في الغد.

ثم قال بإصرار:

- إياك أن تتخلف عن هذا!

كان الأب ميخائيل، قبل انتقالي إلى خدمته، يبدو لي إنسانًا هادئًا وديعًا، على رغم عدم ارتياحي له، لكني عندما اقتربت منه وعايشته، تكشف لي عن كائن غامض غريب الأطوار، وشيئًا فشيئًا أيقنت أنه شيطان فاسد الخلق بحق، فلقد كان يدهن وجهه وراحتَيْه كل مساء، وقبل أن يخلد إلى النوم، بمعجون من الزبد والعسل، كما كان يتعطّر بزيوت فواحة كالتي تتدلك بها النساء، ثم إنه كان يبيت بقمصان بلا أكمام في العادة وذلك خلال الليالي الحارة، وفي أحد الأيام صرفني مبكرًا وظل بصحبة أحد الفِتية الحمّالين الذين يجلبون الأخشاب من الغابات الواقعة بالجنوب الغربي من المدينة، وبعد قليل من التحاقي بالخدمة، بدأت ألاحظ أن كثيرًا من الشمامسة والرهبان يتجنبونه ولا يصطفون بجواره أثناء الصلاة، أو يجلسون ناحيته أثناء العشاء. وفي إحدى المرات، جرت محاكمة مجموعة من الناس لجئوا إلى السحرة والمشعوذين، وكذلك رجل كان يعرض الدببة وغيرها من الحيوانات ويبيع صوفها تعاويذ وأحرازًا، وطالت المحاكمة لكثرة المخالفين، إذ كان هناك رجل تغيّب عن الاشتراك في صلوات الآحاد ثلاث مرات متتالية، على الرغم من أنه علماني وليس من أهل الكنيسة، وكذا امرأتان كانتا قد ثرثرتا وبقبقتا في أثناء صلاة عيد القيامة، وجماعة من تجار العطور

أتلفوا الكتب المقدسة وباعوها ليصنعوا منها أبواقًا، فلما تأجلت المحاكمة إلى صبيحة اليوم التالي بسبب دخول المساء، جيء عند موعدها بامرأة ورجل، وكانت المرأة صَبية في قمة الجمال، وقد أُدينت مع الرجل لأنهما يتعاشران معاشرة الأزواج، ويتخذان من صناعة الصور الفاسقة مَعاشًا لهما، بعد أن يرسماها ويُروجاها. وقد أُدينت المرأة أيضًا، لأنها كانت تتفنن في ترتيب شعر رأسها للفت النظر والإغواء، فلما صدر عليها الحكم، وهذا ما لم أكن قد شاهدته من قبل - أي أن يُحكم على إنسان لمثل هذه الأمور - لاحظت أن الأب ميخائيل ظل ساكنًا واجمًا، وكذا طوال فترة المحاكمة على عكس جميع مَن كان حاضرًا من الهيئة الكنسية، فقد صار لغط كثير وتزاعق بسبب أن المرأة والرجل رفضا التوبة والندامة والاعتراف بخطيئتهما، بل وسبَّا الكنيسة وقالا إنها تُحرم ما أحله الله، وإن الرب قد خلق النساء والرجال ليتمتعوا بالحياة ويرفلوا من لذائذها، وإنه لو لم يُرد أن تتمتع النساء بالرجال، والرجال بالنساء، لكان قد خلق الناس أجمعين من نوع واحد فقط، وكلامًا آخر من هذا النوع مليئًا بالهرطقة والكفر مما يشيب له الوِلْدان، فلم يتمالك الجميع أنفسهم، ثم إن هذين الشيطانَيْن أنكرا صعود السيد السماوي، وقالا إن البتول ما كانت بتولا، وإنها ولدت سفاحًا من يوسف النجار، فلم يحتمل بعض الآباء عند ذلك الحد وراحوا ينتفون لِحاهم غيظًا وغضبًا، بينما أخذوا يلطمون ويُولولون كالنساء، وأوشكت جماعة من المؤمنين الحاضرين على الانقضاض على الرجل والمرأة للفتك بهما، لكن الحراس حالوا دون ذلك، كل هذا والأب ميخائيل واجم صامت، وكأن الأمر لا يخصه أو يعنيه.

كان القلق قد أخذ يتزايد بداخلي كلما مضت أيامي في خدمة الأب ميخائيل، إذ كان يُصر على أن أقوم بتكبيسه وتدليكه كل ليلة قبل أن ينام، متذرعًا بوجود آلام بلحمه وعظامه تتزايد أثناء الليل، ولا تزول عنه إلا بالتكبيس، وعلى الرغم من كراهيتي لهذا العمل إلا أنني كنت أقوم به ولو على مضض، بسبب دأبي على طاعة الآباء وعدم عصيانهم، وذات ليلة، وجدت الأب ميخائيل يلاطفني بالقول، ثم يدعوني إلى شراب كأس من عرق العنب مما اعتاد شربه كل ليلة قبل النوم، فلما تمنعت، قال لي إنه ما فعل ذلك إلا بعد أن لاحظ كوني مهمومًا يائسًا، وكان على حق في ذلك، فقد كنت خلال ذلك اليوم متعكّر النفس، حزينًا، وقد هاجت عليّ الهموم وصعبت عليّ حالي، فلما قال ذلك خجلت، وأخذت منه الكأس تأدبًا، ورُحت أرتشف منه شيئًا فشيئًا، بينما هو يسكب من البطحة الموضوعة أمامه ويعبّ من كأسه عبًّا، ثم إنه شرب حتى بدا ثملًا، وتحامل حتى صعد سريره طالبًا مني تدليكه. وهكذا رُحت أدلكه بصعوبة، إذ كنت خدرًا ضعفانًا بسبب الكأس التي شربتها، وبينما أنا أفعل وجدته يبالغ في التأوه وافتعال التألم، ثم استدار راقدًا على ظهره وطلب مني أن أدلك وركيه وقد كشف عن عورته وموضع العفة في جسده، فلما تمنعت وقد ألجمني مطلبه، وجدته يقبض على يدي بكلتا يديه ويدفعني دفعًا إلى ملامسته وفِعْل ما لا أرغب في فعله، فلما بلغ هذا الحد، دفعته بعيدًا عني وجريت هابطًا من قلايته بالبرج إلى موضعي لأفرغ ما في جوفي، إذ كان رأسي يدور، وأمعائي تثور، وحالة مريعة من الغثيان تتملكني.

لم يغمض لي جفن في كنيسة القسيان بعد تلك الليلة؛ إذ أخذت أسترجع كل ما يُقال عن الأب ميخائيل في البيعة، وما كان من أمره منذ مبتدأ اشتغالي بخدمته، فلقد كنت ألاحظ أن البعض ينظر إليّ بإشفاق دونما سبب أفهمه، كلما قلت إنني صرت في خدمة هذا الرجل. وفي إحدى المرات همس لي

قيّم شاب ونحن نخدم في تعميد جماعة من الأطفال، وكنت قد تعرفت عليه، أن أنتبه من الأب ميخائيل، فلما استحلفته، وكنت قد شعرت بالقلق لغموض عبارته، أن يقول لي معناها، أخبرني وهو في حالة من الوجل الشديد أن معظم الذين خدموا مع هذا الأب انتهوا نهايات غامضة وبدون سبب مفهوم، فمنهم مَن اختفى ولم يقف أحد على مصيره، ومنهم مَن مات فجأة، وأن سِيرة الرجل هنا في البيعة يشوبها كثير من السوء، وإن كان أحد لا يستطيع إمساك ممسك عليه لشدة لُؤمه وخبثه واحتياطه. ثم إني تذكرت ما كان من أمر رحلتي معه عندما سافرنا إلى القسطنطينية، فقد ذهبت في تبعيته مأمورًا إلى القسطنطينية ضمن مجموعة من الآباء الآخرين، ولم أكن قد حضرت مجامع من قبل، ولم أسمع بمثل ذلك أبدًا في كنيستنا ببر مصر. ولكن السبب في ذلك الانعقاد الكنسي الخطير، كما قالوا، هو أن شِقاقًا قد ذر قرنه بين الأرثوذكسيين وأصحاب الطبيعة الواحدة، وهبَّ البولسيون والمانويون يشاغبون، فظلت المناقشات تحتدم، حتى أُقِرت قوانين تحرّم تحويل المساكن إلى أديرة بدون موافقة الأساقفة، وتوجب على كل راغب في الزهد والتقوى أن يتخلص من ممتلكاته قبل دخوله في الرهبنة، ومنع منعًا باتًّا أن يقوم بطرك من طبقة العوام أو الرهبان ما لم يتمرس في درجات الكهنوت درجة درجة ويتمم المدة القانونية فيها. فلما كان المجمع يناقش مسألة الأيقونات، وكان وقتها منعقدًا في كنيسة الحكمة الإلهية، تجمع خلال ذلك عدد من محاربي الأيقونات خارج الكنيسة، وكانوا كثرًا، ففتحوا أبوابها عنوة بعد أن هاجموا الحراس واندفعوا إلى حيث الفوروم مُحدِثين هرجًا ومرجًا زاعقين صارخين، وحدث هرج ومرج كبيران وتم التضارب بالأيدي والركل بالأقدام، وعطّلوا الجلسات بالقوة، وكان أمرًا لم أسمع ولم أرَ مثله من قبل، فبينما نحن نتدافع إلى الداخل محاولين الاحتماء مما يحدث، إذ الأب ميخائيل يدفع بي إلى ممر مظلم يؤدي إلى منابر الوعظ والإرشاد بالكنيسة، وكان الممر طويلًا، فبقيت أركض خلفه حتى وجدتني أصل إلى باب يُفضي إلى موضع من القصر البطريركي المجاور للكنيسة، فما إن فتحه ودخلنا إلى دهليز أشد إظلامًا، بسبب أن الوقت كان قد جاوز الغروب بقليل والشمس في القسطنطينية بخيلة كما عهدتها طوال وقت إقامتنا، حتى وجدته يعتنقني ويربت على جسدي وكأنه يروم تهدئة روعي وإبعاد خوفي، لكني وجدت في تَرْبِيته مبالغة لم أستسغها، وخصوصًا بعدما أخذ في ضمّي واعتناقي، وشعرت أن فعله هذا قد تجاوز فعل مَن هو في مثل مكانته وحُرمته، وليس بهذا يكون إبعاد خوفي وتهدئة روحي وشملي بالسكينة والاطمئنان، فتملصت منه بلُطف وذوق ولم أكن أظن وقتها أنه على هذه الدرجة من الفسق والشيطنة.

كان الأب ميخائيل قد بات يعاملني بقسوة وجفاء بعد تلك الليلة في أنطاكية، فلقد راح يطالبني بمطالب لم يكن يطلبها مني من قبل؛ ففي ذات مرة طلب مني الذهاب إلى الشمال الغربي للمدينة، حيث منطقة المستنقعات، لجلب بوصات يَبريها ويستخدمها في التدوين والكتابة، وكانت هذه المنطقة من المناطق غير المأهولة بالمدينة، وتكثر بها دويبات وحشية مؤذية، والذهاب إليها مشقة كما هو معروف للجميع، ولولا ستر الرب وإلمامي بطبيعتها، بسبب تشاكل طبيعتها مع طبيعة مناطقنا البشمورية، لكنت قد هلكت فيها لا محالة.

وفي مرة أخرى، طلب مني إحضار أعشاب برية ليتطبب بها من عند المقبرة الواقعة شمال باب الدوق وخارج سور المدينة، وهي برّية موحشة تكثر بها العقارب وهوام لاسعة من العناكب السامة

وخلافها، كادت إحداها أن تفتك بي، بعدما تشبثت بجِلد قفاي، ولولا شعوري وحساسيتي السريعة بها، لكانت صبَّت سُمها في دمي وتلفتُ لا محالة.

وهكذا، بتُّ أستشعر الخطر من ذلك الشيطان، وقد أيقنت أنه يريد التخلص مني بأسرع ما يكون، لظنه أنني سوف أفشي سِره وأفضحه كلوطيّ مرذول بين أهل البيعة.

لكن حتى ذلك كله، لم يكن دافعًا لإقدامي على ما أقدمت عليه بعد ذلك؛ إذ إن الأب ميخائيل بدأ يضعني في ورطة بدا لي أنه لن يخرجني منها إلا الموت، فلقد خشيت أن يرميني بما يرمي به أولئك الذين لا رجاء في حياتهم ولا نفع في صلاحهم إلا بالنار المطهرة! ففي أحد الأيام، وبعد أن انتهيت من خدمته بعد الغروب، قال لي بلهجة آمرة:

- بعد انتصاف الليل، وعندما تهدأ البيعة وينام كل من فيها، ستخرج بهدوء ماضيًا في المدينة، حتى تصل باب القديس جاورجيوس، وهناك سيقابلك شخص، ستعطيه هذا، ثم تعود كما ذهبت بهدوء. لن تقول له أكثر من القرنفلة السوداء تهديك السلام، فإن أعطاك شيئًا فعُد به، وإياك أن تلمسه أو تحاول معرفة ما فيه.

تملكني الرعب، وأنا أمد يدي لآخذ منه رقًا ملفوفًا وموصومًا بختم، وهو يطالعني بنظرات باردة مُتوعدة، تنبئني بمغبّة المصير إن أنا خالفته. لم أكن أعرف مسالك المدينة جيدًا، فأنا أمضي جُل وقتي بين جدران البيعة، ولم يكن مسموحًا لي بالتجول خارجها، أو الخروج منها لأمر من الأمور، وقد ذهبت مرة أو مرتين إلى موضع باب القديس جاورجيوس، أثناء حياة الأب المرحوم توما، فلقد ذهبنا إلى هناك، ليبارك الأب امرأة وضعت أربعة توائم ذكورًا ماتوا بعد قليل، ومرة أخرى للإتيان بمجموعة من الناس، قال الأب توما إنهم خالفوا جانبًا من «المائة قانون وقانونَيْن»، التي شُرّعت في مجمع سنة ٦٩٢، وكانوا يُربون الماشية ويشربون الخمر ويتناولون الطعام بداخل كنيسة موجودة هناك. رُحت أفكر في ذلك كله، وقد خِفت أن أتوه أو أضلّ طريقي في العودة، حتى إذا نجحت ووفقت في الذهاب إلى الموضع الذي يريد في دامس الليل وبهيمه، كما خشيت أن يلتقيني لص من اللصوص أو قُطاع الطرق، فقلت له راجيًا:

- لكني يا سيدي لا أعرف كيف أصل إلى باب القديس جاورجيوس، ولا أعرف مَن هو الشخص المعني برسالة غبطتكم على وجه التحديد.

شعرت أنه على وشك افتراسي وهو يردّ بسرعة، دون التريث حتى أستكمل كلماتي:

- ستخرج من الباب الجنوبي للبيعة، ومن هناك ستسلك طريقًا واحدًا عليك السير فيه حتى تصل إلى باب جاورجيوس، وقبل وصولك سوف تكون هناك علامة لن تجعلك تضل أبدًا وهي البيمارستان، فعندما يصادفك، لا تترك السير حذاءه. عند باب جاورجيوس ستلقى هناك أبًا جليلًا، سوف يُقرئك السلام بلسان عربي، رُد تحيته، وهاتِ ما سوف يعطيه لك إذا ما أمرك بأخذ شيء.

قلت محاولًا إيجاد عقبة تحول بيني وبين الذهاب.

- والباب يا سيدي؟!

صرخ بصوته المحشرج المخنوق:

- ستجد مَن يفتحه لك أيها الغبي.

ثم إنه تردد قليلًا قبل أن يقوم وهو يبتسم بخبث:

- لو حدث وصادفك شخص عند ذهابك أو مجيئك، فقل له إنك كنت عند بنت يحنا.

أسقط في يدي، وكِدت أصعق، كيف يمكنني قول هذا، لو حدث وصادفت إنسانًا في طريقي، فبنت يحنا هذه مغنية معروفة بالمدينة تحن إلى القرباء، وتضيف الغرباء، وكان إذا أراد أحدهم في البيعة أن ينتقص من شأن الآخر أو يزدريه، يقول له: ليت لي بنتًا تُغنيني عنك، حتى ولو كانت بنت يحنا.

خرجت متسللًا من البيعة بعد انتصاف الليل، وقد هالني أنني وجدت الباب مواربًا بالفعل دون أن يكون عنده أي إنسان، ثم إنني أخذت أسير متسارع الخُطى، وقد تملكني الخوف العظيم، بينما كانت رءوس الجبال تتراءى لي عن بُعد وكأنها خلق شياطين مخيفة تطل عليّ من عليائها على ضوء قمر شاحب تواريه غيوم قاتمة بين الحين والحين، ثم وجدت نفسي أسير إلى جوار سور البيمارستان، كما قال لي الأب ميخائيل، فشعرت بارتياب ورُحت أترحم على الأب توما الذي كان يُدخل المرضى إلى ذلك المشفى بنفسه، ويُدخل المجذومين حمّامه ويغسل شعورهم بيده مرة كل سنة، يعينه على ذلك الشمامسة والقيمون في البيعة. ثم إني وصلت بعد حين إلى باب القديس جاورجيوس، وهو أحد أبواب المدينة، وقد بدا لي في هذه اللحظات وكأنه قريب جدًّا من البحر، إذ كانت رائحة النسيم البحري تتسلل إلى أنفي بينما تلاطم الأمواج العنيف يُبدد كل صمت، فما إن اقتربت من الباب وقد بلغ الخوف مبلغًا عظيمًا من نفسي، حتى وجدت رجلًا واقفًا، تبينت في ضوء القمر الشحيح ملابسه الكهنوتية، فما إن رآني حتى تقدم مني، فقلت له بصوت مرتعد مُتعجل: القرنفلة السوداء تهديك السلام يا سيدي. فرد عليَّ بصوت جاف، خلت أنني سمعته من قبل: وأنا أرد عليه سلامه كذلك. ثم مضى، وقد سلمني كيسًا من المخمل دسسته في ثيابي ومضيت، بينما وَقْع خطواته المنتظمة القوية يضرب الأرض وكأنه فارس من الفرسان.

رُحت أكرر صدى الصوت في أذني، كانت عربيته غريبة، وخُيل إليَّ أنه قال: أرت، بدلًا من أرد، ظللت أهجس بذلك، وقد أكلني فضول المعرفة: مَن يكون ذلك الرجل؟ أخرجت الكيس من ثيابي وتحسسته، فبدا لي وكأن بداخله رقًّا ملفوفًا، توجست أكثر وأنا أتساءل عما يكون قد كُتب عليه. بينما كنت على وشك الاقتراب من باب البيعة، تذكرت فجأة مَن يمكن أن يكون صاحب الصوت، وقفت متسمرًا لحظات، وقد ألجمتني المفاجأة، وشعرت بخطورة الأمر في صدق حدسي!

قبل الأب توما بقليل جاء إلى البيعة أب رومي قابله عدد من آباء البيعة، ومنهم الأب ميخائيل، وقد كنت أُحضِرت وقت هذه المقابلة، أصُبّ شراب الخوخ للضيف الذي كان يتكلم العربية بلكنة غريبة، وقد قال كلامًا كثيرًا عن الساراسينيين، وكان الأب توما يجادله رادًّا عليه، وهو على حال شديدة من الغضب والرفض لما يقول، فلما انفض اللقاء، وبقيت بعد ذلك في المساء مع الأب توما، سألته عن معنى الكلمة، وكنت أسمعها لأول مرة، فقال إنه يقصد الإسماعيليين أو المسلمين أبناء إسماعيل وهاجر، المنحدرين عن النبي إبراهيم، وقال إن الرجل هو مبعوث البابا الرومي أربانوس الثاني، وقد جاء بعد انعقاد مجمع في مدينة ببلاد الغال تسمى كليرمونت، بهدف حث أبناء يسوع في بيعة القسيان على معاونة الكنيسة الرومية والعسكر الرومي المساند لها في تخليص الأماكن المقدسة من أيدي هؤلاء الساراسينيين.

إذن، هو ذا ميخائيل يراسل هؤلاء مرة أخرى. يا الله. هتفت لنفسي وأنا أكاد لا أصدق بينما خُطاي تتباطأ وأنا أهم بالاقتراب من باب البيعة، وقد زايلني كل خوف من الطريق ومخاطره، وبدأ يُداخلني خوف من نوع آخر.

لقد قال الأب المرحوم توما، وقتها: إن ما يقوله ذلك الرجل، ما هو إلا كلمة حق يُراد بها باطل، فهؤلاء الروم لا يبغون إلا مصالحهم، ولا يعنيهم في شيء الأماكن المسيحية المقدسة. وإنه؛ أي الأب توما، رد عليه قائلًا: إن هذه الأماكن الطاهرة هي آمنة في أيدي المسلمين، وإن المسيحيين جميعًا يحجون إليها دون أي عقبات، ثم إن المسلمين هم عرب كسائر السريان، وإن اختلفت مِلّتهم، وإن المسامحة ظلت ديدنهم منذ أن تولوا أمور البلاد.

أيقنت أنني هالك لا محالة ما دُمت مع الأب ميخائيل، فهذا الرجل في حياتي فناؤه، وفي فنائي حياته؛ لذلك بقيت بعد عودتي إلى البيعة ساهرًا لا يغمض لي جفن، أقلب الأمر على كل الوجوه، وقد شعرت أنني كلما خرجت من نقرة، وقعت في حفرة، فكنت أخاف أن أفضي لأي مخلوق، بما في داخلي، حتى لا ينقلب الأمر ضدي، وأنا هنا لا آمن أحدًا بعد وفاة الأب توما الذي كان يحنو عليَّ ويعزيني كثيرًا، لكن فجأة، هداني الله إلى أن أبوح بأمري للشمّاسة رصفة.

كان السماح للنساء بالشمسنة من أكثر الأمور التي استرعت انتباهي في كنيسة أنطاكية، وقد علمت أن ذلك من المعهود في هذه الكنيسة، منذ قرونها الأولى، ووفقًا لرسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس، إذ قال: «لا تُكتب في عدد الأرامل إلا التي لها ستون سنة على الأقل ولم تتزوج إلا مرة واحدة، ويُشهد لها بالأعمال الصالحة بأن تكون قد أحسنت تربية أولادها، وأضافت الغرباء، وغسلت أقدام القديسين، وأمدت المتضايقين، وسعت في كل عمل صالح». وكانت رصفة ضمن هاتيك الشمّاسات المنوط بهن معاونة الكهنة في تعميد النساء وتعليم الموعوظات، ومراقبة النساء المؤمنات في الغونايكيون، وهو مدّ النساء أثناء القدّاس الإلهي، وكذا تفقد المرضى والمصابين. وكانت رصفة، كما قالت لي مرة، ضمن الذين شملهن قانون يوستنيانوس، فرحمها الربّ وقُبلت كشماسة وهي تحت الخمسين، بعد التزامها، كما نصّ القانون، بالمحافظة على الآداب والوقار، وهي المرأة المكلومة الثكلى، بسبب فقدها أربعة من أبنائها دفعة واحدة بعد أن خرجوا إلى البحر للصيد والرزق،

فابتلعت المياه قاربهم ولفظهم الموج جثة إثر جثة، وكانت رصفة تحنو عليّ كثيرًا وكأني ولد لها، وذلك بعد أن أنقذتها يوم التعبد لتذكار القديسة بربارة السنوي في الرابع من شهر كانون الأول، وكان يوم سرور وفرح والناس في غاية الغبطة والحبور، وقد ارتدوا أفخر الحُلل والثياب، وكثر منهم مَن يعلو على المهارِي والبغلات، ثم كان أن توجهت الجموع مع الوالي والبطرك ورؤساء الدولة إلى هيكل القديسة كَما جرت العادة، وكنت أسير مع الهيئة الكنسية خلف الشمّاسات، وفجأة اندفعت الناس إلى الكنيسة وراحوا يتسابقون، إذ صاح مَن صاح أن أيقونة القديسة تذرف الدموع من عينيها، فجرى الجميع محاولًا مشاهدة المعجزة والتيقن منها والتبرك بها، وكل منهم يسعى إلى الوصول قبل غيره، فسقطت جماعة من الناس وكانت منهم الشمّاسة رصفة، فلما شاهدت ذلك رفعتها بسرعة، وحُلت بينها وبين أقدام الناس المتدافعة، والتي كان من الممكن أن تطأها وتدهسها.

ومنذ ذلك اليوم انعقدت مودتنا، وعرفت أنها طاهرة نقية مؤمنة، وكأنها قديسة بحق، وباتت تفضي إليَّ بالكثير من أحوال هذه الكنيسة، وذلك بلسان عربي بيّن، فأبوها، كما قالت لي، من قبائل يمانية الأصل تُدعى الغساسنة، أما أمها فهي من سريان أنطاكية.

وهكذا استقر أمري، ومضيت إليها طالبًا منها النصح والمشورة، عند أول فرصة واتتني في الصباح، فذهبت إليها بحجة أن ألمًا في رأسي وصداعًا أخذا يداهمانني، وأريد منها شيئًا لتسكين ذلك، وهذا ما قلته للأب ميخائيل، وحكيت لها على وجه السرعة ما جرى لي بليلة الأمس، فقالت لي هامسة، وهي تتلفت يمينًا وشمالًا:

- إياك أن تبوح لأي مخلوق بما قتله لي الآن. اسمع. نهايتك محتمة إن بقيت في هذه البيعة، فهو سيتخلص منك إن عاجِلًا أو آجِلا، لم يبقَ لك غير أمر واحد هنا!

قلت بلهفة:

- وما هو يا أمي المباركة؟ أعينيني وليرحمكِ الرب، فقد أعياني التفكير.

ثم إنها همست بما لم يكن يخطر لي على بال!

بقيت طول النهار أفكر فيما قالته لي الأم الشماسة رصفة، وأقلبه على كل وجه من الوجوه، لكني أيقنت - في النهاية - أنه لا بديل لي إلا ما قالته، وهكذا ذهبت في ظهيرة اليوم التالي إلى موضع الأب ديونيسيوس، رئيس البيعة، فلما مثلت بين يديه بعد أن ضربت مطانيا وأنا مطأطئ الرأس، استجمعت كل ما بداخلي من شجاعة، وقلت:

- أريد أن أعترف لك يا سيدي. لقد كذبت وليسامحني الرب، وقلت إنني من أهل بيعة قصر الشمع في مصر العتيقة. هذا غير صحيح يا أبي، فما أنا إلا فلاح فقير من أهل البشمور بالأراضي الموحلة.

ورُحت أشمّر عن ساعدي حتى كشفت عن وشم الأسد؛ لأدعم قولي بأني فلّاح قراري وعبد مسكين، ليصدقني الرجل ويقنع بما أقول.

استمع إليَّ الأب ديونيسيوس، بروح هادئة كمَن تعوّد على حدوث مثل هذا، راح يفكر وقتًا متفرسًا وجهي، وبعد قليل قال ببرود مشيرًا إلى قيميه:

- خذوه إلى الحبس حتى ننظر في أمره.

* * * *

كان عليّ أن أدفع ثمن كذبي ألمًا ومَرارًا في سراديب حبس أنطاكية، بعد ذلك؛ ففي حبس كنيسة القسيان هذا، لا يَشتهي المرء إلا أمرًا واحدًا هو الموت، فلقد كان محبسي ضيقًا بقدر ثلاث أذرع في ذراعين، أشبه بحجر نُحت في الصخر أسفل الأرض، وهو لا يتسع إلا لبقاء المرء جالسًا القرفصاء، يتنفس بالكاد، فإذا كان من المحظوظين المرضيّ عنهم، يُترك وحيدًا دون إنسان آخر يشاركه الهواء الذي لا يدخل إلا عبر فتحات ضيقة متباعدة، ويبقى الحُراس بعيدًا بعد إغلاق البوابة الحديدية للحبس، عند مبتدأ الطريق المؤدية إليه، والتي هي سرداب طويل مُظلم وشديد الالتواء والضيق. فلما أدخلوني إلى الموضع المتحفّظ عليَّ به، تركوا لي ماء وإدامًا من الخبز الجاف والملح المخلوط بلُب نوى المشمش المر، وقد علمت بعد ذلك أنهم يُضيفون ذلك إلى الملح درءًا لداء الزرب، ولزوم البقاء على قيد الحياة.

إن أسوأ ما مر بي خلال حياتي كلها كان حبس بيعة القسيان هذا، فهو الهول الحاضر، والعذاب القاهر، والإيذاء المريع للروح والجسد، وكنت طوال فترة حبسي أدعو الله أن يساعدني على أمر واحد هو ألا أذهل أو أجَن؛ فالجنون لا بد أن يكون مآل مَن يُحبس في هذا المكان مدة تطول، وكنت لذلك أُحادث نفسي كثيرًا، وأقرأ قراءات إيمانية متنوعة، وأستعيد مترنمًا جانبًا من الثاذوكيات الجليلة التي كنا نرددها في كنيستنا بقصر الشمع، ثم إنني بدأت ألاعب نفسي ألعابًا ابتكرتها، فأشكّل بأصابعي على الضوء الضعيف المنسكب من كوة السرداب حيوانات وطيورًا بأشكال طريفة أرى أشباحها على الحوائط الصخرية المحيطة بي، كما رُحت أستدعي مشاهد طفولتي البعيدة ومناظر بلدتي البشمورية، خصوصًا عندما تبدأ شهور الصيف الحارة فتغلب مياه الفيضان العذبة على مياه البحر المالحة فتزخر الأنهر والقنوات بالأطيار والأسماك، وسائر الكائنات الربانية من أهل هذه المياه، والمستوطنة فيها منذ القديم، فيبدو المكان وكأنه فردوس من الفراديس، ونعيم لا مثيل له في الدنيا، وقد تفتح البسنت الأبيض، وأظهر نبات البشنين العوّام زهوره البنفسجية في كل مكان، وبدا البرديّ بسيقانه الطوال وزهوره الداكنة هنا وهناك، فلا تشبع العين من نظر كل هذا، ولا تملّ الأذن كورس الأطيار وهو يُرتل مُزقزقًا، صادحًا، مشقشقًا، شاديًا بسحر الأصوات وأبدعها. كنت أغمض عينيَّ، وأطير بروحي بعيدًا عن حبس أنطاكية، وأحط بها على أرض وطني وبلدتي، فأدخل دروبها الضيقة، الحزينة، وأتشمم ثوب أمي ممسكًا به، وأنظر أبي وهو يبذر الحَب في الغيطان، وقد شمَّر ساعدَيْه عن قميصه الأبيض الكتاني، ثم أنظر إخوتي أجمعين: ماريّة الكبرى التي ارتحلت مع نوتي ملكاني إلى بلاد الجريك ذات يوم، ولم نعد نسمع عنها شيئًا بعد ذلك، حتى إن أمي كانت تندبها ندب

الأموات منذ ذلك الحين، ثم أختي الصغرى بسنت والتي كانت الأقرب إلى مُهجتي من كل إخوتي، ولا أشتاق إلى أيّ منهن مهما حييت، قدر اشتياقي لها، وهي التي كانت تصغرني بثلاثة أعوام، ولها من الجَمال والحنان ما لا يُوصف وما لا تنساه الروح، وقد انطبعت صورتها الأخيرة في مخيلتي وقت عَدم آمونة، إذ بدت كالمصعوقة، صامتة لا تنطق، وقد جحظت عيناها كحبتَيْ عنبر كبيرتَيْن، تصلدتا بالمفاجأة والأسى. هكذا كنت أبقى وقتًا طويلًا مُستعيدًا بمخيلتي كل المناظر والحياة التي كانت وعشتها، ذات يوم هناك، فأحزن حينًا، وتنتعش روحي بها حينًا، فأهفو أن تعود عجلة الزمان إلى الوراء، وتأخذني بدولابها إلى ما تبتغيه روحي وترقّ به مشاعري، وكنت أفرح حينًا آخر؛ إذ تذكرت أن الحياة بها من مَسرّات الربّ وخلقه ما يرتفع بالعبد إلى السمو والصفاء، فأشكره على ما جاد به على عبيده، وتنتعش روحي بالأمل، فأفتح عيني لأواجه جدران الحبس الحجرية أمامي دون أن أخشاها، وأجدد قراياتي الإيمانية مرة أخرى، أو أصلي صلوات الشكر والحمد، وأكثر من طلب المغفرة لكل الذين عرفتهم وماتوا، وكل الذين أحببتهم وصعدوا إلى ملكوت السماء، وكنت كثيرًا ما أردد بعضًا من المزامير الداودية، التي أحفظها عن ظهر قلب، حتى تتقوى نفسي ويثبت إيماني، ولن أنسى كم ردّدت:

إني ولو سِرت في وادي الظلمات

لا أخاف سوءًا لأنك معي

عصاك وعُكازك يسكنان روعي

تُعِدُّ مائدة أمامي تجاه مضايقي

وبالزيت تطيب رأسي فتفيض كأسي

ثم إنني كنت أحاول صرع الوقت، فأحاول تذكُّر ما في نواحينا البشمورية من أسماك وأطيار، وأُعدد أسماءها واحدًا واحدًا محاولًا استدعاء أشكالها وأجسامها، فعددت من الطيور: السلوى، النصطفير، الزرزور، الباز الرومي، الصفري، الدبس، البلبل، السقاء، القمري، الفاخت، النواج، الزريق، الهوني، الزاغ، الهدهد، الحسيني، الجرادي، الأبلق، الرهب، الحساف، البرين، السلسلة، درداري، الشماس، البصبص، الأخضر، أبا الحفاء، الدوري، الزنجي، الأطروش، ابن السمان، ابن المرعة، الوطواط، الملاعقي. وفي ليلة عددت من أنواع الطير التي أعرفها ما يربو عن المائة، ونوعَيْن بين صارخ وشادٍ ونائح وهادل ومُغرد وزاعق وناعق ومزقزق ومشقشق ومصفر ومصوصو، أما الأسماك فقد واسيت نفسي بها ذات مرة حتى عددت منها تسعة وسبعين نوعًا كانت: البوري، البلمو، البرو، اللبت، البلس، السكسا، الأران، الشموس، النسا، الطوبار، اليقشمار، الأحناش، الإنكليس، المعية، البني، الأبلبل، الفويص، الدونيس، المرتنوس، الأسقلموس، النفط، الجبال، البلطي، الحجف، القلارية، الرخص، العبر، التون، اللت، القجاج، القروص، الكليس، الأكلس، الفراخ، القرقاح، الزليخ، اللاج، الأكلت، الماضي، الجلاء، السلاء، البرقش، الصد، البلك، المشط، القفا، السور، حوت، الحجر، البشين، الشربوت، النساس، الرعاد، الشعور، المحبرة، اللبس، السطور، الراسي، الريفن، اللبيس، الأبرميس، الأبونس، اللباء، العميان، المناقير، القلميدس، الحلبوة، الرقاص، القرندس، الجتر، هوكبارة، القبج، المجزع الدليسي، الأحشبالة، البسال الأبيض، الرقوق، أم عبيد،

البلو، أم الإنسان، الإنسارية، اللجاه، وبقيت على هذي الحال لا أدري كم مرّ عليَّ من الوقت، ولم أعرف مبتدأ الليل من مبتدأ النهار، إذ كنت أبيت على ما أصبح، وقد اتصل زماني، ولم يعد لي من الإمكان مفارقة مكاني، فصِرت كالعائش الميت، أو الميت الموجود الذي لا يحق له فعل الوجود، وصِرت أغيب في نوبات لا أدري أهي حُمّى أم نوم؟ فلا أصحو إلا لشرب جرعة ماء، أو لازدراد كسرة إدم، ثم إنه حدث ذات صباح أن جاءني الحراس وأخرجوني، فسِرت بصعوبة أمامهم، بينما هم يدفعونني دفعًا، وكان امتناعي عن الحركة والسير مدّة قد يبّس أوصالي، وبِت كالمفلوج العاجز، وكان امتناعي عن النور والشمس كل هذا الوقت، قد جعل عينيَّ لا تقويان على مواجهة سطوعها وإبهارها، إذ صِرت في فناء البيعة عابرًا بينهم إلى موضع الحمّام، فتركوني حينًا لأتحمم، وليسامح الله الأب ديونيسوس؛ إذ كانت رائحتي نتنة عفنة لكثرة مكوثي دون تطهّر ولا نظافة.

استقر الأمر على ترحيلي إلى بلد الخلافة بغداد، فأنا أسير الخليفة، وطالما أنا لست من أهل البِيَع كما ظن الجميع هنا في بيعة القسيان، فقد كان عليهم تسليمي مرة أخرى إلى عسكر الخليفة حتى أكون ببغداد ويجري فيَّ التصرف بي كما يشاءون هناك.

سلَّمت أمري لله، فمهما سيكون لن يكون كما الذي كان، وما سوف يمر لن يعادل ما مر، وهكذا وجدتني أغادر في صبيحة اليوم التالي بيعة القسيان، التي رأيت فيها ما لم أره من قبل، وذلك بعد أن لملمت حاجياتي القليلة من ملبس وأشياء لا أهمية لها إلا لكونها أشيائي.

* * * *

خرجت عند الغروب مُغادرًا أنطاكية، وكان آخر عهدي بها وقت أن حكموا على شمّاسة شابة بالبيعة تسمى برسيس، أجحفت بالنذر، وحادت عن السيرة الحسنة، وضُبطت بجريمة الزنا مع رجل شمّاع ممَّن يُزودون الكنيسة بالشمع، وكنت ضمن جماعة من الناس في حراسة غير كبيرة، وتوجهوا بنا إلى بلدة أخرى من البلاد الشاميّة المؤدية إلى بغداد، وتُسمى هذه البلدة حلب، فقطعنا المسافة إليها في يوم وليلة، وكانت الطريق بين الكورتَيْن عامرة لا خراب فيها، وقد زُرع جُلها بأنواع عدة من الخيرات والزروع والغلة، وكنا نبقى وقتًا في بعض القرى التي تعترضنا، وهي في جُملتها ذات رياض مزهرة ومياه متفجرة، فيتركوننا لنأكل شيئًا ويُطعمون الخيول ويسقونها، وقد حدث أننا كنا قد جلسنا على طرف فِلثر من الأرض لنستريح، وهو ما يُحاكي الفدان والجريب وما إلى ذلك، فخرج إلينا بعض الفلاحين مسرعين، فلما شاهدونا وتعرفوا على عسكر الخليفة، نَصحوهم بالمُضي سريعًا، لأن هذا الموضع قريب من جبال يُقال لها اللكام، وأن بها حِصنًا قديمًا يُشرف على بحيرة، يتخذه جماعة من الروم مقرًّا لهم، وهم قوم حَبسوا أنفسهم على قتال المسلمين، ومنعوا أنفسهم عن النكاح، فهم بين الرهبان والفرسان ويقال لهم الداوية، فسارع العسكر بجمعنا، ونهضنا لنُعاود المسير مرة أخرى إلى مدينة حلب.

دخلنا حلب وهي مدينة مُسورة بسور عظيم من الحجر الأسود، والقلعة عليه، وذلك من باب أنطاكية، وكان لحلب خندق عظيم وصل حفره إلى الماء، وفي وسطه مصانع للماء المعين.

كان بعض العسكر قد تركونا وذهبوا لشحنة المدينة لتسليم الخارجين عن الخليفة، وفي هذه الأثناء جاء مَن قال: إن تنينًا قد ظهر منذ فترة بالمدينة، بغلظ منارة وطول مفرط ينساب على الأرض يبلع كل حيوان يجده، وتخرج من فمه نار تحرق ما تلقاه من شجر أو نبات، واجتاز على بيوت أحرقها، والناس يهربون منه يمينًا ويسارًا حتى انساب قدر اثني عشر فرسخًا، فأغاث الله تعالى الخلق منه بسحابة نشأت ونزلت عليه فاحتملته، وكان قد لفَّ ذنبه في كلب ورفعه والكلب يعوي في الهواء والسحاب يمشي به، والناس ينظرون إليه إلى أن غاب عن الأعين، وقد قال الحاكي الذي حكى هذه الحكاية: رأيت الموضع الذي انساب فيه كأنه نهر.

فلما عاد العسكر إلينا، كانت معهم جماعة من الناس المرحّلين إلى مقر الخلافة مثلي، وذلك بسبب أن والي المدينة قد أمر بإقصائهم عنها؛ لأن بعضهم، وهم من قرية تُسمى هوته، قد اقتتلوا مع جماعة أخرى من قرية تُسمى عين الجارة، وأن بين القريتين حجرًا قائمًا كالتخم، فما كان من أهل هوته إلا أن أوقعوا الحجر وطرحوه، فخرجت نساء عين جارة أجمعين متبرجات ظاهرات لا يعقلن على أنفسهن طالبات الفجور، ولا يستقبحن في الحال ما هن عليه من غلبة الشهوة، إلى أن يتبادر الرجال إلى الحجر فيعيدوه إلى حالته الأولى فيتراجعن إلى بيوتهن، وقد عاد إليهن التمييز لقبيح ما كنّ عليه من التبرج، فأمر الوالي بإقصاء الحجر والقبض على بعض من أهل هوته لأنهم لصوص، وكانوا كثيرًا ما يُسخّرون الحجر لصالحهم ويُلحقون العار بأهل عين جارة، وأن الوالي قد طلب من الخليفة ألا يعودوا إلى مواضعهم أبدًا.

ثم إننا تخللنا المدينة مُتجهين إلى باب العراق فوجدت أن بها نهرًا يقال له قويق، فلما مررنا بجانبه وقفنا قليلًا لأن واحدًا من العسكر أراد إحضار سلحفاة من السلاحف التي تكثر به، وذلك للحصول على دمها لأمه في العراق، وقد قيل له إن التلطخ به ينفع من وجع المفاصل. فلما تريثنا إذا بصوتٍ عذبٍ لصياد يأتي من الناحية الأخرى للنهر، يتصاعد وهو يشدو:

فلو دامَ الحُب الوصال ولم يكن

فراق ولا هجْر لما اشتاق

قويق سيل الغيث يأتي وينقضي

ويأتي انسياقًا تارة ثم ينساق

وقد لاحظت الناس في الطرقات، والذين كانوا يتوقفون قليلًا لينظرونا، فوجدت أنهم من أحسن الناس وجوهًا، وأجسامًا، والأغلب على ألوانهم الدرية، والحمرة، والسُّمرة، وعيونهم سود. وقد عجبت من كثرة حارات المدينة، ودُورها، وجناينها، وحمَّاماتها، وكذا رصانة البناء فيها، وحُسن حجارتها، وتعدُّد أسواقها، والمعروض فيها من الخضر، والفاكهة، والزيت، والصابون، والأقمشة، وأنواع الفِراء التي تُعلق للعرض على أبواب الدكاكين، وهي على هيئة حيواناتها كالسمور، والوشق، والفنك، والسنجاب، والثعلب، وسائر الوبر، أما سوق الرقيق، الذي مررنا به كذلك، فقد رأيت فيه

أصنافًا من الجركس، والترك، والروم، والحبش، ثم إننا أخرِجنا من باب العراق قاصدين مدينة الخلافة بغداد.

كنت خلال الطريق لا ينقطع ذهني عن التفكير والتأمل، فأدركت أن السفر هو المسافة بين هنا وهناك، أو هو هنا التي ما إن تقبض عليها، حتى تفر منك إلى هناك، فأنت في برزخ مستديم، يستقدم التاريخ وينبذ الخرائط، لتهيم الروح في ماضيها وما كان، وتقبض على الكون في سياحات فريدة من التأمل والاستشفاف، وهكذا صِرت، طوال الطريق، كلما خلوت إلى نفسي أفكر فيما كان من أمري ببر مصر وأنطاكية، وأضعه تحت نور الشهاب الثاقب، ونجم التأمل الساطع، فأتوصل بعد لأْي من الهجس والتمحيص إلى أن ما كنت أعتقده يقينًا، ما هو إلا ضرب من شك لا يشبع سريرة، وأن البداهات إنما هي بمثابة بدايات، وأن العقيدة الحقة لا تتجلى وتكون إلا بالفعل المفعول، دون الكلمات ومعسول الترهات، وأن هناك مَن يتخذها مطية ورهينة، ليتمكن من أمور الدنيا وشهواتها، وليس كل مَن تلا كلمات الرب هو عامل بها، فهناك مَن يرتل الكلمات المقدسة، بينما هو يُتلتل الدنانير المدنسة، وإنما القول الإيماني يجب اقترانه بالفعل الإنساني، وإلا كان غشًّا وبهتانًا وتزويرًا وإعمالًا في خِداع الناس والهيمنة عليهم بالآيات المصدقة والطقوس المكرسة.

لقد كفرت - وليرحمني الرب - خلال ولُوجي في برزخ السؤال، بأمر ما، وتشككت فيما كنت أظن أنه لا يُشك فيه أبدًا، وبتُّ أطرح علامات استفهام، لا أدري أهي من نتاج تعاظم شعوري بالألم والبؤس وقلة حيلتي ومشقة السفر، أم هي من قبيل الجود الرباني والكشف الجواني! وكان إلحاحي الدائم على: هل يحتاج خالق القَطر، والشجر، والسحاب، والثمر، وصنوف الطير، والحيوان، وسائر أجناس بني الإنسان، وما على البَر، وداخل جوف البحر إلى كل هذه التوافه العوارض من التيجان والطيلسانات والمُذهبات المُفضضات، والعمارات ليُدلل على قدرته؟ إن أي جبل قد خلقه - مما خلق - لا يضارعه مهما كانت عظمتها بناية من الأبنية أو عمارة من بَيعة من البِيَع، فالرب جليل مرتفع عن كل هذا في أعماله وآيات قوته وأفضاله، وهو العزيز عن مصنوع موضوع بيد عبدٍ من عباده.

حَمار وصَفار وخَضار وسَواد من الأرض، قُدّر لي اجتيازه مع تِلال من الدهشة والعجب وأنا أعبر القرى، والبلاد، والصحراوات مُرتحلًا في الطريق إلى المدينة المُدورة المُسماة بغداد، إنها المدينة التي ظلت تتراءى في خاطري كحلم شيد من ضبابات التخيل وتهويمات التكهن، وقد رسمتها بمخيلتي من فُسيفساء الأماكن وتفاصيل العوالم التي شهدتها وخبرتها، وعلى الرغم من مشقة الترحال والسفر، وعبودية الأَسْر ومرارته، فإن تشوقي لبغداد كان يتزايد كلما غذّينا المسير وقطعنا الطريق بعد الطريق، فما أجمل أن تشتهي رؤية مدينة، وتحلم بأنك سوف تعاينها معاينة البصر وتلجها ولوجًا بالقدم، بعد أن شيّدتها بداخلك لبنة لبنة من أوهامك عن المدن والبلدان في العالم المضطرم والمتمور بالقسوة والعنف والصراع دومًا.

كانت قد مرت علينا في الطريق أحداث كثيرة، لكنها تضاءلت وتصاغرت جميعها إلى جانب ما رأينا عند مرورنا بصحراء من الصحراوات المحيطة ببعض القرى والتي يتوجب على التجار وقوافلهم اجتيازها خروجًا أو دخولًا إلى بغداد، فقد تصاعدت إلى أنفي وأنوف كل الذين كنت معهم

ريح نتنة وجِيَف، فظننا أنها بقايا فريسة لوحشٍ من الوحوش، وقد تعفنت وتجيَّفت بفعل سخونة الشمس وشدّة حرارتها، لكن، وبينما نحن نتأفف ونشمئز من ذلك، إذ بنا نسمع أنينًا موجعًا يُمزق سمعه القلوب، فبادرنا إلى موضعه، فهالنا ما رأته عيوننا، فقد كان على الأرض رجل موثق يتأوه من فرط آلامه، جاحظ العينين وقد خرج لسانه مورمًا مقددًا مسودًّا من فمه، بينما آلاف الديدان تسعى مسربلة جسده وكأنها ثوب يغطيه، فلما تشجع بعضنا، واقترب أكثر وجد أن الرجل مكفن في لية الخراف، ومربوط عليه باللبد والحبل بإحكام، ويبدو أنه مُلقى منذ زمن في الشمس الحامية، فاستحالت اللية بعد حين إلى ديدان أخذت تلتهم جسم ذلك التعس بينما هو على قيد الحياة، وقد حكى لنا واحد من الحُراس ذلك، فلم أتمالك نفسي ورُحت أفرغ ما بجوفي وأنتحب انتحابًا شديدًا، وقد أصابتني نوبة من الألم، لم أعد قادرًا معها على الإتيان بأي فعل أو حركة، خصوصًا وأن بعض الحراس سارع ليفكّ الرجل من أسره، لكن مقدم الحرس منعه، لأنه لم يعد منه رجاء، فقد أصاب الدود أكثر من موضع في لحمه، وصار موشكًا على التلف والفناء، وخشي أن يُصيبنا منه مرض أو آفة إن اقتربنا منه أكثر أو حاولنا مساعدته، ومضى بنا مسرعًا، تاركين المسكين لمصيره المؤلم، فلما اجتزنا فرسخًا أو فرسخين وجدنا بعض الناس يسألوننا عن موضع رجل مقيد ومتروك في الصحراء، قالوا إنهم يبحثون عنه منذ عدة أيام دون جدوى، فأرشدهم مقدّم الحرس إلى موضعه الذي كنا توقفنا عنده، وسألهم عما كان من أمره، فقالوا: إنه تاجر من التجار، قيل إنه خان بعضًا ممن كانوا معه بالقافلة، وسرقهم، فعاقبوه بعقاب قوم يُقال لهم الإيلخانيون وهم من القُساة الغِلاظ المتفننين في تعذيب أعدائهم وضحاياهم، ففعل التجار بالرجل ما يفعله هؤلاء الإيلخانيون بأعدائهم، وزاد هؤلاء بأن شطروا صبيًّا كان للسارق، إلى نصفين، من باب الانتقام والتشفي، ودون أن تأخذهم به رحمة ولا شفقة.

كان ذلك الأمر، قد أصابني طوال الطريق، بعد ذلك، بحد من التبلد وفقدان الشعور، وقد بهتُّ لكل هذه القسوة، وشهوة الانتقام، وفي لحظة تمنيت الموت، وبدا لي أنه الواحة الممكنة الوحيدة، بعد تيهي الممتد في بيداء هذه الدنيا المقفرة، وكان شعوري بذلك يتماسك ويتكثف كلما حثّونا على الإسراع والنشاط في السير حتى نجتاز المسافة إلى مدينة الخلافة في أقل وقت ممكن.

ثم إنه لاحت لنا بعد زمن قِباب وأبنية، كأنما صُبّت في قالب، وكأنما أفرغت إفراغًا، وكان بعض العسكر قد أخذ يطلق صيحات الفرح، ويلغط بسعادة عند وصولنا واقتراب بلوغنا أبواب المدينة المقببة، وقد ظهرت بينها قبة عظيمة خضراء اللون عليها صنم على صورة فارس في يده رمح نبّهني إليه قول واحد من العسكر ونحن نتقدم بالمسير، إذ قال:

- انظروا. رمح الفارس يتجه نحو الشرق، لعل الخوارج سيخرجون من هذه الناحية كما يُقال.

ضحك آخر بسخرية وعلّق:

- أتصدق هذه الترهات. إنها خرافة ولا أكثر أن يخرج خارج على الخليفة من جهة الرمح، سِر وأنت ساكت، خلينا نصل ونُنهي مهمتنا بسلام.

بدا لي سور المدينة، وقد اقتربنا، عظيمًا ممتدًّا على نحو لم أره ولم أعهده في أي مدينة أخرى كنت قد شاهدتها من قبل، سواء في بر مصر أو في بلاد غُربتي، وكان السور مُدورًا يحيط بالمدينة داير ما يدور، وبالتخمين، فإن ارتفاعه إلى السماء، قد يزيد على خمس وثلاثين ذراعًا، وبدت أبراجه بسُمك قد يكون خمس أذرع، وكانت على السور شرف، فلما اقتربنا من ذلك السور اقتراب المعاينة والتدقيق استبانت لي أبواب عديدة فيه، ثم إنهم أوقفونا عند باب قيل له باب الشام الأول، فوجدت أن للباب هذا بابين بينهما دهليز ورحبة يؤديان إلى الفيصل الدائر بين السورَيْن، وبدا لي أن الأول باب الفيصل، والثاني باب المدينة، فلما ولجناه، بعد إذن الحراس، إلى دهليز أزج معقود بالآجر والجص، وجدت على الأزج مجلسًا له درجة على السور، يُرتقى منها إليه، وعلى هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة في السماء، سُمكها قد يكون خمسين ذراعًا مزخرفة، وكانت هناك قباب أخرى على السور، وهي التي كانت قد استبانت لنا من بعد قبل ولوجنا إلى المدينة، ثم إنهم ساقونا عبر شوارع المدينة إلى قصر الخليفة، فهالني وأُخِذت بما وجدت عليه العامة في الأسواق والشوارع وأسطح المنازل، فوقف العسكر الذين جلبوني مع بعض الأسرى الآخرين، يتساءلون، وقد أُخِذوا بما أُخِذت به من ازدحام الناس حتى في الدكاكين والشرف، فقيل لهم: إن الخليفة أذن بدخول رسول الروم والجميع ينتظر وقت مرور موكبه قادمًا من دار يُقال لها دار صاعد، وقد مكث بها شهرين لا يؤذن له بالمثول بين يدي الخليفة، وقال مَن أخبر العسكر بذلك إن كل صاحب دكان أو غرفة مشرفة على مشهد خروج رسول الروم إلى قصر الخليفة، قد أكرى ما لديه بدراهم كثيرة، وإن في دجلة صارت الشذاءات والطيارات والزلالات والسميريات بأفضل زينة وأفضل ترتيب وتعبئة.

ثم إنهم ساروا بنا، فعبرنا أسواقًا وحمَّامات وأرباضًا عديدة حتى أوصلونا إلى قصر الخليفة الملاصقة لجامع جميل، وقبل أن يُدخلونا جاء رئيس، قد يكون مقدم الدرك، وظل يجادلهم في شأني مثلما كان يحدث دائمًا في كل مرة يُجرى تسليمي فيها، ثم إنه، وبعد كلام كثير، استقر الأمر على وضعي في الوقايد بمطبخ الخليفة.

* * * *

لا أدري أكنت محظوظًا لأنني وصلت إلى قصر الخليفة في الوقت الذي كان فيه الجميع مشغولين باستقبال صاحب الروم، فقرروا سريعًا إلحاقي بالوقايد، فلم أُبَع، أو أُوضَع في حبس من الحبوس.. أم أن ذلك بسبب درايتي بالوقايد من قبل؛ أثناء ترحيلي من مصر إلى أنطاكية، في الحراقة، وعدم انتفاعهم بي على أي وجه من الوجوه إذا هم باعوني، وذلك بسبب ضعف بنيتي واعتلال صحتي؟ على أي حال، لقد قدَّر الله لي أمرًا كان مكتوبًا، فقد عبروا بي ساحة القصر، بينما كان الجميع منهمكًا بفرش المكان بالفروش الجميلة، وتزيينه بالآلات الجليلة، وكان الحُجّاب، ومَن خلفهم، والحواشي آخذين بالانتظام في طبقاتهم على الأبواب، والدهاليز، والممرات، والمخترقات، والصحون، والمجالس، وبقي الجند واقفين صفَّيْن بالثياب الحسنة، وتحتهم الدواب بمراكب الذهب، والفضة، وبين أيديهم الجنائب، على مثل هذه الصورة، وقد أظهروا العدد المكسية والأسلحة المختلفة وبعدهم الغلمان الحجرية، والخدم الخواص الدارية والبرانية بالبزة الرائعة والسيوف، والمناطق المُحلاة.

ثم إنهم أدخلوني بصحبة واحد من العسكر من باب قصيّ في الساحة يُفضي إلى مطبخ الخليفة، ومهما وصفت فلسوف أظل مُقصرًا، عاجزًا عن وصف ما رأيت، إذ إنني بمجرد أن تخطيت هذا الباب، وجدت نفسي في فناء واسع، مُحاط داير ما يدور بغُرف كثيرة، بينما عدد كبير من فراخ الطاووس، والبط، والإوز، والديوك الرومية تجري هنا وهناك، ثم إننا دخلنا إحدى هذه الغرف فوجدت أنها كبيرة واسعة تفضي إلى غرفة أخرى، استبانت من بابها أكداس من خشب وفحم حُملت وتراصت على بعضها البعض بترتيب ونظام، أما الغرفة الأولى فكانت غرفة الأفران، وقد توضعت مجموعة من بيوت النار إلى جوار بعضها البعض، فلما عددتها وجدت أنها عشرة، وكان عليها رجال وغِلمان يعملون بهمة ونشاط، والسخام يغطي حيطانها العالية ويحيل لونها إلى السواد، ثم إن الجندي الذي أنا تبعيته نادى على رجل ناعتًا إياه بالريس حسين، وسرعان ما جاء رجل ضخم الجثة في عينيه حدّة وقوة تأخذ النفس، وتسيطر عليها، فحيا رئيس العسكر، فقال له:

- هذا أسير الخليفة، هو قبطي مصري، ستكون ملتزمًا به منذ الآن فصاعدًا، ولسوف يكون تحت إمرتك في الوقايد، وكل ما يخصه ستُسأل عنه على أي حال.

رد الريس حسين بهدوء:

- أمرك يا سيدي.

ثم إنه اصطحبني إلى موضع بغرفة الحطب والفحم، فأدركت أنها واسعة، أقرب إلى الخان الواسع منها إلى الغرفة المحدودة. قال:

- سوف يكون مستقرك ومنامك هنا، عندما تنتهي نوبة عملك كل يوم. ستعمل معي في البداية خلال نوبة الليل، ثم تنام سويعات بعد طلوع الفجر تبدأ بعدها في التهيؤ حتى وقت الغروب، وإياك ومخالفتي في أمر من الأمور، هلا قلت لي ما اسمك؟

قلت وأنا أزدرد ريقي، بينما مرارة تتصاعد إلى حلقي:

- بدير. بدير يا سيدي.

وبينما كنت أردّ عليه، إذ دخل علينا واحد من خُدام القصر، وصرخ:

- هيا يا حسين، هات مجامر البخور، وتعالَ لتُشرف عليها بنفسك، ستبقى حاملًا المجمرة الكبيرة أثناء طواف رسول الروم بالقصر، اغتسل سريعًا وهاكَ بزة جديدة لترتديها.

- نعم. نعم. في غمضة عين إن شاء الله سأكون جاهزًا.

لو سُئلت ذات يوم عمّن أمتنّ له في هذه الدنيا بعد الله العلي القدير، لقلت وكلّي يقين، حبيبي وقرة عيني ثاونا أولا، ثم صاحب الفضل الذي لا أنكره أبدًا مهما حييت، الحسين بن فالح المراغي، والذي وفد إلى بغداد من بلدة من أعمال الخلافة تُدعى مراغة، فثاونا هو الذي عطف على نفسي بالمودة والرحمة، وأرشدني إلى كثير مما كنت أجهله قبل ذلك، وكان لي بمثابة الأب والأهل، والنديم الصديق، والمعين الصبور على عذابات روحي وأوقات يأسي وقنوطي، ثم هو الذي ثبّت نفسي على الإيمان، وأمدّني بكل محبة وحُنو. أما الحسين بن فالح المراغي، فامتناني له هو امتنان الغارق في جبّ عميق لمن أخرجه إلى الحياة مرة أخرى، وهو ذاك الذي ساعدني على البصر بعد عمى، والنطق بعد خرس، والسمع بعد صمم.

كنت كلما عقدت أوجهًا للشبه والخلاف بينهما، تعجبت من نفسي، فما يجمعهما قليل نادر، وما يباعد بينهما كثير فادح، لكني كنت أدرك في النهاية أن لديهما الجوهر ذاته، وإن كان قد تموّه واختفى بالخارجيات الشكلانيات، وكنت أدرك أن هذا الجوهر هو الذي جذبني إليهما، وعلقني بهما تعلّق النجوم بالسماوات، فالرجلان بداخلهما ما يسمو على هذي الحياة، فهما فيها وليسا فيها، وهما العائفان كل ظاهر بارق، المهمومان بكل ما هو داخل باطن، بل هما يدركان عبث الدنيا ولهو الوجود، فلا يهتمان لعبوسه أو يغتران بسطوة عروشه، وهما في بعض من هيئات الزمن الشاغلة، فهذا في بيعة وكنيسة، وهذا في قصر الخليفة، لكن لا هذا ولا ذاك يتكالب أو يصطرع على ما يَتكالب ويَصطرع عليه العاملون في مثل هذي الهيئات.

كان معاشنا ومبيتنا نحن الفحامين والوقادين في خزانة الحطب والفحم، وكان عملنا أمام بيوت النار والمواقد لا ينقطع؛ لأن العمل بالمطعم لا يتوقف أثناء النهار أو الليل، وإعداد الطعوم العذبة، والمالحة، والدسمة، والحلوة، والحامضة، والمُرة، والقابضة، والحريفة لا يتوقف أبدًا، وكان جُل العاملين في الوقايد، إما من الأسرى الذين لا رجاء فيهم ببيع أو متعة مثلي، أو من أولئك الذين حُكم عليهم لأمر من الأمور لأزمنة طويلة، فكان العمل في الوقايد هو قضاء لعقوبتهم، ويُستفاد به للصرف على قوتهم بتشغيل طاقة جسومهم.

أما الحسين بن فالح فقد ساقه قدره للعمل في الوقايد، فهو لم يكن أسيرًا، ولا مُذنبًا مثل الباقين، لكنه نشأ وتربى في مطبخ الخليفة، ولم يكن يعرف له في الدنيا بيتًا ولا وطنًا غيره، فلقد تربّى وعاش جُل عمره في هذا الموضع، ويقال إنه لم يعرف له أبًا أبدًا، جاءت أمه نازحة من بلدتها البعيدة إلى مدينة الخلافة ومعها الحسين طفلًا رضيعًا، ثم ظلت تقتات زمنًا من بَيع خبز التنور في أسواق المدينة، فاشتُهرت بصنعته وإجادتها له، حتى لُقبت بين العوام بست التنور، فلما ذاع صيتها جلبوها للعمل في مطبخ الخليفة، وقيل إن والد الخليفة الحالي صار لا يأكل خبزًا إلا من عمل يديها، وإنها كانت تصنع له كل يوم ما يزيد عن مُدين من القمح وهو يُعدّ من الشيء الكثير.

وهكذا تربَّى الحسين طفلًا يجري ويلعب بين أقدام الطباخين، والوقادين، وكافة العاملين في المطبخ من خدم وعبيد، وظل هانئ العيش حتى وافى الأجل أمه ذات يوم فتيتَّم بعد أن ماتت بعِلّة الفواق؛ وكانت هذه العلة قد استشرت وتمادت تماديًا كبيرًا في الناس خلال سنة من السنين، وراح ضحيتها

خلق كثير لا يُحصى عددهم، فلما راحت، أشفق الناس ممن يعملون في المطبخ عليه واستبقوه بينهم، وصيروه وكأنه واحد من عيالهم، فتعهدوه بالرعاية والرباية حتى شبّ، فعمل في الوقايد من يومه، وقد كان مولعًا لأمرٍ لا يعرفه أحد بالنظر إلى النار واللعب بها، ثم إنه حذق في هذا الكار، حتى صار المعلم الأكبر المختص فيه، وكنت أتعجب في بداية الأمر من نعت الحسين بالمعلم، وأظن أن ذلك ضرب من ضروب التهويل والمبالغة، لكني، وبمرور الوقت، بعد أن خبرت عمل وقايد الطبخ، أدركت أنه يحتاج إلى مهارة، وشطارة، وحِس، وذوق، وعلوّ في موهبة التمييز، والتقدير، والمواءمة، والتخمين، وذلك في اختبار درجة النار، وشدة اللهب، ومناسبتها لكل نوع من أنواع المأكول والمطبوخ، فالساذج منها قد يفسد نوعًا من الطبيخ وقد يحسن غيره، فما يناسب الخشكنانج المصنوع من دقيق السميد والسكر واللوز المقشر المطحون، المبثوث بالكافور وماء الورد، قد لا يُناسب الأسفيذباجة الخضراء، وما يستلزم السفدية قد لا ينفع الفالوذج، وكان تنوع الطعوم وتعددها يحتاج إلى تنبه وتيقظ بالغَيْن من العامل في الوقايد، فكل يوم كانت ترِد للطهي أصناف غير التي كانت في اليوم الذي قبله، وقد حدث أن عددت عدد القدور الكبار التي حوت السكباجات، والحنطيات، والسلاقات فكانت أكثر من عشرين قِدرًا من الفخار عدا المتوسطة، وعدا قدور النحاس، وقلايات الطباهج، وكان أن أنضجنا يومها أهلامًا من لحوم البقر وإحبارية سمك، ومأمونية، وجواذب الدجاج المعمولة من الأرز والخبز تارة، ومن السكر والأرز واللحم تارة أخرى، ومن الحلو مخ معمول بالسكر المعقود والعسل، وبهطة أرز ولبن وسمن وعسل، إضافة إلى صنوف من الخبز كالخبز الإفرنجي المُسمى أفلاعموني، والخبز الفرني المرقد، وخبز القناوي، والخبز الماوي، والخبز المجمر.

وكنت أجدني بمرور الوقت مشدودًا إلى الحسين بن فالح، على الرغم من أنني عند بداية عملي معه توجّست منه، ولم أُقبل عليه، فقد كان غشومًا عنيفًا لا يفتأ يأمر وينهى ويزجر، على نحو به خشونة وفظاظة، حتى إنني عندما عاد في مساء يوم استقبال رسول الروم، وحكى لنا - نحن الوقادين - ما رآه أثناء مروره حاملًا المجمرة ضمن الموكب، لم أنبس ببنت شفة، وآثرت السكوت، والتلذذ بأطايب الطعام الذي قدموه لنا من بقايا الوليمة العظيمة والسماط المهول الذي مُدّ لرسول الروم، ولقد حكى الحسين وقتها عمّا لا يمكن أن يصدّق ولا يُدرك بعقل عن موكب هذا الرسول، وما بُذل في سبيله بالقصر، لإظهار عظمة خليفة المسلمين ومدى قوّته وجبروته، فقال: إن الخليفة رسم أن يُطاف بمبعوثي ملك الروم، وكان شيخًا وشابًّا، في جميع أنحاء القصر بعد إخراج العسكر جميعًا منه، ولم يبقَ فيه إلا الخدم والحُجاب والغلمان السودان، وعددهم سبعة آلاف خادم، منهم أربعة آلاف من البيض وثلاثة آلاف من السود، أم الحُجاب فزادوا على سبعمائة حاجب.

وفُتحت الخزائن للموفدين، والآلات فيها مُرتبة، كما يفعل لخزائن العرائس، وقد علقت الستور، ونظم جوهر الخلافة في قلايات على درج قد غشيت بالديباج الأسود.

فلما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها، كثر تعجبه فيها، وكانت شجرة من الفضة وزنها قد يزيد على خمسمائة ألف درهم، عليها أطيار مصنوعة من الفضة، تصفر بحركات قد جُعلت لها، فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده.

وكانت الستور الديباج الموشاة بالطرز المذهبة الجليلة المصورة بالجامات، والفيلة، والخيل، والحجال، والسباع، والطرد، والستور الكبار الصنعانية، والأرمنية، والبهنسية، السواذج، والمنقوشة، والدبيقية المطرزة تبلغ الآلاف من حيث العدد. وكذا كانت البسط والنخاخ الجهرمية، والدار بجردية، والدورقية في الممرات والصحون التي وطئ عليها القواد، ورسل صاحب الروم، سوى ما في المقاصير من الأنماط: الطبري والدبيقي التي لحقها النظر دون الدوس.

وعلى الرغم من أنني أثناء ذلك كنت ما أزال مُتحفظًا تجاه الحسين بن فالح، إلا أنني شعرت بتباسطه وتلاطفه مع صبيانه ومَن هم أدنى منه في عمل الوقايد، ولم يكن يغضب منهم حتى حين نعته أحدهم بالمبالغة والكذب، بينما كان يروي انبهار رسولَيْ ملك الروم بكل ما شاهداه خصوصًا لما أدخلا إلى الدار المُسماة بخان الخيل، وهي دار، كما قال، أكثرها أروقة بأساطين رخام، وبها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس، عليها خمسمائة مركب، ذهبًا وفضة بغير أغشية، من الجانب الأيسر خمسمائة فرس، على كل منها جلال من الديباج بالبراقع الطوال، وكل فرس في يد شاكري بالبزّة الجميلة، ثم أدخلوها من هذه الدار إلى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش، وكان في هذه الدار من أصناف الوحش التي أخرجت إليها من الحير قطعان - كما قال - تقترب من الناس وتتشممهم وتأكل من أيديهم.

ثم أخرجوا إلى دار فيها مائة أسد: خسمون يمنة، وخمسون يسرة، كل سبع منها في يد سبَّاع، وفي رءوسها وأعناقها السلاسل والحديد.

وبملازمتي للحسين الوقت الكثير خلال عملي معه في نوبات الليل، وجدتني أنجذب إليه شيئًا فشيئًا، ولم أكن قد افتهمت لماذا يبقى عاملًا ساهرًا طوال ذلك الوقت وهو الريس المعلم الذي يعمل الجميع تحت إمرته، ولا تدخل فحمة أو حطبة إلى بيت النار إلا بإذنه، لكنني بعد حين أدركت أن الخليفة يسهر عادة أثناء الليل حيث تُجلب له المغنيات والقيان ويتنادم معه الأفاضل من أهل العِلم والسمّار، وأصحاب المغاني من العبيد والجواري الحِسان، وخلال ذلك تقدم له أطايب الأطعمة وكل مفتخر من الأشربة، وما نحو ذلك من النوادر المجلوبة من كل صقع من أصقاع الخلافة؛ لذلك يبقى الحسين ساهرًا على ما تحتاجه سفرة الخلافة وصاحبها من مطالب ومآكل تحتاج الحرارة والإنضاج.

وفي ذات مرة، وبينما نحن جالسان أمام الوقايد بمفردَيْنا؛ الحسين وأنا، إذ كان أقراني من تبعيته قد خلدوا إلى النوم، وإذا بالرجل الذي كنت أظنه غليظ القلب، يشرع في الدندنة والغناء بصوت حساسٍ شجي، ووجدت مَن أظنه خشنًا غشومًا يرق ويلين وهو يذهب بالغناء من مذهب إلى مذهب، بسلاسة وطلاوة، وكأنه طارب قدير، فلما وصل بغنائه إلى الحدّ الذي قال فيه:

ألا رُبّ هَمّ يَمْنَعُ النوم دونَهُ

أقامَ كقبضِ الرَّاحتَيْنِ على الجمر

بسطتُ له وجهي لأكبتَ حاسدًا

وأبديتُ عن نابٍ ضحوكٍ وعن ثغرٍ

وشوق كأطراف الأسنَّةِ في الحَشَا

ملكت عليه طاعةُ الدِّمع أنْ يجري

وجدتني لا أتمالك نفسي وقد هزَّتني الكلمات وأسكرتني النغمات، وحلّقت بي المعاني، فتركت لروحي العنان ورُحت أبكي وأنتحب حتى أخرجت ما حبسته في قيعان نفسي من ألم ومرار، وقد أصبحت دون القدرة على ضبط النفس والاصطبار.

فلما وجدني الحسين باكيًا ترك ما بيده، وكان يراقب عكيكة قد اشتهاها الخليفة وطلبها خصيصًا في هذه الليلة، ثم إنه التفت إليَّ وبدا مدهوشًا وقد فاجأه نحيبي، وسرعان ما تحرك نحوي وراح يربت على كتفي وكأنه يفكر في أمر من الأمور، ثم أبرز من جيبه لفيفة صغيرة، أخرج منها كريّة ذات لون أخضر مكتوم، طلب مني ابتلاعها، فلما تراجعت متسائلًا عن كُنهها، وقد تمنعت ورفضت تذوق ما لم أعرفه وأخبره، قال بجد:

- ابتلعها ولا تخف؛ فإنها سوف تعينك وتريحك كثيرًا مما أنت فيه، إنها حشيشة الفقراء يا بني، وما أدراك ما حشيشة الفقراء! ألم تسمع مَن قال فيها:

دع الخمرَ واشربْ من مُدامة حيدرِ

مُعتّقة خضراء لون الزبرجدِ

هي البكرُ لم تُنكحْ بماء سحابةٍ

ولا عُصِرَتْ بالرجل يومًا ولا اليدِ

ولا عبثَ القسيس يومًا بكأسها

ولا قرَّبوا من دنّها نفس مُلحدِ

ولا أثبت النّعمان تنجيس عينها

فخُذها بحدّ مشرفيّ مهنّدِ

وفيها معانٍ ليس للخمر مثلها

فلا تستمع فيها كلام المفنَّدِ

ستُبدي لك الأيام ما كنت جاهِلا

ويأتيك بالأخبار مَن لم يزوَّدِ

فلما سمعت ما قال، وكنت لم أفتهم إلا بعضه لقصور عربيتي حتى ذلك الوقت، زاد ترددي، لكنه ثبت عينيه، في إصرار بعينيّ، وكنت ما أزال قانطًا وروحي فاقدة لكل همة وفي أسفل سافلين، فمددت يدي إلى ما قدَّمه لي الحسين، وقد تمنيت أن يكون سُمًّا يُفنيني ويأتي عليّ، فأموت وأستريح من عذابات هذي الدنيا. ثم إني ابتلعت الكريّة واستعنت على ذلك بشربة ماء حار كما أمرني، بينما هو ينظر إليَّ متأملًا إياي، فما لبثت إلا قليلًا، حتى وجدت روحي قد هدأت، وشعوري قد راقَ وشَفّ، وشملني صفاء برواق، بينما لهيب الجمرات تشتد حمارته، وتستحسن عيني منظره وحلاوته، فلما رآني الحسين على هذي الحال، ضحك وراح يربت عليّ، ثم أخذ يُغني مرة أخرى، ويقول:

وخضراء بل لا تفعل الخمر

لها وثَباتٌ في الحَشَا وثبات

تؤجج نارًا في الحشَا وهي جنّة

وتُبدي لذيذَ العيشِ وهي نبات

قاطعته وأنا أقول بهدوء:

- فليسامحني الرب، ولتغفر لي ثورتي يا معلمي، فأنا تنتابني أحوال من صميم اليأس حينًا، فلا أدري لماذا يتوجب عليَّ مواصلة الحياة، وأن أتحمل مزيدًا من الألم والكرب. ثم إنني فضفضت بكلام كثير نحو هذا، وكأنني أرغب في البوح بكل هواجسي لأستريح.

ظل الحسين مُطرقًا إلى الأرض، مستمعًا إلى كلماتي حتى أفرغت كل ما بداخلي وأنا أحكي له قصتي، وكل ما عَنيته، فلما انتهيت وكان هناك شيء أشبه بالخدر يسري في أعطافي، فتنحلّ معه وتسترخي أوصالي شيئًا فشيئًا، رفع رأسه، وقال:

- اسمع يا ولد. أنت في حاجة إلى التسرية والتلهي، ويجب أن تتلهى بشيء، فلو ظللت على هذي الحال فلسوف تطق وتموت بالفعل.

ازدرد ريقه، بينما التمعت عيناه وابتسم ابتسامة ماكرة، قبل أن يضيف:

- هل تعرف النساء؟ سآخذك إلى بيت الخنا. هنالك لا بد أنك سوف تستريح.

قلت متسائلًا بدهشة:

- وما بيت الخنا هذا يا سيدي؟

ضحك بشدّة، فتحركت تفاحة آدم المتضخمة أسفل رقبته بسرعة، وكأنني قلت ما يُضحك، وردَّ:

- منزل هو كسلّة الفاكهة المُشتاة، تُقلّب فيها حتى تختار ما تشتاق إليه من صنوف النساء حسب ميلك ورغبتك، فيه البيضاء، والصفراء، والسوداء، والحمراء، فتقضي حاجتك وتطفئ شهوتك، حتى تستريح نفسك ويضيع قلقك وتوترك.

تملّكتني سَوْرة غضب شديدة، على رغم ما أنا فيه من خدَر وضعف، حتى إنني نسيت أنه معلمي في الوقايد، فقلت بغضب:

- ملعون أبو الشيطان، ماذا تظنني؟ ألم أقل لك إنني كنت قيمًا في كنيسة قصر الشمع بمصر العتيقة؟! أتظن أنني واصل إلى هذا الحضيض؟ ثم إنني لم أتمالك نفسي وقد داخلَني شعور بالضياع، فرُحت أبكي من جديد.

أسقط في يد الرجل وشعرت أنه ازداد إشفاقًا على حالي، ووجدته يهمس بحُنو:

- والله إنك لحنبلي أشد من ابن حنبل نفسه. اسمع أيها الولد الطيب، لماذا لا تتعلم قراءة وكتابة اللغة العربية؟ هذا شيء مناسب تتلهى به، ويحسّن كلامك الركيك، ونُطقك الملكون بالقبطية، وحتى تكف عن قول إديني، ودّيني، البتاع البتوع.. راح يضحك مرة أخرى، وهو يقلّدني عندما أتكلم، بينما أخذتني الفكرة فتوقفت عن البكاء، وبدأت أفكر فيما يقول. صمت قليلًا وتساءلت:

- ولماذا أتعلم العربية بالله عليك وأنا قبطي؟ أنا أستطيع التفاهم بها الآن، ولا توجد لديَّ مشكلة في الكلام مع كل مَن حولي هنا، والكل يفهم ما أقول وأنا أفهم ما يقولونه.

رد الحسين وهو ينظرني متأملًا:

- لا أعرف. أنا أحاول إيجاد سبيل يُخرجك مما أنت فيه، ولتشغل نفسك عمّا بنفسك من هموم وآلام، وقد أستطيع أن أعلمك شيئًا يسيرًا كل ليلة، أثناء فترات صبورنا على النار والوقايد حتى تنضج وتستعر.

ثم إنه تحرك مُسرعًا وأخرج العكيكة من الفرن، فتعجبت من نظرها، ولم أكن قد شاهدت طعامًا مثل هذا من قبل، فلما رآني أحدّق فيه مليًّا وقد ظهرت دهشتي، خصوصًا عندما جاء خادم وأخذها إلى المطبخ كي يُهيئها في الصحاف، قال:

لا تدهش، فكل يوم يمرّ سوف ترى فيه عجبًا، فهم يطبخون للخليفة من أطايب كل مطابخ الأرض، - والعكيكة هذه من الطبخات النادرة التي لا تُطبخ إلا هنا، ولا يعرفها حتى كثير من الخواص، وليس العوام فقط، وصنعتها كما شاهدتهم يصنعونها ذات مرة في المطبخ، أن تؤخذ الإلية الطرية، ثم تقطع وتسلى ويخرج حمّها، ثم يؤخذ اللحم السمين، يُقطع صغارًا ويُلقى على الإلية المسلية ويُحرك حتى يتورد، ثم يُجعل عليه غمرة ماء ويسير ملح، ويترك حتى ينضج وينشف، ولا يبقى من مائيته سوى الدهن، وتلقى عليه كسفرة يابسة، وكمّون مدقوقَيْن دقًّا ناعمًا ودار صيني، وفلفل مسحوق، ومصطكى، ويحرّك، ثم يؤخذ من اللبن الفارسي بقدر الحاجة فيُجعل فيه الثوم المدقوق، ويُطرح في القدر، ويُترك حتى يغلي، ثم تقطع النار من تحت القدر مثلما فعلت منذ قليل وتترك على نار هادئة حتى ينعقد اللبن ويقذف دهينه أعلاه، ثم يذرّ يسير من دار صيني مسحوق سحقًا ناعمًا، وتُمسح جوانب القِدر بخِرقة نظيفة وترفع.

ثم إنه راح يُدندن من جديد حتى غلبه الناس، فانقلب على ظهره ونام في موضعه على الأرض، بينما بقيت ساهرًا أفكر في كل ما قال وأنا أحدق في الجمرات ولهيبها المتراقص أمامي.

صارت معرفتي بالحسين بن فالح تتوثق شيئًا فشيئًا، فكلما مرت الأيام توغلت في دروب نفسه، وكشفت له عن آبار روحي. كان قد أخذ بتعليمي العربية، وكنت قد تعلمت منها شيئًا على يد عزيز عيني ثاونا في بر مصر قبل ذلك، وقد حمدت الله كثيرًا، لأن ما أدركته منها أعانني على مِحنتي التي عِشتها بأنطاكية، وكانت العبارات التي ألممت بها هي معيني وسبيلي في تفهم الذين التقيتهم هناك.

غير أن الحسين بن فالح المراغي هو الذي جعلني أتقدم وأحرز أشواطًا في تعلم العربية، فقد ظل صبورًا عليّ مثابرًا منذ البداية، بينما كان يُعلمني رسم الحروف بخَط موزون جميل، وهو الذي أتاني بدواة وحبر كان يضعه فيها بعد أن يصنعه بنفسه من سناج الفحم المتبقي بالوقايد بعد خلطه بالصمغ الحضرموتي الجيد، وكنا نسهر معًا كل ليلة، نتسامر ونتحادث حينًا، ثم يُعلمني شيئًا ونحن نتعاطى حشيشة الكيف، وهكذا صِرت أتقدم شيئًا فشيئًا، وأدخل عالم الحسين بن فالح الذي بهرني، وصيَّرني كالمسحور الصاعد على درج لا نهاية له، كلما صعد درجة، وجد نفسه مسحوبًا رغمًا عنه إلى الدرجة التالية، وقد بات يكشف لي بين الحين والحين عن وجه من وجوه نفسه العديدة التي لا تستبين وتتموه في ذلك القناع الجاف المُرتسم على قسماته وسلوكه الخشن الظاهر لكل مَن يعمل معه.

كنت مع مرور الأيام، أُدرك أن بداخل معلمي تمرمرًا مزمنًا يفسد عليه أي سعادة يرومها، وأي سرور يكون عليه، كان بين الحين والحين يُسرّب لي بعضًا من عذاباته بسبب عدم وقوفه على حقيقة أبيه، وبدا لي أنه لم يغفر لأمه أبدًا، ليس بسبب ذلك، وإنما لموتها المبكر، وقد غدر به وتركه وحيدًا في هذه الدنيا، فكم تمنى أن تظل إلى جانبه لا تذهب، حتى لو أتت له بألف شقيق، أو شقيقة من طريق الإثم والحرام! وكان حلم الحسين أن يتمكن ذات يوم من العثور على أبيه، والخروج من بغداد إلى موطنه الأصلي بمراغة باحثًا عن ذلك الأب المجهول ليطفئ نار عذاباته، لكن الحسين لم

يكن يخرج من القصر - في الحقيقة - إلا ليزور بيت الخنا في بغداد، فيترك نفسه للقيان من كل لون وجنس، يعود بعدها وقد هدأت روحه وسكنت نفسه، ولكن إلى حين، وفي مرة من المرات، وكنا قد بلغنا حالة من الصفاء، سألت الحسين لماذا لا يتزوج بواحدة ويكف عن التقلب بين مثل ذلك الطراز من النساء؟ كان السؤال قد خرج مني عفوًا، ودون ترتيب أو تدبير سابق، فكان أن داخلني حرج وصِرت كمَن يرغب في التراجع عنه، إذ شعرت أنني قد جاوزت حدّي، وأنني أدسّ أنفي فيما لا يخصني، غير أن الحسين أراحني بجوابه وأوقعني في مُعضلة روحية جديدة معه، فبينما أنا أحبه وأجلّه كثيرًا في بعض الأمور، إلا أنني لا أستطيع تجاهل معايبه والجانب المعتم الغامض من روحه، والأقرب إلى الوثنية أو الوحشية الأولى التي ظلت على حالها دون سُموها إلى الإنسي السامي، فقد ضحك الحسين طويلًا، وكأني سألته ما يضحك، فلما انتهى كحَّ وقال بجد:

أتزوج؟! أنا لا أريد أن أتزوج أبدًا يا بدير، فالحقيقة أن بي شيئًا يجعلني أرغب في كل نساء - الأرض، لا واحدة، ولا اثنتين، أو ثلاث، أو أربع يكفينني. أحيانًا أقول لنفسي: إنما ذلك بسبب أمي، ربما كنت أحاول القصاص منها في سرمحتي الدائمة مع النساء، ومرات أخرى أقول: إنما أنا أبحث عن امرأة على شاكلتها ولا أجدها أبدًا. لا أدري.. لكني على ما أظن لن أتزوج أبدًا مهما طالت أيامي في هذه الدنيا.

بدا لي الحسين، وهو يقول ذلك، وكأنه زنديق كافر، أو إنسان يتراوح دومًا بين الإيمان والكفر، أو الرذيلة والطهر، رُحت أحدق بعينيه علّي أجد ما يشفي غليلي ويرسيني على حقيقة أمره، غير أنه فاجأني بسؤال صدمني، إذ قال:

وأنت؟ لماذا لا تتزوج يا شاطر وتكفّ عن نسيان آمونة وسويلا؟ والله لو أخذتكَ مرة معي إلى بيت - الخنا، فلسوف تُدمن الأمر إدمانك لحشيشة الفقراء الآن، ثم أليس لك مثل ما للرجال؟! أليستَ بك حاجة إلى النساء، أم أنك عِنين بالميلاد، ولا رجاء فيكَ بهذا الأمر؟

غضبت منه للغاية، وقلت له: إن هذا ما لا يجوز من الكلام معي، فأنا لا أرغب الخوض في مثل ذلك. وندمت أشد الندم على سؤالي الذي أتاح له هتكَ ستر الحدود بيني وبينه، فلما وقف على تكدري وضيقي، ربتَ على كتفي واعتذر بكلمات تُطيّب خاطري، وقال:

- هيا أعلمكَ شيئًا جديدًا هذه الليلة.

كنت في الحقيقة أخاف أن أكاشف روحي بسؤاله، قبل أن أواجَه بإجابة ما، فلقد كنت وما زلت أتعذب برغبتي في النساء، فعلى الرغم من كل ما حدث، وعلى رغم مرارتي، وتجاريب الأيام الصعبة معهن، ولوعتي على آمونة وسويلا، وقسمي لنفسي ألا يكون لي أمر مع أي امرأة في الدنيا بعد ذلك أبدًا، إلا أن رغبتي بهن كانت تداهمني بين وقت وآخر، كنت ألاقي آمونة وسويلا في أحلامي مرات، فيحدث لي ما يحدث للرجال، فأفيق وقد أدركت أن الشيطان أغواني وورّطني في النجاسات، فأنقبض وأظل مهمومًا طيلة يومي، حتى يكون وقت المساء فأنغمس في عملي، إلى أن يدركني الحسين بحشيشة تُنسيني ما كنت عليه. والحق يقال إنني قد بدأت أتعود على هذه الآفة،

أتعذب حينًا لعدم وقوفي على محروميتها، وبتُّ لا أحيد عنها، لأنها تريحني وتدخلني في جنات تتهيأ لي وكأنها جنات عدن، وكأني أراها رؤية العين وألمسها لمس اليد، بل أشمها وأتذوق ما فيها، فألبث على هذي الحال ساعات من الوقت، أرفل في الرضا والسعادة حتى أفيق.

كانت الكتابة قد أزالت عن عيني غشاوات كثيرة، فبدأت أتدبر أحوال الدنيا، ضمن تدبري لأحوالي، بل كان ذلك سببًا في زيادة طلبتي للأسئلة، لمعرفة أحوال الخلق والعالم، ولا أدري، كيف كان يتم ذلك! فالحسين بن فالح كان يَدفع بي من سؤال إلى سؤال، وكان تعليمه لي بابًا فتحه لألج منه إلى أبواب أخرى، أدركت من خلالها أمورًا عدة، بما في ذلك أمور الحسين نفسه، فلقد كنت أظن أن الحسين يبتعد عن القصر حينًا، ليزور بيوت الخنا، أو للوقوف على أخبار أبيه والبحث عنه مع الذين قد أدركوا أمه وقت اشتغالها بالأسواق، لكنني تفطنت إلى أن الرجل كانت له شئون أخرى بالمدينة، فهو ينتمي إلى جماعة من الناس تهدف؛ كما يقول، إلى إقامة العدل على الأرض. لم أكن أعرف شيئًا عن هذه الجماعة، لكن الحسين كان يحادثني طويلًا عن أحوال الناس في مدينة الخلافة، وعن آلاف الجوعى الذين لا يجدون قوت يومهم، بينما هنا في القصر تُبذل الأطعمة والمآكل على قلة من حشَم وخَدم وجواري الخليفة، الغارق في ملذاته، والعائش عيشة أكاسرة العجم زمن الوثنية، وكان يقول لي: إن الإسلام دين عدل ومساواة بين البشر، فلا السواد، ولا البياض، ولا الغَني ولا الفقير، ولا الجنس ولا الأصل، هي أسباب للتفريق بين البشر، وباعث لتسلط بعضهم على البعض الآخر، وكان يحكي لي كثيرًا عن نبي المسلمين مُحمد وعن الإمام علي ابن عمه، وكيف كانا ورعَيْن عادلَيْن، أقاما الإنصاف بين الناس، ولم يكن هناك معيار للتمييز لديهما غير تقوى الله والورع والصلاح، وكنت عندما أخلد إلى نفسي قبل النوم، أو عندما أنصرف وحدي لأمر من أمور الوقايد، أفكر في كل ذلك، وأعقد بينه وبين ما في ديني من أمور وصفات تتشابه وتختلف مع ما في الإسلام من معانٍ ودلالات، وكنت أتوصل في النهاية إلى أن الرب، هو رب كل البشر أجمعين، وأن جوهر كل ديانةٍ ما هو إلا هداية البشر، ودفعهم إلى طريق السلام والطمأنينة، وصعود بمداركهم الوحشية إلى مراتب إنسية سامية، ثم إن الحسين ارتأى ضرورة تعليمي القرآن حتى أتمكن من العربية، وأقبض على ناصيتها بثقة ورسوخ، فأخذ يُحفظني بعضًا من آياته، بعد أن أعلمني أنه مسموح لغير المسلمين من المِلل الأخرى بقراءته والاطلاع عليه، شرط أن يكونوا طاهرين بعيدين عن كل دنس ووسخ، وهكذا بدأت الدخول إلى جنة الفرقان، وقد وجدت في آياته ومعانيها سلامة وعبرة، وبدأ قلبي ينفتح للإسلام شيئًا فشيئًا حتى بدأت أرغب في الإسلام.

والحق يُقال، فلقد ظللت مترددًا متشككًا وقتًا، بل بقيتْ روحي مُعذَّبة حائرة بينما كنت أسأل نفسي الأسئلة وأتمثل أمامي عزيز عيني ثاونا وهو يجيبني عليها، وكثيرًا ما قلت لنفسي: لو كان ثاونا مكاني فإنه لا بد أن يؤمن بما آمنت به، ويدخل في دين الإسلام مثلما أرغب وأريد، ثم إنني عندما كنت جالسًا وحدي أمام الوقايد في نهاية ليلة من الليالي أفكر مُحدقًا في النار، تذكرت ما قاله لي ثاونا ذات يوم، من أنه قرأ في إنجيل قديم جدًّا عندما كان في دير بصحراء القلزم - وهو من الأناجيل المرفوضة في الكنيسة الآن - أن السيد المسيح ذكَر لتلاميذه أن ابن الموعد هو إسماعيل، وأنه جاء ليمهد الطريق أمام المسيح المنتظر، بل أكد أنه ليس أهلًا لأن يحل سيور حذائه، وأن هذا المسيا هو محمد نبي المسلمين، ومن علامات ظهوره سقوط عبادة الأصنام، واستقرار غمامة بيضاء عليه عند

ارتحاله من موضع إلى موضع، وأن الكنيسة رفضت هذا الإنجيل، المُسمى إنجيل برنابا، والمحتوي على رسالة برنابا هذا، وعلى جزء من كلام راعي هرمس، إضافة إلى ما تحويه الأناجيل الصحيحة الأخرى. كانت أفكاري قد تبلبلت وقد تذكرت كلام ثاونا هذا، وبقيت وقتًا جامدًا أفكر في معنى كل ذلك الكلام، وبينما أنا جالس على هذي الحال، إذ شعرت وكأن يدًا قد لمست كتفي لمسًا حانيًا خفيفًا، فالتفت لأرى من ورائي، إذ كنت مدركًا، أن كل مَن حولي نائم وحتى معلمي الحسين بن فالح، فتعجبت إذ لم أرَ أحدًا واقفًا خلفي، وإذ استدرت لأرى، سمعت همس ثاونا قويًّا واضحًا في أذني: !لماذا أنت خائف بالله عليك. افعلها وتوكل على الله

لا أدري هل كان ذلك هو الوقت الفاصل الذي أعلنت لنفسي فيه دخولي دين الإسلام، أم أن الأحداث المتواترة بعد ذلك هي التي دفعتني دفعًا إلى ذلك؟ إن اللحظات الفاصلة في الحياة هي أصعب اللحظات وأبعدها عن اليقين، فهي ومضات يغلب فيها الجوهر على المظهر، وتتخالط فيها الثوابت الساكنات مع المستجدات المتغيرات، وتضيع فيها الإجابات مع الأسئلة: متى؟ وكيف؟ ولمَ حدث هذا؟ إنها البرزخ الفاصل الواصل بين ما كنت وأصبحت، وقد اكتملت ليلتي بما لم أكن أفكر فيه أو .أنتويه، إنما هو قُدّر لي، وطريق لم أملك إلا السلوك فيه

بعد ذلك بقليل غفوت وقد قرّ عزمي على أن أنبئ الحسين بن فالح برغبتي في إشهار إسلامي عندما أفيق، وكنا قد تعاطينا حشيشة الفقراء معًا قبل أن ينام، ولا أدري كم من الزمن نمت؟ أو كيف مر الوقت وأنا نائم؟ فقد أفقت مذعورًا بينما الحسين يهزني بعنف، وأصوات الديكة بحظائر القصر :تخترق مسامعي، وهو يقول لي

بدير.. فزّ بسرعة، إنهم يطلبون مجمرة جديدة للخليفة، لأن ما لديه في مجلسه من نار قد صفا - .وانطفأ وقارب على الانتهاء

قُمت مهرولًا بسرعة، أحضرت المجمرة، ورُحت أضع الجمرات فيها بكماشة النار النحاسية، التي هي على هيئة فك أسد، وبينما كنت أوشك على الانتهاء من ذلك وأهم بارتداء نعلي للذهاب، جاءني :صوته حازمًا آمِرًا

- .تهيأ ولا تتهيب

لم أعِ المقصود بعبارته، إذ كنت ما أزال بين النوم والصحو، لكني سارعت الخُطى وراء الحارس الذي جاءنا طالبًا النار، والمجمرة في يدي أحملها بكل احتراس وتنبه، ورُحت خلفه أجتاز دهليزًا إثر دهليز مهتديًا بنور الشعلة التي يحملها، ثم إني هبطت أفنية وفسحات وصعدت سلالم خلفه، حتى وصلنا أخيرًا إلى موضع عليه باب مهيب التمعت فضته وذهبه على ضوء شعلة الحارس، بينما وقف ديدبانان لم يسمحا لنا بالاقتراب من ذلك الباب، بل راح أحدهما يطرقه طرقات حيية، وتراجع خطوات إلى الخلف مشيرًا إليّ أن أتقدم، وبينما هممت بالخطو، إذ بالباب ينفتح لتتبعث من ورائه :أصوات غناء وطرب، بينما شاديةٌ يتصاعد صوتها سحرًا ودلالًا وهي تنشد

يا ليلَ دُمْ لي لا أريدُ صباحًا

حسبي بوجه مُعانقي مصباحًا

حسبي به بدرًا وحسبي ريقه

خمرًا وحسبي خده تفاحًا

وما هي إلا ومضة زمان، حتى استبانت عن الفتحة الموارية للباب جارية لم أرَ أحسن منها منظرًا وقد امتثلت أمامي، ولا شيء عليها غير غلالة رقيقة مقصّبة وقدّمت كوزًا من لجين ما كان إلا يدها لتتناول المجمرة مني.

لن أدرك أبدًا، مهما مرّت بي الأيام، هل كنت أعيش الحقيقة خلال ذلك الوقت، أم أنني كنت في فردوس ونعيم؟ هل كانت حشيشة الفقراء هي التي هيأت لي ما تهيأ، أم أنها كانت الحقيقة متجلية عيانًا لكل مَن رأى وشاف؟ فصورة الجارية بدت لي على نحو نوراني لا يمكن أن يكون جسدانيًّا، خصوصًا وأنها بدت لي خلال وهلة من الزمن وكأنني رأيتها قبل ذلك. وقفت متسمرًا هنيهات، أشحذ ذهني غير مصدق، وفجأة تذكرت منامي الذي كنت قد رأيته ذات مرة وأنا على الحراقة في البحر وقت إبعادي عن بر مصر، فلم أتمالك نفسي وكاد أن يُغمى عليّ؛ إذ أدركت أن هذي الجارية ما هي إلا الفتاة التي كانت تدفعني في الماء إلى البر وأنا لا أعرفها، فها هو حالك الليل المنهمر شلالًا حتى الردفين على بياض جسدها الظاهر عبر الغلالة اللطيفة، وها هو المبسم الياقوتي ينفرج عن السن الوضاء الذي رأيته في منامي.. أما العينان فكانتا النار التي أحرقت حسّي عندما رأيتهما تلتمعان بغزير الخضار بينما هي تنظر إليَّ، فشعرت بدوران الأرض تحتي بينما راح بُركان يثور بدمي، ورياح تعصف بصدري، وبدلًا من سقوطي على الأرض بما أحمل في يدي، وقد شملتني زلزلة جوانية عنيفة، وقد رأيت نهدَيْها وأوشكت على ملامستهما والقبض عليهما لأهصرهما بيدي، وجدتني ودون أن أدري أمد راحتي ببُطء إلى جمرات النار المُشتعلة، وقد تسمَّرت في مطرحي، وتجمّد ناظري على البدر النوراني المشعشع أمامي، ثم رُحت أحفن هذه الجمرات وأقبض عليها بقوة وعنف، وقد توقّدت بداخلي واشتعلت جمرات من نار أقوى وأشد، وصِرت كمَن مسّه مسّ من شيطان أو جَان، فلم أشعر بأدنى حرقة أو ألم، ولم تندّ عني آهة أو صرخة، وكأن ما حفنته وقبضته لم يكن إلا قبض ريح أو زلال ماء.

نظرتْ إليّ الجارية مذهولة - وكذا كل مَن كانوا حولي - ما إن رأوا يدي قابضة على الجمر، وقد بدأت راحتي في الاحتراق والتهرؤ، فما لبثت الفتاة قليلًا إلا وصرخت صرخة عظيمة وكأن الصيحة قد أدركتها، لتسقط على إثرها مغشية عليها أمام الجميع.

لا أدري كم من الوقت مرّ عليَّ وأنا على هذه الحال، كل ما وعيته بعد ذلك هو أن رجلًا ظهر في جمع حوله، وعليه طيلسان مذهب، ما إن رآه الديدبانان والحارس، حتى خرّوا ساجدين جميعًا، فأدركت أنه الخليفة، لكني بقيت على ما أنا عليه، لا أبالي بكل ما حولي، ولا أشعر بلهيب النار تأكل

جلدي ولحمي، فما إن رآني الرجل على هذي الحال، والجارية ممددة على الأرض، حتى هتف بصوت مهزوز، أحسنت هزته قوة المفاجأة، وقال بكل هيبة ووقار:

- فليرحمك الله، وليغفر لنا أيها الشاب المسكين. اذهب أيها العبد. أنت طليق، والجارية لك.

ثم تركنا ودخل من حيث جاء.

* * * *

خرجت من قصر الخليفة في صبيحة اليوم التالي، أصطحب الجارية، ومتاعي القليل وقد كوّمته في بقجة، وكان كل ما أملكه قليلًا من الدريهمات أعطوها لي وقالوا إن الخليفة نفحني إياها مع الجارية، إضافة إلى رقعة موقّعة وممهورة بما يثبت أن الجارية ملكي يجوز لي التصرف فيها مثلما أشاء، فيحل لي الاحتفاظ بها أو بيعها أو وهبها، وكان معلمي الحسين بن فالح قد سارع بمداواتي بعد رجوعي إلى الوقايد، فدهن يدي بزلال بيضة ودهن صبّار ورشّ عليها بعضًا من طحين، وعلى رغم آلامي التي كانت لم تزل قوية، حاضرة في راحتي، إلا أنني كنت سعيدًا بعتقي وعودة حُريتي، وفي ذات الوقت داخلني شعور بالتعاسة بسبب فراقي الحسين بن فالح، وغلب همّي لأني مُغترب في هذه البلاد، ولا أحد أعرفه فيها غير الحسين، وها أنا مضطر إلى مفارقته منذ هذا الحين. والحقيقة، لقد خشيت أن تعصف بي التعاسة والضياع، فأهيم على وجهي مرة أخرى، مثلما كان الأمر في مبتدأ زماني، وقبل التحاقي بكنيسة قصر الشمع.

غير أن الحسين - أيده الله - رتب لي كل شيء، فبينما هو يودّعني ونحن سائران معًا إلى باب القصر، أعطاني مكتوبًا لبعض أصحابه ونصحني بالتوجه إليهم في ناحية من نواحي المدينة، وقال إنهم سيقدمون لي كل عون، وسيكونون بالنسبة لي بمثابة الإخوة والأوفياء.

ثم إنهم أعطوني مكتوبًا بالأمان من الخليفة، لئلا يعترضني حرس، أو معترض من أُولي الأمر في المدينة، أو أي من أهل الاختصاص، فسِرت بقلبٍ وجلٍ مخطوف، وخلفي الجارية تتبعني، وكان بي كثير من تخبط وحيرة، فأنا لا أعرف إلى أين أتجه، وهل أتقدم يمينًا أم يسارًا، وكنت لا أجرؤ على الالتفات للتطلع أو النظر إلى الجارية، بينما هي تسير صامتة لا تقول شيئًا، فلما غاب قصر الخليفة عن بصري التفت إليها، وكنت قد فكرت في أمرها طويلًا، فقلت لها بعد أن استجمعت شجاعتي، وبذلت طاقة كبيرة لتُعينني على الكلام:

- تستطيعين مفارقتي هنا. أنتِ حُرة من الآن، ولا حاجة لي بكِ.

فغرت الجارية فاها، وتوقفت عن المسير، وقد أُخِذت بما أعلمتها به، وقالت:

- إلى أين أذهب؟ أنا لا أعرف أحدًا في هذه المدينة، وقد نشأت قبل أن أشب عن الطوق في قصر الخليفة. قل لي بالله عليك ماذا أفعل يا سيدي؟ بربك أبقني معك، ولسوف أكون أمتك وأينما كنت

وإلى الأبد.

أُسقِط في يدي، وشعرت وكأنني قد وقعت في ورطة حقًّا، فقد كنت بعد عودتي إلى الوقايد، إثر ما جرى لي على باب الخليفة، قد أُصِبت بنوع من الذهول وفقدان الشعور، على الرغم من مواساة الحسين بن فالح لي ومحاولته طمأنتي، وتندّره عليّ لفوزي بجارية لا يحلم أحد بمثلها قط، ناهيك عن أنها من جواري الخليفة الخواص، وهكذا بِتّ ولا رغبة لي في شيء من الدنيا، خصوصًا جنس النساء، وقد أدركت بعد كل ما جرى في الليلة الفائتة، كم أن النفس ضعيفة تجاه شهوات الجسد! وكيف أن هذه الشهوات تُسقط المرء من علياء إنسانيته إلى جحر حيوانيته في لحظات سريعة! فكرهت أن تكون نفسي على هذا النحو من الضعف والانحطاط، وعاهدت ربّي ألا أفعل ذلك بوديعته أبدًا، فلا أضع روحي في موضع التحقير والإذلال؛ لذا وجدتني أقع في حيص بيص ولا أدري ما أنا فاعل مع هذه الجارية حقًّا، لكني رفقت بها وبحالها فقلت:

- إذن.. اذهبي معي إلى حيث أنا ذاهب، لكن أنتِ من الآن بمثابة أختي ابنة أبي وأمي، ولن ألمسكِ أبدًا مهما كان الأمر، وليُقدّر لك الله كل خير، ويعينني على نفسي وما تقدّمه الأيام.

سِرنا بعد ذلك ونحن نتجاذب الحديث، فعرفت أن الجارية اسمها ريطة، لكن هذا ليس اسمها الأصلي، فلقد خُطفت وهي طفلة صغيرة في غارة من غارات اللصوص على بعض المواضع التي كان يقيم بها أهلها من البدو والمرتحلين، من مكان إلى مكان، وهي تذكر أمها جيدًا وما فتئت تحِن إليها بين حين وآخر، وكانت أمها تناديها تمارا، وقالت لي إنها لا تعرف لها أهلًا منذ أن بِيعت لنخّاس ببغداد، وظلت تنتقل من سيّد إلى سيّد، حتى وهبها آخِر رجل كانت عنده كهدية إلى الخليفة، فجعلها في مجلسه، بسبب مهارتها وحذقها في الدق على الآلات، وصوتها الحلو في الطرب والغناء.

تتبعت الخريطة التي رسمها لي الحسين المراغي بدقة، فقطعت دروبًا وحارات مُنعطِفًا ذات اليمين مرة، وذات الشمال مرّات، ثم إنني عبرت جسورًا على النهر، وأخيرًا وجدتني مع الجارية في خطة من خطط المدينة يقال لها خان أبي زياد، وهناك سألت عمَّن أقصده وهو الشهاب الحلاج، وكان النهار قد استبان وتوضح بنور شمس مهيمنة عنود لا ترحم، فدلني الناس على موضع به رجل في دكّانه يحلج القطن مع صبي له، فلما رآني واقفًا ببابه قام إليَّ فتقدمت منه، وعرّفته بصفتي وحالي، ثم أعطيته رقعة كان قد كتبها له الحسين بن فالح، فلما قرأها أشار إلى صبيّ من صبيانه وطلب منه أن يأخذني إلى ربع قريب، كان به منزله، فلما اقتربنا منه وجدته دارًا قوراء نبيهة البنية بالنسبة إلى ما جاورها، ساذجة بادية مُلطخة الجدران بالطين الأحمر، متقابلة الأشكال، ثم إننا ولجنا خلف الصبي إلى بيوتها وكانت غُرفًا لاطية السقف غير مهذبة الخشب، بأعلاها غُرف من جنبها، يدور بداخلها برطال مُستعلٍ على أرجل مُتخَذة من اللبن والحجر والمُلبّس بالطين على غير دراية أو نظام.

ثم إن الصبي نادى من خلف أبواب الغُرف على أهل البيت، فجاء صوت امرأة أظن أنها كانت زوجة الشهاب الحلاج، لأنه قال لها: زوجكِ يُقرئكِ السلام ويبعث لكِ بهذا الرجل وجاريته، فأنزليهم

منزلة أهل البيت.

وما لبثنا إلا وخرجت إلينا امرأة مستورة لا يستبين منها إلا عينان واسعتان كحبتَيْ لوز، فحيتنا وسألت الصبي أن يسبقها ويصعد بنا إلى واحدة من غُرف البيت حتى نعرف مُستقرنا ونستريح، فلما دخلنا الغرفة، ذهب الصبي إلى المرأة وغاب قليلًا، ثم عاد إلينا بصحفة عليها بعض من سفرجل، وتفاح، وشراب ورد لا أظنني شربت أطيب منه في يوم من الأيام.

كنت خلال ذلك، ما أزال أفكر في أمر الجارية، وبِت حائرًا أتراوح بين التخلي عنها والإبقاء عليها، فلما جاء الشهاب قرب حلول المساء بعد فروغه من عمله ودكانه، جلس إليّ، فبُحت له عما بنفسي تجاه الجارية، وأخبرته برغبتي في مفارقتها، على نحو لا يُسبب لها ضررًا، ولا يُلحق بها مكروهًا.

فكّر الشهاب قليلًا، ثم أشار عليّ أن أترك الأمر بضعة أيام حتى يأذن الله في أمر الجارية، ثم إنه قام وأخذها إلى امرأته لتبقى معها وتكون بمثابة الأخت لها، ووعدني بأن يجد لي من العمل في الأسواق ما أقتات منه ويعينني على صروف الأيام، وذلك بعد أن تُشفى يدي وأصبح قادرًا على ممارسة الأعمال.

وكنت خلال أيام مكوثي ببيت الشهاب، أشمّ روائح ذكية بين الحين والحين فأتعجب من أن يكون لمثل هذا الموضع كل ذلك النسيم العاطر، فلما توثقت علاقتي بالحلاج بسبب جلوسه إليّ وقتًا كل ليلة بعد فروغه من عمله، وصار بيننا تباسُط في الحديث، قلت له: إن لبيتك رائحة ذكية لا تغيب، تجعلني أشعر وكأنني في بستان ورد أو مرج زهر، والله لإنكم؛ أنت وأهلك، من المحظوظين إذ تقطنون موضعًا كهذا، قد لا يوجد مثله في المدينة أبدًا.

ضحك الشهاب ورد قائلًا:

أتظن ذلك؟ الحقيقة يا ولدي أن امرأتي تشتغل بصنع العطر ودهن الطيب، وهي في دارها، وتبيعه - للدلالات والنساء اللواتي يقصدنها لهذا الغرض.

ثم إنه وعدني أن يريني موضع عملها هذا في الدار، فلما أصبحنا، صحبني الشهاب إلى حجرة سفلية في مبتدأ صحن الدار، فوجدت فيها ما لا يُحصى من القوارير الصغار والكبار، منها النحاسي ومنها الفضي والزجاجي، وكلها مليئة بالعطور، وكذا أحقاق مُلئت بدهن الزهور، فكان الحلاج يجعلني أشتم منها شيئًا ويقول لي صفة كل منها، فهذه مُتخذة من البنفسج، وهذه من النيلوفر أو النرجس، وهذه من الكارده أو السوسن، وكانت هناك مجموعة أحقاق جميلة صُنعت من الخشب المحفور على هيئة أطيار، وقد عُبّئت - كما قال - بدهن الزنبق، والمرسين، والمرزنجوش، والبادرنك، والنارنج. فتعجبت من كل ذلك ومن كون امرأته تعمل في مثل هذا، وأجللتها كثيرًا مثلما أجللته، إذ بدا لي مُحترِمًا لامرأته، ومُقدرًا لعملها.

ألحقني الشهاب الحلاج بخدمة صاحبٍ له يُدعى العفيف الوراق، وكان الرجل مشتغلًا بصناعة الكِتاب، يدفع الناس إليه بما يُؤلِّفون ويُبدعون، فيقوم بنَسخه وتجليده بورق يصنعه وأحبار يعدّها لذلك الغرض، فتخرج آية في الجَمال والإتقان، وعلى نحو يحفظ للزمان ما كتبوه وخطّوه.

كان ذلك قد تم بتوفيق من عند الله، وبمحض الصدفة، ففي ذات ليلة دخل عليّ الشهاب بينما كنت ساهرًا أخطّ بعضًا من دروس كان قد لقّنها لي الحسين بن فالح، فشاهد ما كتبت وكان آية قرآنية جميلة من سورة العصر، وهي: ٹنٻ ٍ ٍ پ ٹم ، فسُر الرجل لما شاهد من خطّي سرورًا عظيمًا وقال:

يا الله.. إن لكَ خطًّا جميلًا.. حُلّت مسألتك والله. من الغد سأعهد بك إلى العفيف الورّاق، ولسوف يفرح بك فرحًا عظيمًا.

كان دكان العفيف يقع في سوق الثلاثاء بالقرب من درب العاج بخارطة باب الطاق، وقد أُخِذت بسوق الثلاثاء هذا منذ أن دخلته ووطأته قدمي لأول مرة، وذلك بسبب اتساعه وكثرة دروبه، فهناك درب للزيت، ودرب للأساكفة، وسوق للبطيخ، وآخر للصبانين، وقد علمت بعد ذلك أن هؤلاء باعوا مرة في ليلة عيد الفطر ألفًا، وألفًا، وخمسمائة ألف رطل صابون، على حساب أن كل إنسان يحتاج في ليلة العيد إلى رطل من الصابون. كما باع الزياتون ألف جرّة، ومائة جرة، وثماني جرار ونصف زيت، حساب الجرة ستون رطلًا.

وكانوا يصنعون بهذه السوق سويق الحمص ويبيعون منه كميات مهولة، حتى قيل إن ما بِيع منه في وقت من الأوقات كان مائة وأربعين كرًّا لم يبقَ منها شيء، وسويق الحمص غير طيّب إنما يأكله المتحملون، والضعفاء شهرَيْن أو ثلاثة، عند عدم الفواكه، ومَن لا يأكله من الناس أكثر.

كان العفيف رجلًا هادئًا كتومًا، قلَّما رأيته مبتسمًا أو منفرج الأسارير، بل بدا مهمومًا دومًا، وكان شعره أشيب ووجهه مغضنًا، على رغم كونه شابًّا لم يقف على عتبات الكهولة بعد، وكانت تلازمه جزّة بأضراسه كمَن يصطبر على غمّ، أو يكتم غيظًا لا ينقضي، وكنت أظنّ في البداية أن سُكاته وصبره من طبيعة نفسه، لكنني أدركت بعد أن أوغلت شيئًا في فنون هذه الصناعة، أنها ربما كانت طالبة لمثل هذه الخصال، فالرهافة، والإخلاص، والاصطبار إنما هي من لوازم مَن طلب الوراقة، والخط، والنسخ، والتزيين، والتجليد، فكل هذا إنما يحتاج ابتداعًا لا يتأتى إلا بالتخييل وفن الأفكار.

ولقد فتحني دكان العفيف على عالم لم أكن أُدركه من قبل وهو عالم الدرس والبحث، فلقد كان ذلك الدكان محجًّا لكل مشتغل بتحرير الأدب وكتابة العلوم، وكثيرًا ما كان يلتقي أصحاب الحاجة للنسخ فيه، فيتصادف أن تدور بينهم المحاورات، ويشتعل جدلهم بمُتباين الأفكار، فأظل مستمعًا إلى ذلك، بينما أنا أعمل فيما يوكله لي معلمي؛ صاحبه، من أعمال، وقد رأيت في هذا الموضع بالسمع، ما لم أره طوال حياتي بالنظر، وعرفت أقوامًا لم ترهم عيني، لكني أدركت أفكارهم ومعتقداتهم، ووقفت على علماء، وأعلام، وشموس، وأقمار في سائر العلوم والمعارف عبر ما كتبوه وابتدعوه وجُلت ببغداد وأنا في موضعي أخط ثمار فكرها، وخلاصة عقلها، فأيقنت أنها حاضرة الدنيا، وهي مسجد،

وحانة، وقارئ، وزامر، ومتهجد يرتقب الفجر، ومصطبح في الحدائق، وساهر في تعبُّد، وساهر في طرب، وتخمة من غِنى، ومسكنة من إملاق، وشك في دِين، وإيمان في يقين.

وكنت في مبتدأ اشتغالي مع الرجل موقفًا على تعطين القطن المجلوب حينًا من بقايا ما يعمل صاحب الشهاب الحلاج، أو مما لدى الحلاجين الآخرين بالسوق، فكان عليَّ أن أخلط بقايا القطن بالخِرَق القديمة والماء حتى تتعطن وتتعجن وتصبح صالحة للفرد، ولم يكن مسموحًا لنا؛ نحن صبيانه ومعاونيه، الاطلاع على صنعة الفرد، ولطافة الورق، ومواءمته الكتابة والنسخ، وقد كنت أتعجب لذلك في بادئ الأمر، لكني افتهمت بعد ذلك أن هذه عادة كلّ الوراقين، فسرّ الصنعة إنما هو شأنٌ لا يصح أن يدركه سواهم، حتى تظل فيهم فيُحكمونها ويُسيرونها وفقًا لمشيئتهم وأهوائهم.

وكان هناك نوع من الكاغد يتم تعتيقه، حيث يتخذ من الأواني النحاسية المناسبة ما يوضع فيها الماء العذب الصافي ويطرح فيها النشا النقي الجيد ويتم غليان ذلك حتى ينقص الماء، ثم يُضاف إليه يسير من مادة الزعفران بقدر الحاجة إلى تلوين الورق، أو يُصب في أطباق وصِحاف واسعة، ثم يُغمس فيه الورق غمسًا رفيقًا، ثم يُنشر بعد ذلك لكي يجف، حتى لا تلتصق أطراف الورق ببعضها البعض، وكلما جف يسيرًا قلب على الغاب لئلا يلتصق فيه، وهكذا حتى يصير الورق في أحسن حالاته لاستخدامه في الكتابة.

وذات نهار وبينما نحن منصرفون لعملنا بالدكان، إذ سمعنا أصواتًا تتعالى وصراخًا وعويلًا، فقُمنا جميعًا لننظر الأمر، فإذا حريق ضخم قد اندفع في سوق الخرازين، والناس قد تكالبت لإطفائه، والقرايبية رائحون غادون بالماء المنقول، فلما هدأ الأمر بعد ساعات وظهر أن حدّ ما احترق من أول سوق الخرازين إلى طاق الحراني، قيل إن السبب في حدوث ذلك هو أن جَملًا عليه قصب اجتاز في سوق الخرازين، وكان رجلٌ يثقب لؤلؤًا وبين يديه نار، فوقع طرف القصب على النار فاشتعل وبلغت النار الجَمل في لحظة، فكان الجَمل كلما أحس وقْع النار عدا، وتناقض الشرار من جانبَي الطريق فحرق كل ما يجتاز به، فلم يزل على ذلك إلى أن تلف الجَمل، وقد تلف ناس كثير في الدور والعقار التي لحقها الحريق، وزالت نِعَم عظيمة بذهاب الأموال.

وفي مبتدأ الأمر، لم يكن العفيف يسمح لي بالنَّسخ، إذ كنت ما أزال جاهلًا غشومًا بذلك الفن العظيم، والذي يحتاج إلى حذق ومهارة، إنما كان يَعهد بذلك إلى اثنين من معاونيه يُعينانه على ما يتكاثر عليه من كُتب يطلب نَسخها طلاب العلم وأصحاب المصلحة والحاجة، وكان أحسن الورق ما كان ناصع البياض، غرفًا، صقيلًا، متناسب الأطراف، صبورًا على مرور الزمان، وأعلى أجناس الورق فيما رأيت هو البغدادي، وهو ورق ثخين مع ليونة، ورقة حاشية، وتناسُب أجزاء، وقطعه من الشائع المعروف، ولا يُكتب فيه، في الغالب، إلا المصاحف الشريفة، وربما استعمله كُتّاب الإنشاء في المكاتب الديوانية، ودون ذلك في الرتبة الشامي، وهو على نوعَيْن: النوع الدمشقي، ونوع يعرف بالحموي، وهو دون القطع البغدادي، ودونهما في الرتبة الورق المصري الذي قلّما يصقل وجهاه جميعًا، وما يصقل وجهاه يعرف بالمصلوح، ثم هناك ورق الفوي؛ وهو صغير القطع، خشن غليظ، خفيف الغرف لا يُنتفع به في الكتابة، إنما يتّخذ للحلوى، والعطر، ونحو ذلك، ودون ذلك كله ورق

الروم والفرنجة، فهو رديء جدًّا، سريع البلى، قليل المكث، وقد رأيت بعضه على غير اتفاق عندما مرّ على العفيف، بالدكان ذات مرة، رجل من تجار الكارم الذين يجوبون الآفاق، ويذهبون إلى أرض البنادقة، فعرض بعضًا منه على العفيف، كان صكًّا مكتوبًا بالخط اللاتيني، لأمر من أمور تجارته.

ثم إن العفيف أشركني في تعلُّم صناعة الأحبار وسِرّها رويدًا رويدًا فأدركت ما يناسب منها الكاغد؛ أي الورق، وهو حبر الدّخان، ولتحضيره يؤخذ من العفص الشامي، وهو ثمر يؤخذ من شجرة، قدر رطل، يدقّ جريشًا، وينقع في ستة أرطال من الماء مع قليل من الآس أسبوعًا، ثم يُغلى على النار حتى يصير على النصف أو الثلثين، ثم يُصفّى من مئزر ويُترك ثلاثة أيام، ويُصفى ثانية، ثم تُضاف إلى كل رطل من هذا الماء أوقية من الصمغ العربي، ومن الزاج القبرسي كذلك، ويُضاف من الدخان المتقدم ذِكره ما يكفيه من الحلاكة، ولا بد له مع ذلك من الصبر والعسل ليمتنع بالصبر وقوع الذباب فيه، ويحفظ بالعسل على طول الزمن، ويجعل من الدخان لكل رطل من الحبر ثلث أوقية، وذلك بعد سحق الدخان بكلوة الكف، بالسكر النبات، والزعفران الشعر، والزنجار إلى أن يُجاد سحقه، ويمنع صحنه في صلاية أو هاون حتى لا يفسد وتضيع جودته.

ثم إنه أخذ يُشركني في ذلك الأمر رويدًا رويدًا، وقد ظهر منّي ما استحسنه في ذلك الجانب من حُسن الملاحظة والمثابرة على الرسم والكتابة، والتوفيق في براية الأقلام، وما لكلّ من سني القلم من الحروف، وأجناس قطّ الأقلام، وهو المقصود الأعظم من البراية، وبعد أن تمكنت بدرجة من هندسة الحروف ومعرفة اعتبار صحتها، فالألف هي شكل مركّب من خط منتصب يجب أن يكون مستقيمًا غير مائل إلى الاستلقاء ولا انكباب، ومساحتها في الطول تكون ثمانية من نقط القلم الذي تكتب به ليكون العرض ثُمن الطول، وهكذا يكون لكل حرف سِرّه وسببه في الشكل والهندسة، وكان مبتدأ ما خططته نَسخًا هو نوع من التعاويذ يُقال له الأحجبة، وقد كنت أظن أنها لا تُكتب إلا بالقلم الوثني، مثلما كان يفعل قدامى الكهان في بر مصر، ومثلما رأيته أكثر من مرة مع عزيز عيني ثاونا، لكن العفيف أخبرني أن الأحجبة هي من شأن بعض المشايخ، وأنه لا يُحبذ الاشتغال بها، لكن كثيرًا ما كان يجيئه بعض الناس، ويُلحون عليه في كتابتها، وكان أغرب ما كتبت على هذا النحو حجابًا لرجل أراد الطير في الهواء فنسخته على رق جاء فيه أنه من أعمال السبع الكلمات المذكورة المُسماة القيراشية؛ وهي عزيمة مستجابة، ولا يعمل بها فيما يُسخط الله ولا تُستخدم إلا في رضاه، يجب تبخيرها بالعود بعد قراءة الأسماء، وكتبت فيها: ٤٧٢٦٥ حه قيراش حه هيتزا خورش جه منذ أقشطسن حه، عنطلنطهسن حه عدا نقش حه دينا نقشن حه كطلطيسن طلعود لطسن حه، بحق بعضكم على بعض، وبحق الكواكب السبعة، وبحق مَن اسمه وطاعته واجبة عليكم، إلا ما قضيتم حاجتي وكنتم عوني، وكذا أقسمت عليكم بالملك الأصفر، وبحق الملك الأحمر، وبحقكم عليكم إلا ما قضيتم حاجتي وكنتم عوني وأعواني، أعينوني، أقسمت عليكم بيأجوج ومأجوج وهاروت وماروت إلا قضيتم حاجتي.

غير أن أحسن ما جرى لي في دكان العفيف، كان تقارُبي مع شاب يناهزني في العمر، يُقال له اليشكري، وكان من أوسم مَن رأت عيني من الرجال، له طلعة مُحببة ووجه بدري أليق بملك أو

أمير، لكنني كنت ألاحظ أنه قلّما يتحدث مع أحد، ولا يجتمع معنا على غداء، على رغم أن العفيف عوّدنا أن نأكل معًا؛ نحن صبيانه، بعد صلاة الظهر، بينما هو يتوسطنا، بل كان اليشكري يظل منصرفًا إلى عمله بموضع التزيين والتذهيب بالدكان، وكان من أمهر مَن لدى العفيف في هذه الصنعة، وذات مرة دخلت عليه بموضعه بعد صلاة العصر، فوجدته يتناول غداءه منتحيًا، فتعجبت من ذلك وظننت أنه لا يأكل معنا استنكافًا واستعلاء، ورُحت أتندر عليه قائلًا: أتظن أننا سوف نعدّ عليك اللقم إذا ما جلست للأكل معنا، أم أننا سنخطف منك ما تأكله؟! ألستَ أدرَى بما يفرضه علينا العفيف من آداب السفرة وأصولها؟ فنحن لا نأكل إلا متأدبين بثلاث أصابع مما هو أمامنا، دون ذروة القصعة، ولا من وسط الطعام، ونلعق أصابعنا قبل مسحها بالخرقة، ونشرب من الكوز في ثلاثة أنفاس متقطعة، وقبل جلوسنا إلى الأكل نغسل أيدينا بأشنان، وكذا بعده، ونُنظف أحناكنا به كذلك.

فاستغفر اليشكري الله من أن يكون امتناعه عن الأكل معنا كِبرًا واستنكافًا، ورأيت عينيه تدمعان وهو يقول لي إنه لا يخالط الناس طعامهم لأن أكثرهم يتقززون ممن كانت له علّة مثل علّته ويعافونه، ثم شمّر لي عن كُميه معتذرًا فبدا لي برَصُه ووضحه وقد أتى على الجلد من عند الرسغ وحتى الساعد على هيئة خرائط لا اتفاق فيها، وقال: إن أكثر الناس يمتنعون عن مخالطته بسبب ذلك، وإنه لولا مهارته وحذقه في صناعة التزيين والتذهيب، واختصاصه بها، لما كان العفيف قد صبر عليه وتركه مستمرًّا في العمل معه بعد إصابته بهذه العِلة. فتألمت لذلك تألمًا شديدًا وقد شعرت أنني ظلمته وهيّجت مرارته بذلك، ورُحت أتذكر عزيز عيني ثاونا الذي كان يخالط المجذومين، وينزل إلى مواضعهم بالبراري في عيد يونان، فيُحممهم بنفسه، ويكسيهم، ويواسيهم، فهاجت شجوني كذلك ودمعت عيناي، وبتُّ من ذلك الحين ملازمًا لليشكري الأبرص، وقد مسنّي حزنه وعكوفه على نفسه دون مخالطة الناس، فوثق بي ولان حتى فتح قلبه، وصار يفضفض لي عن آلامه، ومُعاناته، وعكوفه على نفسه بعيدًا عن الخلق، كان لا يخرج من الدكان الذي ظل يبيت في سقيفة أعلاه إلا للحتم والضرورة، خصوصًا وأنه نزح من الكوفة منذ أمد ولا أهل له ببغداد، وأن جُلّ قصده هو الانصراف إلى مجالس الزُّهاد وشيوخهم، فهم يبثّون في أحاديثهم راحة للنفس، وعزاءً عما في الدنيا والتنزه عنه.

كنت أخرج مع اليشكري عند الغروب أحيانًا، وبعد أن ننتهي من عملنا في دكان العفيف، فنسير للتريّض على شاطئ موسى، والذي يمضي حتى يلاصق قصر الخليفة، فنظلّ ساعة أو ساعتين نتحادث حتى نبلغ نقطة انقسام الماء إلى الفرع المؤدي إلى سوق الدواب، والفرع المؤدي إلى دار بانوقة والذي يفنى عندها، ثم ذلك الذي يدخل باب سوق الدواب ويمرّ إلى العلافين، وكان اليشكري، كما عهدته خلال ذلك كلما صفتْ روحه ورقّت بسبب مناظر الماء والخضرة، ينفتح قلبه بالكلام ويُفضفض لي ببعض ما بداخله، فعلمت أنه كانت لديه امرأة تعشّقها كثيرًا، وجاهد حتى ظفر بها من ذويها، وبنى بها، لكنها هجرته وطلقته لما أصيب بما أصيب به من عِلة بعد ذلك، فتضاعفت حسرته ولعن الزمان وقد ضنّ عليه بما يجود به على غيره من محبة الذين أحبهم، وقد ضاق صدره وقتًا حتى إنه فكر في إزهاق روحه، ليخلص مما هو فيه، لكنه كان أثناء ذلك قد بدأ يعمل في دكان العفيف، فبدأ يُدرك ما لم يكن قد أدركه من قبل، ففي ذلك المكان اكتشف - كما قال - أن بغداد ليست

مدينة، بل هي مدن وبلاد، وأن أسواق الكلام بها أكثر من أسواق المؤن والغِلال، وأنها عوالم متداخلة، وأفكار متصارعة، وعقل ونقل، وأن ذلك كله فتح عينيه على معانٍ لم يكن قد أدركها من قبل، فأخذ يتناسى همّه وينشغل بهمّ الكلام والمتكلمين، حتى وقع في يده ذات يوم كتاب لتذهيبه يسمّى كتاب الشكوك، فانبهر به أيما انبهار، فلمّا سألته عن سبب انبهاره، قال: إن هذا الكتاب جعله يشكّ فيما كان حتى توهم أنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى توهم أنه قد كان، حتى إنه شكّ في هجْر امرأته له وعمل على أنها لم تهجره، وإن كانت قد هجرته، وشك في قراءة كتاب الشكوك وإن كان قد قرأه!

ثم إنه ظنّ في وجوب معرفة المنعم وشُكره، وكذلك معرفة الحسَن والقبيح، واتباع الحسن واجتناب القبيح وذلك العقل قبل ورود السمع، وأن الناس محجوجون بعقولهم، سواء منهم مَن بلغه خبر الرسول ومَن لم يبلغه، وكلام كثير من هذا النوع، لكنه سرعان ما حاد عن ذلك، لكثرة ما سمع من إشكالات ومسائل، وتقارُع بالحجج والبراهين، ولهول ما رأى من أحوال الناس والعوام، وهؤلاء المتكلمين الذين يتكلمون في ناحية والعامة في ناحية أخرى، فالناس في فقر وإملاق، والكلام لا يقيم لهم أودًا ولا يدفع عنهم جوعًا، فوقعوا فريسة الأفاقين والشطّار والعيارين، يتلاعبون بجوعهم، ويشعلونهم حطبًا لحروبهم ضدّ الخليفة والعسكر وأصحاب السلطان، فتذبذب أمره، وشتّ ذهنه حينًا، حتى حزم أمره، وقرر اعتزال كل ذلك، فسار في طريق العارفين، وسلك مسلك السالكين في الحب الإلهي الخالص، وقد طلّق الدنيا وزهد فيها، واشترى بها محبة الله والدين.

كان إعجابي باليشكري يزداد يومًا بعد آخر، وتأثري بما هو عليه يتضح لي شيئًا فشيئًا، فقد أيقنت أن مشكلي هو أقرب إلى مشكله، وأن مِحنتي في هذه الدنيا هي الأقرب إلى محنته، وأن تشاكل قدَري مع قدره لم يكن إلا من نعم العناية، ونظر عين الله لي بالعطف والرعاية، فبتّ ألتصق به أكثر فأكثر، وقد بهرني بفكرة السمو والصعود، عن كل ظاهر موجود، وقد أدركت أن ما بنفسي لهو قرين لما في نفسه من حزن وألم، وأن شعورنا بعبث الوجود وتهافت الظاهر المحسوس، والمتجسّد الملموس لهو من اتفاق أسبابنا، وأن رغبتي في الزهد والبُعد عن الناس، تتماثل مع ما لديه من ذلك، على رغم خُلوي من كل عِلة، وكل عيب يدفع الناس عني، ويجعلني أتجنبهم وأؤوب إلى نفسي.

ثم حدث ذات مرة أن جاء رجل إلى صاحبي العفيف، ودفع إليه بكتاب تعهد أن يبذل مقابل نسخه مائتَيْ درهم، فلما تصفحه العفيف قليلًا انتفض وثار ثورة لم أعهد بمثلها أبدًا، ودفع إلى الرجل بكتابه، وهو يقول: والله لا أفعل، حتى لو دفعت لي مال قارون كله. فلما ذهب الرجل، وكنا قد تجمعنا حوله؛ نحن صبيانه، ظنًّا منا أن هناك مصيبة قد جرت، جلس يستغفر الله وهو في ضيق وألم، فلما تفرق الجميع وبقيت معه، استحلفته أن يفضفض لي عما بداخله، وكانٍ الرجل يستريح لي، ويلاطفني، وينعتني بـ«المصري» وهو يتندر على نُطقي لحرف الجيم مخففًا كما يفعل الفرس، فأخبرني أن الرجل الذي جاءه هو قريب له، وهو من أتباع ملة كان يتبعها العفيف قبل إسلامه، وهي مِلة قد شاعت منذ زمن قديم، وما زال البعض يتبعها حتى وقتنا هذا، ويقال لها الكيومرثية، وأن الرجل دفع إليه بكتاب قديم يخصّ هذه المِلة، لينسخه له سرًّا، وهو كتاب كُفر وبهتان، يتضمن ما حاول إثباته أصحاب المقدّم الأول كيومرث من وجود أصلَيْن، هما: يزدان وأهرمن. وقد قالوا إن

يزدان أزلي قديم، وأهرمن محدث مخلوق. وقالوا إن سبب خلق أهرمن أن يزدان فكّر في نفسه أنه لو كان له منازع فكيف يكون؟ وهذه الفكرة كانت رديئة غير مناسبة لطبيعة النور، فحدث الظلام من هذه الفكرة وسُمّي أهرمن، وكان مطبوعًا على الشرّ والفتنة والفساد والفسق والغدر والإضرار، فخرج على النور وخالفه طبيعة وفعلًا، وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة، ثم إن الملائكة توسطوا فصالحوا على أن يكون العالم السفلي خالصًا لأهرمن مدّة سبعة آلاف سنة، ثم يخلي العالم ويسلّمه إلى النور، والذين كانوا في الدنيا قبل الصلح أبادهم وأهلكهم، وكلام فارغ كثير من هذا النوع، وقد جاءني الرجل مستغلًّا قرابته لأمي، وكوننا كنا أترابًا منذ الصغر، لكني اهتديت إلى الإسلام والحمد لله وهو ما زال على دين جدودنا وأهلنا، حتى إنه سمَّى عياله بأسماء أعلام هذه المِلة، فلديهم منهم ما يُسمى بأسمائهم المقدسة لدى أهلها مثل: ريباس، وميشة، وميشانة، والأخيران في عُرفهم هما والدا البشر.

وبينما العفيف يقول ذلك لي، إذ تذكرت فجأة حادثة دير أتريب، فهتفت مقاطعًا إياه:

- إذن، هم من الصابئة. سبحان الله!

- لا. لا. هؤلاء مختلفون عن الصابئة تمامًا، فالكيومريثيون هم من المجوس، أما الصابئة فهي واحدة من فرقتَيْن ترجع إلى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام، ثانيتهما فرقة الحُنفاء، والصابئة كانت تقول: إنا نحتاج إلى معرفة الله تعالى، ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط، لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانيًّا لا جسمانيًّا، وذلك لذكاء الروحانيات وطهارتها، وقربها من رب الأرباب، والجسماني بشر مثلنا، يأكل مما نأكل، ويشرب مما نشرب، يماثلنا في المادة والصورة. قالوا كما ورد في كتابه العزيز الحكيم: ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ، ولما كان الخليل - عليه السلام - مكلفًا بكسر المذهبين على الفرقتين، وتقرير الحنيفية السمحة السهلة، احتج عبَدة الأصنام قولًا وفعلًا، كسرًا من حيث القول وكسرًا من حيث الفعل، فقال لأبيه آزر: ﭿ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮇ ، حتى بلغ: ﭿ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﮇ ، وذلك إلزام من حيث الفعل وإقحام من حيث الكسر، ففرغ من ذلك كما قال الله تعالى: ﭿ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﮇ .

كان اليشكري قد أخبرني أن العفيف الورّاق من أصل فارسي، وأنه كان مجوسي الأصل فأسلم، وأن بعضًا من أهله ما زالوا على هذه المِلة، غير أن العفيف بدا لي مع كونه مسلمًا موحًّدا بالله، رجلًا يتبع فرقة من الفرق، فهو وإن كان من أشياع الإمام علي، إلا أن له جماعة يأتلف بها بين الحين والحين، وقد تلمّست ذلك بمرور الأيام، وقد لاحظت زيارة البعض من هذه الجماعة له بين الحين والحين، وكانوا يمدون بساط الكلام والمحاورة، فأدرك أنهم من الخارجين عن الخليفة، الكارهين له، بسبب أحوال العباد وسياسته للأمور، وقد كنت قد سمعتهم أكثر من مرة خلال ذلك، يتندرون ببذخ الخلافة وترفه المسرف يوم وصول رسول الروم، ويقولون إن ما جرى فاق ما كان يجري زمن الأكاسرة والأباطرة والفراعنة في الزمن القديم، وإن ببغداد وبلدان الخلافة كلها، مَن يبيت كل ليلة على الطوى مما لا يُحصى من الناس والعباد، وإن العامة ضجّت في كل موضع بهذا السفه ولم تعد بقادرة على الاحتمال، مما سيئول إلى حدوث الفتن وتتابع المِحن، وخراب العمران، وانتقال القطان،

وأن عصيان أبي مسلم الخرساني، وسنباذ، وإسحاق الترك، وأستاذ سيس، ربما يحدث لو استمر الأمر على هذي الحال، وربما يحدث ما هو أشد منه وأمَر.

كلما تقدمت في النسخ والكتابة كان العفيف يدفع إليّ بما هو أهم وأرقى من المخطوطات، حتى وصل الأمر إلى حد إشراكي في عمل المترجمات الخطيرة التي يقوم بها أفذاذ العلماء وأرباب المعارف والحكمة عن القلم اليوناني، والقلم السرياني، والقلم الفارسي، والقلم الهندي، والقلم القبطي، في كل فرع وصنف من بساتين العلوم والفنون، فكنت كلما فرغت من نَسْخ كتاب وهممت بكتاب آخر، شعرت وكأنني ولجت من جنة إلى جنة، وغادرت فردوسًا إلى فردوس، وكان هناك رجل لا يفتأ يدفع إلى العفيف بما يترجمه ويُصنفه بين الحين والحين، وكان له عقل ليس كعقل البشر، وطاقة على الاشتغال والبحث تفوق طاقة الجان، فصِرت مبهورًا بعمله، مُجلًّا لشأنه، وكان أن دفع العفيف إليّ مرة برسالة وضعها في أمور النساء وولادتهن، فلما اشتكى اليشكري لي ذات مرة من أن له أختًا توءمًا ليس له غيرها من الإخوة أو الأخوات، قد تزوجت بتاجر كوفي ميسور، سوف يحملها معه إلى الغرب، ليستقر بها هناك في بلدة تُدعى طليطلة، وأن كواعب؛ وهذا كان اسمها، حامل بِكرية وهو يخشى عليها كثيرًا إن فاجأها المخاض أثناء الرحلة والطريق، ولا يدري ما هو فاعل لها، فارتأيت أن أنسخ له نسخة من رسالة ذلك العالم الجليل، علَّها تنتفع بها إن حدث لها ذلك أثناء المسير، وكانت الرسالة تتعلق بالحمل من مبتدئه، فعندما تتحقق المرأة من حملها، فتدبيرها بالراحة وترك الرياضة، وكل ما أزعج من وثبة، وصرخة، وحمل ثقيل، ونزول من عالٍ، أو صعود من سافل، والتقليل من المرطبات حتى تشتد الأعصاب، وأن تأخذ ما دعت إليه شهوة الوحام بلُطف، فإن الإكثار من الحريف والحامض يُضعف الجنين، ومن الطين يبرد، وينبغي أن تكثر من السكنجبين ليحلّ الاحتراق، فإن الوحام عبارة عن احتراق بقايا دم الحيض، وبعد الخامس أو فيه يكون نبات الشعر في رأس الجنين، ثم تُكثر من أخذ ما يُولّد الدم، ما لم تظهر علامات الاستغناء عنه كوجوده أيام الحيض، وتدوم كذلك إلى قُرب الولادة، ولتقتصر المرأة في أمراضها الحارة على الأشربة الباردة، والبارد الجلنجبين العسلي، فإن اشتدت الحاجة إلى تليين فبخيار الشنبر أو الترنجبين، فإن الأدوية المُسهلة إما مُسقطة أو مُضعفة لتحليلها الفضلات في غذاء الجنين، فإذا آنَ وقت الولادة فلتكثر من تناول المزلقات، ودهن المراق بنحو دهن اللوز والبنفسج وتنطلِ بطبيخ الأشنان والحلبة وتكثر من الاستحمام، فإن ذلك يسهل الولادة، فإذا أحست بالطلق وهو المغص والوجع ونزول الماء والدم، فلتجلس على مرتفع مادّة رجليها، موسعة بينهما، وتعتمد قابلة حتى يخلص المولود فإن سهل ذاك فالمطلوب، وإلا غمزت ظهرها وأعلى البطن، وسعطتها قشور البكتر بالزعفران، وحملتها بالزبد في خِرَق الحرير على الفخذ الأيسر تربطه طاهرة من الحيض، فإن بدا رأس المولود فالولادة طبيعية وإلا فعسرة، وينبغي أن يُستلقى بناعم من قطن أو حرير ويتجنب البرد إن كان شتاء، ثم تتدثر هي، وتُسقى ما يحلّ الخوالف من طبيخ الأنيسون، والشبت، والحلبة، والزبيب بالعسل، وفي الشتاء تُمرّخ بالزيت وقد طبخ فيه الثوم واللاذن.

أما المولود فيُبدأ أولًا بقطع الفضلة التي في سُرته على حد أربع أصابع، وتربط بصوف خفيف الفتل، وتضمد بخِرقة بُلت بزيت طُبخ فيه كمون، وصعتر ويسير ملح ومرّ، ويملّح بدنه بملح، وشادنة، وآس، ومر، وقسط، مجموعة أو مفردة ليشتد، وتمتنع منه العفونة، والقمل، وإذا سقطت

السرّة بعد ثلاث ضمّدت بالشراب، والزيت، أو رماد الصدف أو الرصاص المحروق، ودم الأخوين، والكركم، والأشنبة للتجفيف، ويملح لدفع الأوساخ، والقمل، إلا الأنف لضعفه عن الملح، ويقطر الزيت في عينَيْه للغسل، ويمسح بناعم، وتُغمر الأعضاء وفق الشكل المراد، والمثانة لإطلاق البول، ويفتح الدبر بالخنصر، وبها يتعاهد الأنف بعد تقليم الظفر لئلا يَجرح، ويلبس رقيق الثياب المناسبة للزمان، ويفرش بها، ويقمط حفظًا للشكل مع توسط بالشد، ويرخى على بطن الأنثى لئلا يكون سببًا لعدم الحمل، وتُطلى مراقه وغضونه بسحيق الآس، والزيت حذرًا من التسميط، ويُغسل بفاتر الماء كل ثلاثة، عدا الشتاء والمائل إلى السخونة كل سبع فيه، برفق في صبّه، وغمز المفاصل، والقلع، والتلبيس، والتنشيف، والدهن.

(6)

وقد حدث أن غاب الرجل عنّا زمنًا، فدهشت لذلك وتساءلت عن تقاعسه وهو الذي كان لا ينقطع مجيؤه إلينا لكثرة حاجته إلى النسخ، فأعلمني العفيف أن الرجل مات منذ حين بِدَاء الزرب، بينما كان قد بدأ في ترجمة كتاب في قوام الصناعات لجالينوس قبيل وفاته بشهرين وأنه كان سليمًا مُعافى مواصلًا عاداته في الركوب حتى أصيب بهذه العِلة، وقد كان مشهورًا عنه أنه بعد ركوبه كل يوم يدخل الحمّام فيصبّ عليه الماء، ويخرج فيلتف في قطيفة، ويشرب قدح شراب، ويأكل كعكة ويتكئ حتى ينشف عرقه، وربما ينام ثم يقوم، ويتبخر، ويقدّم له طعامه وهو فروج كبير مسمّن قد طبخ زيرباجًا ورغيف وزنه مائتا درهم، فيحسوا من المرقة، ويأكل الفروج والخبز، وينام فإذا انتبه شرب أربعة أرطال شرابًا عتيقًا، فإذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشاميّ والسفرجل، وكان ذلك دأبه حتى مات.

على الرغم من احتراز العفيف في الكلام معي إلا أنه بين الحين والحين كان يدفع لي بكتاب أُوصّله إلى موضع من المواضع بمدينة السلام عند جنوح الليل، وكان يحذرني من أن يراني أحد خصوصًا من البصاصين أو الدرك، وكان يصف لي وصفًا دقيقًا مكتملًا الموضع أو الدار التي أذهب إليها لتوصيل ما يبتغيه من مكاتبات، وكنت أظن في البداية أن هذه كتب تخص مَن يتعاملون معه في أمور النسخ أو الوراقة، لكن، ذات مرة، بعدما شدّد عليّ كثيرًا في الاحتراز والتنبّه - وليغفر الله لي - وسوس لي الشيطان، وسوّل لنفسي أن تطّلع على ما أؤتمنت عليه، فوجدتني أفتح كتابه لأقرأه، فوجدت أنه خريطة مرسومة كان عليّ إيصالها إلى واحد من أصحابه بربض الزهيرية، وكانت كما يلي:

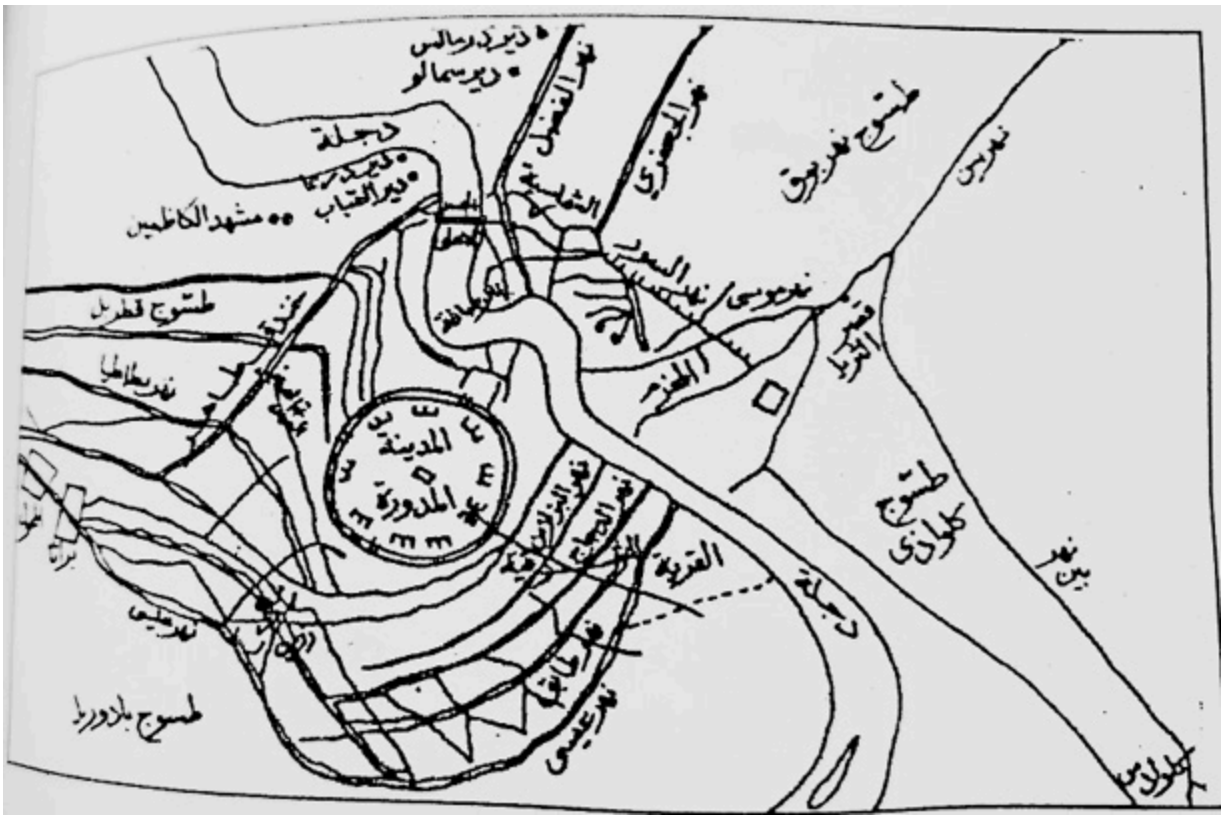

فلما رأيتها بهتّ وأُسقِط في يدي، ووقعت في حيص بيص وأنا أحاول تفهّم مغزاها، والتكهن بمعناها، وبالغرض من إرسالها إلى ذلك الرجل، وقد حدّثني قلبي أن وراءها أمرًا عظيمًا، فلما عُدت إلي الدكان في صبيحة اليوم التالي، ووجدت الفرصة لأختلي بصاحبي اليشكري أفضيت إليه بما كان من أمر الخريطة، فسكت قليلًا، ثم قال لي إنه يجب عليَّ تكتم الأمر، وألا أظهر للعفيف اهتمامي بذلك، فلما استحلفته أن ينبئني بما وراءه، قال: إن العفيف يتبع فرقة يقال لها النظامية، وهي فرقة خالطت كلام الفلاسفة بكلام فرقة أخرى يقال لها المعتزلة، وإن النظامية تخابطوا كثيرًا، فاتبعوا ما تخابط فيه صاحبهم إبراهيم النظام الذي قال عن البارئ تعالى: «ليس موصوفًا بالإرادة على الحقيقة، لأنه إذ وصف بها شرعًا في أفعاله فالمراد بذلك أنه خالقها ومُنشئها، وإذا وصف بكونه مُريدًا لأفعال العباد فالمعنى به أنه آمِر بها وناهٍ عنها». كما قال: «إن أفعال العباد كلها حركات فحسب والسكون حركة اعتماد، والعلوم والإرادات حركات النفس، ولم يُرِد بهذه الحركة حركة النقلة، وإنما الحركة عنده مبدأ تغيّر ما، كما قالت الفلاسفة من إثبات حركات في الكيف والكم والوضع والأين والمتى...». إلى غير ذلك من كلام متخالط متخابط من هذا النوع، وإن العفيف مولع بمثل هذا النوع من الكلام الذي يقوله النظام بن سيار هذا في قوله: «إن الإنسان في الحقيقة هو النفس والروح، والبدن آلتها وقابلها، وميله إلى قول الطبيعيين من الفلاسفة من أن الروح هي جسم لطيف مُشابك للبدن مُداخل للقلب بأجزائه، مداخلة المائية في الورد، والدهنية في السمسم، والسمنية في اللبن، وأن الروح هي التي لها قوة واستطاعة وحياة ومشيئة، وهي مستطيعة بنفسها والاستطاعة قبل الفعل».

فلما أدركت ذلك ووقفت على حقيقة العفيف كتمت الأمر في نفسي، عملًا بنصيحة اليشكري، وبتّ لا أسأل العفيف في أمر من الأمور إلا فيما يخص اشتغالي ولُقمة عيشي.

وكان اليشكري متعلقًا بشيخ زاهد، سرعان ما سَرت عدوى تعلقه به إليَّ، وكان الرجل كما قال اليشكري - والله أعلم - قد عاش حينًا في بلدة تُدعى حرّان، اجتمع لبعض من أهلها ما تبقى من علوم الجريك، وفلسفتهم، ونِحلهم كالفيثاغورثية، الأفلاطونية الجديدة، وعلم الكيمياء، وعلم الكون الهرمسي، وقد ظل لهؤلاء بعض من رواسب هذه العلوم، دون أن تستطيع السيول البعدية أن تجرفها بالكلية، فتشرّب هذا الشيخ من هذه المعارف والعلوم حتى هداه الله إلى الإسلام، فطعّم ذلك بذاك، وفاض لسانه بالحق والحكمة، فانجذب إليه اليشكري، مثلما بتّ أنا منجذبًا إليه كذلك. كان شيخنا يعقد مجلسه بعد صلاة العصر في زاوية من الزوايا، فنجتمع إليه لنستمع قطوف حِكَمه، وثمار أفكاره، وقد أدركت من خلال ذلك - فيما أدركت - عالم الأنوار القاهرة، وعالم الأنوار المدبرة، والعالَمْين المحسوسَيْن: السماوي والأرضي، والعالم الظلماني والعالم المستنير، وكان الشيخ يقيم علمه على هُدى من الآية الكريمة: ﭐﭑ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼﭐ.

وشيئًا فشيئًا، بدأت رياضتي العبادية والارتحال من الغرب حيث حقل المادة والجسم، إلى الشرق حيث مقامات النور، وكان ذلك يقتضي عبور أربعة عشر تابوتًا وهي تمثل: القوة الجاذبية، والماسكة، والهاضمة، والدافعة، والغازية، والمولدة، والمصورة، والنامية، والغضبية، والشهوانية، والأخلاط، والقبور العشرة من الحواس الظاهرة والباطنة، وكل ذلك حتى أتجاوز الأفلاك السماوية والعروج بواسطة العقل الفاعل، مارًّا بكل العقول حتى أرسو عند أعتاب نور الأنوار، فتهنأ نفسي بتحررها من سجن المادة ودخولها في مقامات النور.

وكان المشي سبيلي إلى بعض من ذلك وفقًا لشيخنا، فلما كنت لم أزل في مقام الطالبين، وهو أول المقامات الخمسة في الزهد، فقد كنت أسير، كلما وجدت إلى ذلك سبيلًا، مع صديقي اليشكري فنظل نسير حتى يُتعبنا السير وتكدّ جسومنا.

غير أن الأيام أظهرت لي أن العفيف لم يكن مثلما ظنّ اليشكري من أنه يتبع النظّامية، أو هذا ما وضح لي عيانًا - على الأقل - فقد حدث أن قام رجل من ناحية طريق الأنبار يقال له الدريوش، فدعا جيرانه، وأهل بيته، وأهل محلّته إلى أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأجابوه إلى ذلك، وكان ذلك بسبب فُساق الحربية والشطار الذين بالمدينة آذوا الناس أذى شديدًا، وأظهروا الفِسق، وقَطْع الطريق، وأَخْذ الغِلمان والنساء علانية من الطرق، فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع، وكانوا يسألون الرجل أن يصلهم أو يقرضهم فلا يقدر أن يمتنع عليهم، حتى إن كثيرًا من الناس حبسوا أولادهم ونساءهم عن الخروج إلى الأسواق خوفًا عليهم. وكان هؤلاء الأشرار يجتمعون فيأتون القرى، فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك، لا سلطان يمنعهم؛ لأن السلطان كان يعتزّ بهم، وكانوا بطانته، فلا يقدر أن يمنعهم من فِسق يركبونه، وكانوا يجبون المارّة في الطرق، وفي السفن، وعلى الظهر، ويخفرون

البساتين، ويقطعون الطرق علانية، ولا أحد يعدو عليهم، وكان الناس منهم في بلاء عظيم، ثم كان آخر أمرهم أنهم خرجوا إلى قطربل فانتهبوها علانية، وأخذوا المتاع، والذهب، والفضة، والغنم، والبقر، والحمير، وغير ذلك وأدخلوها بغداد، وأخذوا يبيعونها علانية، وجاء أهلها فاستعْدوا السلطان عليهم فلم يُمكِنه نُصرتهم عليهم، ولم يردّ عليهم شيئًا مما كان أُخِذ منهم.

فلما رأى الدريوش الناس كل ذلك، وما بِيع من متاع الخَلْق في الأسواق، وما قد ظهر من الفساد في الأرض، والظلم والبغي، وقطع الطريق، وأنّ السلطان لا يغير عليهم، مشى ومعه ناسه إلى الصلحاء من كل ريض وكل درب، وقالوا لهم: إنما في الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم، فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحدًا لقمعتم هؤلاء الفُساق، وصاروا لا يفعلون ما يفعلون من إظهار الفسق بين أظهركم. فأجابوه إلى ذلك وشدّ كل واحد منهم على مَن يليه من الفُساق الشطار، وقد أراد الدريوش منعهم مما كانوا يصنعون، فامتنعوا عليه، وأرادوا قتاله، فتكاثر عليهم الدريوش وأصحابه، من أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقاتلوهم وهزموهم، وكان ممن شارك في ذلك رجل من أهل الحربية يقال له سهل بن سلامة من أهل خراسان، وقد دعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل بكتاب الله عزّ وجلّ وسُنّة نبيّه ﷺ، وعلّق مُصحفًا في عنقه، ودعا الناس جميعًا إلى ذلك؛ الشريف منهم والوضيع، وجعل له ديوانًا يُثبت فيه اسم مَن أتاه منهم، ثم إنه طاف ببغداد وأسواقها وأرباضها وطُرقها ومنع كل مَن يخفر ويجبي المارة والمختلفة، وقال لا خفارة في الإسلام، والخفارة أنه كان يأتي الرجل إلى بعض أصحاب البساتين فيقول: «بستانك في خفري، أدفع عنه مَن أراده بسوء ولي في عنقكَ كل شهر كذا وكذا درهمًا. فيعطيه شائيًا أو آبيًا»، وقوي على ذلك قوة عظيمة، إلا أن الدريوش خالفه في ذلك، وقد ظهر أن العفيف معلمي كان من أتباع سهل ويُكاتبه، وهذا ما علمته بعد ذلك من الشهاب الحلاج، فلما كسر الخليفة سهلًا لأنه قال: «إني أقاتل كل مَن خالف الكتاب والسنة، كائنًا مَن كان، سلطانًا أو غيره، والحق قائم في الناس أجمعين»، سارع العفيف بالهرب إلى مدينة البصرة، وخرج بعياله في عز الليل تاركًا دكانه وماله، ثم إنه مرّ زمن قد قارب الشهر، بينما أنا قابع في دار الشهاب الحلاج لا أغادره، وقد نصحني الشهاب بذلك حتى لا أوخذ بجريرة العفيف وأمثاله، وأضيع بين الرجلَيْن، وكنت أتعجب، خلال ذلك، من مشاركة العفيف في مثل هذه الأمور، وهو الرجل الهادئ المشتغل بصنعة تستلزم كل لُطف ودماثة، فقال لي الشهاب: إن ما دفع العفيف إلى ذلك، وجرّه إلى ما هو فيه هو أنه كان لديه ولدٌ وحيد من امرأة غير تلك التي تحته الآن، فبينما الغلام مع أمّه في السوق ذات يوم لأمر من الأمور، إلا وبعض من فُساق الحربية والشطّار قد كسبوا السوق، وعاثوا فيه فسادًا، واختطفوا الصبي من يد أمه ضمن مَن اختطفوهم، فجُن جنون العفيف، وراح يبحث عن وحيده في كل مكان، حتى هداه الهادون إلى موضع لرجل يهودي اشتُهر عنه خصي الصبيان المجلوبين بالخطف والرق، فكبس العفيف الموضع مع جماعة من إخوانه، فوجد الصبي وقد قطّ قضيبه وأخرجت بيضتاه بعد أن شُق مزوداه، وقد وضعوا له في منفذ البول مرور رصاص، جعلوه حتى لا يلتحم، وكانوا يُخرجونه أوقات البول.. فانتزع العفيف ولده منهم، وهو بين الحياة والموت، وكاد أن يفتك بالخَصَّاء اليهودي لولا أن أصحابه منعوه، فلما عاد بولده إلى منزله، لبث قليلًا ثم مات فحزن عليه العفيف حُزنًا عظيمًا، وسرعان ما لحقته أمه وقد تلفت كمدًا وحسرة عليه. وكان ذلك مبتدأ قسَم العفيف بالانتقام من مُختطفي ولده وقاتليه، فانضم إلى جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، حتى صار ما صار لسهل رئيس هذه الجماعة وله. غير أن العفيف أرسل إلى الشهاب أن يدعني ألحقه إلى البصرة إن شئت، وقد ترددت في ذلك كثيرًا في مبتدأ الأمر، فعلى الرغم من أن العفيف كان قد أرسل إليّ ما يُعينني على أمري، وأوصى بمَن يعينني على الوصول، إلا أنني كنت منقبضًا مغمومًا، فها أنا مرّة أخرى مُجبر على السفر والمغادرة، وكنت قد استمرأت في بغداد الاستقرار والتوطن، وكان الأمر الذي يشغلني أكثر من سواه هو أمر ريطة؛ فأنا وإن كنت قد أعتقتها، إلا أنني كنت أظن نفسي مسئولًا عن أمرها في كل حال، وعلى الرغم من أنها ظلت في دار العفيف تُعين زوجته على أمورها وتجارتها، إلا أنني كنت أخاف تركها إلى مصير لا يعلمه إلا الله.

ثم إنني بتُّ أخرج من بيت الشهاب لبعض الوقت، بين الحين والحين، بعدما هدأ الأمر، وذات يوم وبينما كنّا نسير منصرفين إلى درس من دروس شيخنا الزاهد، قال اليشكري لي:

- هل تذكر الجواهري الذي جاء ذات مرة إلى دكان العفيف لينسخ له رسالة في الجواهر والأحجار؟

قلت:

- لا. لا أذكر ذلك، ولا أذكره.

قال:

- كيف لا تذكر ذلك؟! أنسيت ما جرى يومها، حين أتاه العفيف بدرج فيه أحجار وسأله أن يعتبرها بالمحنة والاختبار الصحيح، حتى يعزل ما صح منها ويهمل المتبقي، فأحضر الرجل الأفاعي، وطلب فراريج وراح يطعمها حكاكة هذه الأحجار، وكانت نيِّفا وثلاثين حجرًا، فصح بالمحنة دون العشرة وتزيّف الباقي؟

- آه. كان ذلك بعد حريق السوق بمدة.. تذكرت.

- آي نعم. لقد التقيت الرجل اليوم بالصدفة، وقال لي إنه يريد تذهيب وزخرفة كتاب عن الأحجار، كتبه له نُسّاخ بدمشق، وقال إنه يستطيع أن يلحقني بخدمة واحد من أصحابه النساخين هناك إن أردت، ولقد قرّ عزمي على الذهاب، فأنا هنا بلا عمل، وقد كرهت الإقامة في بغداد، وأريد الارتحال، هل تأتي معي؟

كان العسكر قد كسبوا دكان العفيف وانتهبوه بعد رحيله، ولم يعد لليشكري عمل كما هي الحال معي، فقلت له بعد تفكر:

- لا. لقد انتويت أمرًا آخر في نفسي.. أريد العودة إلى برّ مصر.

كنت أقول الحقيقة، فلقد زاد شوقي وتوحشي إلى بلدي كثيرًا، وكنت أرغب في البحث عن ثاونا والوقوف على أثره، وقد عاهدت الله على ذلك، ونذرت نذرًا في نفسي إن وجدته، وهو أن أبقى زاهدًا عابدًا طيلة ما تبقى لي من عُمر.

قال اليشكري:

ليكن. لكني سأذهب إلى دمشق، حتى يصلح أمري، ومنها سأرتحل إلى الغرب، فأنا أريد أن أذهب - حتى آخر بلاد المسلمين، وقد يهديني الله، فأهدي قومًا غير مؤمنين، وقد ألتحق بحلقات درس رؤساء العلماء هناك، فبلاد الأندلس عامرة بهم وبمعارفهم العظيمة، لكني سأعرج قبل ذلك إلى مكة فأحج - إن شاء الله - وإلى الأقصى، فأزور مقامات الأنبياء بمدينة القدس.

كنت في شوق إلى الحج وزيارة قبر الحبيب كذلك، لكنني كنت أخشى أن يطول بي الزمن، فأعود إلى مصر ولا أجد ثاونا، أو يكون الله قد توفاه. وقد وقعت بين نارَيْن، لكنني قلت:

في نفسي نذر، أعاهد الله إذا تحقق أن أحج إلى بيته سبع حجات. كنت في قرارة نفسي - وهذه - الحقيقة - أريد أن أُطلِع ثاونا على حقيقة إسلامي، وأدعوه إليه، كان هذا منتهى آمالي ومُناي، وكان أمر ريطة يُقلقني كذلك، فأفضيت بذلك إلى اليشكري وشاركته في أمرها، إذ كنت حائرًا، فأنا لا رغبة لي فيها، وكأن ما حدث لي بعد رؤيتها في ليلة أنْ أمسكت بالجمر قد كان خاتمة شعوري بالنساء، وكأن ريطة لم تكن إلا سببًا للمُباعدة بيني وبين هذا الجنس، والزهد فيه، غير أني كنت موقنًا بمسئوليتي عنها، وقد غيَّرت حالَها وأيامها، وبسببي تركت ما كانت فيه من نعمة وعزّ في قصر الخليفة، فلما أفضيت بكل ذلك إلى اليشكري وطالبته بنصيحة ينصحني بها، قال:

- خيّرها بين البقاء في بيت الشهاب، أو الذهاب معك إلى برّ مصر.

قلت بسرعة:

- لا. لا أريد لها الذهاب معي. لا أرغب في صُحبة النساء أبدًا.

ثم إنني عندما رجعت إلى بيت الشهاب، وأثناء تناولنا العشاء، أطلعته على ما أنتويه، فلما بلغت في الحديث مسألة ريطة، قال لي بسعادة، وهو يبتسم، ما عقد لساني، وهو أن امرأته الروايحية قررت تزويجه بريطة، بعد ما سألتها فلم تمانع.

أصر الشهاب الحلاج ألا أغادر بغداد إلا بعد أن يعرّس بريطة، وهكذا تريثت وقتًا حتى ليلة دخوله عليها. وكان أن ذهبنا إلى حمّام بسوق يحيى، وهو من الحمامات المعدودة بالمدينة، فلما دخلناه، وجدت أن حوائطه الداخلية وعند المغطس مكسوة كلها بأجل أنواع الرخام الملون وأفضله، وأما مغطسه فكان مربع الشكل معقودًا ومطبقًا بجامات من الزجاج الملون، مما يسمح للنور بالدخول والكشف، وكانت هناك حجرة دافئة تلي المغطس، لا يوجد فيها مواقد ولا يشم الإنسان رائحة الدخان

منها، والماء الساخن يجري في قناة تجعل المكان دافئًا لطيفًا، وكان هناك مكان آخر يدخل منه الماء البارد كذلك، ثم إننا خرجنا من مكان الاستحمام إلى مصاطب مكسوة بالرخام يقال لها الأواوين، وكنا جميعًا مؤتزرين فاسترحنا قليلًا، وتأهبنا للاستحمام الثاني، فدخلنا بيت الحرارة؛ وهو الموضع الذي تكون فيه حرارة الماء على أشدها، فتركنا الشهاب للمدلك حينًا، حتى انتهى منه، وغسله بالماء الساخن الذي يوجد بمغطس، وخلال ذلك رُحنا نداعبه ونهزر معه، وقد تعجبت من الكلام الصريح الذي تبادله الشهاب مع رفاقه، دون خجل ولا حياء، عن النكاح والشهوة وطرائق المجامعة، وما سوف تكون عليه حاله مع ريطة عند دخوله عليها.

كان الشهاب لم يُنجب من امرأته الروايحية، وقد خشي على نفسه من انقطاع الذرّية وضعف الباه، بعد أن عاشرها سنين بعد موت امرأته الأولى، زمن تفشي مرض الطاعون الدّملي الذي اجتاح المدينة، ودون أن يعقب من هذه المرأة، وقد تعجبت من الحمّامي، الذي راح يزيل الشعر من بعض المواضع بجسد الشهاب، إذ شارك في الحديث وأفتى، حتى إنه نصح الشهاب أن يكون معتدلًا في الامتلاء قبل الجماع، لأن الجماع على شبع يولّد وجع المفاصل، والنقرس، والدوالي، والفتوق، والأورام الخبيثة، والجماع على الجوع يضعف البصر، وينهك البدن، ويجلب الخفقان، واليرقان، والسل، وحمى الدق، وعقب أكل السمك أو اللبن، يورث الفالج، وبعد الحوامض يُضعف العصب، ويورث الرعشة، وأجود أوقاته النصف الأخير من الليل وقد انهضم الطعام وسخن باطن الرحم، وقال: إن الشهاب سعيد الطالع؛ لأنه سيدخل على عروسه والقمر في حال اتصال بالزهرة، وإن اللذة ستكون عظيمة، لأن الوقت هو وقت البروج الهوائية، ووقت الميزان، لأنه لا يجوز الجماع والقمر في الترابيّة، ولا في الاحتراق، ولا قرب مفارقة الشمس، ولا عند الاتصال بزحل والمريخ، وكان من الموجودين معنا واحد من أصحاب الشهاب يُدعى خليل النسّاج فتكلم في أمر بدا غريبًا، بالنسبة إليّ، إذ أشار إلى أنه كثير العزل مع امرأته وهو يخشى أن يصيبه مكروه بسبب ذلك، وإنما هو اضطر إلى ذلك بسبب تحرّجه من كثرة الأولاد، والاحتراز من الحاجة إلى التعب في الكسب، ودخول مداخل السوء، وكان المزين قد جاء ليستلم الشهاب وحضر هذا الكلام فقال: إنّ العلماء اختلفوا في إباحته وكراهته على أربعة مذاهب: فمن مُبيح مطلقًا بكل حال، ومن مُحرّم بكل حال، وقال قائل يحل برضا المرأة، ولا يحلّ دون رضاها، ومن قائل يُباح في المملوكة دون الحرّة، لكنه من الآداب أن لا يعزل بل لا يسرح إلا إلى محل الحرث، وهو الرحم، وإنه سمع كلامًا من شيخ بخصوص هذا ومنه أن الولد يتكون بوقوع النطفة في الرحم لأربعة أسباب، هي: النكاح، ثم الوقاع، ثم الصبر إلى الإنزال بعد الجماع، ثم الوقوف ليصبّ المني في الرحم، وبعض هذه الأسباب أقرب من بعض، فالامتناع عن الرابع كالامتناع عن الثالث، وكذا الثالث كالثاني، والثاني كالأول، وليس هذا كالإجهاض والوأد؛ لأن ذلك جناية على موجود حاصل، وله أيضًا مراتب، وأوّل مراتب الوجود أن تقطع النطفة في الرحم، وتختلط بماء المرأة، وتستعد لقبول الحياة، وإفساد ذلك جناية، فإن صارت مُضغة وعلقة، كانت الجناية أفحش، وإن نفخ فيه الروح واستوت الخلقة ازدادت الجناية تفاحشًا، ومنتهى التفاحش في الجناية بعد الانفصال حيًّا.

ثم إن المزيّن تعهّد الشهاب، وكان رجلًا خفيفًا رشيقًا بصيرًا بالحلاقة، فشذّب شعر رأسه ولحيته وشاربه وسوالفه بأمواس جيدة، وقد اعتذر لنا عن علكه لبانًا بمسك، لأنه أكل ثومًا وكراثًا، وهذا مما

لا يجوز بالنسبة إلى مَن اشتغل بمهنة التزيين، المتطلبة طيب النكهة وحلو الرائحة.

فلما انتهينا، دفعنا لصاحب الصندوق ما علينا، وبذلنا للقيمين والزبّالين والوقادين، والسقائين، وكلّ مَن قاموا على خدمتنا في الحمّام، واهتمّوا بالشهاب على أكمل وجه، ثم خرجنا بصاحبنا إلى دارِه، وقد تعطّر بطيوب زكية، وكان أن أُعِدّ مجلس رقص وطرب في قاعة رحبة من قاعات الدار، صُفّت فيها صنوف عدة من مآكل ومشارب فحفلت المائدة بهارونية لحم، وهريسة، كنت قد تذوقت مثلها ذات يوم في مطبخ الخليفة أثناء عملي بالوقايد، وذلك ضمن ما كانوا يقدمونه لنا من بقايا مائدة الخليفة، فأدركت أن ريطة ربما تكون قد عملتها خصيصًا لأجل العُرس، وكنت قد استعلمت آنذاك عن كيفية صُنعها من واحد من الطهاة المعدودين والمعروفين بمهارتهم في القصر؛ وهو كاظم بن سابور الطاهي، فقال: إنها تُعمل من اللحم البقري السمين أو الضأن، وشرطه أن يكون لحمًا فتيًّا، نقيًّا من الجلود، والغدد، والعروق، والأعصاب، طريًّا غير مُفتت ولا متغير الرائحة، ثم يُنقع بعد غسله في الماء والملح، وينضج على نار هادئة حتى يذوب اللحم مع البرّ الذي يُضاف إليه مع اللوز والملح والبهار والخولنجان، وقد قال كاظم إن هذا الطعام قد ابتُدِع في زمنِ واحدٍ من أكاسرة العجم يُدعى كسرى أنوشروان.

وإضافة إلى ذلك كانت هناك نوفرية، ومطجّنات، وموصلية، وكمّونية ورءوس وأكارع، أما الحلويات، فقد حفلت المائدة بصنوفها كالأبهاظات، والبرزق المطبوخ بالجبن، والجوارش المطيّبة بالمسطكى، والنارنج، والعنبر، والعود، والحلوى المأمونية، وهي من الأكلات التي كانت قد شاعت واشتهرت ببغداد منذ أن تحكم ذلك الخليفة في البلاد، ذلك عدا الخراريف المشوية والثريد، والأشربة المسكّرة، والمعطّرة بالرياحين وماء الورد، والكشك الطيب المعمول بالأرز والخضرة والأدهان والسمن، المطبوخ بلحم الضأن السمين، على عكس كشكنا في بر مصر، الذي يُطبخ بسمك البوري السمين أو ببعض الطيور المهاجرة الحاطة على أراضينا كالسمّان والبشروش وغيرهما.

ثم أُعْلِن عن وصول أصحاب الملاهي والطرب، فلما اتّخذوا مواضعهم وبدءوا العزف بالعيدان، واللعب بالنايات، والطنابير، والقيثارات، والمزاهر، والكنارات، والنزهات، والصنوج، والشفرات، والرباب، والقانون، انتعشت الأرواح ونعمت بسحر الموسيقى، واسترخت الأجساد لحدوث النشوة وبلوغ المتعة، وكانت سعادتي لا تُوصف لحضور الحسين بن فالح المراغي الذي لم أكن قد التقيته منذ زمن طويل، فتعانقنا ورُحنا نتحادث طويلًا في أموره وأموري، وكيف سارت أحوالي بعد أن فارقته منذ خروجي من قصر الخليفة، وبينما كُنّا منشغلين بالكلام، سحبني الحسين لنجلس إلى جوار رجل من العوّادين، وكان العازفون قد توقفوا ليأكلوا ويشربوا شيئًا قبل مواصلتهم الألحان. وكنت أدرك مدى شغف الحسين بالغناء والنغمات، ثم إنه سأل الرجل عن عوده؛ إذ رآه غريبًا غير مألوف بخمسة أوتار، فقال العوّاد إنه من النوع الزريابيّ الذي يعزّ مثله ببغداد، وإن الوتر الخامس فيه، قد أضافه مُغنّي الأندلس الأشهر زرياب، وإنه - أي الرجل - اشتراه حين ارتحل ذات مرة إلى الغرب، وكان ذلك الوتر اختراعًا من زرياب، ضمن ما اخترع، فالصنعة القديمة كانت أربعة أوتار تحتيمًا للمناسبة العددية بين هذه الأوتار والطبائع الأربعة، فزاد زرياب ذلك الوتر وصبغه باللون الأحمر، كما يتّضح، وجعله متوسطًا في موضعه بين الأوتار الأربعة، وذلك أن

الزير، وهو أكثر أوتار العود حدة، كان يُصبغ باللون الأصفر ليكون في العود بمنزلة الصفراء في الجسد، وصُبغ الوتر الثاني بعده باللون الأحمر وهو من العود بمنزلة الدم من الجسد، وهو في الغلظ ضِعف الزير ويُسمى المثنى، وصُبِغ الوتر الرابع باللون الأسود وجُعل من العود بمنزلة السوداء من الجسد وسُمي البم، وهو أغلظ أوتار العود وأعلاه من حيث الوضع، وهو ضعف المثلث الذي عُطّل من الصبغ وتُرك أبيض اللون ليكون من العود بمنزلة البلغم من الجسد، وجُعل ضعف المثنى في الغلظ فلذلك سُمي المثلث، وهكذا قوبل كل طبع بضده حتى اعتدل واستوى كاستواء الجسم بأخلاطه، فزاد زرياب هذا الوتر، وقال إن أوتار العود الأربعة على النحو الذي جرى عليه العرف، سايرت طبائع الجسد، لكنها عطلٌ من النفس، والنفس مقرونة بالدم، لهذا وجب إضافة الوتر الخامس وصبغه باللون الأحمر، وهو الوتر الأوسط الدموي، ويجب أن يكون تحت المثلث، وفوق المثنى لاستكمال قوى الطبائع الأربعة في العود وليكون مقام النفس في الجسد.

ثم إن العوّاد أبرز لنا مضراب العود وهو ريشته، وقال إنها من قوادم النسر، وهذا مما أشار به زرياب أيضًا، وهي أفعل وأكمل من الخشب، إذ تجمع إلى لطف خفتها على الأصابع طول سلامة الوتر بملازمة الضرب عليه، فتعجبت لذلك كثيرًا، ثم إن الموسيقيين عاودوا عزوفاتهم غاية في حُسن التناغم والإيقاع، فقامت جماعة من الحضور للرقص والسرور، وكانوا غاية في الظرف وخفة الروح، وحُسن الطبع على الإيقاع، فلما انتهوا وسكنوا، قامت جارية سوداء للرقص وكانت طويلة العنق والسوالف، حسنة الدلّ والشمائل، والتمايل في الأعطاف، ودقة الخصر، وحسن أقسام الخلق، ومواقع المناطق، واستدارة الثياب في أسافلها، ومخارج النفس والإراحة والصبر على طول الغاية، ولطافة الأقدام، ولين الأصابع ولين المفاصل، وسرعة الانفتال في الدوران، فلم يتمالك خليل النسّاج نفسه وراح يُغني قائلًا:

ظباء كالدنانير

ملاح في المقاصير

جلاهن السعانين

علينا في الزنانير

وقد زرفن أصداغا

كأذناب الزرازير

وأقبلن بأوساط

كأوساط الزنابير

فما كاد ينتهي حتى رأيت الشهاب يتغيّر لونه ويسهم، وبدا لي متكدرًا، وأظن أن الجميع لاحظوا ذلك، لأن اليشكري مال إليّ وكان حاضرًا إلى جانبي، وقد دعاه الشهاب كرامة لي لما عرف بصحبتي له، ثم قال:

ألم يجد هذا الرجل غير ذلك ليتغنى به في هذه الليلة، وفي عُرس الشهاب؟ ألا يعلم أن هذا الغناء - الذي شاع في المدينة الآن إنما هو من نَظْم الخليفة نفسه، وأنه سأل أحمد بن صدفة الطنبوري أن ينشده له يوم السعانين، وهو عيد للنصارى يعملونه كل عام في المدينة. وكانت بين يدَي الخليفة عشرون وصيفة رومية مجلوبة، وقد تزيّنَّ بالديباج الروميّ وعلّقن في أعناقهن صُلبان الذهب، وفي أيديهنّ الخوص والزيتون، فقال فيهن الخليفة ما قال. أوَلا يعلم هذا الأحمق أن الشهاب من الكارهين للخليفة؛ لأن أهله من السواد بقرية من القرى المحيطة ببغداد، وأن جنود الخليفة قد جاروا على أرض وزرع لهم، وسرقوا دوابَّ تخصّهم، دون أن يفعل لهم شيئًا أو يعاقبوا على هذا الإثم الشنيع؟ ويقال إن الشهاب - والله أعلم - بات ينتسب إلى جماعة من الجماعات المناهضة لبني العباس، وقد يُوبّخونه على ذلك الغناء، فلا بد أن يكون بعضهم هنا ضمن الحاضرين.

دهشت من ذلك الكلام وكنت أسمعه لأول مرة؛ فهذا الأمر عن الشهاب لم أعرفه أبدًا، مع معاشرتي له، وإقامتي في بيته منذ خروجي من قصر الخليفة. صحيح أنني لا أذهب إليه بعد مغادرته في الصباح الباكر إلا لأبيت في الليل، لكني لم ألحظ عليه أمرًا يدل على أن له جماعة تُناقض دولة الخليفة، وإن كان يبدو لي متذمرًا، متبرِّما مما يحدث في البلاد، وفي مرّة سألته عن حقيقة الفارس ذي الرمح المنتصب على قبّة السور فضحك، وقال إنه يتجه الآن بسهمه إلى البذّ بخراسان. فلم أفتهم ذلك وقتها، لكني علمت بعد ذلك من اليشكري أن البذّ هي بلد واحد من الخارجين على الخليفة اسمه بابك.

لم أعلّق على ما همس اليشكري به في أذني، وقلت لروحي: في بغداد كل شيء جائز حتى نكاح العجائز، وهذه مدينة الغرائب والعجائب ذات الأوجه الألف، والتي كلما ظننت أنني أعرفها وخبرتها وكشفت كل وجوهها، أسفرت لي عن وجه جديد لها.

كان رأسي قد بدأ يدور وقد شربت شيئًا مما يُسكر مُجاراة للجميع ورغبة في إبراز المرح والسرور، فبقيت ساهمًا متفكرًا، بينما عيناي تتابعان الراقصين، ورقصهم المستعر، وصخبهم، خصوصًا عندما بدءوا يرقصون نوعًا من الرقص العجمي، كان قد شاع في بغداد، يُسمى الدستنبد والإيلا، وكنت حينئذ أفكر في آمونة، وسويلا، وريطة، وما كان من أمرهنّ معي، وكان هجسي بريطة يأكلني من الداخل، وقد تساءلت عما سيفعله الزمان بها بعد ذلك، خصوصًا بعدما سمعته الآن عن الشهاب الحلاج، وتبدّل أيامها من حياة العزّ والقصور، إلى حياة الرعيّة، وتواضع الدور، فها هي خرجت من قصر لتستقر في ربع، وكانت ذات يوم جارية مرغوبة، فصارت الآن ضرّة منكوبة، ورُحت أسائل نفسي: هل جنيت عليها يوم وضعني القدر في طريقها، فربطَ مصيرها بمصيري بعدما جرى في قصر الخليفة، أم كان ذلك مُقدرًا مكتوبًا في لوحها المحفوظ قبل أن تولد، فتحتّم عليها الخروج

من رقّ الغِنى إلى حرّية الفقر، ومن ذَلَ القصور المنسوج بالذهب والفضة، إلى كرامة الستر، وتواضع العيش؟!

* * * *

خرجت من بغداد بعد ذلك بأيام، بعد أن رتّب الشهاب كل ما يتعلّق بأمر خروجي، فكانت مُغادرتي المدينة وقت اقتران الرأس والمشتري كما قال لي، وكنت قد ذهبت إلى زاوية شيخي وصلّيت ركعتين، ودعوت الله - تبارك وتعالى أن ييسر لي أمرين، وكان اليشكري في وداعي، وقد أهداني قميصَيْن وبدنة بغدادية، لم أرَ أجمل منها، لأرتديها وقت السفر، فشكرته بعد أن اعتنقنا طويلًا، ثم ركبت راحلتي وكانت برذونًا عفيًّا، قدمه لي الشهاب، وقد أعطتني امرأته الروايحية عطورًا في قوارير زجاجية عدة، كي أهديها لمَن أشاء أو أتربح بها، وقد أنتفع ببيعها إذا ما اضطررت أثناء الطريق.

كانت بجيبي دراهم قليلة، وكنت قد دفعت معظم دراهمي التي اكتسبتها أثناء اشتغالي في الوراقة، والتي كنت أدّخرها لدى امرأة الشهاب، إلى صاحب القافلة التي ستؤمّن رحلتي قبل خروجي من المدينة. أما ريطة فقد زوّدتني بكعك السميذ، وهو نوع من الكعك الجاف الملائم للسفر، وتمنّت لي كلّ خير وراحت تدعو الله طويلًا أن يشملني برعايته وبكل أمان وتوفيق.

ظللنا سائرين لمدة يومين بعد خروجنا، لم تتوقف خلالهما القافلة إلا للراحة أو النوم، حتى بلغنا مدينة القدس، فلما نظرتها وجدتها أنها مدينة مُشيّدة على جبل، وكانت الأمطار وقت وصولنا تهطل بشدة، فقالوا لنا إن هذا دأبها في القدس. وكان الغرض من دخولها هو أن يطرح بعض التجار الذين في القافلة جانبًا من تجارتهم وبضائعهم فيها، فلما أذن الحرّاس لنا بالولوج إلى داخل المدينة قاصدين أسواقها، سيّرونا إلى موضع يُطلق عليه الأسواق الثلاث، بالقرب من باب المحراب، وكان به سوق للعطارين وآخر للقماشين، ثم إننا عبرنا القيساريات، والخانات، والرباع التي فوقها، ثم الفنادق، حتي وصلنا إلى خان كبير مبنيّ من الحجر الوردي الجميل، وكان يتوسطه فناء على هيئة رواق مُغطّى، فنزلنا إليه وعقلنا دوابنا، وكان هذا الخان كما عرفت بعد ذلك يسمّى خان الفحم، ويقع في الشارع الرئيسي من المدينة، المسمى بخطّ داود عليه السلام، وهو الشارع الأعظم وابتداؤه من المسجد الأقصى من عند باب السلسلة إلى باب المحراب، وهو باب المدينة المعروف بباب الخليل.

وكنت خلال الطريق قد تعرّفت على رجل يتاجر بالبهار، وبدا لي من أفضل الناس وأحسنهم خُلقًا، وكان سبب ذلك أنه في مبتدأ الأمر، وأثناء وقوفنا للراحة في قرية من القرى التي كنا نتوقف عندها بين الحين والحين على الطريق الخارجة من بغداد، كنت ألاحظ أن الرجل كثيرًا ما ينظر إليّ ويتفحصني، فكرهت ذلك منه، وتمللت وقد استربت به، فبادرته بالقول:

- يا شيخ قد ألححت في النظر، أعرفت شيئًا عني فأنكرته؟

قال:

لا والله ما عرفتك قبل رحيلنا هذا، ولا أنكرك لسوء أراه فيك، لكني رجل حَسَن الفراسة في الناس، - جيّد المعرفة بهم، وإنك ذاهب للبحث عن إنسان عزيز على نفسك، ولسوف تبذل جهدًا ووقتًا حتى تجده، وهو جِدّ مريض، وقد تدركه أو لا تدركه، فهذا أمر لا يعلمه إلا الله، لكنّك في طريقك إليه سوف تواصل مسيرك الذي بدأته، ولن تعود منه أبدًا.

فتعجبت لذلك كثيرًا، وإن كنت انقبضت وخشيت أن يكون قد حدث مكروه لعزيز عيني ثاونا، فلما سألته كيف تفطّن إلى هذا، أمسك، وبدا وكأنه متمنع عن البوح بأمره لمَن هو مثلي، فداخلني ضيق وقد كرهت استعلاءه، فألححت عليه وقلت:

إن ما أفضيتَ به إنما هو من قبيل الشعوذة والخرافة، فلا يعلم الغيب إلا الله. ألم تقرأ مقولة: (كذب - المنجمون ولو صدقوا)؟

فردّ بسرعة، وقد أدرك ما بباطن كلامي: لا. لست مُنجمًا والله، والفراسة علم وبحر، ألم تسمع ما فاضَ به الشيخ الفيلسوف عن ذلك، إذ قال:

«وإن البصر البراني، لا يرى المحسوسات إلا حين تنقشع الظلمات بنور الشمس، وإلا حين تختفي الحواجز التي تفصل بين البصر وموضوعاته، كذلك البصر الجواني، ليس في مقدوره أن يدرك العالم الروحاني، إلا إذا تطهّرت مرآة القلب من الشهوات، التي تمنع انعكاس النور الإلهي»؟

ثم أضاف:

لقد قرأت ما أنت مُقبل عليه بالفراسة، وقد لاحظتك وراقبتك أثناء الطريق، وخبرت شدّة صوتك - وضعفه، ونزوع رقبتك وحركتها، ورسم أنفك وعينيك، وأحوال شعرك، ورائحة بدنك، وحالة أسنانك، وصورة يديك وقدميك، وما عليه حال أظافرك وأصابعك.

فتعجّبت لكلامه كثيرًا، وتذكرت أن شيخًا من أحناف حرّان قد أتى إلى دكان العفيف ذات مرة طالبًا نسخ كِتاب وصفه بأنه عزيز ونادر، وقال: إن الخليفة منذ زمن كان قد طلب من أكبر مترجميه العثور على نسخة منه وترجمته إلى العربية، لِما به من فوائد حكيمة وثمار معرفية، وإن المترجم ذهب مرتحلًا «بنفسه إلى بلاد اليونان، فيما وراء البحر الرومي، وعثر على الكتاب وكان اسمه «سِرّ الأسرار»، وهو من وضع حكيم قديم، يُدعى أرسطو، لملك من أشهر الملوك، وكان ذلك في معبد من معابد الوثنية هناك وهو معبد الشمس، وإن هذا الكتاب منحول عن قرطاس قديم لهرمس الأكبر المُعظم ثلاثًا، وإن الرجل عثر على قرطاس عليه الكتاب بالفارسية فترجمه عنها.

وأثناء مبيتنا بالخان أنبأنا رجل هبط المدينة، وكان ببلاد اليونان، أن نيقفور ملك الروم زحف إلى بلاد البلغار فحاصر عاصمتهم، ودوّخها، وخرّبها، وقتل خلقًا كثيرًا، وبلغت منه الفظاظة أن جعل يسطّح الفتيان على الحضيض، ويطأهم بالجراجر.

ثم إنّه بعد ما جنَّ الليل ونمنا، تنبهنا جميعًا على صوت ضحك عالٍ وقهقهات زائدة عن الحدّ، فقَمنا نستجلي الأمر، فإذا بواحد من التجار قد انتابته نوبة ضحك، لا يستطيع السكوت عنها أو الفكاك منها، وعجزنا عن إسكاته بكلّ الطرق والحيل، بما في ذلك الزجر، والشتم، والضرب، وصب الماء، والإيلام بالوخز، واللطم، والقرص، وقراءة الآيات الرادعة، وقد ظنّ البعض أنه أصيب بمسّ من شيطان، وما لبث على هذه الحال ساعة إلا ومات، فارتاب بعض الشيوخ الذين كانوا معنا في الأمر، وكان مع الرجل عبد حبشي أسود، فأخذوه للتقرير، وراحوا يسوطونه بشدّة بعد توثيقه، حتى أُدمي ولم يستطع مناهضة الألم، فأقرّ أنّه سقى الرجل سُمًّا يُسمى السم الضحاك، فلما أراد هؤلاء الشيوخ الوقوف على كنهه، أخبرهم أنه أخذ من القرنفل عشرين درهمًا، ومن الدار صيني مائة درهم، ومن الزنجبيل خمسين درهمًا، ومن الفلفل خمسين درهمًا، ودقّ ذلك كله دقًا ناعمًا، ثم أُلقي عليه وزن خمسة أرطال من الماء، ونقعه يومًا وليلة، ثم أخذ من الزعفران وزن رطل ودقّه دقًا ناعمًا، ونقعه في الماء، الذي هو خمسة أرطال، مخلوطًا بالأجزاء السابقة، وتركه أيضًا يومًا وليلة، وبعد ذلك مرسه، ثم تركه حتى صفا فوقه ماؤه، ونقع فيه من زعفران آخر ربع رطل، وتركه يومًا وليلة، وهكذا إلى ثلاث مرات حتى صار سُمًّا قاتلًا، وإنّه أعطى المغدور منه وزن درهمين، وقت عشائه، بعد أن خلطه بعسل، وكان من عادة سيّده شرب العسل المخلوط بماء بعد صلاة العشاء، وكان ذلك كله بسبب أن الرجل هدّده أكثر من مرة بخصيه، بعد أن اتّهمه بالتقاعس عن العمل، وإنه كان يخشى أن يقوم سيّده بذلك كثيرًا، وخاف أن يفعل ذلك عندما تهبط القافلة إلى مصر.

فلما جاء النهار أخذوا الخادم وسلّموه إلى متولي الدرك بالمدينة. أما الميت فقد صبرنا عليه حتى جلبنا من السوق كفنًا له، فغسّلناه، وكفنّاه به، ومضينا به خارجين من الخان حتى مسجد المدينة الأعظم، فصلّينا عليه ووارياه في مقبرة بالقرب من المسجد، أما تجارته فقد حصرناها وبقيت وديعة لدى صاحب الخان، حتى يطير البرق إلى ذويه.

لم أكن قد رأيت مسجدًا بعظمة المسجد الأقصى، فلما خرجنا من المقبرة استأذنت مَن كانوا معي أن أتركهم، وعُدت إليه لأجوب فيه وأشاهده بتمعن وتمحيص، وقد تأكد لي أثناء ذلك أنه من المساجد العجيبة، الرائعة، فائقة الحُسن، وهو ذو أبواب كثيرة في جهاته الثلاث، والمسجد كله فضاء، وغير مسقف إلا من عند نهايته، على الغاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة، مموّه بالذهب والأصبغة الرائقة، وصحنه طويل عريض، طوله أكثر من عرضه، وهو في غاية الحُسن والإحكام، مبنيّ على أعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التي لم أرَ أحسن منها ولا حتى في كنيسة أنطاكية، وفي ذلك الصحن مصطبة كبيرة في ارتفاع خمس أذرع يُصعد إليها من عدة مواضع بالدرج، وفي وسط هذه المصطبة قُبَّة عظيمة مثمَّنة على أعمدة رخام مسقفة برصاص، منمّقة من الداخل والخارج بالفُسيفساء، ومُطبّعة بالرخام الملون، وفي وسطها الصخرة التي تُزار، وعلى طرفها أثر قدم النبي عليه الصلاة والسلام، وتحتها مغارة، يُنْزل إليها بعدة درج يُصلّى فيها، ولهذه القبة أربعة أبواب، وفي شرقيها، خارج القبَّة، قبَّة أخرى على أعمدة حسنة، يقولون إنها قبَّة السلسلة، وقبَّة المعراج أيضًا على المصطبة، وكذلك قبّة النّبي صلى الله عليه وسلم، كلّ ذلك على أعمدة مُطبّع أعلاها بالرصاص، هذا وقد حفرت في أرض المسجد أحواض وصهاريج كثيرة، فإن المسجد مشيّد كله على صخرة يتجمّع فيها ماء المطر، فلا تضيع منه قطرة وينتفع به الناس.

ظللت أطوف بالمسجد حتى ما بعد صلاة العصر، فلما توضأت وصلّيت وحمدت الله، انصرفت إلى جوار حائط من الحوائط بصحن المسجد، فجلست وكنت قد تعبت من كثرة التجوال في الجامع، ومما كان من مسيرنا إلى المقبرة، مع عدم كفايتي من النوم في الليلة الفائتة، وبقيت وقتًا متأملًا أحدّق في السماوات المفتوحة فوقي، والأرض الظاهرة على البُعد أمامي، بمروجها، وزروعها، وتِلالها، ومنازلها، ورُحت أتفكّر فيما قاله شيخي ذات يوم وهو يحدثنا عن يقينه، إذ قال:

- وجدت الحرّ مضادًّا للبرد، ووجدت الضدّين لا يجتمعان في موضع واحد من ذات نفسيهما، فعلمت من وجودهما مجتمعين أن لهما جامعًا جمعهما، وقاهرًا قهرهما على خلاف شأنهما، وما جرى عليه القهر فضعيف، وضعفه ونفوذ تدبير قاهره فيه دليل عل حدثه، وعلى أن له محدثًا أحدثه، ومخترعًا اخترعه، لا يشبهه، لأن حكم ما أشبهه حكمه في دلالته على الحدث، وهو الله رب العالمين.

وبقيت على هذي الحال وقتًا أتأمل الكون وعظمته حتى استرخت أعضائي ولانت، وضعفت ملكاتي، وتشوش صفاء تنبّهي، فحدّثتني نفسي أن أستسلم إلى ما يلزمني من وجبة نوم، تعينني على ما تبقى من النهار، وما قد يكون في الخان بالليل، وبقيت وقتًا مفتوح العينين ساكنًا، أحدق في السماوات المفتوحة فوقي وأتأمل عظمة الخالق، وقد لفّني نسيم رطيب أنعش روحي، وسكّن حواسي، وشيئًا فشيئًا وجدتني أدخل في نوم هانئ رضيّ، ولا أدري كم لبثت من الوقت على هذي الحال، إذ أفقت على حلم لا أدري أكان، أم كان ما رأيته هو رؤية الحقيقة والعيان! إذ وجدت عزيز عيني ثاونا، وقد جاءني على الهيئة التي رأيته فيها من قبل، أثناء اختبائي في الأراضي الموحلة، وهو واقف على عُلّية وبيده نقف ويقول لي بوجهه النوراني الطيّب:

- لمَ السرعة؟! ابقَ في مدينة الأنبياء حتى تشبع روحك، وتعمر بالإيمان، ثم تعالَ.. سأنتظرك حتى تجيء.

بقيت فترة واجمًا حائرًا.. لا أصل إلى يقين حول ما وقفت عليه، ورؤيتي لثاونا، ثم إن الله هداني إلى أمر، وفتح لي فتحًا مبينًا؛ إذ قرّ أمري على عكس ما كنت أنتويه وعزمت عليه، قمت بسرعة، وذهبت إلى الخان، وهناك التقيت رئيس القافلة، فأنبأته أنني لن أرحل معهم في صبيحة اليوم التالي، وسأبقى وقتًا في مدينة الأنبياء هذه. ثم إنني جمعت حوائجي القليلة وخرجت بعد توديعي لكل مَن كانوا معي، وبينما أنا خارج إذ التقيت على الباب الفَرَّاس الذي كان قد كلمني من قبل، فلما أخذت في توديعه نظر إليَّ قليلًا، ثم قال:

- ألم أقل لك إنك ستمضي في طريق لن تعود منه أبدًا؟

سُحتُ في القدس زمنًا، ومرّت عليّ شتاءات وراء شتاءات، وأصياف وراء أصياف، وقد تعوّدتني المدينة مثلما تعوّدتها، فصِرت أبيت في الجوامع حينًا، وفي الأسواق حينًا، وفي براريها أو بساتينها حينًا آخر، وقد أخذتني المدينة، كما لم تأخذني مدينة أخرى من قبل، وبت لا أستطيع البُعد عنها، وكأن روحي لا تعرف موضعًا في هذه الدنيا كلها لتستريح وتطمئن إلا فيها.

كنت أنصرف إلى الكنائس أيامًا وإلى المساجد أياما أخر، أو أصعد القلعة فأنصرف إلى الجانب الغربي من سورها إلى محراب داود بقلب الجامع المبني هناك، وأبقى في المرتفع الذي يُطلع إليه بدرج حيث مكان جلوس النبي داود عليه السلام، وأظل وقتًا أنظر من الطاقة الحجرية الكبيرة حيث أثر مرفقه الغائص في الحجر، وأتعجب لتلك البلاطة التي طبع عليها المرفق، أما كنيسة القيامة، والتي عماراتها من العجائب المذكورة، فكنت أذهب إليها بين الحين والحين وأنظر موضع جلوس السيّد على الحجر، والموضع الحجري الذي سِيط وجُلد وتعذب فيه عليه السلام، وكذا السجن الذي وُضِع فيه، وكنت أبقى حتى يأتي واحد من آل نسيبة أو آل جودة؛ وهما عائلتان من عائلات المسلمين كان منوطًا بهما فتح وإغلاق الكنيسة وحفظ مفاتيحها.

وصِرت أتعيّش بما يقدمه لي الناس من صدقة وإحسان، وقد انصرفت في جلّ وقتي إلى الصلاة والتعبّد، وفضّلت السياحة على سواها من أمور الدنيا، فكنت أنحدر حينًا إلى دير المصلّبة؛ وهو دير رومي قديم البناء بالحجر والكلس، مُحكم الصنعة مونق البقعة في بحيرة من أشجار الزيتون والكروم والتين، بإزاء قرية تجري على الدير، وكانت بداخل الدير صور يونانية غاية في محاسن التصوير، وتناسب المقادير، وأذهب حينًا آخر إلى نشز عالٍ مشرف على غور أريحا، به دير يُسمّى دير السيق، وهو مطلّ على تلك البسائط الخضر ومجرى الشريعة، فكان يتلقاني هناك رهبان ظراف أكياس، فيقدمون لي مما عندهم من خبز وفاكهة ويتركونني أنصرف إلى التأمل أو الصلاة، وبُقعتهم لا يأتيها إلا قاصد لهم أو مارّ في مزارع الغور تحتهم، وفوقهم الطريق الآخذة إلى الكثيب الأحمر بعد ذلك.

وقد حدث أنني كنت في وادٍ يسمى وادي اليوسيفات، وبه عين ماء، فوجدت جماعة من النساء قد جئن وبينهن امرأة شابة من أجمل خلق الله، ثم إنهن دفعن بالمرأة إلى العين فقذفت ببعض من أثوابها إلى الماء، وشربت منها، فلما فعلت ولبثت واقفة على رجليها، هللن جميعًا، وزغردن، وقلن إنها طاهرة بريئة، فتعجّبت لذلك واستجليت الأمر، فعرفت أن ذلك النبع يسمى نبع العذراء، أو نبع النساء المتّهمات، فأي واحدة تُتَّهم في شرفها يُؤتى بها إلى هذا الموضع لاختبارها، فمَن تشرب من ماء العين وتموت تكون خاطئة، أما إذا كانت بريئة فلا تُصاب بأي أذى أو ضرر، ويقال إن السيدة مريم عليها السلام قد قبلت الاختبار، وشربت من ماء هذي العين، فبرهنت على طُهرها فلم تُطعن وتموت. ومنذ ذلك الحين والنبع يحمل اسمها.

لا أدري كم من الوقت مرّ بي وأنا في مدينة الأنبياء، ولقد مرّت أيام وشهور وأنا أسوح فيها هنا وهناك، وقد صَفَت نفسي بها، وهنأ عيشي بربوعها، على الرغم من أنني كنت بلا عمل، أتعيش من ثمار البراري وأشرب من مياه الينابيع، وأتقوّت بما يجود الناس عليَّ به بين الحين والحين، دون أن أسألهم أو أطلب منهم شيئًا، فلقد كنت أذهب إلى سوق اللحم أو سوق الخضار بالمدينة، فأطلب ببعض من الدريهمات التي معي شيئًا مطبوخًا، أو مشويًّا آكله، فأجد مَن يقدمه لي وهو يدفع بيدي رافضًا أخذ الثمن، ومرّة رفض صاحب دكان أن يأخذ مني أكثر من دانق مقابل صحن مملوء بخبيصة لحم وخضار، وكنت أتعجب لأن مطاعم السوق تكثر هنا في القدس، وتشيع عادة الأكل فيها بين الناس، على عكس بغداد التي قلّما يأكل الناس فيها خارج بيوتهم.

ثم إنه حدث لي أمر غاية في الغرابة والتوفيق، وبدا لي أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة، فبينما كنت ساهرًا ذات ليلة في زاوية الهنود الواقعة إلى جانب باب السامرة، وبعد أن أنهيت مع جماعة من الدراويش وَصْلة ذِكر وإنشاد، أعقبناها برقص للحبيب على دق المزاهر، وبلغنا حالًا من النشوة وشدّة الوجد فتحتمت الدوسة، فما كان إلا أن تمددنا جميعًا على الحضيض، شاهرين كل سلاح نتسلح به من سيف، ورُمح، وخنجر، وسكين، ثم جاء الشيخ الرئيس الواصل، وقد تجلّى وانجلى وأطلّ فأشعّ، وعكف فكشف، وسار بفرسه واطئًا جسومنا، ورِماحنا، وسيوفنا بالحوافر، ولساننا يلهج بذِكر الجلالة، وقلوبنا تدقّ بحُبّ الحبيب، حتى واعدنا فغِبنا، فما إن قُمنا حتى ظهر على باب الزاوية رجل مشعث مغبر يدخل إليها وهو في حالة شديدة من الضعف والإعياء، طالبًا إغاثته بشربة ماء، فلما هرعنا لنجدته جميعًا وسقيناه تبيّنت أنه اليشكري الأبرص، فلم أتمالك نفسي وارتميت عليه أعتنقه وأُقبّله شاكرًا الله على لقائي به مرة أخرى في هذه الدنيا، ثم إننا أطعمناه وتركناه يستريح حتى يسترد أنفاسه، فلما تحسنت حالته خرجنا معًا إلى البساتين التي بظاهر المدينة، وتخيّرنا موضعًا من المواضع فيها، ورُحنا نحكي لبعضنا البعض ما جرى لنا بعد افتراقنا في بغداد، حتى طلع الفجر علينا ولاحت أنواره الربّانية، فقال لي اليشكري إن الشهاب الحلاج قد ارتحل مع امرأتيه إلى مدينة مرو، وهي بلدة امرأته الروايحية، بعد أن ضاق العيش به في بغداد، وإن الخليفة مات، وجاء بعده خليفة آخر، وهو ظالم جاهل من أرباب السيف والرمح، ثم إن الزطّ وهم من الهنود الغجر المتوطنين بالسواد في نواحي البصرة ما بين النهرَيْن، ثاروا ثورة كبيرة ضد الخليفة الجديد، بعد أن ضاقت بهم الحال طيلة العام المنصرم دون جدوى، وأنه استعمل ضدهم جماعة من المصريين، الذين كان الخليفة السابق قد وضعهم في أنطاكية، وذلك بعد أن استجلبهم إلى بغداد لمحاربة هؤلاء الزطّ، بسبب أنهم كانوا يطوفون ببحيرات يصبّ فيها الفرات ودجلة، ولا يستطيع جنود الخليفة الدخول إليها ومقاتلتهم، لأنهم كانوا يحاربون وهم في قواربهم، فقاتلوهم بالمزاريق وبعجوهم، فالتفّ عليهم الأقباط وأمسكوهم، وأمسكوا أهاليهم، وانقضى أمرهم فساقهم عجيف؛ متولي العسكر لقتالهم من قِبل الخليفة، إلى بغداد، بعد أن طلبوا الأمان فأمّنهم، وكانوا يعدّون ما ينيف عن الخمسة والعشرين ألفًا بين رجل وامرأة وصبي، فجعلهم في السفن، وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية، وقد خرج كثير من أهالي بغداد لمشاهدتهم وكنت منهم، وكانوا في زواريقهم وعلى هيئتهم في الحرب، معهم البوقات، وكان عجيف قد وصل بهم الشماسية، فبقي الخليفة في سفينة يُقال لها الزو حتى مر به الزط، على تعبئتهم، ينفخون بالبوقات، فكان أولهم في القفص وآخرهم بحذاء الشماسيّة، وأقاموا في سفنهم ثلاثة أيام، ثم عبر بهم إلى الجانب الشرقي وذهب بهم إلى بلدة تُدعى خانقين، وقيل إنهم سوف ينقلون منها إلى موضع آخر بالثغر يُسمى عين زربة، فلما سمعت ذلك، دقّ قلبي دقًّا عنيفًا، وقد أُخِذت بما قال، وتذكرت بخنس بن أيوب، وحيرتي مما يمكن أن يكون قد جرى له، وعدم وقوفي على حاله منذ مُفارقتي إياه في شاطئ الفرما، وكذا كل الذين كانوا على السفن عند خروجنا من بر مصر، وبقوا سالمين حتى دخلنا أنطاكية وتم فرزنا هناك، وكنت قد علمت أن كثيرًا من الناس ممن لم يُباعوا من أهل البشمور، وقد وُطّنوا، بأمر الخليفة، على جانب من بحيرة أنطاكية، في منطقة المستنقعات التي بشمال المدينة، لتشابه ما خلق الله من أراضيها من كور البشمور.

قلت بلهفة متسائلًا:

والأقباط! قل لي بالله عليك، ماذا كان من أمرهم؟ -

نظر إليّ اليشكري بدهشة وكأنه استغرب سؤالي، أو استنكره، وبدا لي وكأني سألته عن أمر لم يكن قد خطر على باله أو فكّر فيه من قبل، فقال بينما هو يخلع عمامته، ويُعيد جَدْل ضفيرة شعره الأسود الحريري وقد التمع على ضوء الشموع القليلة التي أوشكت على الذواء:

- الأقباط! قلت لك إن الخليفة استخدمهم في محاربة الزطّ، لكن لا أدري من أمرهم شيئًا. ربما ظلّوا في مواضع الزط التي رحلوا عنها يشتغلون بما كان يشتغل به هؤلاء من صيد للأسماك، وتربية الجاموس، وعمل الملح، ولم روث البهائم لعمل الوقايد وتغذية أرض الزراعة، وربما حلّوا محل الزطّ في الوحلات والمواضع التي حول البصرة، كواسط ونجيدا وصافية.

ثم إنه بدا كمَن استدرك أمرًا وقال مازحًا:

- لكنّ سؤالك عجيب، لا أحد يفكر في أمر الأقباط، على الرغم من كل ذلك الذي جرى لك، وعلى الرغم من كل ذلك المكوث في بغداد، وإسلامك، تُفكّر في الأقباط؟ والله يبدو أن بداخلك قبطيًّا، أو فرعونًا من الفراعين. في الحقيقة، إن ذهني لم يتطرق إلى التفكير في ذلك من قبل.

ثم إنه ضحك وقال:

- في أنطاكية. في مصر. في الشام. في بغداد.. كلها أرض الله وبلاد الخليفة. كلنا عبيد الله. لا أظن أن مكروهًا لحق بهم. ولو كان الأمر كذلك، لما كان الخليفة قد استخدمهم لمحاربة الزطّ، وما يقع لهم، يقع لسواهم، سواء في بغداد أو أنطاكية، أو مرو، أو خراسان، أو مصر، أو ما يقع لكل مَن لا حيلة لهم في هذه الدنيا، ولا قدرة لهم مع أهل القوة وأصحاب السلطان.

ثم إنه سهم ببصره طويلا، وقد تلبّدت عيناه بغيوم غم وضيق، ثم صرخ صرخة عظيمة فجأة وصاح: يا حبيب.. يا مُجيب.

رُحت أمد بصري إلى الأفق القدسي أمامي، متطلعًا إلى نجمات أشعت علينا من السماء، أفكر فيما قال، وضيق يداخلني، إذ إن ما أجابني به لم يشفِ غليلي، ولم يرد على سؤالي، فبقيت ساكنًا في موضعي، بينما قلبي ينفطر على بخنس بن أيوب، وكنت أتساءل: تُرى، هل وصل سالمًا إلى أنطاكية بعد فراقي له في الفرما، وجُلب مرة أخرى إلى بغداد لمحاربة الزطّ، أم بِيع في سوق النخاسة بالشام، أم لقي حتفه وقُبر بمياه البحر الرومي التي لا مُنتهى لها؟ كانت الحسرة تأكل قلبي عليه، وعلى كل الذين رحلوا إلى السفن، وقد أيقنت أن مَن ماتوا في الطريق إلى أنطاكية استراحوا من عذاب جديد، كان بانتظار أولئك الذين شاء الله أن يظلوا على قيد الحياة، وسرعان ما تذكرت ثاونا، وما قاله لي ذات يوم، من أن الروم في زمن سطوتهم وبطشهم بمصر من دهور، كانوا يستخدمون الأقباط وقودًا لحروبهم، حتى إنّهم حاربوا مرة في بلد فوق البحر الرومي وبلاد الجريك يسمى سويزرة، وكانوا يأخذون الجميع معهم، بما في ذلك النساء القبطيات الورعات لرعاية الجرحى

والتطبيب والتمريض، وكانت واحدة من هؤلاء النسوة يعقوبية طاهرة، فراحت تُعلم هؤلاء الناس، في سويزرة هذه، أصول النظافة والعلاج، والديانة الحقة حتى استُشهدت وهي قديسة متقانية، فصنعوا لها ضريحًا ورسموا لها أيقونة، وعملوا كنيسة على اسمها تُسمى كنيسة فيرينا.

داخلني شعور جارف بالألم والمرارة، وشملني حزن نبيل، بينما كنت أتذكر كل ذلك، وطارت عصافير شوقي إلى برّ مصر، فرعف راعف الحنين بدمي، وتفجّرت ينابيع دمعي بلهفة الرواح والعودة إلى ترابي، وسمائي، ونيلي، وشمسي، ورُحت أهمس لنفسي بما كانت قد دفعت إليّ به الروايحية امرأة الشهاب، ذات يوم، لأكتبه لواحدة من صويحباتها، كانت على وشك الرحيل من بغداد إلى غزنة، مع رجل زوجوه لها من هذه البلدة، فأرادت أن توشّي بعضًا من أثوابها بجميل العبارات وأحسنها، كما جرت العادة وابتدع في ذلك الوقت ببغداد، فكتبت لها - ضمن ما كتبت – على صدر قميص خزّ أكحل بالفضة والذهب، ما يُذكّرها بأهلها ووطنها، وكان ذلك بخطّ كوفي نيسابوري شاع واستُحب كثيرًا لدى الناس:

سقى الله أرض العاشقين بغيثه

وردَّ إلى الأوطان كل غريب

وأعطى ذوي الهيئات فوق مُناهم

ومتّع محبوبًا بقُرب حبيب

ثم إنيّ بقيت في البستان وقتًا مع اليشكري، فأخبرني أنه هبط المدينة، للبقاء فيها بضعة أيام، قبل رحيله إلى دمشق، وقد طلبها للعمل عند بعض ورّاقيها، كما وعده الجوهري الذي التقاه في بغداد، وأنه راغب كذلك في زيارة مساجدها، ومقامات الأنبياء فيها، لكنّه لن يتمكن من الرحيل إلا بعد أن يستعيد قواه، ويبرأ مما هو فيه، لأنه سار طويلًا على قدميه، بعد أن مرضت راحلته ولم تعد تتحمل الركوب، فعرضت عليه أن نبيت في جانب من البستان الذي نحن فيه، ثم نسعى إلى حلّ مشكلته في المدينة عندما يحلّ الصباح إن شاء الله.

وبقينا ساهرين نتحادث حتى قرب طلوع النهار، وظلّ اليشكري يحكي لي عن أمور بغداد، وما استجد بها من أحداث بعد رحيلي، فقال إن الأحوال بها صارت على غير ما يُرام، وإن أكثر الناس أصبحوا في ضيّق العيش وصارت العامة كثيرة التذمر، بعد أن فشا أمر الشطار، والعيارين، والمكدية، وغلب الفقر، حتى إن أكثر الناس صارت لا تأكل إلا السويق المصنوع من طحين الحنطة، أو الشعير المحمص المخلوط بالتمر مثلما يأكل الزنج والسودان، وهذا كان لا يحدث قبل ذلك، وأن الهريسة صارت هي الأكلة الفريدة التي لا تعرف غيرها كثير من البطون، حتى إن بعض الظرفاء قال فيها:

إن الهريسة أهواها وتعجبني

وبالهبيطة قلبي جد مفتون

وإن ذكرت سواها هاج لي طربًا

وإن أتى بعده لونان يكفيني

وقد تفشى الإملاق، وبات الناس يرفعون الرقع إلى الخليفة وأولي الأمر، حتى إن أحدهم كتب في واحدة من هذه الرقع:

«إن مصائب الدهر وأعاجيب الأيام ومِحن الزمان قصدتني، فأخذت مني ما كانت الدنيا أعطتني، فلم يسبق لي ضيعة إلا خربت، ولا نهر إلا اندثر، ولا منزل إلا تهدم، ولا مال إلا ذهب، وقد أصبحت لا أملك سبدًا ولا لبدًا، وعليّ دَين كثير، ولي عيال، وأطفال، وصِبية صغار، وأنا شيخ كبير قد قعدت بي المطالب وكبرت عني المكاسب، وبي نظر إلى أمير المؤمنين وعطفه إذ صرت على حال مَن قال:

لي بيت كأنه بيت شعر

لابن حجاج من قصيد سخيف

أين للعنكبوت بيت ضعيف

مثله وهو مثل عقلي الضعيف

بقعة صد مطلع الشمس عنها

فأنا مذ سكنتها في الكسوف»

وقال: إن العيارين بلغ بهم الأمر إلى محاربة الشرطة والافتتان معها، وصبّوا الماء عليهم، وطاردوهم في الشوارع، كما أنهم أولعوا بأذى الخدم السود، وصاروا يقولون لهم كلما صادفوهم: يا عقيق. وهم ينظّمون أنفسهم إلى عشرات، على كل عشرة منها عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، والرئيس وتحت إمرته عشرة أمراء، وهو الرئيس الأعلى للتنظيم العسكري العيّاري، ومن رؤسائهم مَن يُقال له نبتوية، وخالويه، ودويل، ودغال، وأبو نملة، وأبو عصارة، وديكويه، والمخرّمي، وإن البعض يقول إن عددهم ببغداد اليوم يزيد عن خمسين ألف عيار، حتى إنهم إذا تحركوا هلك بعضهم من كثرة عددهم وسرعتهم، وأنهم لا جنس معينًا لهم، بل إن أكثرهم من غير العرب، وبسبب سوء الأحوال فإن كثيرًا من أهل الحِرَف، والباعة المتجولين، وصغار التجار، الذين كسدت سوقهم وبارت بضاعتهم، باتوا ينضمون إليهم، إضافة إلى الأوباش وأهل السجون وأهل السوق.

لم نشعر كما لبثنا نائمين، إذ أفقنا قرب الظهيرة على صوت جلبة وصياح، فلما تبينا الأمر وتنبهنا، وجدنا أن أصحاب البستان قد جاءوا لشئونهم فظنوا أننا لِصّان جاءا لسرقة مالهم وغَلتهم، فأفهمناهم ما كان من أمرنا، وأننا من الفقراء إلى الله الذين لا غاية لهم في هذه الدنيا، وأننا لسنا بسارقين، فلما استقروا على أمرنا، وآمنوا بحكايتنا، أكرمونا، وأطعمونا من خيرات أرضهم، ثم إننا سألناهم عن بيطار يداوي دابة اليشكري فوصفوا لنا واحدًا يقع دكانه بحارة اليهود.

سحبنا البهيمة بعد ذلك، حتى وصلنا إلى حارة اليهود، وهو طريق يصل ما بين شارع داود وسور المدينة وليس ببعيد عن بوابة صهيون، ولم أكن قد دخلت هذه المنطقة من قبل، وكانت منازل قليلة متناثرة في المكان هنا وهنا، وكانت بالحارة بضعة حوانيت معدودة، وقد وقف أصحابها على أبوابها أو للعمل فيها، وأكثرهم على حال بيّنة من الفقر والرثاث، ثم إننا دلفنا إلى حارة أضيق، ضمن هذه الحارة، تُسمى حارة الريشة، وكانت هي المقصود والتي دلنا عليها أصحاب البستان، فسألنا عن البيطار نحمان بن عويديا، فدلّونا على دكانه، فلما وصلناه استقبلنا الرجل، وسألنا عن عِلة البغل الذي لليشكري، فقال اليشكري: إنّه يعاني كثرة حركة الرأس وقلة الأكل وسيلان الأنف وقد ظهر له بروز مستطيل خلف الأذن، وهو لا يقوى على الحركة والنشاط، وكنت خلال ذلك أنظر إلى البيطار وأتأمل أدواته، فوجدت أنه ليس بالنظيف، ولا لطيف الهيئة، كما جرت العادة في أطباء الناس، لكنه بدا لي قويّ الذراعين، عبل البدن، خفيف الحركة، نصوحًا، صدوقًا، وكانت في دكانه الوسيع ثلاث مطارق كبرى، قد تفوق سبعمائة من الدراهم وزنًا وفق تقديري، وهو ما يستخدم فيما يبدو في اعوجاج المسامير، والتطابيق، وسائر الآلات، وكانت هناك كذلك مطارق وسطى للدقوقات الأوائل، وبعض التقويم، وبها تعدل غالب الآلات، ومطارق صغرى لأجل التبشيم، وتقويم المباضع، وأقل ما تكون في تقديري من حيث الوزن مائة درهم، وكانت لديه تسعة مباضع، بعضها دقيق لطيف، وبعضها أملأ من ذلك، وكانت لديه كذلك قرم، وشنج، ومكاوٍ وكلبات، ومزاعط، وأميال، ومقراضان: واحد صغير، وآخر كبير، وكانت لديه كذلك أمواس، وإبر، وسلوكات مختلفة، فلما عاينت ذلك كله تعجّبت، ولم أكن قد دخلت دكان بيطار من قبل.

ثم إن الرجل عاين البغل وهو يربت عليه ويرغّبه في فتح البوز ليكشف على أسنانه وفكه، ونظر أنفه، ومواضع الشم، وفتش في جلده وبطنه، ودق على ركبه دقًّا لطيفًا، وأشياء عديدة مما يستوجبه الكشف والمعاينة وتشخيص الداء، ثم إنّه فكر ومحّص قبل أن يخبرنا أن البغل مُصاب بمرض يسمى الإهليلجية وعلاجه كسب البزر أو دقيق البزر قطونا بالصابون طلاء، فإن انفجرت دمّله عُولجت بالإزالة الجراحية، ونصح اليشكري أن يصبر على الدابة، فلا ينهكها بكثرة المشي والمسير، حتى تبرأ وتطيب.

* * * *

مضى وقت بعد ذلك حتى ودّعني اليشكري وسافر قاصدًا دمشق، وكنت خلال ذلك قد عقدت عزمي على ألا يحول الحول إلا وأكون قد عُدت إلى برّ مصر للبحث عن عزيز عيني ثاونا، وإدراكه قبل فوات الأوان بأن يباعد بيني وبينه مُفرق الأحبة والخلان.

وكان مما عجّل في رحيلي عن مدينة الأنبياء، تدهور حالي ونفاد مالي، حتى إني جُعت ذات ليلة فأكلت الطين، وما صِرت إلى ذلك حتى قلّبت قلبي أتذكر هل بها رجل أصيب عنده غداء أو عشاء، فما قدرت عليه، وكان عليّ جبة وقميصان، فنزعت القميص الأسفل فبِعته بدريهمات، وقصدت سوق المكارية بالمدينة فجاهدت حتى وجدت مَن يحملني إلى الرملة بدريهماتي القليلة التي دفعتها له، ومن الرملة بلغت مدينة تسمى عسقلان بها سوق، وجامع جميل، ورأيت بها طاقًا قديمًا قيل إنه كان مسجدًا، وهو طاق من الحجر الكبير، لو أرادوا هدمه للزمهم إنفاق مال كثير، وخرجت من هناك فوجدت في الطريق قرى كثيرة، ومُدنًا يطول وصفها، ثم بلغنا مكانًا يسمى طينة، وهو مرفأ عامر بالسفن، ويذهب منه إلى تنيس، فذهبت إلى رجل سفياني من الملاحين، وقد توسمت فيه الطيبة، فسألته أن يحملني معه إلى تنيس، وقد علمت أنه متوجه إليها، وذلك على أن أعمل في الوقايد دون أن أدفع له مما يُدفع لأمثاله مقابل الحمل، لكنّه لم يستعملني في الوقايد، وبقيت على السطح في حراسة فيل مجلوب من الهند هدية إلى أمير مصر من بعض التجار، فظللت، تصك ريح الشمال وجهي، وينثر الليل الصقيع على رأسي، ولم يكن معي غير لحاف سمل، ومضربة خلق، وبعض ما لا بد لمثلي منه، وبقيت على هذي الحال مدة حتى إني حننت وترحمت على أكل الطين الذي لا أجده وأنا في البحر، وكانت هناك جماعة من الحجيج الأقباط هبطوا السفينة عائدين إلى تنيس من حيث أتوا، بعد زيارتهم بيت المقدس، والمواضع التي لا بد من زيارتها، والتبرك فيها لكل مَن آمن بالمسيح، فلما لاحظوا عكوفي وامتناعي عن الأكل، قدّموا لي زادًا مما لديهم من الجبن المطبوخ بالعسل واللحم، وبعض الفاكهة الطازجة، فشكرتهم على ذلك وآمنت بالله ورحمته: ورُحت أتلو:

ﮋ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﮊ . صدق الله العظيم.

لاح لنا برّ تنيس، بعد صعود الشمس عن الماء بقليل، فما إن رأيت الأرض، والشجر، والنخيل، وقباب المساجد، وكئوسات الكنائس والبِيَع، البادية في عليائها عن بُعد، حتى أخذتني رجفة، ارتعشت لها أطرافي، وعصفت بأعطافي، وكأنّ عيني لا تصدق ما ترى، وكأن نفسي تشك أن رحيلي كان، وأن خروجي من بر مصر لم يكن، فلم أتمالك نفسي ورُحت أجهش ببكاء سمعه كل مَن كان حولي، وجعل الفيل يستدير إليَّ ويخزرني بعطف بدا لي معه وكأنه افتهم ما أنا عليه من انفلات الشعور وجيشان النفس، فلما استقرّت السفينة استقرارها الأخير، ونزلت منها، ووطئت قدمي تربة الأوطان، سجدت مُقبلًا لما أخذ روحي وردّها، ورُحت أحفن التراب بيديّ ونفسي تهتف: هذي هي الحقيقة، ذاك هو اليقين.

ثم إني صليت ركعتين لله شكرًا وحمدًا، وبقيت في تنيس ليلة بتّ فيها بواحد من مساجدها؛ وهو مسجد الخرساني بالقرب من الساحل، فلما انتهيت من صلاة العشاء، وقلت لنفسي أن أستريح قليلًا قبل شروعي في صلاة التراويح، وبينما أنا أنظر حولي وأتأمل المكان، وجدت رجلا جالسًا مستقبِلًا القبلة وبين يديه العصا التي يعتمد عليها والمصحف، وعلى وسطه خرقة، وشعره منشور على ظهره، وكان إلى جانبه شيخ يبكي ويستعطفه ويقول له: أمّك تبكي حزنًا وقهرًا. فردّ عليه الأول قائلًا: ما أدخل لك منزلًا وأنت تعمل في الصرف، إنما أنتظر طلوع النهار، ثم أدخل النيل وأتزر

بالماء وألقي هذه الخرقة. ولم يسكت إلا بعد أن عقد على أبيه ألا يعمل في الصرف أبدًا، فتعجبت لذلك، وأدركت أن هذا الرجل من الزاهدين، ثم علمت بعد ذلك، من خادم المسجد، أن هذا الزاهد ظل زمنًا مُقيمًا في وكر بأسفل المنارة، من غير أن يخالط أحدًا، إلا إذا أقيمت الصلاة خرج وصلى، فإذا سلم الإمام عاد إلى وكره، فإن عارضه أحد بحديثٍ كلّمه وهو قائم، بعد انصرافه من الصلاة، وكانت حاله أبدًا اتصالًا في انفصال، وقربًا في ابتعاد، وأُنسًا في نفار.

ثم علمت أن هذا الزاهد قدم من مراكش مع أهله قبل حين، فذهب حاجًّا إلى مكة، ثم عاد إلى مصر، واستقر بتنيس، وكان لا يحادث أحدًا إلا لضرورة، ثم أخذ في ترميم هذا الجامع، وكان خربًا مهجورًا، ونظّفه بنفسه حتى نقّى ما كان فيه من الوطواط بسقوفه، وساق الماء إلى صهاريجه، وبلّط صحفه، وسبك سطحه بالجبس، وأقام فيه.

وكان يؤثر في السر الفقراء والأرامل، ولا يسأل أحدًا شيئًا، ولا يقبل غالبًا، وكان يبذل جهده في كتم حاله، وعُرف عنه كثرة قراءته في المصحف، ومطالعة الكتب، ولم يره أحد يخطّ بيده شيئًا، ولم يعمل له سجادة قطّ، ولا أخذ على أحد عهدًا، ولا لبس طاقيّة، ولا قال أنا شيخ ولا أنا فقير.

ثم إنّي نمت على أمل أن يحييني الله في الصباح، فأتوكل عليه، وأشد رحالي إلى مصر العتيقة، لأرى حال الآباء في كنيسة قصر الشمع، وأكتحل بمرأى الأب يوساب وهو لا بد واقف على مصير عزيز عيني ثاونا ومكانه.

ركبت السفينة من تنيس، ودخلت فرع الروم، وهو من فروع النيل المطروقة بأسفل الأرض، حتى وصلت بلدًا تسمى الصالحية، وهي مدينة كثيرة النعم والخيرات، كانت بمرفئها وقت وصولي سفن كثيرة تُصنع، وهي من النوع الكبير المحتمل ربما ما يزيد على مائة حمل حمار، ومنها تنقل البضاعة إلى مصر العتيقة حتى أبواب دكاكين البقالين. وفي الصالحية التقيت رجلًا قبطيًّا، كنت قد تعرفت عليه عند ركوبي السفينة إلى تنّيس، فلما رُحنا نتذكر بعضنا البعض، ونتداخل في الكلام، علمت أنه منحدر إلى الفسطاط للبحث عن ورّاق يعمل له كتابًا وضعه بالقبطية عن طبقات الأطباء، وهو راغب في نقل الكتاب إلى القلم العربي، بسبب تفشّيه أكثر بالبلاد في هذه الأيام، فلما علم أنني قبطي من الجدود، والبشمورية هي لساني الأول تعجب لذلك تعجبًا شديدًا، وكان يظن أنني عربي المولد والأصل بسبب جريان لساني بالعروبة، ثم إنه طلب مني أن أنقل له كتابه هذا إلى العربية، وأن أخطّه له، بعدما عرف أنني أُجيد نسخ الكتب أيضًا، وراح يحكي لي عن جانب منه، فقال إنه يحوي كلامًا عن كل الأطباء، ومنهم رجل حكيم اشتهر وذاع اسمه في الزمن القديم، ليس في الطب فقط، ولكن في الهندسة، وسائر العلوم، وإن هذا الرجل ورد مصر في الدهور المندثرة، فذهب إلى أهل مدينة الشمس، المعروفة في زماننا بعين شمس، فقبلوه على كُره وامتحنوه زمانًا فلم يجدوا عليه نقصًا ولا تقصيرًا، فما كان منهم إلا أن وجّهوا فيثاغورث - وهذا كان اسمه - إلى كهنة منف، كي يبالغوا في امتحانه، فقبلوه على كراهة، واستقصوا امتحانه، فلم يجدوا عليه معيبًا، ولا أصابوا له عثرة، فبعثوا به إلى أهل ديوسوس ليمتحنوه، فلم يجدوا عليه طريقًا ولا إلى إدحاضه سبيلًا، ففرضوا عليه فرائض صعبة كيما يمتنع من قبولها فيدحضوه ويحرموه طلبته مخالفة لفرائض اليونانيين،

فقبل ذلك وقام به، فاشتد إعجابهم به، وفشا بمصر ورعه حتى بلغ ذكره إلى أماسيس ملك مصر، فأعطاه سلطانًا على ضحايا الربّ، وعلى سائر قرابينهم، ولم يعطِ ذلك لغريب قط. لكني اعتذرت للرجل، فليس لديَّ وقت أصرفه في مثل هذا الأمر، إذ إن دخولي بر مصر مرة أخرى أجّج نار شوقي إلى عزيز عيني ثاونا، وصارت هواجسي تتزايد، كلما تذكرت كلام التاجر الفرّاس الذي التقيته بالقدس، عندما قال لي: إني ذاهب للبحث عن إنسان عزيز على نفسي، ولسوف أبذل جهدًا ووقتًا حتى أجده، وهو جد مريض، وقد أدركه. أو لا أدركه، ففارقني وهو متأسف على ذلك، لأنه عزّ مَن تمكن من اللسان القبطي واللسان العربي مجتمعين، في ذلك الزمان، وهناك الكثيرون قد أدركوا العربية لسانًا دون الكتابة، ومخطوطه ليس بالهين أو القليل، لكنه من المخطوطات الخطيرة التي لا تحتمل الخطأ أو انعدام الخبرة والمهارة، فاعتذرت له مرة أخرى، وأشرت عليه أن يقصد أهل البِيَع والكنائس، لأنهم حريصون على لغة دينهم حرصهم على تعلم العربية على أكمل وجه حتى تُبقي الكنيسة على شعبها، فلما تركته ومضيت ظللت أتأمل ذلك وقد لاحظت أن كثيرين ممن قابلتهم هنا في الصالحية أو تنيس باتوا يتكلمون العربية وإن خالط كلامهم كلمات قبطية، ثم إني أديت فروضي وصلواتي وصلّيت صلاة استخارة، إذ كنت مترددًا في ذهابي إلى كنيسة قصر الشمع، على رغم شوقي للآباء هناك، وذلك خوفًا من غضبهم إذا ما وقفوا على حقيقة إسلامي، لكني كنت في أمسّ الحاجة لمعرفة أخبار ثاونا ومكانه أيضًا، فلما نِمت في فيء نبقة حنون بالظل ورطوبة الهواء، جاءني ثاونا، على الهيئة التي كنت قد رأيته عليها وقت هروبي من الأراضي الموحلة، إذ كان واقفًا على علّية وبيده نقف، وهو يقول لي: اتبعني إلى برية هبيب.

فلما أفقت من نومي، ورُحت أتذكّر ذلك، وقد صفا ذهني وتوقّد، قلت لنفسي، والله إن خاب رجائي في الوقوف على أمره بكنيسة قصر الشمع، لسوف أمشي إليه ساعيًا في برية هبيب.

(7)

ثم إن أهل الخير نصحوني أن أصل إلى بركة الحاج لأركب النيل منها إلى الفسطاط، فكنت أسير على قدميَّ حينًا، ويحملني معه مَن يشفق عليَّ من الناس حينًا آخر، حتى وصلت بركة الحاج، وكانت عامرة بالماء وكذا الترعة المفضية إليها من البحر الأعظم، وهناك كان السفاينية، والمراكبية مجتمعين، فركبت مع نوتي صيّاد طلبت منه حملي لقاء عملي معه، فوافق على أن أساعده في طرح شباكه ولمّها طوال مسيرنا، كلما لزمته في ذلك، فلما وصلت الفسطاط ومنها إلى مصر العتيقة، سارعت الخُطى إلى كنيسة قصر الشمع، حتى وصلت بابها، وإذا أنا أهم بالدق والاستئذان بالدخول، خرج شاب يافع من الباب وقد أدركت من ملابسه أنه شمّاس، فاقتربت منه وسألته بكل أدب عن عزيزي ثاونا، دون أن أطلعه على حقيقتي، فرد وهو يتفحصني بارتياب، قائلًا:

- لا يوجد أحد من أعضاء الهيئة الإكليروسية هنا بهذا الاسم ثاونا!.

ثم إنه صمت قليلًا، والفضول يرسم نظراته، بينما أخذ يزنني ويخمن بشأني، قبل أن يضيف:

- ربما قصدت الراهب ثاونا المسكين، إنه الآن في برية هبيب بدير الأنبا مقار. لا أظنك تقصد هذا.

طار قلبي من الفرح، فودّعته على عَجَل، وأنا أشكره كثيرًا، بينما هو واقف يشيعني بنظرات كلها دهشة واستغراب.

كنت أسير حينًا، وأستريح حينًا، وأنام حينًا آخر، وأنا أمرّ ببلدات وقرى وأستفيء بأشجار ونخيل، وأتلحف بسحابات السماء، حتى بلغت مشارف برية هبيب، ولم يعد على بدني غير مئزر وقميص، ولا ملكت يدي غير نقف أتعكز عليه، وكنت كلما طالعت صورتي وهيأتي في جدول أو نبع، أدرك كم بدّلني الزمان، فها هو المشيب يلوح بمفرقي، وها هي التجاعيد تتكرّس بوجهي، وهكذا أيقنت أنني تعدّلت من طور إلى طور، ودخلت من ديوان إلى ديوان، وأدركتني الرجولة والكهولة، وفارقني الشباب والفتوة.

كانت شمس لاهبة لا تعرف الرحمة، وكأنها طاقات من سعير فتحت في السماء، تصحبني طول الطريق، وبقيت سائرًا أستدل من الرعاة على موضع الدير، وكانوا يعينوني على ما أنا فيه بشربة ماء أو جرعة حليب وبعض تمر، حتى بلغت أول الطريق الموصلة إلى ذلك الدير، ثم إنني جلست لأستريح قليلًا وتيممت متهيئًا لصلاة المغرب، فمسحت يدي بالرمال الطاهرة وكأنني أغسلها، ثم مسحت وجهي، وساعديَّ، وقدميَّ، وفعلت فعل الوضوء بغير ماء، حتى أتطهر وأستعدّ للصلاة، وكانت الشمس تستأذن الرحيل، فلما انتهيت من صلاتي، جلست أتأمل صمت الصحراء العميم، والشمس تغيب شيئًا فشيئًا، وتتوارى خلف تِلال الرمال البديعة، فبدا المشهد في عيني جليلًا آسِرًا، وفكرت كم أن الإنسان ضعيف، وضيع، ظالم وغشوم، مفتون بجبروته وقوته وهو لا يساوي ذرة رمل من هذي الرمال، أمام قوة الله وعظمته.

ثم إني قمت وسِرت - كما وصف لي الرعاة - في وادٍ عريض ممتد من الرمال، وكان ما تبقّى من شمس الأصيل قد أتاح لي لمحة خاطفة إلى الدير، على البُعد، فرقص قلبي فرحًا، وقد أدركت أنني على وشك بلوغ غايتي، لكن سرعان ما استحكم الظلام، وسلسل المكان بديجوره، دون أن تطلّ نجمة واحدة من السماء، أو يتعطّف القمر فيستبين، فانقبض قلبي، وداخلني إحساس بالضياع، وأكلتني الوحشة، لكنني بقيت سائرًا، متوكلًا على الله، أصطدم حينًا بالصبارات الموحشة النابتة هنا وهناك، وأتعثر حينًا في الرمال الناعمة التي صعب الخطو فوقها، وأنا أدعو الله أن يخرجني مما أنا فيه، وأصل غايتي، لأتمكن من إدراك عزيز عيني ثاونا، قبل أن أهلك في هذا المكان.

لا أدري كم من الوقت لبثت على هذي الحال، إذ لاح لي بعد حين ضوء استمر منيرًا في ثبات، فتهيأ لي أنه نجم بعيد، لكني أدركت كلما شددت الخُطى باتجاهه، أنّه كشاف يُشعل فوق حوائط الدير لهدي العابرين أو الضالين في هذه الصحراء المترامية الموحشة. وصلت في النهاية إلى بوابة الدير، التي لم أكن لأدركها أبدًا لولا هذا الضوء الهادي، وما إن صِرت قبالتها حتى رُحت أدقها دقًّا عجولًا متلهفًا، فجاءني صوت من ورائها يستفسر عمّن أكون، فقلت له:

- إني قريب للراهب ثاونا وجئته لأمر من الأمور الجليلة.

فلما فتح لي الباب بعد حين، اقتادني خلال ممر ضيق داخل الدير، وكان الرجل القائد راهبًا يحمل شمعدانًا بشمعة واحدة، أتاح لي ضوؤها أن أدور بعيني في المكان، وأدرك أنه أشبه بحِصن من الحصون.

أُدخِلت إلى مضيفة واسعة، فُرشت بوبر الجِمال، ولها شبابيك من الخشب القباطي المصلب الفتحات، والمعمول على هيئة مشربيات، وكان الطلوع إليها بسلم خشبي، يوضع ويرفع، وكانت تحيط هذه المضيفة بعض القلالي المظلمة. قدّم لي الراهب ماء وتمرًا، وقال لي:

- نم الآن، والصباح رباح.

لا أدري كيف نمت، إذ كانت الآلام تهيمن على جسدي كلّه، فلم أفق إلا عند الفجر على صوت جرس الكنيسة، فنهضت مسرعًا دون أن أدري، وقد ظننت لوهلات أنني ما زلت قيِّما بكنيسة قصر الشمع في مصر العتيقة، وأنني قد تأخرت على الانصراف إلى أعمالي بها.

توجّهت إلى المشربية، ورُحت أنظر من خلالها، فبدا لي الدير تحتي، والصحراء تلفه من كل ناحية، وكأنه زرع زرعًا فيها، وقد أيقنت أنه حصن في الحقيقة بحوائطه الصماء وقد برزت مرتفعة وسط الرمال، ومدخله، وقد جاء على شكل معين رباعي الأضلاع، وحنياته المرتفعة، وبابه الضخم المصفّح بالحديد، وقد تكومت بالقرب منه أعداد كبيرة من الأحجار، يبدو أنها تُستخدم لدرء الخطر في حالة العدوان عليه، وكان للباب من الأمام حجران مثل أحجار الرحى، قُدّا من صخر الصوان العنيد، يمكن دحرجتهما، وهناك بكرة تليه، يمكن الصعود بها إلى قمّة الحائط، وكان هناك برج الدير الضخم، وكنت أعلم أنه مثله إنما يُستخدم لحفظ الكتب والقراطيس الإيمانية المقدسة، وخزن

الملابس، والأواني الثمينة، وتشوين الطعوم كالقمح، والزيت، والزيتون، والتمر، بالإضافة إلى مواضع لاختفاء الرهبان وقت الخطر. وكان للدير فناء كبير واسع، وآخر صغير، وقلالي الرهبان تقع حول هذه الأفنية، وكذا موضع الطاحون والفرن.

وقفت متأملًا كل هذي الاستدارات، وتذكّرت كم هي قريبة الشبه بعمارات بغداد، والقدس الإسلامية، والمسيحية، فكّرت في سبب تكريس الاستدارة في كل فن متجسد تراه العين، قلت إنها الراحة والطمأنينة التي فجّرها الخط المنحني المستدير، وكان كروان قد عبر مترنمًا، ولكلك بصوته الربّاني الساحر، فانشرح صدري، ووجدتني أقول لنفسي، وأنا أشنف أذنيَّ بصوته العذب: أليست تلك العمارات المستديرة محاولة متواضعة لمُحاكاة ما خلقه الله؟! إن الشمس مستديرة، والقمر مستدير، وأوراق الشجر والنباتات مستديرة أو هي نحو الاستدارة، إن الاستدارة هي حالة من السرمدية الدالة على أن الله هو الأول، وهو الآخر، وهو المبتدأ وهو المنتهى، والتدوير في كل فن إنما هو فطرة إيمانية، فطر الله الناس عليها دون أن يشعروا، وقد رأت عيونهم، وأدركت حواسهم تجليات خلقه في كل ما هو مُنحنٍ مستدير أو نحو المستدير، حتى في الخلقة البشرية، والخلقة الحيوانية، وقطرات المياه.

ثم خرجت جماعة من الرهبان من قلاليها وتحركت إلى موضع بالفناء ودخلته، وسرعان ما جاءني الراهب الذي استقبلني في المساء الفائت ليوقظني، فلما وجد أنني أفقت، ألقى إليّ بتحية الصباح، ودعاني لتناول وجبة فطور، فتبعته إلى حيث الموضع الذي دخله الرهبان، وهو المطعمة، وكانت غرفة طويلة ضيّقة، لها سقف مُقبّب، به دكة حجرية منخفضة أو ما يشبه الغور الضحل بوسطها، وكان الرهبان جالسين على أطراف ذلك، فلما دخلت عليهم وحييتهم وجلست، بُدِئ الطعام، وكان أرغفة من خبز الطحين الخشن وزيتونًا، وزيتًا، ثم إن أحد الرهبان أخذ في تلاوة ما تيسر من الكتاب المقدس، فأطرقت تأدبًا، وأنا آكل مثلهم حتى انتهى.

خرجت بعد ذلك بصحبة الراهب المضيف لنتمشى قليلًا ونتحادث، وبينما نحن نسير أخبرني أنه أذن لي بالدخول على ثاونا، بعد أن أعلموه باسمي وأيقنوا معرفته لي، ورغبته في ملاقتي، لكنّه ليس على ما يُرام من الصحة، وأنه تسلسل في المرض منذ زمن بسبب دخوله الشيخوخة واعتلال قلبه؛ لذا يُفضّل أن أوجز مقالتي معه، ولا أتزيّد في الكلام، كما نصحني بألا أرتاع أو أضطرب، إن هو لم يجاوبني بالحديث، أو تخالط كلامه معي، فلما سمعت ذلك أوشكت على البكاء، وطمأنت الرجل بأنني سأكون عند حُسن ظنه ولسوف أمتثل لنصحه هذا.

أدخلوني قلاية بالحصن، ضمن مجموعة من القلايات، قيل لي إن قومًا من المريس - أي أهل قبلي - يقيمون فيها منذ زمن، فلما ولجت من بابها، وجدت شيخًا راقدًا على سرير من خشب الجميّز، ليس تحته إلا فرش من وبر، فما إن تبينته على ضوء المصباح الساقط من كوّة القلاية، حتى رُحت أرتعش، وسرعان ما خطوت نحوه، وسجوت إلى جانبه وأنا أهمس بصوت مضطرب ملهوف: ثاونا! عزيزي ثاونا! ولم أتمالك نفسي فانخرطت في بكاء شديد، بين ذهول الرهبان، ودهشتهم مما

يرونه، وبقيت حينًا أهمس باسمه، وأناديه دون أن يردّ، فاقتربت من أذنه، ورُحت أقول له بصوت راجٍ:

- ثاونا، إنني بدير! ألم تقل لي اتبعني إلى برية هبيب؟ لقد تبعتك يا عزيزي، وها أنا الآن أقف بين يديك.

ثم إني أخذت أنتحب بمرارة، وقد عزَّ عليّ أن أرى ثاونا وهو على هذي الحال من عدم التيقّن وغياب العقل، وهو الرجل الحكيم، النجيب، الفطن، الذي عرفته في زمن من أعز أزمنتي على نفسي، فلما تزايد نحيبي وجدته يحرّك رأسه ناحيتي بصعوبة بالغة، ويقول:

- أخي العزيز بدير.. أنت هنا حيّ تُرزق؟! أحقًّا ذلك؟ أم أنني أهرف وأهذي؟!

مددت يدي ووضعتها على وجهه ليتيقن من حقيقتي، وسرعان ما انهمرت دموعه هي الأخرى، وأضاف بوهن:

- «حمدًا للربّ أنه قدر لي لُقياك مرّة أخرى! هذه معجزة ربانية وبركة من بركات الشهيد «أبو مقار»!

رفع يديه بصعوبة وأخذ يصلّب، ثم راح يسألني عن نفسي وأحوالي وما جرى لي بعد أن فقدني في برية هبيب، فرحت أقصّ عليه ما كان من أمري، وكان الرهبان قد تركونا وانصرفوا، بعد أن نبّهوا علينا ألا يكثر الكلام؛ حرصًا على فؤاده، وحتى لا تأتيه نوبة من نوبات عِلّته التي تفاجئه بين الحين والحين، ثم إنه راح ينظرني مليًّا، ويتأمّل حالي، وشعرت أنه تعجّب من لبسي ذلك المئزر البالي والقميص، وما عليه هيئتي من تشوُّش، وعدم هندام، ثم إنه تأمل عنقي طويلًا، وقال فجأة:

- أين صليبك يا بدير؟ لماذا لا أرى صليبك على صدرك؟!

قلت بسرعة وبصوت هادئ واثق:

- ولهذا جئتك يا أخي العزيز أيضًا، إذ أردت أن أدعوك إلى ديني، فأنت من أحب الناس إلى قلبي، والإسلام هو دين رحمة، ونور، ومحبة وبر، والناس فيه سواسية كأسنان المشط، والله ما وجدت فيه إلا كل عظيم، ونبيل، وخير، وكل هذه المحاسن فيك يا عزيزي ثاونا، ووالله إنك لأقرب الناس إلى مهجتي وفؤادي، ليتك تأتي إلى ما أنا فيه، وتؤمن بما آمنت به.

على رغم تعبه ومرضه، ظلّ ثاونا يستمع إليَّ بآذان منتبهة صاغية، وبدا لي وكأنه يفكر في كل كلمة أقولها، ولم يقاطعني مرة واحدة، ولم يُبدِ شيئًا من الغضب والانفعال، وعندما انتهيت، صمتَ وقتًا قبل أن يقول:

نحن لا نختار يا بدير، لكن الربّ هو الذي يختار لنا، ونحن عبيد مشيئته. إنّي فرح بك، لأنك تسعى - لدفع الناس إلى ما تراه صحيحًا، خيرًا، لكني حزين لأنك تركت دين أهلك وآبائك، وخرجت من جنة الكنيسة، ودرب المسيح.

كانت عيناه قد بدأت بالدمع، وبان لي جدّ بائس وحزين، فرحت أمسك بيده وقد أخذت في الارتعاش، ورُحت أربت عليها بينما كان يواصل كلماته بصعوبة:

إني حزين ومغموم يا بدير، لكن لك ما تراه، ما دُمت أنك وجدت في دينك الجديد ما يضعك على - الطريق الحق والعدل، أما أنا يا عزيزي، فلا أظن أني تارك ديني، ولا أظن أنني مستطيع اعتناق دين سواه، فلقد عشت عمري كلّه، تأخذني الهواجس والأفكار، وتتنازعني الفلسفات حتى صِرت مسيحيًّا تاوضوسيًّا، ولسوف أموت وأنا على ما أنا عليه، وليرحمنا الرب جميعًا يا ولدي الطيب، ويغفر لي ولك، وقد قدّر هو وشاء.

تأثرت غاية التأثر لكلامه، وزال همّ قد كتمه في نفسي طوال طريقي إليه، إذ كنت أخشى هذه اللحظات، لحظات مواجهتي له بديني الجديد، وقد كنت أدرك صعوبة استجابته لمطلبي كذلك، فثاونا ليس بالرجل الهين الذي يسهل التأثير عليه، وهو لا يعتنق عقيدة، إلا بعد أن يتفحصها ويُمحصها ويقلب فيها بعقله على كل وجه من وجوهها، وهو لا يشك إلا ليوقن، ولم يكن ممن يأخذون الأمور على عِلاتها أبدًا.

لم أكن أريد أن أُكثر عليه بمزيد من الكلام، لكني شعرت أنه راغب في الحديث إليّ، والبوح بما يداخله عندما قال:

أوَتعلم يا بدير، بعد أن عِشت كل هذه الحياة، وبلغت ما أنا عليه من العمر، لم أعد أهتز كثيرًا لما - يحدث حولي من أمور، وبِت لا أفكر في الطرائق، قدر تفكيري في الغايات، لقد أدركت منذ هروبي من الأراضي الموحلة، أن لا فائدة في الدنيا، طالما غاب العدل بين الناس، وما دامت الرحمة لا تشمل الضعيف من القوي، وكنت أتساءل، بعد كل تلك الحرب الغشومة التي رأيتها ببؤبؤ العين: أليس كل هؤلاء الناس من ضحاياها، سواء أكانوا - مسيحيين أم مسلمين – مستحقين لدخول الجنة؟ ألا تظن يا بدير أن عدالة السماء سوف تشملهم جميعًا، وهم الذين لم يجدوا عدلًا أبدًا في هذه الدنيا، وقد جاعوا وتعرّوا، وباعوا عيالهم وأهلهم؟! ألا تظن يا بدير أن الله سوف يشملهم بعطفه ولُطفه بصرف النظر عن كونهم مسلمين أم أقباطًا؟

ثم إليك ما انتهينا إليه أنت وأنا: لقد تركتُ أنا الدنيا وفارقتها، لأكون هنا متفرغًا لخدمة المسيح بعيدًا عن الناس، وها أنت تعود إليّ بعد إسلامك، وليس عليك إلا قميص، ومئزر، ونقف تستند إليه. قل لي بالله عليك ما الفرق بيننا! أليس عزوفك هو عزوفي؟ ورفضك البقاء على ما هي عليه أحوال البلاد والعباد هو ما دفعك وما دفعني أيضًا لأن نهجر كل هذا ونبتعد عنه، وقد شعرنا أنه لا فائدة يا عزيزي في هذا العالم، وأنه لم يتبقَّ لنا شيء إلا محبة الله؟!

ثم إنه أخذ يردد بصوت خاشع عميق، وقد صحا ذهنه، وقويت عزيمته، بعضًا من آيات دستور الإيمان، ويقول:

«نور من نور إله حق، من إله حق، مولود غير مخلوق، خالق السماوات والأرض، ما يرى وما لا يرى، الله ضابط الكل، الذي به كان كل شيء».

ثم راح يُردد طويلًا:

- وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي.

أقمت في الدير أيامًا مُلازمًا لثاونا، قائمًا على خدمته، وقد عزّ عليَّ أن أغادر الدير وهو على هذي الحال من الضعف، وشدة المرض، وكان ثاونا قد أطلَع الرهبان على حقيقة أمري وإسلامي، فعاملوني جميعًا أطيب معاملة، وأتوا لي خصيصًا بزربية طاهرة من وبر الجَمل، حتى تكون لصلاتي، وكان جُلهم من القانتين المؤمنين بالسيد المسيح، والمخلصين في إيمانهم، المنصرفين إلى عالم الزهد، بالصوم والصلاة، وكثرة القراءات والتلاوات الإيمانية، كما شهدت، ثم إن بعضهم أخبرني لما سألت، بأن ثاونا استطاع الهرب وقت فتنة البشمور، وحرص على الاختباء في موضع من المواضع حتى هدأت الأمور، وبعد ذلك كره العودة إلى بيعة قصر الشمع، وآثر حياة العزلة والزهد، فارتحل إلى هذا الدير الذي رُسّم فيه راهبًا، فبقي فيه سنوات طويلة، ولم يخرج منه إلى الريف أو الإسكندرية أو مصر، وكان كثير المكوث عند المغارة التي بالدير، والتي فيها آثار الآباء البطاركة، وهم مرقس الإنجيلي الأول الذي رأسه عند أولاد فهد بمدينة الإسكندرية، وجسده في البندقية، وأنيانوس المدفون في بيعة جرجس عند مسلّة فرعون بالإسكندرية، وأنه ما خرج إلا إلى القلالي القريبة والتي في البهلس، أي الوادي، فكان يبخّر على الآثار المقدسة في كل صلاة، ويوقد عليهم قنديلًا في كل يوم وليلة، وكان يطيل الوقوف في رمارم الرهبان؛ أي موضع وقوفهم، ويبقى على هذه الحال من التنسك زمنًا.

وكان من أعجب ما شاهدت بذلك الدير منشوبينة؛ أي سكن تعرف بضورتاوس لا يقدر واحد من الرهبان بها أن يقول الليلويا إلا من حفظ المزامير كلها ظاهرًا، من غير كتاب، وكان هذا السبب في أن يعرف الرهبان المزامير ظاهرًا، وقد رأيت كذلك المغطس الذي تظهر فيه الآية العجيبة في ليلة كل سنة، وهو أن ينظف من الرمل الذي يجتمع فيه وبعد ذلك يمتلئ ماء، ولا يعرف من أين أتى. وكان - فيما تقدّم - كل من به خطيّة ويغطس فيه يظهر على جسده لبس مثل لبس السمك، وأيضًا لو اجتمع فيه كل الخلق لا يلتصق جسم الواحد بالآخر، وحواليه قلالي الرهبان وليس فيها شجر ونخيل، ولا ينبت فيه زرع.

وكان في يوم من الأيام أن أُخبر الرهبان بأن النيل لم يزد زيادة كافية، وذلك بعد الخامس والعشرين من أبيب، فعمل الرهبان، وكما جرت العادة، لقان ماء وصلّوا عليها كما يُعمل في عيد بولس، وعيد بطرس على أن يحمل إلى البحر، ويسكب فيه فيزيد ماؤه، وكان ذلك من الرسم المعمول به منذ القديم وحتى الآن.

ثم إن المرض زاد على ثاونا وفَقِد الأمل في برئه، بعد أن خاب معه كل علاج، وكان شيوخ الرهبان قد جربوا معه العديد من العقارات، والأعشاب، والأشربة بعد أن ظلوا يختبرون حركة قلبه، ومعرفة نَفَس القلب، الذي منه تنتشر الأوعية في جميع الجسم، بالضغط عليها ووضع أصابعهم على رأسه، وفخذه، وأعلى يديه، وعلى شراسيفه، وذراعيه، وفخذيه، لأن القلب تجري أوعيته في جميع هذه الأعضاء، وهو مركز أوعية الجسم، وكانوا يختبرون نفَسَه الحامض، الذي يسري بجسده، حتى يعرفوا مدى فساد دمه، خصوصًا عندما كان يشرب الماء؛ لأن الوعاء المسمّى باللغة القديمة «آخذ» إذا سُدّ بالبطن ذهب الماء إلى القلب العيون، وكانوا يختبرون مدى صُمّ أعضائه، وإذا ما طرأ السكون عليها، فهو عارض عن اختلاط القلب بالأعضاء وتكدّره، وأشياء أخرى عديدة من الوسائل والعلوم القديمة المعمول بها دومًا في الديارات، والتي يتناقلها الرهبان جيلًا بعد جيل، وذلك دون انقطاع القراءات الجليلة، والتعاويذ السحرية القديمة، ومراقبة أوعية الآذان الأربع، التي يسري نَفس الحياة في اثنين منها بالأذن اليمنى، ونفَس الموت في آخرين باليسرى.

وظلّوا على هذي الحال زمنًا، وأنا أبيت عند قدميه، ساهرًا عليه، وعلى الرغم من سوء حالته فقد كان يطلب مني دومًا أن أُحدثه عن ترحالي، وما صادفته من حادثات ومِحن، فبقيت أقصّ عليه كل ما جرى لي، وكيف حاولت أن أعمل ذات يوم على إبراء الأب توما، فأشرت عليهم بعلاج حروقه بتلك التعويذة القديمة التي سمعت ثاونا يتلوها يومًا، وقت اندلاع النار بسبب ريح الحسومات في بعض أعشاب من الناس بالأشربة، والأدوية، وهذي التعويذة القديمة، وكان ثاونا يطلب مني أن أكشف له عمّا أنا فيه من إيمان وزُهد بعد دخولي في دين الإسلام، وفي إحدى المرات سألني - على الرغم من تزايد المرض عليه - وقد بدا أنّ أمري يحيّره، فقال وهو يتنفس بصعوبة:

قل لي يا بدير. هل ازددت يقينًا بالله بعد دخولك الإسلام؟ وهل شعرت أنك تطهّرت من كل خطيئة، - وداخلت روحك منتهى السكينة ولزمك الاطمئنان؟

لا أدري، ما الذي كان يتوجّب عليَّ الردّ به على سؤاله هذا، فقد تحيرت، وكنت أريد التعبير صدقًا بأقوى الكلمات عما بداخلي. فكرت ثم قلت:

الحق أقول لك يا ثاونا.. كان كل يوم يمر عليّ قبل إسلامي، أُصبِح فيه مهمومًا، مُتبلبل الفكر - والخاطر، تُعذّبني روحي بذكريات فتوتي، وشبابي الأول. كانت صورة آمونة لا تغيب عن مخيّلتي أبدًا، وعندما تمتثل بعيني، أضيع بين عذابي بحبها، وحزني لموتها، وكنت أتعذّب أكثر كلما تذكرت سويلا وما كان من أمري معها، فأكره نفسي وضعفي ونزقي، وغياب روحي عن كبح شهوات الجسد. كنت قد اعترفت قبل إسلامي في الكنيسة مرارًا، لكن الاعتراف لم يباعد بيني وبين الألم، ولم يُنسني شعوري بالإثم والخطيئة، ولكنّي عندما سلكت سلوك العارفين، وحزمت أمري أن أسلك مع السالكين، ووصلت إلى: لا هو إلا هو، ونسيت «كان» وثبتُّ في «يكون»، غابت عذاباتي، وبعدت مسافاتي، فكلّ شيء هالِك إلا وجه الله الكريم، وها أنا قد أتاني النور الكاشف فسكنت نفسي، وزال عني همّي وبؤسي.

ظل ثاونا يستمع إلى كلّ ما أقول، وأظن أنه جاهد طويلًا، قبل أن يقول لي آخر ما قاله لي في هذي الدنيا:

- عندما تودّعني وتخرج من هنا، لا تنسَ أن تقول كل ذلك للناس، فإنما هم في حاجة إلى مثله، حتى تطمئن نفوسهم وتهدأ أرواحهم، والزمان يغشى ذاكرتهم دومًا، ويعمل عمله فيهم مباعدًا فيما بينهم وبين فطرة الرب الإيمانية، قل لهم ذلك حتى لو ضربوك أو آذوك، واصبر عليهم حتى يمسهم شيء من صدق إيمانك ويقينك.

مرّت أيام قليلة على ذلك، ثم أخذ عزيزي يدخل البرزخ الموصل بين الحياة والموت، فغاب عن وعيه تمامًا، وصعب علينا أن نسقيه حتى شربة الماء، ثم شاء الله أن تصعد روحه ذات يوم، عند أفول الشمس وغروبها عن الكون، وكنت ساعتها قد تركته قليلًا لأتوضأ وأتهيأ للصلاة، وإذا بنقاوس الدير يدقّ دقّات حزينة متقطعة، فخرج الرهبان جميعًا من القلايات ليواتوه، ويودّعوه الوداع الأخير بالنظر، والصلاة على روحه الطاهرة.

(8)

ظل جسد ثاونا في موضعه طوال الليل مُحاطًا بالشموع، وقد وُضِع تحت رأسه رغيف خبز، وحفنة ملح، وفقًا لعادتنا منذ أقدم الدهور، ومكث الرهبان حوله يقدّسون، ويقرءون القراءات الإيمانية الجليلة، وكنت خلال ذلك أقف بعيدًا، أُتمتِم بما تيسر من ذِكر العزيز الحكيم، وأترحّم على روحه داعيًا له بالرحمة والنور، متمنيًا على الله أن يحشره في زمرة الأبرار الصالحين.

ثم إنّي بقيت في الدير أيامًا بعد وداع ثاونا إلى مثواه الأخير، وكان الرهبان قد أشاروا عليّ بالبقاء وقتًا حتى يجهزوني - قدر استطاعتهم - بما يلزم المرتحل، فوفروا لي برذونًا لأركبه، وكنت قد استأذنتهم أن آخذ شيئًا مما لثاونا على سبيل التذكرة، فسمحوا لي أن أحفظ معي إنجيلًا قديمًا كان له، خُط على رقّ، كثيرًا ما كان عزيز عيني يقرأ لي من آياته ويبّصرني بمعناها الجليل.

فلما خرجت من الدير وأصبحت وحيدًا في برية هبيب، وربما كان ذلك في يوم من أيام ربيع الثاني، غذّيت سَيري، حتى أشرفت على بعض مَواطن العمران، فدخلت قرية من القرى، ما إن أبصرني بعض من صبيانها، كانوا يلهون في طُرقاتها، حتى توقفوا عمّا هم فيه، ويبدو أن صورتي المشعثة، وهيئتي المتربة، ورثاثة حالي، قد راعتهم وأثارت دواخلهم، فراحوا يلتفون حولي متضاحكين، ساخرين، ثم أخذوا يرمونني بحصيات وأحجار، فحثثت الدابة على الإسراع لأبتعد عنهم، وأنا أدعو الله أن يرحمهم، ويغفر لهم، ورُحت أنشد وقد أُخِذت بوجد، وأصابني شوق، وتزلزلت أعطافي، وترعشت أطرافي:

حسبي الله توكلت عليه

من نواصي الخلق طرًّا بيديه

ليس للهارب في مهربه

أبدًا من راحة إلا إليه

رُبَّ رامٍ لي بأحجار الأذى

لم أجد بدًّا من العطف عليه

رواية (روايات) البشموري كما رواها:

حبيت زيات ساويروس بن المقفع

بانوب حبشي ألفريد بتلر

يسي عبد المسيح زبيدة عطا

صابر جبرة سيدة كاشف

منير شكري الشيخ يوسف الشربيني

باهور لبيب المقريزي

الحسن بن زولاق الحسيني صالح

مارتن برنال جون أنتيس

أحمد كمال عادل مُحيي الدين الألوسي

عبد اللطيف البغدادي جيمس بنتلي

القزويني أنطونيوس الأنطوني

داود الأنطاكي أسد رستم

نيكيتا إيليسيف ألفريد بتلر

الأنبا إيسذورس الإمام أبو حامد الغزالي

علاء الدولة السمناني الراهب صموئيل السرياني

فخر الدين الرازي القسّ يوحنا حنين

يعقوب ليستر آدم ميتز

صالح أحمد العلي ابن العبري

ابن سلمة النحوي السيد طه السيد أبو سديرة

الحسين بن أحمد بن علي الكاتب الشهرستاني

فريز صموئيل القلقشندي

محمد عبد الغني الأشقر عبد الرحمن عبد الله شيخ

محمد عبد الهادي أبو ريدة سعاد ماهر

رشيد الدين الهمذاني الطبري

عادل مُحيي الدين الألوسي التيفاشي

الجاحظ الأب يوسف قوشاوجي

يوسف الشربيني زيجريد هونكه

و.ج. دي بورج محمد الكشناوي العلاني

نبيل محمد عبد العزيز فاضل أحمد الطائي

علي السيد علي الحسن بن زولاق

ابن النديم أحمد كمال

أبو صالح الأرمني المقريزي

جمال الغيطاني ياقوت الحموي

إبراهيم مدكور الدميري

وآخرون السهروردي

سلوى بكر

وُلِدت في القاهرة، ١٩٤٩.
بكالوريوس في إدارة الأعمال، جامعة عين شمس، ١٩٧٢
بكالوريوس في المسرح، المعهد العالي للعلوم المسرحية، ١٩٧٦.

من إصداراتها:

في القصة القصيرة:

- زينات في جنازة الرئيس، ١٩٨٦.

- مقام عطية، ١٩٨٧.

- عن الروح التي سُرقت تدريجيًّا، ١٩٨٩.

- عجين الفلاحة، ١٩٩٢.

- أرانب، ١٩٩٤.

- إيقاعات متعاكسة، ١٩٩٦.

في الرواية:

- العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء، ١٩٩١.

- وصف البلبل، ١٩٩٣.

- ليل ونهار، ١٩٩٧.

ـ البشموري، ٢٠٠٠.

ولها أعمال مُترجَمة إلى اللغة الإنجليزية، والألمانية، والهولندية والإسبانية. وتحوَّلت روايتها «نون الشعنونة» و«ليل ونهار» إلى فيلمَيْن تلفزيونَيْن، وروايتها «العربة الذهبية» إلى فيلم سينمائي.

مطانيا: تحيّة كنسيّة.

آجب: ساعة باللغة القبطية.

الساعة التاسعة وفقًا لتقويم الشهداء القبطي، تقابل الساعة الرابعة بعد الظهر بالتقويم الميلادي، والدرج هو خمس دقائق تبعًا لعمل الساعة الشمسية.

كتاب الأجبية: كتاب الصلوات القبطية.

ن ي ف ي: «روح، نفس»؛ بالقبطية.

ب ن وم: «الروح القدس»؛ باليونانية.

أوكيريوس ميتا بنتون إيمون: «الرب مع جميعكم»؛ باليونانية.

أين أناتولاس فليباس: «وإلى الشرق انظروا»؛ باليونانية.

أناستاسيس: القيامة؛ باليونانية.

ذوكسا باتري كي ايوكي أجيو: المجد للأب والابن والروح القدس؛ باليونانية.

دُمِز: خراج بالقبطية.

أوصنا: اللفظ اليوناني للكلمة العبرية: هوشعنا، أي: خلّصنا.